الرحلة
عين الجغرافية المبصرة

دكتور
صلاح الدين الشامي

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشر **منشأة المعارف**

44 ش سعد زغلول – محطة الرمل – ت / ف 4833303 الاسكندرية

32 ش دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – ت 484366 الاسكندرية

اسم الكتاب . الرحله عبر الجغرافيه المصريه

اسم المؤلف : صلاح الدين على الشامى

رقم الايداع : 99/7953

الترقيم الدولى 0 977-03-0582

الطبعة : الثانيه 1999

التجهيزات الفنية سلطان كمبيوتر

الطبع . مطبعه رمضان و اولاده

الكتب الجغرافية

الرحلة
عين الجغرافية المبصرة
فى
الكشف الجغرافى والدراسة الميدانية

دكتور
صلاح الدين على الشامى
أستاذ الجغرافية المتفرغ بكلية آداب بنها

١٩٩٩

الناشر
منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الطبعة الثانية

معلوم أن طلب المعرفة الجغرافية كان مطلبًا ، جاوب ويجاوب حاجة حركة الحياة على صعيد الأرض . ومعلوم أن استيعاب المعرفة الجغرافية ، رشد ويرشد وجود حركة الحياة مرتين ؛ مرة وهى تتعايش مع خواص وطبيعة الأرض ، ومرة أخرى وهى تتعامل مع المصادر والموارد المتاحة فى ربوع الأرض .

ومن أجل هذا الهدف الإنسانى الضرورى ، تسعف وتيسر الرحلة أمر طلب المعرفة الجغرافية . ويعكف الإنسان على مباشرة التفكير الجغرافى . بمعنى أن نستشعر العلاقة المتوازنة بين الكشف الجغرافى وتوسيع دائرة المعرفة بالأرض ، ونبض حركة الحياة على صعيدها الفسيح فى جانب ، والتفكير الجغرافى والتمعن فى المنظور الجغرافى على الوجهين الطبيعى والبشرى فى جانب آخر . بل قل أن هذه العلاقة المتوازية بين الكشف الجغرافى والتفكير الجغرافى ، علاقة حتمية ، تستوجب أن يحفز التفكير الجغرافى الكشف الكغرافى ويشد أزره ، وأن يدعم وينشط الكشف الجغرافى التفكير الجغرافى ويشد أزره .

هكذا كانت الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، وهى تباشر الكشف الجغرافى ، أو وهى تباشر الدراسة الميدانية . ونحن على يقين من أن رحلة الدراسة الميدانية ، هى التى ولدت من رحم رحلة الكشف الجغرافى. وفى الوقت الذى يتحمل فيه المغامر مسئولية الكشف الجغرافى ومعاينة الصورة الجغرافية ، يتولى الجغرافى المتخصص مسئولية الدراسة الميدانية ، ومباشرة التمعن فى ما تعبر عنه الصورة الجغرافية المعنية .

هذا ويسعدنى أن أُعيد النظرِ فى كتابى عن الرحلة ، لكى أضيف شيئاً مفيداً . وأرجو أن أفلح فى حُسن حشد وتسجيل هذه الإضافة .

وعلى الله قصد السبيل ،

صلاح الدين الشامى

مايو ١٩٩٩ .

تصدير

الطبعة الأولى

الرحلة جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض . وقد لا تتجاوز الرحلة مسافة قصيرة فى بعض الأحيان ، وقد تمتد وتطول حتى تغطى أطول المسافات بين المكان والمكان الآخر . ومن وراء كل رحلة دافع أو دوافع لكى تمضى على الطريق . ومن بعد كل رحلة هدف أو غاية، تجاوب إرادة الحياة .

وصحيح أن كل رحلة قد حققت الهدف لحساب الإنسان ، ونبض الحياة المستمر على الأرض . وصحيح أيضًا أن الإنسان الذى كرّس اجتهاده لإنجاز الرحلة لم ولن يفرط أبداً فى جنى ثمرات الرحلة والانتفاع بها . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم ، التى بنيت عليها مسألة وحدة البشر على الأرض . بل لقد فجرت فى الإنسان استشعار المصالح المشتركة ، التى وثقت عُرى هذه الوحدة على الأرض . ومن غير الرحلة ينفرط عقد هذه الوحدة ، وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك .

وعلم الجغرافية له فى الرحلة شأن خاص ومآرب كثيرة . وما من شك فى أن الرحلة قد أيقظت وفجرت فى الإنسان – أى إنسان – الحس الجغرافى الفطرى ، وهى تصطحب معها الاجتهاد الجغرافى لكى يبصرها ، ويرشد خطاها على الطريق . وأعطت الرحلة الاجتهاد الجغرافى فى المقابل ، فرص المعاينة والرؤية والتعايش . ومن ثم تبنى علم الجغرافية الحديثة ، رحلة جغرافية خاصة ومتخصصة .

هذا ولقد وظف علم الجغرافية هذه الرحلة توظيفًا حصيفًا . وصحيح أن هذا التوظيف قد تطور لكى يجاوب إرادة البحث الجغرافى . ولكن المؤكد أن هذه الاستجابة قد أسعفت علم الجغرافية ، وأشبعت اهتماماته وشدت أزره ، وهو يبحث عن مرماه وتطلعاته .

ويضم هذا الكتاب محاولة جادة عن الرحلة ، وكيف أسعفت الاجتهاد الجغرافى ، وكيف وظفها لحسابه . وقد تصور هذه المحاولة علاقة الصحبة والالتزام ، بين الرحلة والعمل الجغرافى على المدى الطويل . وتمثل هذه المحاولة بعد ذلك كله نظرة على مسيرة الفكر الجغرافى خلال الرحلة والدور الوظيفى الذى نهضت به لحساب العمل الجغرافى .

وأدعو اللّه أن تكون هذه المحاولة موفقة ومفيدة . وعلى اللّه قصد السبيل .

القاهرة - يوليو ١٩٨٢ .

تمهيد

الرحلة وحاجة الحياة

• الرحلة والجغرافية ..

تمهيد
الرحلة وحاجة الحياة

تكون الرحلة فى المفهوم العام لحساب اى هدف أو أى غاية ، رحلة برية أوبحرية أوجوية . وفى إطار هذا التنوع فى الوسيلة ، تظل الرحلة إنجازاً أو فعلاً أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة ، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذى تبدأ منه ، والمكان الذى تنتهى إليه . وقد تكون الرحلة إنجازاً صعبًا وشاقًا على الطريق ، بين المكان والمكان الآخر ، ولكنها تجاوب – بكل تأكيد – حاجة الحياة .

ويتأتى هذا الإنجاز بالفعل على سبيل الاختيارمن أجل هدف معين ، فى الوقت المناسب ، وعلى الاتجاه الصحيح ،وبالوسيلة المتاحة . وهذا معناه أن الرحلة – كل رحلة – تحرك هادف واختيار مؤكد حتى ولو ضربت فى ظلمة المجهول ، وتخبطت على الطريق وصولاً إلى الهدف .

ويكون من شأن هذا الهدف الذى تتطلع إليه الرحلة أو بلوغ الغاية منها ، أن يجاوب إرادة الإنسان الفرد وحاجاته الملحة أو الإنسان المجتمع وتطلعاته الضرورية . بل قل هى إرادة حركة الحياة ونبضها الحيوى الدائم على صعيد الأرض . كما هى حيلته لكى ينتصر لحضوره وسيادته على الأرض .

وقد تكون الرحلة هواية ، تستهوى الإنسان ، أو رغبة ملحة ، تشبع حاجاته وترضيه . وقد تكون الرحلة احترافًا يخدم مصالح الإنسان ، أو التزاماً وواجباً يلبى حاجاته. وسواء كانت الرحلة هواية أو كانت احترافًا ، فإنها لا تتجرد من الهدف وهى تضرب فى الأرض . بل قل إنها على كل المستويات وبكل الوسائل لا تكاد تتجرد من المسئولية واستشعارها،ولاتكاد تخلو من بعض المخاطر والمخاطرة.

ولأن الرحلة مسئولية مباشرة ، يكون القيام بها والخروج إليها على سبيل الهواية أو الاحتراف ، خروجاً بكامل الإرادة والاختيار ، الذى

يبتغى الهدف وبلوغ الغاية . بل ويكون تنفيذ المهام المنوطة بالرحلة تطوعًا يقبل به المغامرون وعشاق الرحلة ، أو تكليفًا يقبل بل المكلفون ومحترفو الرحلة . ولكن فى كل الحالات وعلى كل المستويات ، تكون الرحلة استجابة لحوافز معنية ، أو امتثالاً لدوافع معينة .

هذا ومن شأن هذه الحوافز أو الدوافع أن تكون ذاتية حيناً ، أو أن تكون غير ذاتية حيناً آخر . ومن ثم تكفل إنجاز الرحلة هواية أو احترافاً. بل ومن شأنها أيضًا أن تحفز توجه الرحلة وتحقيق أهدافها تطوعًا أو تكليفاً ، لحساب الإنسان وحركة الحياة .

وهكذا قبل الإنسان - بكل الاهتمام - الدعوة الصريحة المعلنة أو غير المعلنة إلى الحركة والانتقال وإنجاز مهمة الرحلة . وربما أنجز الإنسان الرحلة وحيداً على الطريق . وربما أنجزها فى جماعة ، ألف بينهم الهدف ، الذى خرجت من أجله الرحلة. وفى أى من هذين الاحتمالين ، يحدو الإنسان الأمل ، ويتطلع - بكل الطموح - إلى إنجاز الرحلة إنجازاً ناجحاً وموفقاً ، يتحقق به الهدف .

ولقد قبل الإنسان فى بعض الأحيان تطوعاً أو تكليفاً بالمخاطرة ، وخرج فى الرحلة على أمل الذهاب والإياب . وربما قبل الإنسان فى بعض الأحيان الأخرى تطوعاً أوتكليفاً بالمخاطرة ،وخرج فى الرحلة من غيرتشبث بأمل العودة والإياب . ومع ذلك فإن إنجاز الرحلة التى تذهب وتعود أو الرحلة التى تذهب ولا تعود ، هو انتصار حقيقى لإرادة الحياة، والهدف الذى تطلعت إليه الرحلة .

وهكذا أخذ الإنسان على عاتقه مهمة اختراق حاجز المسافة ، بين المكان والمكان الآخر لإنجاز الرحلة .ولقد كلفه ذلك دائمًا ، احتمال مشقة السفر على الطريق ،ومواجهة الخطر فى البر والبحر والجو ،ومتاعب الاغتراب لبعض الوقت أو لكل الوقت ، وصولاً إلى الغاية المباشرة ، وغير المباشرة . ويهون ذلك كله فى سبيل الهدف الذى تصيب منه الرحلة منفعة حقيقية .

ومن أجل اختراق حاجز المسافة ، وإنجاز الرحلة ، والتحرك بين

المكان والمكان الآخر ، كان الاجتهاد الإنسانى المكلف أو المتطوع ، وهو بصير ومثابر حريصاً على حسن استنفار حسه الجغرافى الفطرى . ومن أجل بلوغ الرحلة أقصى غاية وجنى ثمراتها ، كان الاجتهاد الإنسانى المكلف أو المتطوع وهو صابر ومخاطر ، حريصاً على حسن استخدام حسه الجغرافى الفطرى .

وكان من الطبيعى أو قل من الضرورى أن يستخدم الإنسان هذا الحس الفطرى ، وأن يحسن توظيفه لكى يرشد خطواته ، ويؤمن مسيرة الرحلة على الطريق فى الاتجاه الصحيح . وهذا معناه أن الرحلة قد أيقظت فى الإنسان هذا الحس الفطرى ، ودربته على استشعار الغاية وحسن اختيار الطريق وحسن التوجه إلى الهدف . ومعناه أيضًا أن الرحلة قد فجرت فى الإنسان ، وهو على الطريق يواجه المشقة والخطر ويتخوف من أن يضل ، الإحساس بالاتجاه الصحيح .

وصحيح أنه ربما خان هذا الحس الفطرى المدرب الإنسان على الطريق فى بعض الأحيان ، وساق الرحلة من غير قصد إلى ضلال مبين وضياع حقيقى فى نهاية المطاف . ولكن الصحيح أيضاً أنه قد بصر الرحلة كثيراً ، وساقها بكل التوفيق والرشاد على الطريق فى الاتجاه الصحيح . وتأسيسًا على استنفار هذا الحس الفطرى ، جدّ الإنسان واجتهد لكى يبتدع الوسيلة أوالوسائل ، لكى ترشد حركة الرحلة ، ولكى تؤمن مسيرتها على الطريق فى الذهاب إلى حيث تسعى ، أو فى الذهاب والإياب ، لحساب حركة الحياة واستجابة لمصالحها .

وكان من الطبيعى أو قل من الضرورى ، أن يستخدم الإنسان هذا الحس الفطرى وأن يحسن توظيفه ، لكى يبصر تحركاته ويشد أزرها فى مواجهة التحديات على الطريق ، وإبطال مفعولها أوإحباطها . وهذا معناه أن الرحلة قد أيقظت فى الإنسان هذا الحس العفوى ودربته على استشعار وحسن اختيار مواقع الأقدام على الطريق . ومعناه أيضاً ، أن الرحلة قد فجرت فى الإنسان الإساس بالمكان ، ومدى التنوع الجغرافى من مكان إلى أخر .

وصحيح أنه ربما سعى الإنسان على قدميه ، وتحمل مشقة السفر واختراق حاجز المسافة على امتداد الأرض الوعرة حيناً ، والأرض غير الوعرة أحياناً أخرى، لإتمام الرحلة وجنى ثمراتها فى نهاية الطريق. ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الحس الفطرى قد بصره وساقه فى الطريق الأنسب وأعانه على كل أرض . وتأسيساً على استنفار هذا الحس الفطرى ، جدّ الإنسان واجتهد ، لكى يبتكر الوسيلة أو الوسائل ، لكى تستخدمها الرحلة ، ولكى توسع دائرة انتفاعه بالرحلة ، ولكى تؤمن سرعة تحرك الرحلة فى الذهاب إلى حيث تريد وتتطلع ، أو فى الذهاب والإياب ، لحساب حركة الحياة واستجابة لمصالحها .

الرحلة الجغرافية حس فطرى :

وفى هذا البحث الموضوعى ، نود أن نتابع التطور فى مفهوم الرحلة على المدى الزمنى الطويل متابعة موضوعيته ، لكى نتبين كيف حدث التحول من وضع ومفهوم ، إلى وضع ومفهوم آخر، أو من مرحلة إلى مرحلة أخرى . وعندئذ يمكن أن ندرك كيف خدمت خطوات هذا التحول، فى مفهوم الرحلة المعرفة الجغرافية ، والعمل الجغرافى .

وكان من شأن هذا التحول فى مفهوم الرحلة ودورها الوظيفى ، أن كانت الرحلة :

١- فى مرحلة طويلة مسئولة عن ايقاظ واستنفار الحس الجغرافى الفطرى وتوظيفه وتدريبه . وكانت الرحلة فى هذه المرحلة، لحساب الإنسان الفرد ، وهو يواجه الطبيعة ، ويلملم انتاجها التى يغطى حاجاته الضرورية . بمعنى أن تتكشف له الصورة الجغرافية فى المكان والزمان ، لكى يتعايش معها ويحمى ذاته ، أو لكى يتعامل معها ويجنى ثمرات معطياتها النباتية أو الحيوانية . وكان الكشف الجغرافى ، بالقطع مهماً وضرورياً ، لكى يؤمن الإنسان ذاته وأسرته ، وهو يعيش فى المكان والزمان . وقد استمرت هذه المرحلة على المدى الطويل ، حتى كان التحول الذى أفضى إليه ، مباشرة الانتاج الزراعى وحياة الاستقرار وقيام المدنيات القديمة .

٢- فى مـرحلة طويلة ثانية تجلت مـسـئولية الرحلة عن اصطحـاب الاجتهاد الجغرافى فى معيتها ، لكى تنتفع به وينتفع بها . وكانت الرحلة فى هذه المرحـلة لحـسـاب المجـتـمـع ، وهـى تبـاشـر التـجـارة ، أو تذهب للحرب ، أو تسـافر لنقل الرسـائل . وإضـافة إلى هـذه الأهـداف الرئيسـية ، كان الانفـتـاح على المنظور الجغـرافى الطبيعى والبـشرى فى الطريق الذى تسـلكه ، أو المكان الذى تصـل إليـه . وقـد وسع الإسـلام دائـرة هـذه الأهـداف التـى تقـوم من أجلـهـا الرحلـة ، وأضـاف رحلة الحج والـعـمـرة ورحلة طلب العلم . ورحلة الزيارة والتجول فى ربوع الأمـصـار والأقطار . وفى جـمـيع الأحـوال لـم يكن من قـام بهـذه الرحلة مـتـخـصـصًا يسـعى بالضـرورة إلى الهـدف الجـغـرافى وإسـقـاط حـاجـز الغـربة عن الأرض المجـهولة . كـمـا لـم تكن رحلة من هـذه الرحلات مـتـخـصـصـة فى الكشـف الجغرافى وخدمة الهدف الجغرافى بشكل مبـاشـر .

٣- فى مـرحلة ثالثة ولدت الرحلة المتـخـصـصـة التى خـرجت ، وهـى تطلب المـعـرفـة الجـغـرافـيـة . بمعنى أنـهـا اتـخـذت صـراحـة شـكـل رحلة الكشـف الجـغرافى .وكـان المغـامـر هـو الذى تحـمـل أعـبـاء هـذا الخـروج من أجل الكـشـف الجـغـرافى . وقل أن أوروبـا هـى التى مـولت ووجـهـت هـذه الرحلة ، ولا هـم لـهـا غير الكـشـف الجـغرافى ، عن طريق جديد إلى جنوب شرق آسـيا. بل قل ان أوروبا احـسـنت استـثـمـار الكـشـف الجـغـرافى ، لكى تبـاشـر الاسـتـعـمـار الاسـتـيطانى ، ولكى تسـيطر علـى التـجـارة الدوليـة ،ولكى تبشر بالحـضـارة الأوروبية وتنشـرها على أوسع مـدى .

وقـد شـهـدت هـذه المرحلة تقـاعـد المـغـامـر ، لكى يتـولـى الجـغـرافى المتـخـصـص مهمة الخـروج فى الرحلة إلى المسـاحة المعنيـة . وقل أنه اتـخـذ منهـا وسـيلة لمبـاشـرة العـمـل المـيـدانى ، وهـو يعـاين المـنـظور الجـغـرافى ويتـدارسـه ، أو يشـاهـد المنظور الجـغـرافى البـشـرى ويحـادثـه ، من أجل إنجاز البحث الجغرافى .

٤- فى مـرحلة رابـعـة أخـيـرة أصـبـحـت الرحلة مـسـئولة عن إنجـاز العمل الجـغرافى والاسـتـجابة لإرادة التـخـصـص الجغـرافى . ومن ثم كان

التحول الحقيقى ، من رحلة لحساب الكشف الجغرافى ، إلى رحلة لحساب العمل الجغرافى ، وإنجاز البحوث الجغرافية .

وفى هذا البحث الموضوعى ، نود أيضًا أن نتتبع حركة الرحلة على المدى الزمنى الوطيل متابعة موضوعية ، لكى نتبين كيف شحذت الرحلة الحس الجغرافى الفطرى وكيف وظفته وجعلت منه عيناً مبصرة. وعندئذ يمكن أن ندرك كيف بصرت هذه العين البصيرة المعرفة الجغرافية وطورت العمل الجغرافى .

وكان من شأن هذه العين المبصرة ونقاوة بصيرتها أن كانت أمينة وموفقة وهى :

١- تبصر الرحلة على الطريق فى البر والبحر والجو ، لكيلا تضل أو تضلل .

٢- تجمع أوصال الرؤية الجغرافية ، وهى تضيفها إلى رصيد المعرفة الجغرافية .

٣- تحفز التفكير وتستنفره لكى يسفر عن فكر جغرافى ، ويصطنع علماً تجريبياً .

ولكى تكون هذه المتابعة مفيدة ومبشرة ، يجب أن ندرك كيف تفاوتت منجزات الرحلة من مرحلة إلى مرحلة أخرى . كما ينبغى أن نتبين كيف تباينت وتعددت وتنوعت أهداف الرحلة من عصر إلى عصر آخر . بل يجب أن نتقصى سياق الرحلة فى هذه المراحل ، وأن نتبين كيف توالى هذا السياق وكيف تعاقبت الرحلات ، لكى نسجل معنى ومغزى وكنه هذا التباين والتعدد والتنوع . وقد نتقصى كل الحقائق والعوامل والمتغيرات من وراء هذا التحول ، فى شأن الرحلة وتوظيفها ودورها فى خدمة العمل الجغرافى من مرحلة إلى مرحلة أخرى .

ونهاية مرحلة من مراحل الرحلة وبداية مرحلة أخرى ، لا يعنى إطلاقاً انتهاء حاجة الإنسان إلى رحلة ما ، على اعتبار أنها قد استنفدت أغراضها فى إطار مرحلة أبداً ، حتى لو تطورت وغير التقدم والمتغيرات الحضارية بعض ملامحها القديمة .

ومن ثم ينبغى أن ندرك ، بل نؤكد على أن كل مرحلة من المراحل

المتعاقبة ، كانت تشهد العوامل والمتغيرات التى نشطت ونوعت الرحلات . كما كانت تشهد زيادة فى رصيد جامع بين زمرة متنوعة من الرحلات المتباينة . كما ينبغى أن نؤكد على أن رحلة ما من أجل هدف معين وغاية معينة ، كانت لا تجب رحلة أخرى من نوع آخر ، تتزامن معها فى نفس المرحلة .

وفى إطار تفرد الرحلة على الطريق وصولاً إلى الهدف أو تنوعها وتتعدد أهدافها ، يجب أن نؤكد على أن الرحلة قد خدمت الغرض الذى خرجت من أجله . بل أن إنجاز كل رحلة من الرحلات المتنوعة لم يتحقق إلا فى إطار رؤية جغرافية ، أطلت عليها من قريب . ولقد انتفع الحس الجغرافى الفطرى ، والاجتهاد الجغرافى العلمى ، بهذه الرؤية الجغرافية، التى رشدت مسيرة الرحلة ، وهى فى خدمة الكشف الجغرافى ، أو هى لحساب البحث الجغرافى العلمى .

هذا وينبغى بعد ذلك كله ، أن ندرك كيف كانت أول رحلة على الطريق وكيف ولماذا توالى اهتمام الإنسان بالرحلة . وعندئذ نعرف كيف أيقظت الرحلة الحس الجغرافى الفطرى ، وكيف ألهمت التفكير الجغرافى الصحيح ، وكيف كانت ومازالت عين الجغرافية المبصرة فى الكشف الجغرافى ، أو فى الدراسة الميدانية .

* * *

الفصل الأول

الرحلة وحركة الحياة

بدايات الكشف الجغرافى

- رحلة الهجرة والاستيطان ..
- البحث عن الطعام ..

الفصل الأول
الرحلة وحركة الحياة

جاء الإنسان إلى الأرض لكي تبدأ قصة حياته بداية صعبة . ولقد كان وحيد النشأة فى الزمان وفى المكان . ومهما اختلفت الآراء وتضاربت الافتراضات(١) بشأن هذه البداية ، وأين كانت ، ومتى كانت ، يجب أن نتصور مدى استرخاء الإنسان وانصياعه للضوابط الحاكمة لحركة الحياة ، فى الوطن الأصلى الذى احتواه .

وفى هذا الوطن الأصلى ، واجه الإنسان مصيره ، وهو يطلب أسباب الحياة . ولقد تعايش وقتاً طويلاً فى حضن واقع طبيعى سخى ، أطعمه وأمن وجوده وثبت أقدامه ، وبث فيه حب الحياة والتشبث بها . ولكن المؤكد أن النمو السكانى فى حضن هذا الواقع الطبيعى ، قد استنزف العطاء السخى واستنفد حنانه . واستشعر الإنسان عندئذ أن الموطن الذى أطعمه وحن عليه لبعض الوقت ، لا يمكن أن يؤمن وجوده واستمراره فى هذا الموطن لكل الوقت .

وفى هذه المرحلة الأولية المبكرة ، بعد ميلاد الحياة واستيطانها على الأرض فى الوطن الأصلى ، استشعر الإنسان حاجته الملحة إلى الرحلة . وكان على الإنسان أن يتحرك ، وأن يرحل وينتقل ، لكى يتجنب مواجهة الشح والتقتير فى هذا الوطن ، ولكيلا يتعرض لخطر

---

(١) راجع الآراء المتضاربة فى شأن الوطن الأصلى للإنسان فى الكتب التالية :
أ- ابراهيم زرقانة : العائلة البشرية ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٠ .
ب- محمد السيد غلاب : تطور الجنس البشرى ط ٢ ص ص ١٣٩-١٤٣ القاهرة سنة ١٩٥٧ .
جـ - محمد عوض محمد : سكان هذا الكوكب ص ص ١٨ - ٣٦ القاهرة سنة ١٩٣٣ .

Keith, Sir Arthur . A New Theory of Human Discovery , London 1948 .

الجوع وعدوانه على الحياة . وسجل ذلك التحرك والانتقال آنذاك ، وهو قرار بالفرار من المكان ، إلى مكان آخر ، ميلاد أول رحلة فى حياة الإنسان .

رحلة الهجرة والاستيطان :

وعلى الصفحة الأولى من صفحات هذه الرحلة الأولى ، التى جاوبت حركة الحياة ، ينبغى أن نفطن إلى أنها تسجل الرحلة الأولى فى تاريخ حياة الإنسان . وكانت هذه الرحلة هجرة ورحيل وانتقال من الوطن الأصلى إلى موطن جديد . ولقد خاطر الإنسان فى هذه الرحلة ، وهو لا يملك غير هذا الاختيار ، عندما واجه مصيره واستشعر الخطر ، وطلب الاستيطان والتعايش فى مواطن أخرى .

وما من شك فى أن التحديات التى فرضتها المتغيرات الطبيعية التى تسببت فى تناقص العرض من الانتاج الطبيعى ، والمتغيرات البشرية الديموجرافية فى الوطن الأصلى ، التى تسببت فى زيادة الطلب من الانتاج الطبيعى ، وقد أعلنت الطبيعة عدائها السافر ضد إرادة الحياة وتشبث الإنسان بالحضور فيه . ومن أجل الحياة ، انتقل الإنسان وتحرك وهاجر وخاطر وخاض التجربة ، وطلب التعايش مع الواقع الطبيعى ، فى موطن جديد ومكان آخر .

ولأن حياة الإنسان وأمنه وسكينته ، قد واجهت هذا التحدى المعلن وضراوته ، فلقد وجه الإنسان اهتمامه واجتهاده وجهده للتخلص من براثن هذا التحدى . وهذا معناه أن التحرك ومخاطر رحلة الهجرة ، قد جسدت الفرار من هذا التحدى ، والتملص من وطأته وأخطر ضغوطه المادية .

ومن ثم أصبحت قضية الرحلة وهى رحلة هجرة ، أو وهى رحلة استيطان ، قضية انتقال وتحرك من مكان وموطن ، وقضية اختيار وحضور فى موطن آخر . ورغم سلبية القرار الذى وضع هذه الرحلة موضع التنفيذ ، يجب أن ندرك كيف أنها كانت مسألة حياة تلتمس استمرار نبضها ، وإرادة المحافظة على الحياة .

وهذا معناه أن القرار السلبى الذى أخرج هذه الرحلة ، وأعلن عن مولدها كان انتصاراً بارعًا ، وموفقًا للإنسان ، فى شأن هذه المواجهة الصعبة . وهل نشك فى أن رحلة الهجرة كانت تنجيه من براثن التحدى الصعب، وهو يرحل ويخترق حاجز المسافات بشق الأنفس استجابة لإرادة الحياة واستمرارها ؟ وهل نشك فى أن رحلة الهجرة كانت الاختيار الأفضل للنجاة ، وهو يتعايش فى الموطن الجديد ويواصل مسيرة الحياة ؟

والرحلة فى هذه المرحلة ، وفى كل مرحلة تالية من تاريخ حياة الإنسان على الأرض ، كانت وهى رحلة هجرة ، تبحث عن فرصة أفضل للحياة والحضور فى موطن جديد . بل وهى أيضًا رحلة استيطان وتعايش مع الواقع الجغرافى الطبيعى ، فى الوطن الأنسب ، وفى ظل مستوى من مستويات الاختيار .

وقد تعنى رحلة الهجرة انتشار واستيطان لحساب عمران الأرض وتعايش الحياة المتفتحة ، فى أحضان الواقع الجغرافى الطبيعى المتنوع من موطن إلى موطن آخر على صعيد الأرض . وقد تعنى رحلة الهجرة فى مراحل أخرى نزوح من وطن ضاق بالحياة ، وضاقت به الحياة ، إلى وطن آخر أنسب ، فتح صدره للحياة ، ووجدت فيه أمنها ورزقها وسكينتها .

ومع ذلك فإنها فى كل مرحلة من مراحل الحياة على الأرض ، كانت دائماً رحلة خروج ونزوح ومغادرة ، من غير أن تبتغى العودة ، أو من غير أن تخطط لها . بل لقد عبرت هذه الرحلة دائماً ، وفى كل عصر ، على أنها رحلة فرار ، لأنها تتلمس الأمان وتبحث عنه . وربما عبرت هذه الرحلة أيضًا عن مدى انصياع الإنسان الذى يخرج فيها ، لعامل من عوامل الطرد فى موطن ما . كما تصور مدى استسلام الإنسان فى هذه المرحلة ، لعامل من عوامل الاستقطاب والجذب فى موطن آخر .

ورحلة الهجرة ، وهى رحلة فرار من ضغوط ومتغيرات طاردة فى موطن ، أو رحلة بحث عن الأماكن والحياة الأفضل فى موطن آخر ، قد

تجسد مدى انصياع حركتها وخروجها ، لعوامل الطرد وعوامل الجذب، ولكن لا ينبغى أن نتصورها على اعتبار أنها كانت أو تكون على غير إرادة الإنسان . بمعنى أنها رحلة لا تحمل فى أحشائها ، أو لا تنطوى فى محتواها ، على ما يجسد الحتم والوجوب والالتزام .

وهى - فى حقيقة الأمر - وليدة إرادة الحياة التى حملت الإنسان على المخاطرة والتحرك والفرار فى مواجهة ضغوط وأخطار تهدد أمن وسلامة ومصلحة الإنسان . بمعنى أنها رحلة تنطوى على اختيار . وهل يمكن أن يكون طلب المحافظة على الحياة ، وانتشالها من خطر يتهددها ، حتماً على غير إرادة الحياة ؟

هذا ، ولا يجب أن نشك أو أن نشكك فى أن الإنسان ، وقد عقد العزم على أن ينتصر للحياة ، وعلى أن ينتصر لمصيره ، قد اتخذ القرار بالرحلة . كما لا يجب أن نشك أو نشكك أيضًا فى أنه قد واجه وهو يرحل من موطن افتقد فيه الأمن والأمان ، إلى موطن جديد وجد فيه فرصة الحياة الأفضل أمرين هامين :

ولقد تمثل هذان الأمران الهامان وما بنى عليهما من ضوابط حكمت رحلة الهجرة :

١- فى شأن اختراق حاجز المسافة بين الموطن الذى تغادره رحلة الهجرة ، والموطن الذى تأوى إليه . وهذا الأمر - فى حد ذاته - واحد من أخطر التحديات التى كان عليه أن ينتصر عليها ويبطل مفعولها . وربما لم يجد الإنسان أحياناً وسيلة تنصره ، غير أن يجد فى الطريق سيراً على القدمين ، لكى يؤكد أن هذه التحديات قد حفزت فيه إرادة البحث عن الوسيلة أو الوسائل الأفضل . وقهر هذا التحدى ، لا يعنى أقل من انتصار ، هو الذى حول حاجز المسافة من تحدى يحبط حركة الحياة ، إلى ضابط يحكم الحركة ، وإنجاز الرحلة وتأمين حركة الحياة .

٢- فى شأن اختيار الطريق واجتيازه بحثًا وتطلعًا إلى الموطن الجديد . وهذا الأمر - فى حد ذاته - يمثل ثانى أصعب التحديات ، التى كان عليه أن ينتصر عليها ويبطل مفعولها . ولقد غامر الإنسان فى

مواجهة المجهول ، الذى غابت عنه معرفته . وفجرت هذه المواجهة الصعبة إرادة الإنسان ، وأيقظت حسه الجغرافى الفطرى ، لكى يحسن اختيار الطريق ، ويرشد الخطوات عليه فى الاتجاه الصحيح مرة ، ولكى يختار الموطن الإنسب الذى يؤمن الاستيطان ووجود حركة الحياة مرة أخرى . وقهر هذا التحدى لا يعنى أقل من حسن توظيف الحس الجغرافى الفطرى ، وتحويل التحدى المعلن ضد حركة أو مسيرة الرحلة ، إلى مجرد ضابط يحكم حركتها وإنجازها .

* * *

وصعب أمر اختراق حاجز المسافة ، وإسقاط الفاصل الحاجز ، بين المكان والمكان الآخر ، سيراً على الأقدام ، أو على ظهر دابة أو على ظهر قارب فى البحر . ولكن اجتياز الصعب وهو اختيار إنسانى واقعى ، من أجل هدف حيوى مطلوب ، يستحق المخاطرة واحتمال المشقة على الدرب .

وصحيح أن مسيرة هذه الرحلة فى اتجاه الهدف المطلوب كانت متأنية على الطريق . وصحيح أيضاً أنها ربما استغرقت مراحل متوالية على الطريق ، وهى تضرب فى اتجاه المجهول بحثاً عن الهدف . ولكن المؤكد أن وقع أقدام هذه المسيرة كان حذراً ، وهو يتحسس الطريق ، وكان فطناً ، وهو يسأل حسه الجغرافى الفطرى ، بحثاً عن الهدف واختيار الموطن الجديد .

وشاق أمر اختيار الدرب أو الطريق ، والاتجاه الصحيح ، الذى تمضى فيه الرحلة ، اعتماداً على ما يسفر عنه حدس الحس الجغرافى الفطرى . ولكن احتياز المشقة ، وهى اختيار إنسانى واقعى فى مواجهة المجهول ، كان من شأنه أن يدرب هذا الحس الفطرى وأن يشحذه ، لكى يسفر عن الحدس الرشيد الأفضل .

وصحيح أن مسيرة هذه الرحلة فى اتجاه الهدف على الطريق المنتخبة ، كانت رحلة كفاح ومصير . وصحيح أيضاً أنها قد تعثرت أحياناً، وضلت فى غموض المجهول أحياناً أخرى ، وهى تبحث عن

الهدف ، أو وهى تختار الدرب . ولكن المؤكد أن صدق الحس الجغرافى الفطرى وسلامة حدسه ، قد بصّر ورشّد وصحّح اتجاه هذه الرحلة ، وهى تختار الطريق وتتلمس الاتجاه الصحيح ، أو وهى تختار الموطن الجديد ، الذى تلتمس حركة الحياة الاستيطان فيه .

وهكذا كانت هذه الرحلة ، وهى رحلة نزوح وهجرة حاجة ملحة ، لكى تنتصر مسيرة حركة الحياة وإرادتها . بل وكانت هذه الرحلة تحركاً إيجابياً كفل الانتشار والاستيطان فى أنحاء الأرض . وصحيح أن الحس الجغرافى الفطرى قد بصّر مسيرة الرحلة ، ورشّد الاستيطان فى أنحاء متفرقة من الأرض . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، أنه قد شد أزر الرحلة لكيلا تضل أو تضيع أو تفشل . بل قل أنجح اختيار الوطن الجديد، الذى احتوى الحياة وأمن حضورها وتعايشها .

وإذا كانت الرحلة قد أيقظت وأنعشت وشحذت الحس الجغرافى الفطرى ، وطلبت منه أن يبصرها ويهديها سواء السبيل ، فإن هذا الحس الجغرافى الفطرى المتيقظ لمن باشر هذه الرحلة ، قد واجه الرؤية الجغرافية . ومواجهة الرؤية الجغرافية على الطريق ، معناه أنه قد استشعر فحواها ، وأدرك أبعادها ، وتبين مدى تنوعها ، على صعيد كل موطن ، أحسن استقبال الرحلة ، وأمن حضور الإنسان فيها .

وليس أوقع من متابعة الرحلة ، وهى رحلة هجرة وبحث عن فرصة الحياة الأفضل والاستيطان فى موطن جديد . بل وليس أفضل من تعدد النماذج على المدى الطويل ، لكى نتبين كيف واصلت هذه الرحلة مسعاها ، وكيف لبت حاجة الإنسان ومكنت له الاستيطان فى كل أرض أمنت حضوره . وبصرف النظر عن وسيلة هذه الرحلة والمدى الذى ذهبت إليه فى كل عصر من العصور ، تبقى رحلة الهجرة فى خدمة الانسان . بل وتبقى عوامل الطرد مسئولة عن تحرك هذه الرحلة، من وطن لا يؤمن حضور الإنسان ، إلى وطن جديد يؤمن حضور الإنسان ، وينطوى على عوامل جذب تستقطب هذا الحضور .

والمثل الأول ، يصور رحلة الهجرة ، التى توجهت إلى الأرض

الأفريقية ، وينبغى أن نشير إلى اتفاق معظم الباحثين على أن أفريقية ، قد استقبلت الهجرات التى طلبت الاستيطان وفرص الحياة فى أنحائها . وهذا معناه أن هذه الأرض قد جذبت واستقطبت الرحلة ، وهى حيلة الإنسان وجموعه المهاجرة ، لكى تبحث عن فرص الحياة الأفضل . ومعناه أيضًا أنها الأرض التى فتحت صدرها ، واحتوت هذا الحضور ، وأمنت له الحياة .

وسواء قفزت هذه الرحلة عبر باب المندب ، وتوالت تحركاتها على هذا الطريق الذى أوصلها إلى القرن الأفريقى ، قبل أن تنتشر على الصعيد الأفريقى ، أو جاءت هذه الرحلة عن طريق سيناء وبرزخ السويس ، وتدافعت تحركاتها على هذه الطريق لكى تنتشر على الصعيد الأفريقى ، فإن هذا الانتشار والاستيطان والتعايش مع الواقع الطبيعى ، يجسد معنى ومغزى وكنه وأهداف هذه الرحلة .

كما يصور هذا الانتشار والاستيطان على الصعيد الأفريقى الواسع ، كيف بصر الحس الجغرافى الفطرى التحرك ، واختيار الطريق وكيف رشد هذا الحس اختيار الموطن الذى انتهى إليه الاستيطان ، وتمثل فى أنحائه الحضور . ومحور من محاور هذا التحرك ، الذى سجل مسيرة كل رحلة ، وتوجه كل موجه واستيطان كل هجرة و لا يخفى فاعلية حسن توظيف هذا الحس الجغرافى الفطرى ، ولا يحجب جدواه .

ولأن كل رحلة هجرة كانت تطلب الأمن والسلامة ، فلقد أصغت جيداً لحدس الحس الجغرافى الفطرى وطاوعته . ومن ثم عرفت هذه الرحلة كيف تختار الطريق ، وكيف تجتاز الطريق . ومن غير ذلك الحدس، ربما تخبطت الرحلة على الطريق ، وضلت أحياناً . وربما واجهت الرحلة أحياناً أخرى المتاعب والمخاطر على الطريق ، ولم تضل .

ولأن كل رحلة هجرة كانت تطلب الاستيطان والتعايش ، فلقد أصغت جيداً لحدس الحس الجغرافى الفطرى وطاوعته . ومن ثم عرفت هذه الرحلة كيف تنتخب الموطن ، وكيف تنزل فيه . ومن غير ذلك

الحدس موضوعيته وسلامته ، ربما فشل الاختيار ، وتخبط الحضور ، وربما واجهت المتاعب فى الوطن الجديد .

ولأننا نعرف قيمة هذا الحدس السليم الذى أسفر عنه الحس الجغرافى الفطرى ، ومدى اعتماد الرحلة عليه ، فلقد استطاع البحث أن يعرف ويتبين محاور التحرك ، وكيف سارت موجات ومواكب هذه الرحلة ، وكيف انتشرت على الصعيد الأفريقى . بل قل إن هذا الحدس وحده هو الذى يفسر اتجاهات حسن توجهات هذه المحاور من منطقة الاستقبال فى القرن الأفريقى ، إلى شرق وجنوب وغرب أفريقية أحياناً، أو من منطقة الاستقبال فى سيناء إلى شمال أفريقية أحياناً أخرى .

والمثل الآخر ، يصور رحلة الهجرة ، التى توجهت فى الماضى القريب إلى عالم المحيط الهندى . وتجسد هذه الرحلة تحركات الإنسان، وهو يطلب فرصة الحياة الأفضل ، عندما يخرج من جزيرة العرب . ولقد توجهت فى البحر المحيط ،وحققت انتشاراً وحضوراً مغترباً فى أحضان مساحات منتخبة فى عالم المحيط الهندى . كما توجهت فى البر وحققت انتشاراً وحضوراً نشيطاً ، نشر العروبة على الصعيد الواسع فى أنحاء أسيوية وأفريقية .

وسواء توجهت مواكب رحلة الهجرة من جزيرة العرب ، على طريق البحر ، أو على دروب البر، فإنها تصور معنى ومغزى وكنه التدافع والتحرك الذى يطلب فرص الحياة الأفضل فى وطن جديد أنسب . وفى هذا الشأن ، لا تكاد تخفى علينا مدى فاعلية وجدوى عوامل الطرد التى أخرجت الرحلة ، وحملت الإنسان فيها مشقة وأخطار الطريق من ناحية، ومدى فاعلية وجدوى عوامل الجذب ، التى استقطبت الرحلة وحملت الإنسان فيها متاعب الاغتراب من ناحية أخرى .

وهذه التحركات سواء أنجزتها رحلة هجرة فى البر ، أو رحلة هجرة فى البحر ، قد تلمست الطريق والاتجاه الصحيح إلى الهدف . وما من شك فى أن هذه الرحلة قد أحسنت استخدام الحدس ، الذى

أسفر عنه الحس الجغرافى الفطرى أحياناً ، أو أحسنت استخدام الخبرة الجغرافية التى أسفر عنها التفكير الجغرافى الصحيح أحياناً أخرى ، لكى يرشدها ويبصرها ويهديها على الطريق ، ولكن يؤمنها ويكفل حضورها فى الوطن الجديد .

وفيما بين الحدس وتوقعاته ، والإدراك الجغرافى وموضوعية ، لا يمكن أن ننكر فضل رحلة الهجرة . بل ينبغى أن نعظم من شأن هذه الرحلة وجدواها ، وكيف شحذت الحس الجغرافى الفطرى ، الذى اصطنع الحدس فى مرحلة مبكرة ، وكيف أيقظت وفتحت وأثارت الانتباه الذى اصطنع الإدراك والتفكير الجغرافى الصحيح فى مرحلة أخرى .

وحتى عندما حدثت رحلة الهجرة الحديثة ، فى المرحلة التالية للكشوف الجغرافية الكبرى ، وكان هدفها الاستيطان فى الأرض الأمريكية ، أو فى استراليا ، أو فى جنوب أفريقية ، أمن الاجتهاد الجغرافى مسيرتها ، وقاد توجهها فى الاتجاه الصحيح ، ورشد اختيار المستوطنات . وليس من قبيل الصدفة أبداً أن تعرف رحلة الهجرة الطريق الصحيح ، وأن تختار مواقع الاستيطان على ساحل جنوب شرق أستراليا . بل يجب أن نتصور كيف بصر هذا التعرف والاختيار حدس جغرافى مناسب ، أو إدراك جغرافى حصيف ، وجه الاستيطان إلى المواقع الأفضل .

ولئن استشعرت هذه الرحلة – وهى رحلة نزوح ومغادرة وذهاب من غير تعلق بأمل العودة والإياب – حاجة ملحة إلى ترشيد هذا الحدس أو الإدراك الجغرافى الحصيف ، فلقد أيقظت بدورها الحس الجغرافى الفطرى وشحذته وفجرت التفكير الجغرافى الصحيح واستنفرته . وكيف لا تفعل ، وهى الرحلة التى وضعت الإنسان فى مواجهة الرؤية الجغرافية ، وفجرت كل استعداداته لكى ينتصر لمصيره، ويحقق الأهداف التى خرج من أجلها فى هذه الرحلة ، وتكبد المشقة ومخاطر السفر ؟

* * *

البحث عن الطعام :

وإنجاز المهمة التى كانت من أجلها رحلة الهجرة سيراً على الأقدام ، وبلوغ الغاية أو تحقيق الهدف ، أدخلت الإنسان فى البداية المبكرة لمسيرة حركة الحياة فى أعظم وأخطر تجربة واجهت إرادة الحياة . ومن خلال هذه التجربة الصعبة ، التى أسفرت عن انتشار الإنسان والاستيطان على أوسع مدى فى أنحاء الأرض وواجه فيها مصيره ، تفتحت كل الأبواب أمام رحلات أخرى . بل قل لقد تهيأت الفرص أنذاك لكى تتنوع الرحلات .

وكانت أول رحلة فى إطار هذا التنوع الوسيلة أو الحيلة التى طلب منها الإنسان أن ترسخ الحياة وجودها ، وأن تثبت حركة الحياة حضورها وتنتصر لها فى الأوطان التى احتوتها . بل ربما أصبح للرحلة قوة إغراء شديد ، استجاب لها الإنسان وهونت عليه المخاطرة ، واحتمال متاعب السفر ومشقة الاغتراب .

وصحيح أن انطلاق الرحلة هو الذى أنعش وشحذ الحس الجغرافى الفطرى وحفزه ، لكى يلهم حركة الحياة ويبصرها على الطريق . وصحيح أيضاً أن الرحلة قد فتحت الأعين على الرؤية الجغرافية ، ودعت إلى أكبر قدر من استشعار وإدراك مدى التباين والتنوع الجغرافى الطبيعى بين المكان والمكان الآخر . ولكن الصحيح بل المؤكد أن الرحلة قد أصبحت ، وكأنها يد الإنسان الطويلة ، التى اعتمد عليها فى الحصول على الطعام ، أو التى مدها فى كل اتجاه لتلبية أهم حاجات الحياة . وهل أهم من أن يبحث الإنسان عن الطعام ؟

وكم من رحلة جدّ فيها الإنسان سيراً على الأقدام ، وهو لا يملك غير هذه الوسيلة ، لكى يبحث عن الطعام ، ويجمع قوته مما تنبت الأرض وثمراتها الطيبة . وكم من رحلة واجه فيها الإنسان مشقة السفر والتحرك ، وهو لا يملك الوسيلة ، لكى يطارد الفريسة ويقتنيها ، ويحصل على ما يطعمه . وقد يتطور شكل هذه الرحلة تطوراً حقيقياً،

وقد يطول مدى تحركاتها ، ولكنها تبقى فى كل شكل ، وعلى اى مدى، مهمة وضرورية ، لأنها هى الرحلة التى تطعم الإنسان وتشبعه .

ومن غير أن نخضع أمر تقويم الرحلة أصلاً لحسابات النجاح أو الفشل ، ومن غير أن نتلمس مدى عمل ونشاط هذه الرحلة وأمر تطورها ، يجب أن ندرك كيف أنها أسعفت دائمًا حاجة الإنسان . بل ينبغى أن نتبين كيف أنها انتصرت لإرادة الإنسان ومصلحته فى كل مكان ، وفى كل زمان . وكيف لا تكون هذه الرحلة يد تطاوع إرادة الإنسان ، وهو يمدها حيث يشاء للحصول على ما يشاء ؟ بل وكيف لا يهتم الإنسان بهذه الرحلة دائماً ، وهى التحرك المرن ، من أجل تأمين مصالح الحياة ، واستمرار نبضها الحيوى على الأرض، فى المكان والزمان .

* * *

وربما كانت رحلة الهجرة ، وهى تسعف إرادة الانتشار وتجاوب حاجة الإنسان للاستيطان فى أنحاء الأرض ، رحلة فرار من موطن مقتر واستجابة عاجلة لعامل طرد ، أو رحلة لجوء إلى موطن سخى واستجابة فورية لعامل جذب . ولكن المؤكد أن هذه الرحلة ، كانت آنذاك رحلة مغادرة ونزوح وذهاب إلى ديار جديدة من أجل الاستيطان . بل إنها لم تضمر أبداً ، أو لم تنطوى على إرادة أو أمل فى العودة والإياب . ومع ذلك فإنها كانت رحلة مجدية بالفعل . بل لعلها كانت الرحلة الخطيرة دائمًا فى حياة البشرية ، لأنها حققت الانتشار الإنسانى وكفلت عمران الأرض . ولقد وضعت الإنسان دائمًا فى موضع الاستعداد عندما يفرغ من هذه الرحلة ، فى وضع الاستعداد الأنسب ، للسيادة على مصيره ، وتسخير الأرض ومعطياتها فى أحضان أى موطن على صعيد الأرض .

وفى هذا الوضع الذى وظفت فيه الرحلة للانتشار فى أنحاء الأرض أو للاستيطان وعمران الأرض ، درب الإنسان حسه الجغرافى الفطرى وشحذه وانتفع به . وسواء بصر هذا الحس الفطرى الإنسان أو خذله ،

فإنه لم يمتلك غير حدس هذا الحس الجغرافى الفطرى لكى يجنى ثمرات رحلته .

ولقد تمادى انتفاع الإنسان بهذا الحدس الذكى الناجح ، الذى أسفر عنه حسن توظيف الحس الجغرافى الفطرى ، وهو يتعايش مع الواقع الطبيعى فى الأرض ، التى انتهت إليها رحلة الهجرة ، أو وهو يبحث عن زمام السيادة والانتصار لوجود الحياة وتثبيت العمران والحضور فى هذه الأرض . ولكن هذا التمادى لم يبلغ حده الأفضل والأجدى ، إلا عندما حول الحدس الجغرافى الناضج الاهتمام بالرحلة وتوظيفها لحساب الحياة ، من رحلة ذهاب ومغادرة ونزوح من غير عودة ، إلى رحلة ذهاب وبحث عن طعام وعودة مع حاجات تشبع نهم الحياة .

وهذا معناه أن رحلة البحث عن الطعام ، أصبحت رحلة عمل واجتهاد يومى متكرر ، وتوجه إلى هدف وتطلع إلى غاية . وهى بالطبع رحلة ذهاب وخروج وتوجه إلى الهدف ، ورحلة إياب وعودة بعد أن يتحقق الهدف . ولقد عرف الإنسان بل وأتقن هذه المهمة اتقاناً باهراً . بل وتمرس فى حسن توظيف هذه الرحلة لإشباع حاجاته الملحة .

وبصرف النظر عن مدى تحرك الرحلة ومضيها على الدرب ، وبصرف النظر عن الفاصل الزمنى ، بين ذهاب هذه الرحلة وإيابها ، عرف الإنسان كيف ، ولماذا ، ومتى ، وأين يكون الذهاب والتوجه على الطريق فى طلب الحاجة . كما عرف الإنسان أيضاً كيف ، ولماذا ، ومتى، وأين يكون الإياب والعودة من الرحلة ، بعد إنجاز المهمة والحصول على الحاجة . وعلى الدرب وكل درب شهد ذهاب هذه الرحلة وشهد إيابها ، كان الحس الجغرافى الفطرى المتيقظ ، رفيقاً صادقاً فى معية الرحلة يبصرها ويسدد خطاها .

ولقد كان هذا الحس الجغرافى الفطرى وحده ، وهو يضل أحياناً ، ولكنه لا يضلل عن عمد أبداً ، عيناً مبصرة ، فى معية الرحلة ترشد خطواتها على الطريق . وكان من شأن هذه العين المبصرة أن تحملق فى الرؤية الجغرافية ، وأن تتمعن فيما تعبر عنه هذه الرؤية . بل وربما وقع

هذا الحس الجغرافى الفطرى ، فى أسر هذه الرؤية التى بهرته ، وأطلق فيه ملكات التخيل والتصور ، واستشعار مدى التنوع والتباين الطبيعى ، بين الصور الجغرافية المتعددة على الطريق .

وما من شك فى أن حدس هذا الحس الجغرافى الفطرى ، عندما تجرد من الانبهار ، وتمعن فى الرؤية الجرافية ، قد بصر الرحلة ورشد مسيرتها فى الذهاب وفى الإياب . بل لقد رشدها وشد أزرها ، وهى تطلب حاجتها ، أو وهى تتصيد فرصة مناسبة لحساب الحياة . وكيف لا يؤدى الحس الجغرافى الفطرى هذه المهمة ، وهو رفيق حركة الرحلة ودليلها فى الذهاب والإياب ، وفى كل جولاتها الهادفة على صعيد الأرض فى المكان والزمان ؟

وصحيح أن هذه الرحلة وهى رحلة ذهاب وإياب ، وهى تغيب عن الموطن لبعض الوقت حاجة ملحة ، لم تستغن أو لم تفرط فيها الحياة ، ولم يهمل أو لم يتمهل فى شأنها الإنسان . ولكن المؤكد أن هذه الرحلة كانت تتشبث بالحس الجغرافى الفطرى ، ولم تفرط أبداً فى حسن استخدام هذا الحدس الذى أسفر عنه ، من أجل تأمين مسيرتها ، أو جنى ثمراتها .

ولقد تحمل الإنسان مشقة هذه الرحلة ، وهو يرحل ويخاطر ويغترب من أجل الهدف ، لكى تبقى وتستمر وتنتصر إرادة الحياة ومصالح الإنسان فيها . وسواء طالت الرحلة أو قصرت ، وسواء طالت غيبة الإنسان وطال اغتراب من خرج فيها أو قصر ، أصبحت هذه الرحلة تحركًا إيجابياً وفعالاً وهادفًا . وقل لقد عمق هذا التحرك تجربة الإنسان فيها . بل قل لقد نمت هذه الرحلة فى الإنسان مدارك حسه الجغرافى الفطرى المتيقظ .

وعلى أى مدى ، وفى أى اتجاه ، وبأى وسيلة ، أحسن الإنسان توظيف هذه الرحلة توظيفًا مجدياً فى خدمة الحياة . بل وتجلى حرص الإنسان على إنجاح هذه الرحلة وبلوغ الغاية منها ، سواء تمثلت فى الرحلة التى وظفت فى جمع التقاط القوت الضرورى ، أو تمثلت فى

الرحلة التى وظفت فى صيد واقتناص الحيوان ، أو تمثلت فى الرحلة التى وظفت فى ارتياد مواقع التبادل والتسويق . وكيف لا يكون الإنسان حريصاً على إنجاح هذه الرحلة ، وهى تطعم الحياة وتعولها فى كل موطن احتوى الحضور الإنسانى ، وامتدت إليه يد العمران البشرى؟

وصحيح أن الحس الجغرافى الفطرى - بكل ما انطوى عليه من قوى الإدراك والتخيل والتصور والفطنة - قد رافق الرحلة ، وبصر مسيرتها ، وأمنها على الدرب فى الذهاب وفى الإياب . وصحيح أيضاً أنه قد شد أزر الإنسان ، وهو يستثمر هذه الرحلة لحساب الحياة طلبًا للغذاء أو إحباطاً للعدوان . ولكن المؤكد أن حدس هذا الحس الجغرافى الفطرى قد واجه الرؤية الجغرافية ، وهى تبهره وتشد اهتمامه فى مواجهة فاحصة ومتأنية .

وحتى لو حسبنا حساب الانبهار الذى ترددت فيه هذه المواجهة ، فلا يجب أن ننكر كيف تلمس هذا الحس الجغرافى الفطرى فحوى الرؤية الجغرافية ، وكيف تحسس أبعادها وأوصالها ، وكيف تبين مدى تغيرها على صعيد كل أرض وطئتها الرحلة ، وجاست فى أنحائها . وما من شك فى أن ذلك كله ، قد أنعش فى الإنسان أمر استخدام العقل ، وهو يتدبر ويمحص ويتأمل هذه الرؤية الجغرافية ، لكى يقترب منها ويتعايش معها وينتفع بها .

وهكذا ينبغى أن نفطن إلى أنه ربما كانت الرحلة ، وهى رحلة البحث عن الطعام ، فى أشد الحاجة لاستخدام وتوظيف الحس الجغرافى الفطرى ، لكيلا تضل أو تخفق فى أداء دورها الوظيفى . ولكن الذى لا ينبغى أن نغفله ، أو أن نفرط فيه ، هو إدراك قيمة أو جدوى الرحلة ، التى دعت وأرست بدايات متواضعة فى التفكير الجغرافى . وهذا معناه أن الرحلة قد هيأت فرص الانفتاح على الرؤية الجغرافية ، وأن هذا الانفتاح هو الذى قاد وبصر ووجه التفتح الإنسانى لطلب المعرفة الجغرافية .

وصحيح أن هذه الرحلة ، التى انهمكت فى خدمة الحياة ، لم تضع فى اعتبارها هذا الاهتمام إطلاقاً . ولكن المؤكد أنها هى التى بشرت بهذا التفتح الجغرافى . بمعنى أنها وضعت الإنسان فى وضع الاستعداد للتفكير الجغرافى ، والتأمل فى الرؤية الجغرافية .

ولقد كان من شأن هذه الرحلة، التى تفردت فى إجابة طلب وحاجة الحياة ، والإنسان يطلب الاستيطان والتعايش فى أنحاء الأرض ، أو التى تفردت فى إجابة طلب وحاجة الحياة ، والإنسان يطلب الغذاء والطعام ، أن تبقى متفردة وهى :

١- توجه حركة الحياة ، وتملى عليها أكثر مما توجهها وتملى عليها حركة الحياة.

٢- تنمى ملكات الحس الجغرافى الفطرى وتشحذه ، وتضع قواعد وأساس بدايات متواضعة فى التفكير الجغرافى .

والإملاء الذى نعنيه بالضبط ، ليس من قبيل التحيز أو الانعطاف إلى فكر الحتم ، الذى يكبل إرادة الحياة ، ويقيد ملكات وقدرات الإنسان. بل هو - فى اعتقادى - إملاء قبول بما تنجزه الرحلة وينتفع به الإنسان ، أو إملاء اقتناع بما يجنيه الإنسان من ثمرات الرحلة ، أو إملاء تطلع إلى ما تحققه الرحلةمن أهداف حيوية لحساب حركة الحياة . وربما لم يقف هذا الإملاء عند هذا الحد فقط ، بل لقد امتد بالضرورة إلى حد تحمل المشقة على الطريق، والامتثال للمخاطر ، والتحلى بروح المغامرة والجسارة ، لكى تنجح الرحلة.

وعلى مدى مرحلة طويلة ، عاش فيها الإنسان حضارته الأولية وعرف كيف يستهلك ،ولم يعرف كيف ينتج ، كانت هذه الرحلة المتفردة، وسيلته أو حيلته لكى يحقق أهدافه الاستهلاكية . وسواء خرج الإنسان فى هذه المرحلة وحيداً يطلب هدفاً وغاية بحثاً عن طعام أحياناً أو خرجت فيها الجموع المشتركة تطلب هدفاً وغاية بحثاً عن وطن جديد أحياناً أخرى ، فإن هذه الرحلة ، كانت رحلة اجتهاد وظفها الإنسان لحساب وجوده وحضوره ونشاطه وتعايشه ، وهو مستهلك فقط .

وهذا معناه انها كانت يد الإنسان الطيعة ، التى تأخذ وتحصل على احتياجاته، لأنه لم يكن قد وصل إلى درجة أن يعرف كيف يأخذ وكيف يعطى ، أو أن يعرف كيف يستهلك وكيف ينتج ، فى وقت واحد .

وهكذا قل كان من شأن الرحلة ، أن تضع بدايات مبكرة للكشف الجغرافى ، لحساب الإنسان ، بل قل كان من شأن الرحلة الفريدة فى المرحلة السابقة لميلاد المدنية القديمة وما انطوت عليه من تحضر ، أن تتفرد تفرداً مثيراً ، وهى :

١- رحلة هجرة تجاوب حاجة الحياة والإنسان ، وهو يطلب الانتشار على أوسع مدى والاستيطان وعمران الأرض . وهل يمكن أن يتأتى هذا الانتقال من وطن إلى وطن آخر من غير معرفة جغرافية ترشد مسيرته واستطيانه ؟

٢- رحلة بحث عن طعام تجاوب حاجة الإنسان ، وهو يطلب الغذاء ويستهلك انتاج الأرض ويؤمن حضوره . وهل يمكن أن ينتفع الإنسان بهذه الرحلة من غير معرفة بجغرافية المكان ؟

وهكذا ندرك كيف التمس الإنسان المعرفة الجغرافية فى المكان والزمان . وندرك أيضًا كيف كان الكشف الجغرافى من أجل هذه المعرفة، وقد تأتى فى إطار الخصوصية الذاتية . وقد استوجبت حياة الإنسان فى إطار المجتمع الأسرى المحدود ، هذه الخصوصية ، لحساب المصلحة الذاتية للأسرة ، وهى تحيا وتتعامل مع المنظور الطبيعى وتبحث عن معطياته فى المكان والزمان .

* * *

بل ولقد كان من الطبيعى ، أو قل من الضرورى ، أن تبقى هذه الرحلة متفردة تجاوب إرادة الحياة وحاجات الناس ، إلى أن تتأتى المتغيرات التى يصطنعها الإنسان ، وتضع حركة الحياة ومصالحها وقدراتها وإمكانياتها المبدعة عند نقطة تحول حقيقية . ونقطة التحول التى نعنيها هى نتيجة مباشرة للتغير الاقتصادى والاجتماعى والحضارى ، الذى حوّل الإنسان من مستهلك فقط ، إلى مستهلك ومنتج فى وقت واحد .

ولقد أسفر هذا التحوّل بكل أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والحضارية عن تغيير فى أوضاع الحياة ، أنهى تفرد الرحلة . بل لقد انفتح الباب عندئذ على مصراعيه أمام رحلات كثيرة أخرى ، لكى تلبى حاجة الإنسان . وإنهاء تفرد الرحلة لا يعنى انتهائها واستنفاد أغراضها، ولكن يعنى أن رحلات أخرى كثيرة ومتنوعة قد وظفها الإنسان ؛ واشتركت مع الرحلة التى انتهى تفردها فى خدمة حركة الحياة ومصالح الإنسان .

ويبقى أن نذكر أن هذا التحول ، من رحلة متفردة إلى رحلات متنوعة ، قد جاء فى الوقت المناسب . ونعنى بذلك أنه جاء بعد أن رسخت الرحلة المتفردة أقدام الإنسان فى أوطانه ، وقد انتشر فى ربوع الأرض ، وأحسنت تدريبه فى شأن توظيف الرحلة وحُسن استخدامها وجنى ثمراتها .

كما رسخت هذه الرحلة المتفردة رصيداً هائلاً من الخبرات والمكتسبات ، وشحذت الحس الجغرافى الفطرى ، وأشاعت سبل الانتفاع به ، لكى يبصر الرحلة ، أو قل الرحلات المتنوعة ويرشدها فى الغدو والرواح . بل لعل الرحلة كانت انطلاق الاجتهاد الأهم الذى وجه حركة الحياة فى كل مكان ، لكى يواجه الإنسان التحديات ، وتفجر فيه طاقات الإبداع وينتصر عليها ويبطل مفعولها ، ويصطنع اللبنات السوية فى صرح التغير الحضارى وبناء المدنية .

* * *

الفصل الثانى

الرحلة فى المدنيات القديمة

وتوسيع دائرة الكشف الجغرافى

- التغير الحضارى وتنوع الرحلات .
- الرحلة وتأمين الحياة .
- الاجتهاد الجغرافى ومبلغ استثمار الرحلة .

الفصل الثانى

الرحلة فى المدنيات القديمة
وتوسيع دائرة الكشف الجغرافى

التغير الحضارى وتنوع الرحلات :

المتغيرات الحضارية التى وضعت حركة الحياة وحضور الإنسان على الأرض عند نقط تحول حاسمة ، هى وليد شرعى للاجتهاد الذى عكف فيه الإنسان على مواجهة التحديات وتطويعها ، والانتصار عليها . ولقد تحقق أعظم إنجاز بالفعل ، عندما أفلح الإنسان فى التحول من مطاوعة الضوابط ، التى حكمت وتحكمت فى حركة الحياة وحضور الإنسان ، إلى تطويع الضوابط التى طاوعت حركة الحياة وامتثلت لإرادة الإنسان وقدراته وملكاته .

وكان معنى هذا التحول بالضبط ، أن أنهى الإنسان دوره كمستهلك تطعمه الطبيعة ، وتغطى بإنتاجها حاجاته ، وانطلق فى دوره الحيوى الجديد كمنتج من أجل الاستهلاك . والفرق كبير بين حضور الإنسان على الأرض ، وهو يستهلك فقط ، وحضوره على الأرض وهو ينتج ويستهلك . ذلك أنه امتلك زمام مصيره وعرف طريقه ، لكى يمارس السيادة على الأرض . بل لقد أطلق هذا التحول الحاسم ، كل أسباب وملكات التغير الاجتماعى ، والحضارى والاقتصادى، والسياسى.

والتغير الحضارى الذى نعنيه قد أسفر عن متغيرات اقتصادية ومتغيرات اجتماعية ، انتفعت بها حركة الحياة ، وحضور الإنسان ومصيره . وفى إطار هذا التغير ، وما ترتب عليه من منافع جنى ثمراتها حضور الإنسان لحساب حركة الحياة ، تعاظم أمر الرحلة ، وتصاعدت درجات أو مستويات الاهتمام بها وبتوظيفها . بل لقد تمادى ذلك التعاظم والاهتمام إلى حد تنوع الأهداف وتعدد الأغراض ، وتباين الغايات التى وظفت الرحلة من أجلها . وقل أصبحت الرحلة المنتظمة أو

غيـر المنتظمة فى خدمة حـركة الحيـاة ، وفـى تلبيـة حاجـاتها وتطلعـاتها المتحضـرة فى أنحاء الأرض .

ومـن غيـر الدخـول فى تفـاصـيل مـثـيـرة ، تحكى حكاية التـغـيـر الحضـارى ، وكيف تأتى من خلال اجتهاد إنسـانى مباشـر موفق وناجح ، وهـو يواجه التحـديات ويطوعها ولا يطاوعها ، يجب أن نذكـر كيف كانت مـسـيـرة الحـياة مـثـيـرة ، عندمـا توجـهت مع كـل انتـصـار يحـبط هـذه التـحديات ، أو يبطل مـفـعولهـا ، فى اتجاه التـغـيـر الحضـارى الأفـضـل . ولقد بلغت حركة الحياة نقطة التحول الحضارية ، التى بدأ عندها التغير الفعال ، من خلال اقتحام ميدانين من ميادين العمل والاجتهاد والتفاعل الإنسـانى . والمقـصـود بالتـفاعل بالـضـبط ، هـو طـلـب استـخـدام الأرض والانتفاع بالموارد المتاحة فيها ، استـخدامـاً جعل الإنسان حاكمـاً ومتـحكمـاً فى عمليات الإنتاج .

وفى **الميدان الأول** ، أفلح الاجتـهاد الإنسانى فى استـئنـاس الحيوان وترويضـه ، وعكف على اقتناء القطعان من حـيـوانات منتـخـبة . وعـاش عندئذ البداوة فى قبيلة تجمع أوصال التشكيل الاجتماعى .

وفى **الميدان الثانى** أفلح الاجتـهاد الإنسـانى فى استـئـناس النبات ، وعكف على زراعـة الأرض وانتـاج مـحـاصـيل منتـخـبـة . وعـاش الناس عندئذ الاسـتقرار ، فى تشكيل اجتماعى مناسب آخر .

وسـواء عاش الإنسـان مجتمع البداوة ، أو مدنيـة الزراعة ، فلقد أمن هذا التحـول احتيـاجاته ، فى أحضـان ذلك التغيير الاقتـصـادى . وقل أن الانتـصـار الذى تحقق فى هذين الميدانين فى تزامن مـعلوم ، قـد كـفل التحول من الاستهلاك والاقتناع بما يحصل عليه الإنسان من الطبيعة ، إلى الانتاج واختيـار الأنواع التى يشتهيها . ولكن الصـحيح أيضـاً أن هـذا التـحول قـد كفل التـفرغ ، لكى ينكب الإنسـان على الإبداع ، ومـبـاشـرة الإنجاز الحضـارى .

وهـذا مـعناه أن هـذا التـحـول الذى اصطنع ثورة اقـتـصـادية ، ولأول مرة فى تاريخ حياة الإنسـان ، قد فجر كل أسباب وعوامل التغيير . ومن

ثم أسفرت عوامل التغير عن ثورة حضارية مادية . وعرف الإنسان لأول مرة ، كيف يؤمن حاجاته الأساسية ، وكيف ينمى أو يعظم هذه الحاجات . بل لقد انتفعت حركة الحياة بثمرات هذه الثورة الاقتصادية والثورة الحضارية ، انتفاعاً على أوسع مدى . كما امتلك الإنسان الحق المباشر فى تأكيد سيادته على الأرض .

واستئناس الحيوان واقتناء القطعان المنتجة من الحيوان فى أقاليم معينة مناسبة ، وضع بين يدى الإنسان فرصة العمل كلها . وتمثلت هذه الفرصة فى ترويض الحيوان والتسيد عليه . وترويض الحيوان والتسيد على المملكة الحيوانية كلها ، وانتخاب الحيوان الأنسب، معناه استسلام الحيوان لكى يحصل منه الإنسان على حاجاته الملحة والضرورية لحساب الحياة . ومعناه أيضًا استسلام الحيوان ، لكى يمتطى الإنسان ظهره أو يضع عليه أحمالاً وأثقالاً ويستخدمه فى النقل لحساب حركة الحياة . ومعناه مرة ثالثة ، العثور على وسيلة تعفى الرحلة من بعض المشقة ، وتكفل لها التحرك الأسرع وتؤمنه على المدى الأطول .

واستئناس النبات وزراعة المحاصيل وغرس الأشجار المنتخبة فى أقاليم معينة مناسبة ، وضع فى يد الإنسان زمام عمر الحياة كلها . وتمثلت هذه الفرصة فى إنتاج الغذاء والكساء . وإنتاج الغذاء والكساء الأنسب للإنسان معناه تأمين حاجات الحياة واستسلام الأرض ، لكى تعطى وتجاوب إرادة حاجة الحياة . ومعناه أيضًا انتاج المحاصيل بالكم والكيف الذى كفل الاستقرار . ومعناه أيضاً أن يؤمن الإنسان غذائه ولا يفزعه طلب حاجة لحساب حركة الحياة . ومعناه مرة ثالثة التوجه الذكى والتفرغ النابه لإنجاز أدوات الحضارة وميسرات الحياة .

وصحيح أن استئناس الحيوان ، ونشأة مجتمع الرعى والبداوة تأتى فى أقاليم معينة ، وأن استئناس الزراعة ، ونشأة مجتمع الزراعة والاستقرار تأتى فى أقاليم معينة مناسبة أخرى ، قد أمن حاجة الحياة وكفل معيشة أكثر رغداً وتنعماً . ولكن المؤكد أن هذا التأمين الحيوى ، قد وضع الإنسان فى وضع الاستعداد للتحول الحضارى ، وأن هذا

التحول الحضارى قد حدد أبعاده ومداه وقدراته وتوجيهاته محصلة الثورة الاقتصادية الأولى الكبرى .

وتمثل هذا التحول بكل أبعاده الاقتصادية ، والحضارية ، والاجتماعية، فى انتقال الإنسان من حياة كرست الاجتهاد كله للاستهلاك ، وهو عالة على عطاء تجود به الأرض بكامل إرادتها سخاءً أوتقتيراً ، إلى حياة كرست الاجتهاد البشرى كله للإنتاج ، وهو يحصل على ما تعطيه الأرض استجابة لإرادته فعلاً . ومع ذلك يجب أن نذكر كيف تولى الاستقرار ، الذى عاش فيه مجتمع الزراعة أمر تنشئة المدنيات ، وما انطوت عليه من إرادة التقدم ، وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية .

ولئن حقق هذا التحول الأمن الذى طمأن الإنسان على حاجاته من غذاء وكساء ، فلقد ثبت الإنسان وجوده فى أحضان الاستقرار ، ولقنه معنى التوازن بين الانتاج والاستهلاك . بل تمادى هذا التحول إلى حد أن أطلق العنان لأعظم التطلعات . كما تسبب فى اتساع دائرة الضروريات، وفجر فى الإنسان كل طاقات الإبداع والابتكار .

ولقد اصطنعت هذه الطاقات المتفتحة التى جاوبت إرادة التطلعات وطاوعت نهم الحياة ، التغير الحضارى والاجتماعى . وتجلى هذا الإبداع الحضارى البشرى فى أروع صوره ، عندما وضع قواعد وأصول المدنيات القديمة ، وولاها أمر ومسئولية البناء الحضارى العالمى .

هذا ، وينبغى أن ندرك دور المجتمع الزراعى الوظيفى ، وهو يضع قواعد وأصول وأسس الاستقرار ، أو وهو يتبنى الإنجاز الحضارى ويمسك بزمامه ، أو وهو يحرك ركب الحياة المستقرة ، ويوجهه فى مسيرة التحضر والمدنية إلى ما هو أفضل . ومن الضرورى أيضًا أن نتصور كيف أدى الاستقرار إلى قيام المدنيات ، وهى تستشعر الأمان فى حضن الزراعة ، أو وهى ترنو بكل الاطمئنان إلى التنعم بأسباب الحياة الأفضل . ولكن المؤكد أن رغد الحياة المستقرة ، التى تحققت للإنسان فى أحضان هذه المدنيات القديمة وتنعم بها ، قد :

١- ألهب قدرات الإنسان وطور اجتهاداته ، لكى ينتج وتزداد معدلات عمله المثمر وإنتاجه.

٢- ألهب نهم الإنسان وطور تطلعاته ، لكى تتنوع حاجاته وتزداد معدلات طلبه واستهلاكه .

وما من شك فى أن الإنسان ، الذى عاش فى إطار المدنيات القديمة ، وتنعم بما صنعت يديه ، قد اجتهد كثيراً ، لكى يجاوب تطلعاته ويشبع حاجاته الضرورية . وما من شك أيضًا فى أن هذا الإنسان قد تنبه إلى جدوى التوازن ، بين الاجتهاد الانتاجى والنهم الاستهلاكى . ولكن المؤكد أن هذا الإنسان قد تلفت حوله وأدرك أن الموطن الذى يحتويه ، ويشهد اجتهاده وعمله ، لا يجاوب إرادته ولا يلبى حاجاته ولا يشبع نهمه وتطلعاته وتنوع حاجاته الضرورية والكمالية . وعندئذ أدرك الإنسان فى إطار هذه المدنيات القديمة ، ومن خلال حسه الجغرافى الفطرى أمرين هامين هما :

(أ) **الأمر الأول** ويتمثل فى مدى التنوع بين الأوطان على صعيد المعروف من الأرض ، ومدى التباين ، بين ما تعطيه الأرض فى كل وطن من هذه الأوطان .

(ب) **الأمر الثانى** ويتمثل فى قضية سوء توزيع المصادر على صعيد المعروف من الأرض ، وما تنطوى عليه من تنوع العطاء الذى يلبى حاجة الحياة .

وتأسيساً على هذا الدرس الذى استوعبه الإنسان، استشعر حاجة أكبر إلى الرحلة. بل بات فى حاجة ملحة إلى هذه اليد الطويلة ، التى تمتد بعيداً وفى كل اتجاه ، لكى تستحضر له حاجات يطلبها بكل الإلحاح ، بعد أن تسللت هذه الحاجات مع التغيير الحضارى إلى صميم ضرورياته ، وتعاظم نهمه الاستهلاكى .

وهذا معناه أن إرادة وحاجة وتطلعات الإنسان فى دنيا المدنيات القديمة ، كانت - بكل تأكيد - من وراء كل الحوافز والدوافع والمنجزات، التى أدت إلى التغيير الحضارى والاقتصادى والاجتماعى الذى تنعم به الناس . ومعناه أيضًا أن هذا التغيير الحضارى، والاقتصادى ، والاجتماعى ، الذى تنعم به الناس ، قد شحذ الحس

الجغرافى الفطرى ، وصعد اهتمام الإنسان بالرحلة ، وأحسن توظيفها فى خدمة وتلبية حاجات الحياة .

الرحلة وتأمين الحياة :

لأن الرحلة تجربة عاشها الإنسان على المدى الطويل ، يمكن أن ندرك كيف صعد الاهتمام بتوظيفها . ولقد أصبحت الرحلة فى الذهاب وفى الإياب ، وكأنها يد الاستقرار الطويلة والقوية ، التى طاوعت إرادة الإنسان . وصحيح أنها كانت تحمل الإنسان مشقة السفر والاغتراب ، ولكنها فى نفس الوقت عملت عملاً مثمراً وإنجازاً مفيداً .

وكان من شأن الاستقرار المتمدين ، كلما افتقد حاجة تطلبها الحياة فى الأرض التى تحتويه أن يخرج الرحلة فى طلبها ، أو أن يمد هذه اليد الطويلة فى الاتجاه المناسب ، وإلى المكان المناسب ، لكى تحقق الهدف وتلبى الحاجة . وأصبحت الرحلة عندئذ قطاعاً حيوياً فعالاً من قطاعات الحياة ونبضها المتمدين ، فى مواطن المدنيات القديمة .

وهكذا ينبغى أن ندرك كيف تحمل الحضور الإنسانى المتمدين فى مواطن المدنيات القديمة ، التى عاشت الاستقرار وتنعمت بالتغيير الحضارى،والاقتصادى،والاجتماعى ، مسئولية الرحلة وتوظيفها . وتمثلت هذه المسئولية فى :

١- صناعة وتطوير وسائل الرحلة فى البر والبحر ، وتأمينها وهى تضرب فى المجهول وعلى الطريق .

٢- تدريب المحترفين والهواة وإعدادهم الإعداد الأنسب لإنجاز الرحلة ، ومواجهة الخطر أحياناً ، والمجهول أحياناً أخرى .

٣- توظيف الرحلة وحسن استخدامها فى أداء المهمة المنوطة بها .

ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر -كيف تحملت المدنيات القديمة فى الشرق القديم - وادى النيل الأدنى - وسهول الرافدين-الجنوب العربى - وفى عالم البحر المتوسط ، وفى الصين مسئولية ، تجهيز وتوظيف الرحلة . بل لقد أعطت هذه المدنيات نفسها

حق تطوير أداء الرحلة الوظيفية . وما من شك فى أن المدنيات القديمة قد أخضعت أمر هذا التطوير لإرادتها وممارسته بالفعل ، لكى تنتفع بالرحلة فى البر والبحر ، ولكى تطل من خلالها وتتعامل مع العالم من حولها لحساب حركة الحياة .

هذا ، وينبغى أن نتبين كيف جاوبت الرحلة فى البر ، والرحلة فى البحر على حدٍ سواء ، إرادة أفصحت عنهما أو أفضت إليهما حاجة الحياة ومطالب الإنسان فى هذه المدنيات القديمة .ولقد تمثلت هاتان الإرادتان الحيويتان فى :

١- تأمين حاجة تطلبها الحياة لكى تتنعم حركة الحياة ، فهى رحلة تجارة وتعامل تجارى وعمل اقتصادى ، حيث تتصدى لاستحضار السلع والمنتجات والتبادل عليها .

٢- تأمين استقرار وسلامة الحياة ، لكى تطمئن حركة الحياة . فهى رحلة قتال وتعامل حربى عسكرى ، حيث تتصدى لمطاردة العدوان ودرء الخطر وإحباطه .

٣- تأمين حاجة النظام والانضباط ، لكى تؤمن حركة الحياة . فهى رحلة سفارة ، حيث تتصدى لنقل الرسائل وتوصيل التعليمات فى الدولة ، أو بين الدولة والدول الأخرى .

وصحيح أن حاجات المدنية وما انطوت عليه من تغير حضارى واقتصادى،واجتماعى ، قد أكدت قيمة وجدوى الرحلة ، فتشبثت بها حركة الحياة . وصحيح أن حاجات المدنية وما ارتبطت به من تغير حضارى واقتصادى واجتماعى ، قد طورت أداء الرحلة ووسعت مداها وشعبت أهدافها . وصحيح أن تطوير أداء الرحلة ، قد دعا إلى التمييز الفعلى ، بين رحلة التجارة ، ورحلة الحرب ، ورحلة السفارة . ولكن الأهم من ذلك كله أن صار أمر الرحلة وتوظيفها ، وهى تمضى فى اتجاه التخصص والعمل التخصصى .

والمقصود من التوجه التخصصى بالضبط ، هو تخصيص الرحلة فى أداء دور وظيفى معين . كما هو تخصيص زمرة متخصصة من

الرجال للقيام بالرحلة وتولى أمرها . وكان من شأن هذا التوجه أن تحلى الرجال المتخصصون بروح الجسارة وإرادة المغامرة ، وأن تأتى الإنجاز فى أجدى صوره .

وهذا – من غير شك – أول إمعان فى تخصص وتخصيص الرحلة الوظيفى . بل قل هذا هو أول توجه نحو اختيار المتخصصين وأصحاب الخبرة، من أجل انجاز الرحلة وبلوغ الغاية من توظيفها المتخصص . وهذا الإمعان وهذا التوجه علامة من علامات الاهتمام الشديد بالرحلة وبما تنجزه ، سواء خرجت وعملت لحساب التجارة ، أو خرجت وعملت لحساب الحرب ، أو خرجت وعملت لحساب السفارة .

وفى الوقت الذى أعطت المدنيات القديمة نفسها حق الاهتمام بالرحلة ، وتطوير الأداء الوظيفى لها وتخصيصه ، اشتركت ، الدولة – الحكومة – مع بعض الأفراد ، فى تحمل مسئولية تجهيز وإعداد وتشغيل وتوظيف الرحلة .كما تحمل هذا الاهتمام المشترك مسئولية حفز وتوظيف الخبرة والإبداع – بكل الهمة – فى تطوير وسائل النقل والانتقال الأفضل ، لحساب الرحلة فى البر والبحر على السواء . وفى قصة تاريخ مصر ومدينتها العريقة ، مثل جيد يصور معنى وجدوى هذا الاهتمام بالرحلة والتجهيز لها (١) .

ولأن الرحلة فى البر أو فى البحر ، بعيدة المدى ، وكلفتها غالية ، والعائد منها ثمين ، فلقد تحملت الدولة وبعض أصحاب المصلحة مسئوليات تمويل الرحلة ، فى مقابل تكليفها بأداء المهمة أو المهام المنوطة بها . كما تحملت أيضاً مسئوليات اختيار الرجال الأنسب ، من ذوى الخبرة والجسارة والكفاءة ، من أجل القيام بالرحلة ، وإنجاز المهمة

---

(١) ارسلت مصر الفرعونية فى استحضار الأخشاب من مناطق وجزر فى عالم البحر المتوسط الشرقى ، لتصنيع السفن الأنسب للرحلة البحرية طويلة المدى.

كوبر أ.د : جغرافية النقل البحرى ترجمة محمود ربيع الملط ص ١٥ – الإسكندرية ١٩٧ .

وبلوغ الغاية . وهذا معناه أن هذه المدنيات القديمة التى عرفت النظام والإدارة وتشكيل الحكومة ، قد أمسكت - إلى حدٍ كبير - بزمام الرحلة، وهى رحلة تجارة لكى تؤمن حاجات الحياة ، أو وهى رحلة حرب لكى تؤمن استقرار الحياة ، أووهى رحلة سفارة لحمل الرسائل ونقل التعليمات .

والأخذ بزمام الرحلة معناه استشعار المسئولية الكاملة ، وتحديد الهدف الصريح ، وترقب النجاح فى إنجاز المهمة . وهذا - فى حد ذاته - ضمان حقيقى كفل - فى ذلك الوقت :

١-أن تتوجه الرحلة توجهًا صحيحًا ، إلى الأداء الوظيفى المتخصص وإنجاز المهمة المنوطة بها ، فتتفرغ للعمل التجارى واستحضار السلع ، لأنها رحلة تجارة وتبادل تجارى وحصول على سلع معينة ، أو تتفرغ للعمل العسكرى ، لأنها رحلة غزو وتأديب عدو وإحباط عدوان ودرء خطر معين ، أو تتفرغ لنقل الرسائل وإبلاغ التعليمات .

٢- أن يتبنى إنجاز الرحلة ومسئولية الخروج إليها والعودة منها ، فريق متخصص من أصحاب الخبرة وأهل الثقة ، يتولى وضع الرحلة موضع التنفيذ ، وتأمينها فى إطار الهدف أو الأهداف الحقيقية ، التى جهزت وخصصت من أجلها .

٣- أن يتحدد الهدف أو الأهداف الحقيقية من الرحلة ، وتوجيهها فى الذهاب فى الوقت المناسب ، وفى الاتجاه المناسب ، لكى تنجز المهمة التى كلفت بها ، قبل أن ترجع وتعود سالمة غانمة .

هذا ، وعندما أمسكت المدنيات القديمة بزمام الرحلة فى البر أو فى البحر ، كان من ورائه ، اجتهاد هو الذى كفل الكشف الجغرافى ، وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية . وقل لم يكن ذلك الالتزام أوالتوجه متجرداً أو من غير هدف صريح . وعندما وظفت هذه المدنيات القديمة الرحلة فى خدمة التجارة وحركة التعامل التجارى ، أو فى خدمة الحرب وطبيعة العمل العسكرى ، أو فى خدمة نقل الرسائل ، لم تتجاوز أبداً حد التزاماتها والتوجه الصحيح المجدى نحو الهدف أو الغاية . وهذا

معناه أن أمر الاهتمام بالرحلة لم يكن أبداً من قبيل الإفراط فى التسلط والمركزية وتأكيد سلطة الدولة وتؤمن . بل كان مآل هذا الأمر كله ، أن تكفل الدولة حسن توظيف الرحلة ، وحسن استثمارها .

بل وينبغى أن ندرك كيف أن نظم الحكم فى المدنيات القديمة المتحضرة ، لم تتنصل أبداً من هذه المسئولية وتحمل الأعباء ، بعد أن طال أمد الرحلة وتكرر خروجها وزادت كلفتها زيادة باهظة ، وطلبت التحلى بروح المغامرة والجسارة ، وهى تخاطر وتضرب فى المجهول فى الذهاب والإياب . وهذا معناه أنه لم يعد فى مقدور الرحلة أن تعمل ، وأن تؤدى دورها ، وأن تطمئن ، من غير نظام جيد مناسب، يؤمنها ويخطط لها ويمولها، ويوظفها التوظيف الأنسب .

ولقد كفلت الرحلات شبه المنتظمة أحياناً ،والمنتظمة أحياناً أخرى، وهى تعمل باجتهاد فى خدمة تجارة المرور والعبور ، خلق ونشأة أو تبنى هذا التنظيم ، فى بعض المدن والمستوطنات فى المواقع المنتخبة ، التى تمر بها قوافل الرحلة . وأسفر هذا التبنى عن الارهاص المبكر لما عُرف فى وقت لاحق باسم المدنية الدولة City State . وهذا معناه قيام علاقة متبادلة ومصلحة مشتركة ربطت بين النظام الحاكم والرحلة . فلا الرحلة تستغنى عن النظام الذى يكلفها ويؤمنها ، ولا النظام يستغنى عن الرحلة ، الذى يوظفها وينتفع بخدماتها .

وهكذا لم يعد مقدور أى إنسان أن ينفرد بتوظيف الرحلة ، أو أن يتحمل وحده مسئولية الرحلة ، ومخاطرها على الطريق فى البر، أوفى البحر . وهذا معناه أن الرحلة كانت تطلب عون الحكومة والنظام ، وتركن إليه فى بعض الأحيان ، وأن الرحلة كانت تسفر عن وجود هذا النظام والحكومة ، وتدعم سلطانها فى بعض الأحيان الأخرى . وهل يخفى دور الرحلة وأدائها الوظيفى المنتظم فى خدمة التجارة ، فى نشأة أو إقامة حكومة الدولة المدنية فى بعض الأقاليم ، التى شهدت حركة تجارة المرور [١] ؟وهل يخفى دورالرحلة فى دعم وجود سلطان هذه

---

(١)مراكز التجارة فى بادية الشام التى شهدت رحلات التجارة وانتفعت بتجارة=

الحكومة واجتماع أصحاب المصالح في رحلة التجارة تحت مظلة الأمن التى تنشرها ؟

وهذا معناه - بكل تأكيد - أن طبيعة وقدرات وتوجهات النظام الحاكم ، الذى أسفرت عنه المدنية القديمة المستقرة والمتنعمة فى أحضان الزراعة ، أو فى أحضان التجارة ، كانت مؤهلة تمامًا لكى تتحمل مسئولية تنظيم وحسن توظيف الرحلة لحساب حركة الحياة التى قبلت وانتفعت بالنظام ، وبالانتظام ، وبالأداء المتخصص للرحلة . ومعناه أيضًا أن طبيعة وقدرات وتوجهات الرحلة ، التى خدمت تنعم واستقرار وأمن المدنيات القديمة وحركة الحياة فيها ، كانت فى حاجة للنظام ودور الدولة التنظيمى ، لكى تحظى بالأمن والرعاية والاطمئنان، وتنال الحظوة والعطاءوالمكافأة .

ولقد ثبت وجود نظام نقل بحرى دولى فى مياه الخليج العربى فى الألف الثالثة قبل ميلاد المسيح . وكانت واضحة التمركز فى جزيرة البحرين ، التى تقع بين العراق - مدنية ما بين النهرين - ومدخل الخليج العربى - مضيق هرمز - وظهرت كواحدة من المراكز الوسيطة فى ذلك العهد . وكانت تقصدها السفن القادمة من عمان مشحونة بالخشب والنحاس والديوريت ، والقادمة من المحيط الهندى ، مشحونة بالفخار والذهب والفضة والعاج (١) .

وقامت جزيرة كريت فى عالم البحرالمتوسط بدورمماثل إلى حد كبير . وكانت كريت فى موقعها الجغرافى ، وما تمتلكه من خبرات ومهارات وإمكانيات تبنى السفن الجيدة ، وتستخدمها فى رحلة الوساطة التجارية . وكانت رحلات تجارة جزيرة كريت تجوب البحر

= المرور ، احتوت هذا النمط المبكر من حكومة المدنية . وكانت سلطة الدولة أو النظام فى هذا النمط مسخرة أكثرمن أى شىء أخر للإشراف على حسن أداء الرحلة وتأمينها وانتظام حركة التجارة .

(١) كوبر أ.د : المرجع السابق ص ١٣ .

المتوسط ، وتلبى الخدمة المأجورة ، لحساب بعض النظم الحاكمة فى المدنيات القديمة ، فى عالم البحر المتوسط . بل لقد تحكم تجار كريت ، واحتكروا تجارة البحر المتوسط احتكاراً حقيقياً ، إلى حوالى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد . ويعتقد الباحثون أن مهارة أهل كريت فى توظيف وحسن استثمار الرحلة البحرية التجارية ، قد رسخ الحضارة الكريتية ، ووضع البدايات المبكرة لحضارة اليونان القديمة (١) .

وهكذا أطلقت المدنيات القديمة فى قلب جزيرة العالم ، فيما حول الأذرع البحرية - البحر المتوسط - البحرالأحمر - الخليج العربى - عنان الرحلات ، لكى تعمل بكل النشاط فى البر والبحر . بل وتولت نظم الحكم فى أحضان هذه المدنيات ، أمر تنظيم هذه الرحلات التجارية بصفة خاصة ، والإشراف عليها وتأمينها .

والألف الثالثة قبل الميلاد ، هو التاريخ الذى سجل هذا الانطلاق العظيم فى شأن تنظيم الرحلة بصفة عامة . ومع ذلك ربما شهدت الألف الرابعة قبل الميلاد إرهاصات هذا الانطلاق العظيم والتجهيز له ، لحساب الأمم والشعوب فى بعض المدنيات القديمة . وما من شك فى أن الحكومات قد أتقنت توظيف الرحلات توظيفًا متخصصًا نافعًا ، ومستجيباً لحاجة الحياة ، ومسارات التحضر والمدنية ، فى إطار هذه المدنيات القديمة .

وكان من شأن هذه المدنيات القديمة ، سواء تمثلت فى مدنية زراعية أو فى مدنية تجارية ، وتنعمت بالاستقرار وعرفت كنه ومغزى التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، أن حددت أهداف الرحلة السلمية ، ووظفتها فى خدمة العمل والوساطة التجارية . ورحلات مصر الفرعونية فى البحر الأحمر إلى بلاد بنت (٢)، ورحلات أهل كريت

---

(١) كوبر أ.د : المرجع السابق ص ١٥ .

(٢) Hawkes & Wodlley : Prehistory and the beginnings of civilization P. 603 London , 1963

والفينيقيين فى البحر المتوسط (١) ، ورحلات العرب فى الخليج العربى والمحيط الهندى(٢) ، تصور - جميعها - مدى انهماك هذه المدنيات والنظم الحاكمة فيها ، فى تبنى الرحلة ، وتوظيف اجتهادها المثابر لحساب العمل التجارى الاقتصادى . كما تصور حمولات السفن من بضائع وسلع ومنتجات مدى زيادة الطلب على منتجات لا يوفرها سوى التجارة والتبادل التجارى ، ومدى نمو الطلب على منتجات لا يدعو إليها إلا التحضر ، واتساع دائرة الضروريات وارتفاع معدلات الاستهلاك .

وكان من شأن هذه المدنيات القديمة ، سواء تمثلت فى مدنية زراعية ، أو فى مدنية تجارية ، وتخوفت من العدوان ، وعرفت كنه ومغزى الأخطار التى تؤرق الاستقرار ، أن حددت أهداف الرحلة العسكرية ، ووظفتها فى خدمة العمل الحربى وإحباط العدوان دفاعاً أو هجومًا . وحملات الرحلة العسكرية التى كرست لإحباط العدوان على أمن واستقرار الحياة فى جنوب مصر الفرعونية(٣) ، وحملات الرحلة العسكرية التى توجهت لتأديب البداوة وتقليم أظافر العدوان على أمن واستقرار الحياة فى بادية الشام (٤)، تصور - جميعها - مدى انهماك المدنية المصرية والنظام الحاكم فيها ، فى تبنى الرحلة وتوظيف اجتهادها المثابر لحساب الأمن وتأمين الحياة . كما تصور نتائج هذه الرحلات كيف كان حسن توظيف الرحلة الحربية التى أشاعت

---

(١) كوبر أ.د : المرجع السابق ص ....

(٢) الشامى : الموانى السودانية - دراسة فى الجغرافيةالتاريخية - الألف كتاب - القاهرة سنة ١٩٦٢ .

(٣) Breasted , J H. : A History of Ancient Egyptians , London , 1911 .

(٤) أخذت هذه الرحلات وحملات الردع شكل التكليف المباشر الذى تتولى أمره قوات عسكرية مدربة تنظمها الدولة . وتشن هذه الحملات شكلاً من أشكال الحرب الوقائية لإجهاض التحركات العدوانية . ويحكى تاريخ مصر الفرعونية كيف توجهت هذه الحملات إلى النوبة وإلى الشام من آونة لأخرى لأداء هذه المهمة .

الأمن ، كفيلاً بحسن اداء الرحلة التجارية وانتظامها ، وباطمئنان استقرار الحياة ومضيها فى انجازها الحضارى المفيد .

وكان من شأن المدنيات القديمة ايضاً ، أن تتواصل علاقتها سلماً أو حرباً . وكانت رحلة السفارة التى تتحمل مسئولية نقل الرسائل والتعليمات فى المدنية ، مسئولة أيضاً للتواصل بين المدنيات . وفى حالة الحرب قد يكون السفير مطلوباً ، لكى يتجسس أو يتحسس ويعود بالمعلومات الجغرافية عن الأرض التى تشهد المعركة الحربية ، أو على الناس الذين يحملون السلاح .

كما كان من شأن هذه المدنيات القديمة ، التى تصدت لتجهيز الرحلات ، واختارت لها الأهداف والرجال ، والاتجاه الصحيح فى البر أو فى البحر ، أن تنعم بإنجازات الرحلات ، وأن تهتم بنجاحاتها . ومن أجل ذلك ، ضمت إلى كل رحلة من هذه الرحلات ، أو كرست لها الخبرات الماهرة . ولقد تمثلت هذه الخبرات الماهرة فى :

١- رجال مدربون (١)، يعرف الواحد منهم كيف يوظف الحس الجغرافى الفطرى وحدسه أحياناً وإنجازات التفكير الجغرافى الفلكى أحياناً أخرى ، فى خدمة الرحلة وتوجيهها ، لكيلا تضل على طريق الرحلة فى الذهاب ، أو فى الإياب .

٢- رجال مدربون ، يعرف الواحد منهم كيف يوظف الرحلة والرؤية التى تتكشف لها على الطريق فى البر أو فى البحر ، فى شحذ الحس الجرافى الفطرى ، وتنمية التفكير الجغرافى وإشباعه ، لكى يضيف إضافات مفيدة إلى رصيد المعرفة الجغرافية .

واعتباراً من الألف الثالثة قبل الميلاد ، كانت الرحلة فى البر أو فى البحر على حد سواء ، عملاً منظماً ومنضبطاً بشكل يلفت النظر . بل

---

(١) نعنى الدليل الذى يصحب الرحلة وهو يعرف الطريق ومسالكه ، وهو قادر على أن يختار الطريق الأفضل ، أو أن يحدد الاتجاه الصحيح .

كان تحرك الرحلة وتوجهها إلى الهدف فى الذهاب ، وعودتها سنفرة فى الإياب ، تحركًا منتظمًا . ومن ثم كانت الرحلة سبيلاً من اهم واعظم سبل الانفتاح العظيم المنتظم ، الذى أطلت به ومن خلاله المدنيات القديمة على ما حولها ، من أقطار وشعوب وحركة حياة ونبض حضارى واجتهاد انتاجى .

ولقد انتفعت حركة الحياة والمصلحة المشتركة للناس فيها ، بهذا الانفتاح المنظم ، وأحسنت استثماره . وأصبح الاجتهاد الجغرافى بكل ما يملكه من حس فطرى متيقظ ، وتفكير جغرافى متفتح فى معية الرحلة ، عيناً مبصرة تخدم هذا الانفتاح ، وتحسن توظيفه والانتفاع به. كما أصبحت الرحلة المنظمة وتوظيفها المنتظم عيناً تعاين الصور الجغرافية ، وقناة من أهم وأخطر قنوات الاتصال المباشر ، بين أوطان المدنيات القديمة والأقطار والأمصار ، التى ذهبت إليها وعادت منها ، وتعاملت مع الأقوام والشعوب فيها .

وهذا معناه أن الرحلة التى اصطحبت الاجتهاد الجغرافى فى معيتها ، قد وضعته بكل ما يملك من حس جغرافى فطرى متيقظ ، وتفكير جغرافى فطن متفتح ، فى مواجهة مباشرة مع الرؤية الجغرافية. ولقد استشعر هذا الاجتهاد الجغرافى الذى بصّر الرحلة المصالح المتبادلة بين الناس والأقطار ، واستثمر فى نفس الوقت ثمرات هذه المواجهة ، التى نمت مدركاته الجغرافية .

وبناء على هذه المدركات الجغرافية ، التى أسفرت عنها التجربة فى الميدان ، الذى تجولت فيه الرحلة وأنجزت أغراضها ، عكف التفكير الجغرافى المنفتح ، على استيعاب وتفهم وتقصى حقيقة معنى ومغزى وكنه وحدة الناس ووحدة الأرض ، ووحدة مصير الناس على الأرض ، ووحدة مصالحهم فى حركة الحياة . وهذه – بكل تأكيد – حقيقة جغرافية كبرى ، أمسكت الاجتهادات الجغرافية التى خرجت فى معية الرحلة ، بأهم أطراف الخيوط المتداخلة فى نسيجها المادى والمعنوى . ولقد بنى عليها فيما بعد ، تصور مدى عالمية الفكر الجغرافى ، ومدى انفتاح وتفتح هذا الفكر الجغرافى ، على الصعيد العالمى .

والرحلة سواء أبحرت وخاطرت فى عرض البحر ، أو سارت وغامرت على صعيد البر ، فى اتجاه الهدف ، لكى تؤدى دورها الوظيفى المتخصص ، لم تتجرد من غرض الانفتاح على المنظور الجغرافى على الطريق من حولها بكل أبعاده . بل لقد تطلعت دائمًا إلى اكتساب الخبرات واستثمار الرؤية والمعرفة الجغرافية ، والتبادل عليها .

وما من شك فى أن التلازم فى الرحلة بين اجتهاد كرس اهتمامه بحركة الرحلة وإنجاز أغراضها ، واجتهاد آخر كرس اهتمامه بترشيد الرحلة وبالرؤية الجغرافية ، قد أعطى هذا الانفتاح معناه الحقيقى وأبعاده الصحيحة . بل لقد فرض هذا الالتزام وتلك الصحبة ، شكلاً مباشراً من الالتزام بين الأطراف المعنية ، المشاركة فى الرحلة . وأصبح من حقنا أن نسأل فى شأن هذه الصحبة فى الرحلة ، عن من الذى يخدم من ؟ أو من الذى يتبادل المنفعة مع من ؟

وما يهمنا بالفعل من أمر الرحلة فى هذه المرحلة ، التى لم تخرج أبداً من اجل الكشف الجغرافى ، ولم يكن فى نيتها أن تفعل ، أنها قد اصطحبت معها الاجتهاد الجغرافى . وفى مقابل ترشيد الرحلة على الطريق ، كيلا تضل أو تضيع ، أباحت للاجتهاد الجغراقى حق المعاينة والمشاهدة ، ومواجهة الرؤية الجغرافية الكاشفة على الطريق . بل وأتاحت الرحلة للاجتهاد الجغرافى ، الذى خرج فى معيتها ، أن يعرف وينمى معرفته بالمنظور الجغرافى من حوله .

وصحيح أن حسن الصحبة بين الاجتهاد الجغرافى والرحلة ، قد فرضت عليه أحياناً أن يتكتم المعرفة الجغرافية (١) ، تحسباً لما يمكن أن يترتب على ذيوعها وانتشارها ، من منافسات تتضرر بها مصالح الرحلة وأغراضها . وصحيح أن الاجتهاد الجغرافى فى صحبة الرحلة قد أذعن وامتثل وتكتم المعرفة الجغرافية، التى اطلع عليها لحساب المدنية

---

(١) Cary , M & Warmington , E.H. . The Ancient Explorers (Pelican Book) London 1929 , P. 76 .

التى ينتمى إليها . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجغرافى قد انتفع بهذه الصحبة انتفاعاً حقيقياً ، لأنها استنفرت حسه الجرافى الفطرى الفطن، وأثارت تفكيره الجغرافى المتفتح وحفزته .

ومعظم الروايات التى قصت حكاية الرحلات وسجلت مدى نجاحها، قد احتوت فى صلبها الحقيقى أحياناً ، أو فى حواشيها أحياناً أخرى ، ذكر الرؤية الجغرافية . بل ربما أضافت الانطباعات التى أسفرت عنها ، واستشعرت بها ورددت الحديث عنها ، وأسمعتها لكل من أصغى إليها بشغف . ولا يعيب هذه الرواية التى تتحدث عن المنظور الجغرافى فى معظم الأحيان، إلا الاستغراق فى الخيال ، أو سرد العجائب والغرائب ، أو الانزلاق فى التخريف الأسطورى الكاذب .

وصحيح أن معظم الروايات قد أغرقت الرؤية الجغرافية ، وشوهت معالمها الصحيحة ، فى بحر من الخيال الأسطورى الشارد ، بحسن نية أحياناً ، وبسوء نية أحياناً أخرى ، وهى تحكى وتقص وتروى وتسجل عن مشاهداتها الجغرافية - على الطريق بقصد خبيث متعمد ، أو بقصد ساذج غير متعمد ، فإن رواية من هذه الروايات الجامحة أو عرض أسطورة من هذه الأساطير الشاردة ، لم يكن من بين أهدافها الحقيقية أن تضلل المعرفة الجغرافية ، أو أن توقع بها زيف وظلمات الجهالة ، أو أن تغرر لها وتسخر من موضوعية الاجتهاد الجغرافى .

وهل كان من وسع الرحلة أن تفعل ذلك بقصد ، أو أن تترك للأسطورة حرية التغرير بالاجتهاد الجغرافى وإرهابه ، وهى فى حاجة إليه ، ولم تفرط أبداً فى صحبته ، لكى يبصرها ويهديها سواء السبيل فى البر أو فى البحر ؟ والواقع أن الرحلة لم تفعل ذلك بقصد أبداً ، ولعلها كانت ضحية الانبهار ، الذى أوقعها فى بحور الخيال . كما أن الاجتهاد الجغرافى لم يكترث بالخيال الأسطورى ،ولم يتردى فى سوءات شروطه وتخريفه ، إلا لكى يتكتم أحياناً أسرار المعرفة الجغرافية .

وهذه المعانى كلها لا يمكن أن تنتهى إلا إلى :

١- أن الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة ، كان قادراً على تجنب ضلالة السرد الأسطورى وتخريفاته كلها أو معظمها ، لو لم يطلب منه التكتم وإخفاء الحقائق الجغرافية .

٢- أن الرحلة كانت واثقة من صدق ومهارة الاجتهاد الجغرافى ، الذى لا يضلل الرحلة متعمداً ، ولا يضل فى استيعاب الرؤية الجغرافية، إلا بمقدار ما يسيطر عليه الانبهار ، أو العجز فى تفسير الغموض فى بعض الأحيان .

* * *

وهكذا طلبت الرحلة صحبة الاجتهاد الجغرافى وتشبثت به ، سواء اعتمد هذا الاجتهاد على خبرة ماهرة ومعرفة جغرافية سابقة ، وتفكير جغرافى فطن ، أو اعتمد على حسن استخدام حسه الجغرافى الفطرى المتيقظ . كما تشبث الاجتهاد الجغرافى أيضاً بهذه الصحبة ، ولم يفرط فيها ، لأنه استشعر جدوى انفتاح الرحلة على الأقطار والأمصار ، التى تمر بها أو تتعامل معها ، حتى يرى ويشاهد ويتمعن فى المنظور الجغرافى السائد ، فى المكان والزمان .

وصحيح أن أواصر هذه الصحبة التى جمعت بين مصلحة الاجتهاد المغامر الذى تصدى لإنجاز الرحلة ، ومصلحة الاجتهاد الجغرافى الذى بصر مسيرة الرحلة ، على الطريق ، وهى تضرب فى المجهول ، لم تكن أبدا صحبة بين ندين متكافئين . ولكن المؤكد أن طبيعة هذه الصحبة بين التابع والمتبوع ، وهما أصحاب مصلحة مشتركة غير متكافئة ، قد برهنت دائماً على مدى وجدوى الانتفاع المتبادل فيما بينهما .

ومع ذلك ، فإن التلازم فى هذه الصحبة وحتمية هذه الصحبة ، قد دعت أحياناً إلى اجتماع الاجتهاد المغامر والاجتهاد الجغرافى ، فى شخص رجل واحد . وكان من شأن هذا الرجل المغامر ، أن يمسك بزمام الرحلة ، فهو يقود بكل الجسارة ، وأن يوجه الرحلة فهو يبصر ويرشد بكل الخبرة . هذا بالإضافة إلى أنه كان يعاين الرؤية الجغرافية ، فهو يتقصى الحقيقة ، ويخدم المعرفة الجغرافية ، ويكشف عنها، ويضيف إليها .

والرحلة الأولى (تجارة) ، هى التى اصطحبت فى معيتها الاجتهاد الجغرافى ، وفرضت عليه العلاقة بين التابع والمتبوع . وقد عملت وأدت واجبها الوظيفى لحساب التجارة والعمل التجارى (١) . وسواء كانت هذه الرحلة وهى رحلة تجارة ، فردية أو جماعية ، تغامر وتضرب فى البر أو فى البحر ، فلقد انتفعت بهذه الصحبة انتفاعًا مباشراً فى الغدو والرواح.

هذا ولا يمكن أن نقول أن هذه الرحلة لم تضل على الطريق أحياناً، واستشعرت الحرج . ولا يمكن أن نقول أن هذه الرحلة ضاعت وذهبت ولم تعرف كيف تعود أحياناً . ولكن المؤكد أن معظم الرحلات عرفت كيف تعود ، وعرف الاجتهاد الجغرافى أن يبصر مسيرتها فى الذهاب وفى الإياب ، وأن تستحضر معها السلع والمنتجات ، التى خرجت من أجل الحصول عليها . بل قل عاد من شارك فى هذه الرحلة ، وفى جعبتهم محصلة الرؤية الجغرافية .

وكم من رحلات تجارة ، خرجت يحدوها التوفيق فى الغدو والرواح، والاجتهاد الجغرافى يبصرها على الطريق . وحتى لو عادت هذه الرحلات الناجحة ، وتعمدت طمس أو تشويه الحقائق الجغرافية ، أو آثرت أن تكتم المعرفة الجغرافية لسبب وجيه من وجهة نظرها ، لأن الاجتهاد الجغرافى الذى تمرس فى توظيف خبرته لنجاح الرحلة لم يتجرد من هذه الخطيئة ، وصحيح أنه لم يضلل الرحلة على الطريق ، بل كفل سلامتها فى الذهاب والإياب ، ولكن المؤكد أنه اشترك فى خطيئة التكتم ، وطمس وتشويه الحقائق الجغرافية ، اشتراكاً متعمداً .

---

(١) تنوع حاجات الدنيا ، وقدسية حاجات الحياة الأخرى ، فى المدنيات القديمة ، حفز بعض المغامرين للتخصص فى رحلة البر أو فى رحلة البحر . ولقد حول الملوك والأمراء والأثرياء معظم هذه الرحلات طلباً لهذه الحاجات . وسارت هذه الزمرة المغامرة على درب الرحلة بكل النجاح فى خدمة العمل التجارى والوساطة التجارية . وما من شك فى أن هذا التوجه قد سجل نقطة البداية فى سيرة ومسيرة حركة التجارة الدولية وترسيخ قواعدها .

وكان التكتم وطمس الحقائق الجغرافية وتشويهها فى إطار الخلط الأسطورى ، وما انطوت عليه من تخريف أو تزييف - حتى لو كان متعمداً - كان مقصوداً من أجل تضليل من يستمع إلى الرواية عن الرحلة ، وليس من أجل تضييع من يخرج إلى الرحلة . ومع ذلك ، لا يمكن أن نعفى الاجتهاد الجغرافى من هذه الخطيئة ، وذلك التضليل . وهو مسئول بالفعل ، لأنه افتقد الأمانة وانساق فى تيار الضلالة ، التى كانت على غير إرادة التفكير الجغرافى ، وتطلعه إلى توسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، على صعيد العالم .

هذا ولم تنغمس أى حكاية أسطورية رويت ، وشاعت بعد الرحلة فى الخيال وسرد العجائب والغرائب من المخلوقات ، التى تثير الفزع وتبث الخوف من غير قصد دائماً . وفى اعتقادى أن بعض الرواة الذى قص الحكايات عن الرحلات ، كان غير متجرد من الغرض . بل لقد تعمد الراوى دس هذه الغرائب والعجائب فى صلب الرواية ، التى شوهت الدلالة الجغرافية وطمست معالمها ، وصولاً أو تحقيقاً لهدف معين آخر ، يجاوب عدم التجرد من سوءات الغرض غير المعلن .

وكان هذا الهدف - فى الغالب - ماكراً ومغرضاً وخبيثاً ، وهو يبث الخوف والفزع ، أو وهو يروج الخرافة ، أو وهو يجسد المخاطرة والخسارة . ومثل هذا الحدث الكاذب والرواية غير المتجردة يصور ما عرف بأدب الأسطورة . وهو أدب يتجنب الصدق والوضوح والدقة . ولا يسفر مثل هذا الأدب أبداً ، إلا عن ضلال وتضليل أحياناً ، أو عن انبهار وتهويل أحياناً أخرى .

ومحصلة الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة ، التى تنطوى على ضلال وتضليل ، أو على انبهار وتهويل ، لا تكشف النقاب عن وجه الحقيقة العامة بصفة عامة ، والحقيقة الجغرافية بصفة خاصة . وفى أزمة الخلط بين الحدث المثير ، والظاهرة الغريبة ، والشىء المخيف والملاحظة الساذجة ، تضيع هذه الحقيقة وتفتقد معالمها . وسواء انساقت الرواية الأسطورية فى تيار الضلال والتضليل ، أو فى تيار

الانبهار والتهويل ، فإنها لا تفضى إلا إلى التمويه والتكتم ، أو إلى التشويه والطمس . ومن ثم لا يخدم أدب الأسطورة المعرفة الجغرافية حقاً وصدقاً . ولا يجب علينا أن نجرد الاجتهاد الجغرافى الذى سجل هذا النمط من الأدب ، من الغرض الردئ غير المتجرد دائماً .

وهناك سجل حافل بالأساطير وأدب الأسطورة ، الذى حدثت به الروايات عن هذه الرحلة ، التى خدمت العمل التجارى فى البر والبحر، وهناك تخريف وتخويف وتضخيم مكشوف لا يقبله أو يصدقه عقل ، لأنه ساذج ويسخر من أى عقل . ولكن الأهم من ذلك أن نفتقد القدرة على التمييز بين :

١- سياق فى أسطورة تعمدت التمويه ، والتكتم وإشاعة الفزع وهو مغرض .

٢- سياق فى أسطورة لا يتعمد التمويه أو التكتم وإشاعة الفزع وهو غير مغرض .

وصحيح أنه لا ينبغى أن نبرئ هذا التكتم المغرض ، من الخطيئة وخيانة الأمانة العلمية . ولكن الصحيح أيضًا أنه لا يمكن أن تنتفع المعرفة الجغرافية بسياق تصوير جغرافى تعمد التمويه أو لم يتعمد التمويه . ويجب علينا أن ندين هذا الاجتهاد الجغرافى ، لأنه انحرف وتبع هوى من سولت له مصالحه أمر التمويه والتكتم ، وتضيع الحقيقة الجغرافية المفيدة .

وصحيح أن كل الناس قد استمعت بلهفة وشوق وإعجاب إلى الأسطورة المضللة الضالة ، أو إلى الأسطورة الملفقة الكاذبة المثيرة . ولكن المؤكد أن هؤلاء الناس فى مواجهة هذا الانحراف والتضليل ، الذى أسفرت عنه الأساطير ، قد اختلفت انطباعاتهم اختلافًا كبيراً . وتباين الانطباعات، هو الذى ميّز بين فريقين من الناس . وهذان الفريقان هما:

١- فريق ساذج بهره التلفيق وأثاره التضليل ، إلى حد استنفار روح المغامرة والجسارة فيه . ولقد تعلق هذا الفريق ، وهم قلة قليلة

بالرحلة وتشوق إليها وتحمس لها ، على أمل أن يعيش التجربة المثيرة .

٢- فريق أشد سذاجة فزعه الخوف ، وغمره الرعب إلى حد إحباط روح المغامرة والجسارة فيه . ولقد انصرف هذا الفريق ، وهم كثرة غالبة عن الرحلة ،وتهرب منها وتخوف من أن يعيش مثل هذه التجربة المثيرة .

وانزلاق الاجتهاد الجغرافى الذى رشد الرحلة بكل المهارة على الطريق ،وهى تخدم التجارة إلى غياهب هذا التضليل المثير ، كان اجتهاداً ضالاً بكل تأكيد . ومن غير أن يفطن إلى الخطيئة التى ارتكبها ، وتسبب هذا الاجتهاد فى الغموض والإبهام . بل لقد أدى بقصد أو من غير قصد ، إلى تخبط المعرفة الجغرافية تخبطاً شديداً فى كثير من الأحيان .

والعرب فى جنوب الجزيرة والفينيقيون مثلاً ، وهم أكثر العاملين فى حقل الرحلة البحرية مهارة وخبرة ، وأكثر البحارة جسارة ومغامرة فى عرض البحر ، كانوا أكثر الناس فى المدنيات القديمة انفتاحاً على المعرفة الجغرافية . ولكن حرصهم على التكتم وإشاعة الغموض والإبهام ، قد أفرط فى إسكات صوت الحق والصدق والوضوح ، الذى كان ينبغى أن يعلنه ويسجله ويتحدث به ، الاجتهاد الجغرافى لحساب المعرفة الجغرافية(١) .

ومهما قيل فى شأن هذا التكتم ، الذى لم يؤد إلا إلى إخفاء الحقيقة الجغرافية وتبريره ، فإن الاجتهاد الجغرافى غير النزيه ، التفكير الجغرافى فى الغموض والإبهام ، الذى غلف الرؤية الجغرافية بالكذب وأسدل عليها حجاب الخيال ، وأضر ذلك كله بثلاثة أمور هى (٢):

---

(١) شريف ، شريف محمد ، تطور الفكر الجغرافى ص ١٠٥ ، ١٠٦ - القاهرة سنة ١٩٦٩ .

(٢) Skes , P. A History of Explorations , London 1949 .

١- أمر تسجيل البيانات الجغرافية الصحيحة عن المعروف من الأرض ، الذى تعاملت معه الرحلة .

٢- أمر توسيع دائرة المعرفة الجغرافية فى الإطار الصحيح ، الذى وصلت إليه الرحلة .

٣- أمررسم الخرائط الجغرافية ، عن المساحات والأقطار والدروب ، التى سارت فيها الرحلة .

ومن بعد أن أحصينا هذا الضرر وتبيناه ، هل يمكن أن نعفى الرحلة والاجتهاد الجغرافى غير النزيه أحياناً كثيرة ، من مسئولية تضليل مسيرة التفكير الجغرافى ، وابطائها الممل الشديد ؟

والرحلة الثانية (حرب) هى التى وظفتها النظم الحاكمة فى المدنيات القديمة ، وكانت فى خدمة العمل العسكرى البحت . ولقد جهزت هذه الرحلة وأعدت ، لكى تطارد العدوان وتردعه أو تحبطه ، ولكى تدعم الأمن وتؤمنه . واصطحبت الخبرة الجغرافية هذه الرحلة فى الذهاب والإياب ، لكى ترشدها فى الكر والفر .

وكانت الصحبة التى جمعت شمل الاجتهاد العسكرى مع الاجتهاد الجغرافى ضرورية ولازمة وحتمية ، ولا ينبغى التفريط فيها أو الاستغناء عنها . وكيف يتأتى التفريط فى الاجتهاد الجغرافى ، وهو دليل ومرشد يكفل التحرك العسكرى المرن فى الطريق الأنسب ، وفى الاتجاه الصحيح ؟ بل والاجتهاد الجغرافى بدوره لا يتكاسل ولا يتوانى ولا يمتنع ، لأنه يتلهف على معاينة الرؤية الجغرافية ، ويتحمس لدعم التصدى للعدوان وإحباطه.

وفى إطار هذا التوافق بين مصلحة العمل العسكرى الوطنى ، ومصلحة الاجتهاد الجغرافى الذاتى ، كانت الصحبة بين الاجتهاد الجغرافى والمجهود الحربى فى هذه الرحلة ، وهى صحبة بين التابع والمتبوع . ولقد حققت هذه الصحبة أهدافها على الطريق فى الذهاب وفى الإياب . كما حققت أهدافها أيضاً فى الأقطار ، التى أحبطت العدوان

فيها . ويكفى أن تبصر التحرك العسكرى بصفات وخواص الأرض ، لكى تحارب الأرض فى صفه ، ولا تخذله .

ورحلة حرقوف مثلا (١) التى خرجت من جنوب مصر فى اتجاه النوبة إل بلاد يام ، تحكى قصة هذه الصحبة ، بين مصلحة العمل العسكرى ومصلحة الاجتهاد الجغرافى . وتصور الرواية مدى التعاون بينهما على الطريق ، لكى تنجح الرحلة فى الذهاب ، وفى الإياب . ولقد اتاحت هذه الصحبة للاجتهاد الجغرافى فى أن يضع خبراته ، وأن يسخر خدماته بكل الأمانة ، لحساب الرحلة من ناحية ، وأن يشكف النقاب عن هذه المساحات ، التى مرت بها الرحلة وتعاملت مع سكانها من ناحية أخرى .

وسواء كان العمل العسكرى أثناء الرحلة قد أمن الرؤية الجغرافية وعمل لحسابها ، أو كان تأمين الرؤية الجغرافية أثناء الرحلة قد أتاح العمل العسكرى وبصره وعمل لحسابه ، فإن الاجتهاد الجغرافى قد صدق وتحلى بالأمانة ، وهو يرشد مسيرة الرحلة ويبصرها على الطريق لكيلا تضل . وعين الصدق والتحلى بالأمانة فى الأداء قد تمثلت فى :

١- أن يتعرف الاجتهاد الجغرافى على الأرض ، لكى تنحاز إلى صف العمل العسكرى ولا تعاديه وتقف ضده .

٢- أن يتعرف الاجتهاد الجغرافى على الناس وحركة الحياة ، لكى يعرف العمل العسكرى كيف يتعامل معهم .

٣- أن يسجل الاجتهاد الجغرافى معرفته ، ويحكى عن الرحلة من غير تهويل أو مبالغة تشوه الحقيقة الجغرافية .

ولكى يصدق الاجتهاد الجغرافى النصيحة ، ويدعم الهدف الذى خرجت من أجله الرحلة ، ولكى يتحلى بالأمانة فى خدمة المعرفة الجغرافية ، قلب بصره فى الرؤية الجغرافية بكل الفطنة . كما أحسن

---

(١) الشامى، صلاح الدين : دراسات فى النيل ص ١٣ - ١٥ القاهرة سنة ١٩٦٧ .

توظيف حسه الجغرافى الفطرى المتيقظ ، وهو يستشعر أو يتحسس ما يدرك ما تعبر عنه الرؤية الجغرافية ، وما تنطوى عليه من دلالات . كما تجنب الشرود المبالغ الذى يشوه الرواية ، شروداً يسىء إلى الرؤية الجغرافية .

وقلما استباح هذا الاجتهاد الجغرافى الرشيد فى صحبة الرحلة العسكرية لنفسه حق الانزلاق فى سوءة التكتم ، أو التردى فى خطيئة التمويه متعمداً ، إلا إذا كان الهدف هو تضليل العدو وتصيده . وحتى لو زل الاجتهاد الجغرافى واستهوته رغبة فى التهويل والمبالغة ، فإن الحديث عن بطولات وخوارق العمل العسكرى ، قد أفسحت لهذه الشهوة أو الهواية المجال ، بدلاً من عدوان صارخ على صدق ووضح الدلالات الصحيحة عن الرؤية الجغرافية .

وفى الأسطورة التى تحكى عن رحلات بابلية قادها جلجاميش ، بيان يصور كيف انساقت فى تجسيد وتمجيد قوة هذا البطل ، وكيف بالغت وهولت فى تضخيم جسارته الخارقة ، فى أنحاء شبه جزيرة العرب . ومع ذلك لم يتجه هذا الانزلاق فى الحديث الأسطورى ، إلى حد التمويه والخلط والمبالغة التى تضلل المعرفة الجغرافية الواردة فى سياق السرد الوصفى الأسطورى . وكثير من مدونات بعض المغامرين فى الرحلة ، مثل أسر حدون ونبوخذ نصر وسرجون قد حفلت بالتهويل ، فى شأن بطولة كل رجل منهم وشجاعته الخارقة . ولكنها لم تنكب أبداً فى سوءة التضليل الجغرافى(١) .

ومن الطبيعى أن نمتدح المنفعة المتبادلة ، بين الرحلة العسكرية والاجتهاد الجغرافى فى معيتها . بل وينبغى أن نطرى أمانة هذا الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة ، وميله إلى أكبر قدر من التجرد ، وإلى تجنب التكتم والتضليل . ولكن الأهم من ذلك أن نقبل بجدوى هذا الاجتهاد الجغرافى الرشيد ونصدقه ، وهو يجنى ثمرة خروجه فى

---

(١) Cary, M. & Warmington, E.H. : op. cit., P. 234 .

معية الرحلة العسكرية ، ويوسع مدارك العمل الجغرافى . وهو من أجل ذلك اجتهاد موضوعى ، حصيف وأهل بالثناء . وكيف لا نثنى عليه حقاً، وهو الأصدق فى خدمة المعرفة الجغرافية ، والأنفع فى استنفار التفكير الجغرافى ؟

ومن الجائز أن ندرك كيف أشبع الاجتهاد الجغرافى تطلعه وشغفه من الرؤية الجغرافية والتمعن فيها ، وكيف شحذت هذه الرؤية الجغرافية فيه الحس الجغرافى الفطرى ، حتى اتسعت مداركه على الطريق ، وهو تابع وفى وصادق ، ومعاون مخلص أمين ، فى معية الرحلة فى البر أو فى البحر . ولكن الذى ينبغى أن نؤكد عليه بالفعل هو أن هذا الاجتهاد الجغرافى لم يتجسد فى شخص رجل احترف العمل أو التفكير الجغرافى أصلاً. بل ربما كان فى معظم الأحوال من الهواة الذين تيقظ حسهم الجغرافى الفطرى لسبب أو لآخر ، والتهب حماسهم واهتمامهم بالرؤية الجغرافية والتمعن فيها ، وفى دلالتها .

وعظيم أمر هذا الاجتهاد الجغرافى ، الذى استهوته الرحلة (العسكرية) ، فخرج فى معيتها ، وجاوب يقظة حسه الجغرافى الفطرى وانتصر لها . وعظيمة ثمرات هذا الاجتهاد الجغرافى الصادق ، الذى رشد وبصر، ولم يضل أو يضلل متعمداً ، وحافظ على أكبر قدر من التجرد والأمانة والمصداقية . ولكن الذى ينبغى أن نكترث به أكثر من أى شىء أخر ، ونعطيه حقه من التعظيم ، وهو ما انتهى إليه أمر هذا الاجتهاد الجغرافى الأمين ، من إفصاح أو تعبير عن ارهاصات مبكرة تكاد تكشف النقاب ، عن إرادة كشف جغرافى متخصص .

وما من شك فى أن عمق هذا الاجتهاد الجغرافى ، وقد تفجرت فيه تساؤلات مثيرة وتجلت رغبات ملحة ، كادت أن تجاوب على إرادة الكشف الجغرافى المتخصص . وهل لا تعبر كتابات بعض الكتاب المرموقين الذين سجلوا محصلة وإنجازات هذا الاجتهادات الجغرافى عن معنى ومغزى وكنه هذا التفجر ، وتلك التساؤلات ؟ وهل لا يمثل هذا

التفجر ارهاصًا معبراً بكل الصدق عن ما نعنيه بشأن إرادة الكشف الجغرافى المتخصص ؟

والرحلة الثالثة (سفارة) وهى التى وظفتها النظم الحاكمة ، لكى تنقل الرسائل من مكان إلى مكان آخر . وقل أنها فى بعض الأحيان ، كانت تنقل الرسائل المكتوبة أو الرسائل الشفوية ، وهى تعليمات من الحاكم إلى عماله فى الأقاليم . كما كانت تنقل الرسائل المكتوبة أو الرسائل الشفوية ، بين الحاكم فى دولة إلى الحاكم فى دولة أخرى . وسواء كانت هذه الرحلة منتظمة أو غير منتظمة ، فقد خرج فى صحبتها الاجتهاد الجغرافى . وما من شك فى أن معاينة المنظور الجغرافى تتيح شيئًا من المعرفة الجغرافية .

ولا ينبغى أن نتصور ضرورة أن يشارك من تهمه الرؤية الجغرافية، ويلتمس مصاحبة السفير . ذلك أن السفير يخرج متفرداً ، ولكن فى الوقت الذى يتحرى فيه أمانة إبلاغ الرسالة وإنجاز المهمة ، قد ينطوى على رغبة فى التمعن فى المنظور الجغرافى . وقد يعود السفير فى الغالب لكى يقص ويحكى عن رؤيته ، وهو يمضى على الطريق وصولاً إلى المكان الذى ينشده . بمعنى أن كانت رحلة السفارة مسئولة عن الانفتاح على أوسع مدى . وكان هذا الانفتاح من وراء التفتح، والاستجابة لطلب المعرفة الجغرافية ، ومباشرة الكشف الجغرافى .

***

هكذا غدت الرحلة فى البر أو فى البحر ، ومن غير تمييز بين رحلة تجارة أو رحلة حرب أو رحلة سفارة على السواء ، وهى العين المبصرة للاجتهاد الجغرافى فى المدنيات القديمة ، فى مصر والعراق والهند وفارس واليونان . وسواء صدق الاجتهاد الجغرافى وتحلى بالأمانة ، أو لم يصدق فى عطائه وإضافاته إلى المعرفة الجغرافية ، فلقد أحسن وهو تابع وفى أمين ، يرشد الرحلة ، ويحسن استخدام هذه العين المبصرة ، فى توسيع دائرة الكشف الجغرافى .

وعندما أطل هذا الاجتهاد الجغرافى بهذه العين المبصرة على الرؤية الجغرافية أطل بكل التفتح . بل لقد وظف حسه الفطرى المتيقظ وسخر خبرته ومعرفته وتفكيره المتفتح لكى يحقق أهدافًا مخلصة لحساب حركة الحياة . ومع ذلك ربما طاوع الاجتهاد الجغرافى الرحلة ومصلحة الناس فيها ، حتى اضطر أن يغالط ولم يصدق ، لكى يؤمن حاجتهم من تمحيص الرؤية الجغرافية ، والتكتم الشديد على ما تنبىء به .

وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى عمل فى معية الرحلة تحت شعارين هما :

١- توظيف الانفتاح الذى كفلته الرحلة فى خدمة التفتح البصير وهو يتمعن فى الرؤية الجغرافية ، لحساب المعرفة الجغرافية .

٢- تطويع هذا التفتح البصير تطويعاً مخلصاً لما تبتغيه المصلحة المباشرة ، أو غير المباشرة للمنتفعين بالرحلة .

وصدق بعض الاجتهاد الجغرافى صدقًا قد يمثل ارهاصاً مبكراً عبّر عن إرادة كشف جغرافى متخصص . كما عبّر عن توجه صحيح فى العمل لحساب المعرفة الجغرافية . أما عدم صدق بعض الاجتهاد الجغرافى بقصد أو من غير قصد ، فهو الذى هبط بمستوى الكتابة الجغرافية ، إلى المستوى الذى عبّر عنه أدب الأسطورة وضلالاته الكاذبة .

ومع ذلك فلا ينبغى أن ندعى ، أو أن نزعم من غير أن نمتلك الدليل البيّن ، على أن صدق الاجتهاد الجغرافى قد تفتح ، وأن إرادة المعرفة الجغرافية قد نضجت ، حتى أصبحت حافزاً أو دافعًا من وراء الرحلة الجغرافية المتخصصة الخاصة . كما لا يجب أن ندعى أو نزعم من غير أن نمتلك الدليل القاطع ، على أن المعرفة الجغرافية الخالصة النقية ، كانت فى حد ذاتها هدفًا مستقلاً أو غاية متفردة ، حتى تستحق تنظيم وخروج الرحلة المتخصصة الخاصة من أجلها .

ورحلة مثل تلك التى كلف نخاو[1] بها ، فريقًا من البحارة الفينيقيين المغامرين فى القرن السادس قبل الميلاد للطواف حول أفريقية ، هى من ذلك النوع الذى يشتبه فى أمرتخصصها فى الكشف الجغرافى . فهل تصدق هذه الشبهة ؟ وهل كان الهدف الجغرافى هو الهدف الحقيقى ، الذى خرجت من أجله الرحلة ؟ بل وهل خرجت هذه الرحلة بالفعل ، لإنجاز هذا الهدف ؟

وصحيح أن هيرودوت قد تحدث عن هذه الرحلة ، وكيف كلفت بالضرورة ، من أجل إنجاز الهدف . وصحيح أنه قد بيّن فى حديثه كيف يتصل المحيط الأطلنطى بالمحيط الهندى ، وكيف يطوق الاتصال بينهما القارة الأفريقية . وصحيح أن الجدل بين الباحثين حول هذه الرحلة المشتبه فى أمر تخصصها فى الكشف الجغرافى ، قد ألقى عليها ظلالاً كثيفة من الشك والتشكك فى شأنها . ولكن المؤكد فى نهاية المطاف أن الهدف الذى خرجت من أجله هذه الرحلة – إن كانت قد خرجت بالفعل – ليس هدفاً جغرافياً صريحًا فى كنهه أو فحواه . ويعترف كل أولئك الذين تحمسوا لهذه الرحلة ، ودافعوا عنها ، ورجحوا أمر خروجها بالفعل ، اعترافاً صريحاً ، يؤكد على أنها قد خرجت بالفعل ، ووظفت من أجل أهداف اقتصادية أكثر من أى شىء آخر .

***

ومهما يكن من أمر الرحلة فى هذه المرحلة الطويلة اعتباراً من الألف الرابعة أو الثالثة قبل الميلاد إلى المائة الرابعة قبل الميلاد[2] ، فإن جملة الحقائق التى يمكن أن نؤكد على صدقها وواقعيتها ، تأكيداً راسخًا لا يضل ولا يضلل فى شأن الرحلة والاجتهاد الجغرافى فى معيتها ، قد تمثلت فى :

١– أن الرحلة التى تحمست لها حركة الحياة ، وجاوبت إرادة المدنية

---

(١) شريف ، شريف محمد : المرجع السابق ص ٦٢ – ٧٣ .

(٢) تستمر هذه المرحلة على وجه التأكيد إلى قيام الدولة الرومانية .

القديمة وسجلت اجتهاد وجسارة المغامرين فى البر والبحر ، هى رحلة تجارة وتعامل تجارى ، أو هى ورحلة حرب وتعامل عسكرى ، أو هى رحلة سفارة تحمل التعليمات ، أو تخطب الود أو تبلغ التحذير .

٢- أن يد الدولة أو النظام التى مولت وجهزت وكلفت الرحلة ووجهت مسيرتها براً وبحراً فى اتجاه الهدف ، كانت هى الأقوى والأعلى والأكثر انتفاعاً بإنجازات الرحلة ، وما ترجع به من ثمرات .

٣- أن المصلحة المشتركة المتبادلة التى جمعت بين هدف الرحلة الحقيقى ، وهدف المعرفة الجغرافية ، من غير قصد أو تعمد صريح ، لا تكشف عن أى توازن حقيقى بين هذين الهدفين ، من حيث الإنجاز .

٤- أن العلاقة بين التابع والمتبوع فى كل رحلة ، وضعت الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة لإنجاز أغراضها ، ومن غير أن تطلق يديه انطلاقًا متحرراً ، أو من غير أن تؤمنه ، لكى يجنى ثمرة الرحلة ، وينتفع بها انتفاعاً حقيقياً من وجهة نظره .

* * *

الاجتهاد الجغرافى ومدى استثمار الرحلة :

لكى نوغل فى تصور مدى وكنه العلاقة ، بين الاجتهاد الجسور المغامر فى قيادة الرحلة [1] وهو متبوع يطاع وينجز الرحلة من ناحية ، والاجتهاد الجغرافى المتفتح فى معية الرحلة ، وهو تابع مطيع يبصر الرحلة من ناحية أخرى ، يجب أن نراجع أو أن نتابع بعض الرصيد المعروف من هذه الرحلات . والمراجعة التى نقصدها أو نعنيها بالضبط ، لا تكترث كثيراً بتفاصيل تلك المغامرة المثيرة فى أى رحلة . وإنما هى مراجعة من قبيل إمعان النظر فى محصلة هذه الرحلة ، وتمحيصها وحساب جدواها ، من وجهة النظر الجغرافية .

---

(١) هذا لا يعنى ولا ينبغى أن يعنى أبداً أن الرحلة كانت سفارة لأنها بتكليف من الدولة . ذلك أن طبيعة النظام وتوجيهاته كانت من وراء هذا الموقف الذى تبنته الدولة ودون أن تكون الرحلة رحلة سفارة بالفعل .

وتمحيص محصلة أى رحلة وحساب الجدوى من وجهة النظر الجغرافية ، يدعو بكل الضرورة إلى التمييز الواقعى بين :

١- اجتهاد جغرافى أخفى التكتم إنجازه لحساب المعرفة الجغرافية فى طيات السرد الأسطورى المضلل .

٢- اجتهاد جغرافى أعلن عن إنجازه صراحة ، ولم يضيعه فى ثنايا السرد الأسطورى الضال .

هذا ولا تسعفنا حيلة ما للاطلاع على إنجاز ، تعمد الاجتهاد الجغرافى تكتمه أو إخفائه . وكيف يمكن أن نعرف هذا الإنجاز ، وهو مشوه وممسوخ وضائع فى ثنايا السرد الأسطورى المضلل ، بكل ما ينطوى عليه من خرافات وتهويل وأكاذيب ؟ ومن ثم لا تفلح دراسة ما فى تحليل هذا الانجاز الممسوخ ، أو فى تقويم ذلك المسخ المبهم .

ولا ينبغى أن نشك أو أن نشكك فى أن التكتم ، كان تكتماً مقصوداً معتمداً . وكان هذا التكتم المتعمد ، وكأنه الحجاب الذى تولى أمر حجب المعرفة الجغرافية (١) واخفاء معالمها عن حركة الحياة . ومع ذلك فإن ذلك الحجاب قد كفل للفريق الذى تعمد التكتم ، واخفاء المعلومات الجغرافية، حرية الانتفاع بهذه المعرفة المخفية ، أو المتكتمة انتفاعًا خصوصياً . وهل فعل الفينيقيون فى البحر المتوسط والعرب فى

---

(١) كان الفينيقيون فى البحر المتوسط والعرب فى المحيط الهندى أكثر المغامرين العاملين فى رحلة البحر لحساب التجارة والتعامل التجارى حرصاً على تكتم المعرفة الجغرافية والانطواء عليها . وكان هذا التكتم الجغرافى والتمويه متعمداً، لاشاعة الغموض والابهام وتضليل أى منافسة متوقعة لهما . وامعاناً فى التكتم واشاعة الغموض وتخويف المنافسين لهم انزلق الانجاز الذى تمثل فى حكايات إلى ضلالة وتخويف الأسطورة . وهل يخفى أثر ما ورد فى الأساطير بشأة عروسة البحر والتنين من حيث بث الرعب واثارة الفزع واستنفار الخوف ؟ ولقد كان المطلوب - بكل تأكيد - أن يجمد الرعب والفزع أى اجتهاد أو محاولة أو أى مغامرة طموحة ، وأن يحبط أى منافسة ويبطل مفعولها . وادب الأسطورة الذى سجل ما يعنيه هذا التكتم الجغرافى ، لا يمكن أن يكون نافعًا لحساب المعرفة الجغرافية . وهل يمكن الانتفاع بالكتابة الأسطورية التى طمست معالم الرؤية الجغرافية طمساً شديداً ؟

المحيط الهندى غير ذلك ؟[1] ومعروف أنهم كانوا يعرفون ويتكتمون وينتفعون ، ويحرم غيرهم لأنهم يخفون عن غيرهم ، أمر هذه المنفعة.

وهذا معناه أن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى تكتم المعرفة الجغرافية تكتماً متعمداً ، كان اجتهاداً مغرضاً غير متجرد . بل لقد كان اجتهاداً منغلقًا ومضللاً ، لم يؤمن بالانفتاح الجغرافى ، ولم يخدم التفتح الجغرافى . ومعناه أيضاً أن هذا الاجتهاد الجغرافى المنغلق ، قد تعمد الخصوصية فى الانتفاع بالمعرفة الجغرافية ، أكثر مما طلب التخصص فى المعرفة الجغرافية . وفى اعتقادى أن اثارة أى جدل حول هذا الاجتهاد الجغرافى غير المتجرد المغرض ، الذى تعمد التكتم وسقط فى سوءات الخصوصية ، لا يفيد ولا ينفع إلا فى شأن تبرير هذا السلوك .

وفى هذا الاتجاه الذى انزلق فيه الاجتهاد الجغرافى غير المتجرد باختياره فى الخلط والمغالطة والتخريف ، يجب أن نتبين كيف خذل المعرفة الجغرافية وخان الأمانة . وما من شك فى أن بعض المدنيات القديمة ، قد وجهت الاجتهاد الجغرافى فى هذا الاتجاه ، ويقع عليها وزر هذه الخطيئة . ولا يعبر ذلك التحريض إلا عن انغلاق هذه المدنيات على مصالحها الذاتية . وفى اعتقاد أى باحث منصف أن الاجتهاد الجغرافى ، الذى رأى وعرف ، ثم امتثل لابتزاز المدنية القديمة المنغلقة ، فأحجم عن العطاء الصادق ، وتردى فى خطيئة التضليل والتكتم، يستحق الاستنكار والتقريع ، لأنه ضل وضلل وتنكر وأشاع الغموض الجغرافى متعمداً .

أما انجاز الاجتهاد الجغرافى الذى لم يتعمد التكتم والتمويه ، فهو

---

(١) لا يمكن أن يسفر التكتم الجغرافى المتعمد الذى أخفى معالم الرؤية الجغرافية إلا عن تجميد الاجتهاد الجغرافى الحقيقى واحجامه عن اداء دور وظيفى يتردى فى الخطيئة . أما الاجتهاد الذى انصاع لإرادة التكتم فهو اجتهاد غير جغرافى فى الغالب أو اجتهاد جغرافى ضال . ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى الضال كان أعجز من أن يدرك مدى الخطيئة ، وأعجز من أن يتمرد على المنطق المزيف ، الذى بنى عليه هذا التكتم .

الانجاز الذى يستحق النظر والتمعن . بل يجب أن نقومه لكى نتبين كيف تحرى الصدق ، وكيف أسهم فى الاضافة إلى المعرفة الجغرافية وتوسيع دائرة المعروف من الأرض ، وهو فى معية الرحلة فى البر والبحر على حد سواء .

ومن شأن هذا الانجاز الذى نعنيه ونكترث به ، إلا يثير جدلاً أو نقاشاً حاداً ، يتحرى مدى جدية الاجتهاد الجغرافى الذى أسفر عنه . ولماذا وكيف يمكن يثار هذا الجدل ؟ والاجتهاد الجغرافى قد أحسن استخدام مهارة وخبرة حسه الجغرافى المتيقظ ، وهو يتقصى الرؤية الفلكية والرؤية الجغرافية لمعرفة الاتجاهات ، حتى يوجه الرحلة ويرشدها فى الاتجاه الصحيح ، فى البر أو فى البحر . ولكن الجدل المجدى الذى يمكن أن يثار ، أو الذى ينبغى أن يكون ، هو الجدل حول تقويم مدى صدق وموضوعية الانجاز نفسه ، عندما جسد الرؤية الجغرافية فى أثناء الرحلة ، وكشف النقاب عنها فى كتابه أقرب ما تكون لأدب الرحلة .

وابحار الرحلة البابلية(١) ، وابحار الرحلة العربية فى الخليج العربى، وابحار الرحلة الهندية فى مغامرات مثيرة إلى الخليج العربى(٢)، كان بكل تأكيد من أجل هدف اقتصادى ، وشكلاً من أشكال التعامل التجارى بين الأقطار والأمصار . وابحار الرحلة المصرية ، وابحار الرحلة الفينيقية ، وابحار الرحلة الأغريقية والمغامرات الموفقة فى البحر المتوسط والبحر الأحمر (٣) ، كان بكل تأكيد أيضاً عملاً من صميم الانفتاح الاقتصادى ، وخدمة التجارة بين الأمم والأقوام . وانطلاق الرحلة البحرية العربية فى قت مبكر لكى تجوب فى عرض المحيط الهندى ، وتطوف فى عالم المحيط الهندى ، كان بكل تأكيد انطلاقاً هادفاً ، فى خدمة تجارة دولية فى فجر نشاطها المبكر .

---

(١) شريف ، شريف محمد : المرجع السابق ص٩٤ – ٩٦ .

(٢) Sykes, P Op Cit. p.4.

(٣) الشامى صلاح الدين : الموانى السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية .

وفى معية هذا الابحار المغامر الجسور ، وفى صحبة هذه الرحلات المتكررة به وشبه المنتظمة ، خرج الاجتهاد الجغرافى وعمل بكل الهمة فى معيتها . وصحيح أنه بذل كل ما فى وسعه لترشيد الرحلة لكيلا تضل ويضل معها . ولكن هل يمكن أن ننكر عندئذ .

١- كيف تدرب الاجتهاد الجغرافى واكتسب الخبرة ، وكيف تيقظ حسه الجغرافى وتزود بالخبرة ، وهو فى معية الرحلة يتمتع بالرؤية الجغرافية ؟

٢- كيف أمعن الاجتهاد الجغرافى النظر ، وتمعن فى الرؤية الجغرافية، وهو يروح ويغدو فى معية الرحلة البحرية ؟

٣- كيف أنجز من لم يتكتم انجازاً مفيداً ، هو من قبيل أدب الرحلات ، وأنجز من تكتم انجازاً غير مفيد ، وهو من قبيل أدب الأساطير ؟

* * *

وانطلاق الرحلة البرية المصرية إلى بلاد يام ، وانطلاق الرحلة البرية البابلية إلى عيلام ، فى مغامرات مثيرة ، كان - بكل تأكيد - من أجل هدف اقتصادى ، أو من أجل هدف عسكرى . وانطلاق الرحلة البرية المصرية إلى الشام ، وانطلاق الرحلة البرية البابلية إلى الشام ، فى مغامرات مثيرة ، كان - بكل تأكيد - عملاً مشروعاً يخدم التجارة أو يطارد العدوان . وانطلاق الرحلة البرية الفارسية إلى جزيرة العرب ومصر ، وانطلاق الرحلة الأفريقية إلى غرب أسيا فى مغامرات أكثر اثارة ، كان - بكل تأكيد انطلاقًا جسوراً وهادفًا لحساب التعامل التجارى ، أو لحساب العمل العسكرى (١) .

وفى معية هذا الانطلاق الجسور المغامر ، وفى صحبة هذه الرحلات الهادفة ، خرج الاجتهاد الجغرافى وعمل بكل الاخلاص فى

---

(١) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ص٧٢ - ٧٣ - القاهرة ١٩٨٠ .

معية الرحلة . وصحيح أنه بذل كل ما فى وسعه ، فرشدها وسدد خطاها فلم تضل أحياناً ، وضل وضلت معه أحياناً أخرى . ولكن هل يمكن عندئذ أن ننكر :

١- كيف ضل وضلل عندما خذله حسه الجغرافى الفطرى وخانته خبراته الجغرافية (١) ؟

٢- كيف أفلح هذا الاجتهاد واهتدى عندما أسعفه حسه الجغرافى الفطرى ، ورشدته بصيرته الجغرافية ؟

* * *

أما وقد خرج الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة ، ورأى وأمعن النظر فى الرؤية الجغرافية ، وضل وضلل أحياناً ، واهتدى وهدى أحياناً أخرى ، يبقى السؤال ، وهو هل أنجز هذا الاجتهاد الجغرافى شيئًا مفيداً لحساب المعرفة الجغرافية ؟ وهل يمكن أن يمثل هذا الانجاز شكلاً من أشكال أدب الرحلات ؟

ولكى تكون الاجابة موضوعية ، ولكى يكون التقويم صادقًا ومنصفاً ، نذكر أن انجاز الاجتهاد الجغرافى الذى لم يتعمد التكتم كان انجازاً يتلمس الصدق والوضوح . وما من شك فى أن تجرد هذا الاجتهاد الجغرافى ، قد كفل الانفتاح الحقيقى ومن غير حدود أو قيود على الرؤية الجغرافية . ولكن هل كفل هذا الانفتاح وتلمس الصدق ، ذلك الانجاز الذى بصر وأشبع المعرفة الجغرافية ؟

---

(١) رحلة قمبيز ومغامرته المثيرة التى قام بها وكأنه يقتحم صحراء مصر العربية ، حيث ضاع وضل وضلت رحلته فلم ترجع من أحسن النماذج التى يمكن أن تصور أو تجسد معنى أن تضل الرحلة . كما يصور أيضاً كيف خذلت الاجتهاد الجغرافى قدراته وخبراته حيث ضل وضلت معه الرحلة . وكانت هذه الرحلة الفريدة فى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد .

راجع المرجع السابق صفحة ٨٩ .

الشامى صلاح الدين : التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات . رسالة دكتوراه غير منشورة - القاهرة سنة ١٩٥٧ .

وصحيح أن هذا الاجتهاد الجغرافى النزيه ، قد تحرى أقصى درجات الصدق ، وهو يسجل انطباعاته ويروى قصة الرحلة . ولكن ذلك التوجه الصادق لم يمنع هذا الاجتهاد من الانزلاق إلى الخلط والتخريف الأسطورى من غير قصد . وهذا معناه أنه من غير قصد متعمد ، وبكل التجرد من الغرض ، لوث هذا الخلط والتخريف الأسطورى ، هذا الانجاز وشوه بعض الحقائق الجغرافية .

وصحيح أن تنقية الحقيقة الجغرافية من الشوائب التى تلوثها ، واستخلاص الصدق من الكذب والمبالغة كان أمراً صعباً . ولكن يبقى لهذا الانجاز الذى يمثل بداية مبكرة لأدب الرحلات ، أمران هما :

١- الخلط والمبالغة فى الرواية أو الكتابة بحسن نية ، أو من غير قصد متعمد (١) .

٢- صدق ما يمكن أن يستخلص من الرواية أو الكتابة ، التى تتحدث عن المنظور الجغرافى ، لحساب المعرفة الجغرافية .

وهكذا ، تبين لنا فى هذه الرحلة وعلى مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، كيف وظفت المدنيات القديمة رحلتين متخصصين لمواجهة أعباء ومطالب الحياة . كما تجلى معنى الحاق الاجتهاد الجغرافى بالرحلة . ولقد جسدت الصحبة بين الاجتهاد الجغرافى والرحلة ، شكلاً من

---

(١) من أطرف نماذج الانزلاق غير المتعمد فى التخريف الأسطورى ، الذى لوث الرؤية الجغرافية ، قصة البحار المصرى الذى لفق رواية كذب وافتراء ، صور فيها كيف اعتدى سبعة من الجن على الجوارى السبع الذى عاد بهم مع الرحلة فى البحر الأحمر هدية إلى فرعون مصر . ولقد جسد هذا التلفيق ذلك التخريف الأسطورى عن أمر لم يحدث اطلاقًا على تلك الجزيرة التى توقفت عندها الرحلة لكى تلتقط انفاسها . وصحيح أن هذا التلفيق الذى زيف أسطورة لم يمكن من بين أهدافه تضليل الرحلات أو تخويف الرحالة أو تلويث الرواية عن الرحلة وتشويه محتواها الجغرافى . ولكن المؤكد أنه تزييف أضر بالحقيقة الجغرافية من غير قصد . ونذكر كيف عاشت هذه الرواية الأسطورية فى أدب الأسطورة ، لكى ينسب البعض إليها تسمية سواكن وفى اعتقادهم أن كلمة سواكن تحريف مبالغ فيه لكلمة « سبعة جن » .

أشكال المصالح المتبادلة لحساب الطرفين فى حركة الحياة . ومع ذلك فيجب علينا أن نميز موضوعياً بين :

١- اجتهاد جغرافى خرج مع الرحلة ، وأحسن استثمار دوره الوظيفى وسجل بداية مبكرة من أدب الرحلات ، حتى لو لم يخل الأمر من المبالغات والتهويل ، واجتهاد جغرافى خرج مع الرحلة ولم يحسن استثمار دوره الوظيفى ، وتمادى فى التكتم وسجل شروداً وانزلاقاً فى أدب الأسطورة .

٢- مدنية قديمة متفتحة حفلت واهتمت بانجاز الرحلة ، وما ينطوى عليه من رؤية جغرافية ، ومدنية قديمة منغلقة لم تحفل أو تكترث بعطاء الرحلة لحساب المعرفة الجغرافية .

وفى اعتقاد أى باحث منصف ، أن جدوى الاجتهاد الجغرافى العامل فى صحبة الرحلة كانت محدودة القيمة . ومع ذلك يستحق هذا الاجتهاد الجغرافى الذى رأى وعاين وعرف وأعطى كل ما عنده للمعرفة الجغرافية الثناء ، حتى لو أخطأ من غير قصد . ومن ثم يفسر هذا التقويم لماذا وكيف سارت مسيرة الفكر الجغرافى سيراً بطيئاً . كما يفسر أيضاً كيف ولماذا اتسعت دائرة الرؤية ، الجغرافية على الصعيد العالمى اتساعاً أكثر بطئاً .

* * *

هذا ولقد عاشت هذه الرحلات (تجارة - حرب - سفارة) بصفة عامة ، وتعايش معهما وسعى فى ركابهما اجتهاد الجغرافى أمداً طويلاً ، ومن الجائز أن نتبين كيف توالت القرون ، وكيف سجلت زيادة ملحوظة فى عدد الرحلات ، وكيف اتسع مداها ، وانتشارها فى البر وفى البحر ، على صعيد جزيرة العالم ومسطحات الماء من حولها . ولكن المؤكد أن توظيف الرحلة فى العمل التجارى أو العمل العسكرى ، كان هو التوظيف المطلوب على المدى الطويل ، الذى عاشت فيه وتعايشت معه كل المدنيات ، المعايشة لازدهار المدنية الرومانية .

ومن شأن هذا الاستمرار فى توظيف الرحلة ، والحاق الاجتهاد

الجغرافى بها ، أن يصور كيف لم يكن فى وسع العالم المتمدين آنذاك :

١- أن يستحدث أى تغيير يكفل التنويع فى مجالات توظيف الرحلة ، وفى مجالات تحديد أهدافها الأصلية والثانوية ، أو فى أساليب استخدامها .

٢- أن يفض العلاقة أو الصحبة ، بين الرحلة والاجتهاد الجغرافى ، حتى يستقل هذا الاجتهاد برحلة خاصة متخصصة ، تحقق أهدافه لحساب المعرفة الجغرافية .

هذا ويبدو أن العالم المتمدين ، لم يجد حاجة تبرر ، أو حافز يدعو أو ضرورة تحتم أحداث هذا التغيير ، أو اضافة رحلة أو رحلات جديرة بالتخصص فى الكشف الجغرافى . كما أن الاهتمام السائد آنذاك بالتفكير الجغرافى ومحصلته لم يمتلك القدرة الفعلية على تبنى رحلة متخصصة ، تعمل لحساب الرؤية الجغرافية ، أو تنهمك فى الكشف الجغرافى المتخصص .

وإذا كان التغيير الحضارى البطئ فى العالم المتمدين ، لم يفتعل تغيراً ، أو لم يستحدث جديداً ، فى شأن توظيف أى من هاتين الرحلتين، فإن وسائل النقل التى اعتمدت عليها هذه الرحلات ، فى البر أو فى البحر لم تتطور كثيراً ، أو لم تتعرض لتغير ملحوظ ، ينشط أو يطور امكانيات الرحلة وتحركاتها على الطريق .

وكان من شأن الرحلة البرية أن تخرج فى حال سبيلها سيراً على الأقدام أحياناً ، أو أن تعتمد على الحيوان أحياناً أخرى . وكم هى شاقة ومضنية هذه الرحلة ، وكم هو صعب اسقاط حاجز المسافة لانجاز الرحلة البرية . هذا بالاضافة إلى البطء الشديد فى الذهاب والاياب . ولا الحمار (١) أو الجمل (٢) أو الحصان ، يمكن أن يسعف الرحلة الاسراع ،

---

(١) اعتمدت الرحلة البرية على الصعيد الأفريقى على استخدام الحمار وقتاً طويلاً. ولأن الجمل حيوان آسيوى ، ولأن الغزو الوافد من آسيا قد استخدم الجمل ، فإن موقف مصر من الجمل دعا إلى تأخير دخوله إلى أفريقية . ولم يدخل =

أو أن يكفل الرحلة على المدى الأطول .

أما الدروب التى شهدت تحرك الرحلة البرية فلقد كانت وعرة . ومثل هذه الدروب لا تؤمن التحرك السريع ، ولا تكاد تعفى الرحلة - الانسان والحيوان - من المشقة والاخطار . وفى بعض الأحيان كانت معدلات المغامرة على الدروب البرية ، اكبر وأعظم من معدلات المغامرة فى عرض البحر . بل قد كانت معدلات التخوف من الرحلة البرية ، وهى تضرب فى المجهول من الأرض ، أكثر من معدلات التخوف من الرحلة البحرية .

ولقد كانت الرحلة البحرية أحسن حظاً من الرحلة البرية بصفة عامة . وما من شك فى أنها قد استقطبت الاهتمام ووظفتها المدنيات القديمة توظيفاً أفضل من توظيف الرحلة البرية ، وخاصة فى مجال العمل التجارى . ويبدو أن التوجه إلى تطوير السفينة وتحسين أساليب استخدامها ، قد جاوب تفوق الرحلة البحرية فى خدمة أهداف هذه المدنيات التجارية .

وكان شكل السفينة وحجمها وتجهيزاتها - من غير شك - لا تبعث على الاطمئنان فى البحر . بل وكانت فى أول الأمر - من حيث الكفاءة - لا تصلح إلا فى المياه الضحلة أو فى الملاحة الساحلية . وخروج هذه السفن الصغيرة ، إلى الرحلة ، كان ضرباً من ضروب

= الجمل ، ويشيع استخدامه فى أفريقية إلا فى القرون القليلة السابقة للميلاد . واعتماد الرحلة البرية على الحمار على الصعيد المصرى قبل ذلك التاريخ ، معناه صعوبة اختراق حاجز المسافة واجتياز الصحراء الفاصلة بين مناطق المطر الشتوى والجبهة الأفريقية على البحر المتوسط ، أو مناطق المطر الصيفى والجبهة الأفريقية السودانية . وهل ننسى كيف ضاعت رحلة قمبيز وضلت فى قلب الصحراء ؟

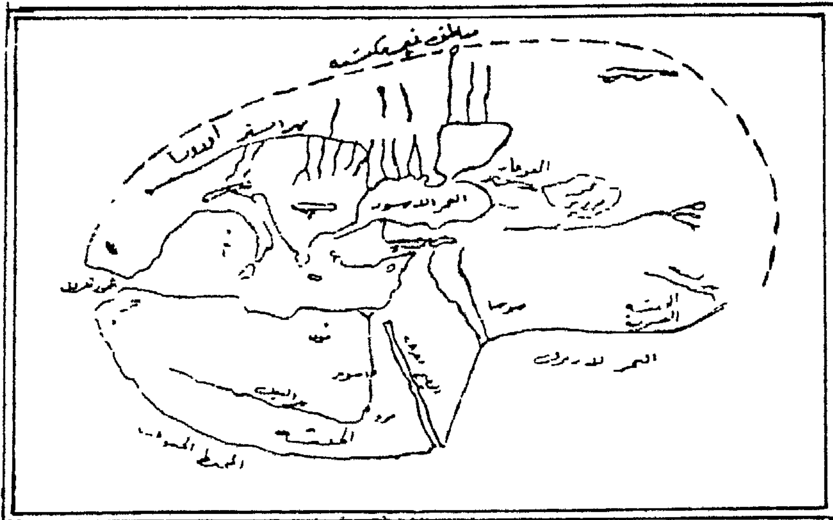
الشامى صلاح الدين : المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

(٢) اعتمدت الرحلة البرية على صعيد بادية الشام على استخدام الجمل . وكانت الرحلة شبه المنتظمة بين رأس الخليج العربى وساحل البحر المتوسط نشطة .

المغامرة الخطر فى عرض البحر . وكم من رحلات بحرية شق عليها الأمر كثيراً فى البحر ، وهو غاضب . وكم من رحلات بحرية ضاعت وضيعتها غضبة البحر . ولم يكن فى مقدور الشجاعة أو الجسارة وحدهما أن تعود بالسفينة سالمة .

ولقد عكف الانسان على تطوير السفينة وتقوية أوصالها ، لكى تلبى حاجة الرحلة ، وتكون أكثر قدرة وصموداً . وكان الهدف الحقيقى هو التحول من الملاحة الساحلية ، إلى الملاحة فى عرض البحر من ناحية ، ومن رحلة المدى القصير إلى رحلة المدى الأطول من ناحية أخرى . هذا بالاضافة إلى طلب زيادة السرعة والتحرك على صفحة الماء .

ولقد شهد البحر المتوسط الشرقى هذا الاجتهاد البناء ، الذى تولى أمره الفينيقيون والمصريون واليونانيون . وعمل صناع السفن بكل الهمة فى انجاز السفينة الأفضل أو الأنسب (١) . وأضاف هذا الاجتهاد إلى السفينة صفًا من المجاذيف لزيادة السرعة . وأفلح التطوير فى مرحلة تالية فى تصنيع السفينة الأنسب ، التى يسرت أمر اقتحام البحر والملاحة فى أعلى البحار .



(١) كوبر أ.د : المرجع السابق ص٥٤ .

هذا وتصور خريطة هيرودوت ، أقصى ما أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى الذى خرج فى معنية الرحلة وباشر الكشف الجغرافى .

وصحيح أن اقتحام عرض البحر ، قد صعد أداء الرحلة البحرية ، ووسع دائرة توجهاتها . ولكن الصحيح أيضًا أن عمليات تطوير السفينة لم تتوقف . واشتمل التطوير فى مرحلة تالية على استخدام الشراع ، وتسخير حركة الرياح فى دفع وتحريك السفينة . كما اشتمل التطوير أيضًا على زيادة حجم السفينة ، وتحسين بعض الأجهزة ، التى تضبط وتوجه تحرك السفينة وتقدمها فى عرض البحر (١) .

ودخل العرب الذين تفردوا بالملاحة فى المحيط الهندى ، مع اليونانيين ، والمصريين ، والفينيقيين ، وغيرهم من عملوا فى الملاحة فى البحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، فى منافسة حامية وفعالة فى شأن تطوير السفينة وتجهيز السفن الأفضل . وأسفر الابحار العربى المتمرس فى المحيط الهندى ، وتقابله مع الابحار الصينى (٢) عن احتكاك حضارى بناء ، ارتفعت به عمليات تطوير شكل وحجم وتجهيزات السفينة العربية (٣) . كما انكب صناع السفن من أقطار البحر المتوسط على صناعة سفن أفضل ، وصلت حمولتها إلى أكثر من ٢٥٠ طناً . وكانت هذه السفن عريضة الباع ، وثقيلة البنية (٤) .

---

(١) الشامى صلاح الدين : النقل دراسة جغرافية ص١٤٥ – الاسكندرية سنة ١٩٧٦ .

(٢) Huzzain, S.A.S. : Arbi & Far East Cairo 1942 .

(٣) كانت ميناء عدول Adulis على ساحل أفريقية قرب موقع ميناء مصوع الحالية، واحدة من أهم مراكز بناء السفن العربية . ولقد عرفت السفينة العربية الجيدة باسم السفينة العدولية . وكم افتخر الملاحون العرب بقوة وجدوى هذه السفينية وهى تجوب المحيط الهندى . بل لقد ورد ذكرها من قبيل الفخر فى معلقة طرفة ابن العبد .

(٤) على مقبرة مصرية فى طيبة رسم سفينة من المحتمل أن تمثل سفينة نقل فينقية . ويلاحظ أن هذه السفينة أقوى فى البناء من السفينة المصرية . وهى سفينة ذات أكتاف ورافدة وسطح يجعلها الأفضل فى عرض البحر . ولقد تطور شكل السفينة بعد ذلك على عهد البطالمة لكى تصبح أضخم . وكان للسفينة =

ولقد افضى تطوير السفينة وحسن تجهيزها إلى ترسيخ أداء التحرك الملاحى فى البحر . والترسيخ الذى نعنيه بالضبط قد تمثل فى :

١- زيادة كثافة التحرك الملاحى وانطلاق الرحلة البحرية انطلاقًا متحررًا ، فى خدمة العمل التجارى والوساطة التجارية .

٢- تأمين حركة الرحلة البحرية فى عرض البحر ، فى اطار مبادرات مبكرة بشأن عمليات التأمين البحرى .

وهكذا جاوبت الرحلة البحرية حاجة المدنيات القديمة والناس فيها ، وتصاعد الاهتمام بتوظيفها فى خدمة التجارة الدولية . وسجل سترابو هذه الزيادة فى حركة الملاحة البحرية ، حيث عملت حوالى ١٢٠ سفينة فى خدمة الرحلة . وكانت تتوجه للتعامل مع الهند ، فى بضائع متنوعة تضمنت تبيذاً وزجاجًا ومعادن من انتاج عالم البحر المتوسط ، فى مقابل منتجات هندية وتوابل ومعادن نفيسة من انتاج عالم المحيط الهندى .

وفى صحبة الرحلة البحرية ، حافظ الاجتهاد الجغرافى على مكانه وعلى مكانته . وواصل بكل الخبرة عمله فى ترشيد هذه الرحلة على الطريق . كما عكف على معاينة الرؤية الجغرافية ، وأسعف الاهتمام الجغرافى برسم أول خريطة مثل خريطة انكسمندر . ومن بعد كانت خريطة هيكاتيوس فى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد . ولم يقدر لهذه الأوضاع بشأن الرحلة والاجتهاد الجغرافى ، الذى خرج فى معيتها أن تتغير ، إلا بعد قيام الدولة الرومانية .

= أنذاك صارى فى المنتصف ، وشراع رئيسى بتربيعة حبال ، وشراع علوى مثلث مع عمود لنشر القلع عند المقدمة لتسهيل التوجيه . كوبر أ.د : المرجع السابق ١٦ .

الفصل الثالث

الرحلة الرومانية والتوجه الجغرافى العالمى للكشف الجغرافى

- تمهيد .
- روما وتنشيط الرحلة .
- الرحلة الرومانية والاجتهاد الجغرافى .
- روما المسيحية ومدى تضليل العمل الجغرافى .

الفصل الثالث

الرحلة الرومانية والتوجه الجغرافى العالمى للكشف الجغرافى

تمهيد :

قيام روما فى عالم البحر المتوسط قبل الميلاد ، حدث عظيم سياسياً واقتصادياً وحضارياً بكل المقاييس . ولقد جاء هذا الحدث فى وقت سجل فيه الانسان فى دنيا المدنيات القديمة فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، تغيرات حضارية واقتصادية باهرة . ومن ثم أفلحت قوة روما السياسية فى أن تنشط وتتصاعد ، حتى أمسكت بزمام حركة الحياة فى عالم البحر المتوسط . وقد اقتنعت بالفكرة التى فجرها الاسكندر الأكبر ، عندما أقدام على تكوين امبراطورية تحت شعار وحدة الأرض ، ووحدة الناس على الأرض ، تستوجب وحدة النظام . بمعنى أنها توجهت إلى نظام امبراطورى يحكم العالم . ويكون الامبراطور فى روما ، هو امبراطور العالم .

وقد عاشت روما الامبراطورية ، وهى تزهو بالمكانة المرموقة التى وصلت إليها وتنعمت بها . وفى غمرة الزهو والازدهار ، أدخل حماس وانتصار روما فى روعها تطلعات مثيرة . ولقد فجر منطق هذه التطلعات المثيرة فى روما وحكام روما إرادة الهيمنة على العالم ، من حولها .

وتربعت روما ، وقد انطوت على هذه الإرادة ، على قمة التفوق المرموق ، بين مجتمع الدول . وسيطرت على صعيد واسع ، حتى أصبح لها حضور امبراطورى أوروبى ، أفريقى ، أسيوى . ثم بلغت هذه الامبراطورية المتفتحة بكل شهوة السلطة والتسلط على العالم ، مكانة الدولة الأعظم المتفردة ، وهى تهيمن ، فى عالم ذلك الزمان .

ومن الموقع الجغرافى الحاكم فى قلب العالم ، تحكمت روما وسيطرت وتسلطت . ومن علياء التحكم والتسلط والسيطرة ، أخذت

روما على عاتقها مسئولية توجيه حركة الحياة فى اطار الارادة المطلقة للهيمنة . وأسعف روما وشد أزرها ، ودعم وجودها ، وأطلق إرادة هيمنتها ، ما ورثته من تراث عظيم حضارياً واقتصادياً وثقافيًا ، تجمعت أوصاله واشترك فى صنعه وتجهيز نسيجه اجتهاد الانسان فى مصر واليونان والشام وبابل .

وما من شك فى أن روما العملاقة ، قد عكفت استيعاب على هذه الميراث الحضارى العظيم ، واستوعبت انجازاته ، ونهلت منه وتذوقت ثمراته . ومن ثم تألقت فيها الملكات المبدعة ، وأضافت من عندها اضافات جددت وجودت هذا التراث . وهيأ ذلك كله لروما ، أن تجلس فى مكانتها المرموقة جلوس المطمئن . بل لقد رسخت روما ارادة الهيمنة على العالم فى توجه متوثب ، جعل من الفتح انفتاحًا ، وجعل من الانفتاح تفتحاً .

ولكى تؤمن روما فى عليائها مكانتها المرموقة التى وصلت إليها ، ولكى تجاوب روما فى المكانة المرموقة ارادة الهيمنة على العالم ، ولكى تستحق روما وهى تهيمن على العالم ، قيادة وتوجيه حركة الحياة ، سعت روما الامبراطورية بكل الهمة والاصرار والتفتح فى التوجهات التالية سعياً متوازياً ومتوازناً .

وتمثلت هذه التوجهات الرومانية فى :

١- التوجه الأول ، ووجهت روما فيه حملات الغزو والفتح والضم توجيهاً كفل التوسع الامبراطورى ، وضم الأقطار وتأمين التخوم ، وقد أطاع تأمين ارادة الهيمنة على العالم .

٢- التوجه الثانى ، ووجهت روما فيه رحلات التجارة والعمل التجارى توجيهاً كفل التفوق الاقتصادى ، وتأمين الأرباح . وقد أطاع وحقق ارادة الهيمنة والاستعلاء على العالم .

٣- التوجه الثالث ، ووجهت فيه روما الاهتمام بالفكر وحصاد المفكرين ، توجيهًا كفل التفتح الحضارى ، وتأمين التقدم ، وقد أطاع وكفل إرادة التفوق على العالم من حولها .

وهكذا تحملت روما الامبراطورية أعباء التوسع الامبراطورى ، وجنت ثمرات الانتصار العسكرى ، لكى تهيمن سياسياً . وتحملت روما الامبراطورية أعباء النشاط التجارى وجنت ثمرات التفوق الاقتصادى ، لكى تثرى اقتصادياً . وتحملت روما الامبراطورية أعباء التفتح الثقافى ، وجنت ثمرات الانفتاح الفكرى ، لكى تتفوق حضارياً .

وامعاناً فى الانتصار والهيمنة والتسلط ، واصراراً على الربحية والثراء . وتمادياً فى الانفتاح والتفتح ، استشعرت روما حاجة ملحة إلى تنشيط الرحلة ، وتطلعاتها المتوثبة إلى الأوضاع الأفضل ، اقتصادياً وحضارياً وسياسياً ، من غير حدود .

روما وتنشيط الرحلة :

استشعار الحاجة الملحة إلى الرحلة وتنشيطها ، معناه فى المقام الأول تبنى الرحلة . ومعناه أيضاً تبنى الأهداف والمنجزات ، التى تخرج من أجلها الرحلة . وهذا التبنى قد يعبر عن معنى انتقال الرحلة وزمام الرحلة إلى أيدى روما . وكان شأنها فى ذلك شأن كل التراث الذى تضمنه الميراث الذى ورثته روما ، وتولت أمره . ولكن المؤكد أن هذا التبنى ، هو الذى وضع الرحلة فى خدمة الأغراض والتطلعات التى تطلعت إليها روما .

وقد انبرت روما بكل الاهتمام وتحملت أعباء هذا التبنى . بل سجلت أنذاك اضافتين مهمتين فى شأن توظيف واستخدام وجنى ثمرات الرحلة .

وتمثلت هاتان الاضافتان المجددتان على عهد دولة روما فى :

١- اضافة تولت أمر الانطلاق من أجل تنشيط وتجديد حيوية أداء الرحلة الوظيفى .

٢- اضافة تولت أمر تيسير مهمة الرحلة ، وتأمين مرونتها وحسن تحركها وانجاز مهامها المنوطة بها .

* * *

ومن ثم تمثلت الرحلات على عهد روما فى خدمة أغراضها ، فى ثلاث رحلات أساسية فى البر أو فى البحر . وهذه الرحلات هى :

١- **رحلة تجارة** وظفت فى خدمة العمل التجارى والانفتاح الاقتصادى . وجسدت هذه الرحلة خطوات جديدة منشطة ، نمت ونشطت حركة التجارة الدولية فى الاتجاه الصحيح . بل قد أنها أصبحت أكثر انتظاماً ، فى البر والبحر على السواء .

٢- **رحلة حرب** وظفت فى خدمة العمل العسكرى والفتح وتقليم أظافر العدوان ، وجسدت خطوات جديدة منشطة ، نمت ونشطت حركة التوسع الامبراطورى فى الاتجاه الصحيح . بل قل أنها وظفت فى تأديب من يخرج على روما ، أو يتمرد على سلطاتها وهيمنتها .

٣- **رحلة سفارة** وهى التى تخدم الاضافة الجديدة ، وتجاوب اتساع الامبراطورية الرومانية . وقل أيضًا هى التى وظفت فى خدمة العمل السياسى أو الدبلوماسى ، وجسدت خطوات جديدة منشطة ، نمت ونشطت حركة العلاقات الدولية ، ورسخت سلطان الدولة فى الاتجاه الصحيح .

وعلى كل وجه من أوجه هذا التوظيف المتخصص ، التى جاوبت ارادة وتطلعات واجتهادات روما ، ومنطق هيمنتها على العالم تأكد وتصاعد مفهوم ومغزى ومرمى الأداء المتخصص ، الذى وظفت من أجله ، وتحملت أعبائه كل رحلة من هذه الرحلات . وبكل خيط من خيوط التسلط والهيمنة ، التى قبضت بها روما على زمام حركة الحياة اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ، توجهت كل رحلة من هذه الرحلات ، فى حال سبيلها فى البر أو فى البحر ، والتزمت بانجاز المهمة المنوطة بها فى أنحاء المعروف من الأرض ، على الصعيد الأوروبى والأفريقى والآسيوى .

وهكذا اهتمت روما الامبراطورية بالرحلة وتوظيفها وتنشيط أدائها ، على أوسع مدى . كما اهتمت أيضاً بتجهيز الرحلة وبخروجها اهتماماً جاداً ، فى البر وفى البحر ، على حد سواء . ولم تفرط روما أبداً

فى أى عمل من شأنه دعم الرحلة ، أو تأمين مسيرتها وحسن أدائها فى الغدو والرواح . وكان اهتمام روما بالمعرفة الجغرافية والعمل الجغرافى ورسم الخريطة اهتماماً خاصاً ، من أجل ترشيد الرحلة على الطريق .

وأصبحت روما الامبراطورية فى لهفة على ما تنجزه الرحلة سواء كانت رحلة حرب أو رحلة تجارة أو رحلة سفارة . وغدت الرحلة الرومانية ، وكأنها اليد القوية التى تبطش بها من غير حدود أحياناً ، أو التى تردع بها العصيان أحياناً اخرى . كما غدت أيضاً اليد الطويلة التى تمتد وتعرف كيف تتعامل مع العالم الرومانى الامبراطورى أو مع العالم فيما وراء حضورها الامبراطورى سياسيًا واقتصادياً وعسكرياً وحضارياً .

وفى شأن **الرحلة البحرية وتنشيطها** ، لا يدلل على الاهتمام الرومانى الشديد على شئ ، أفضل من اختراق كل الحواجز ، التى كانت قد أوقفت أو جمدت الاجتهاد البحرى غير العربى – على غير ارادته – عند باب المندب ، امتثالاً لارادة الحضور العربى المتفرد ، فى المحيط الهندى . وفى الفترة بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الميلادى الأول(١) ، استطاع الابحار الرومانى اليونانى المصرى ، أن يكتشف سر استخدام الرياح الموسمية ، للذهاب إلى الهند أو للعودة منها (٢) .

ولقد اقتحمت الرحلة البحرية الرومانية المحيط الهندى اقتحامًا جسوراً مغامراً اعتباراً من سنة ٥٠ ميلادية . وكان الطريق البحرى يمر من رأس فرتك Cape Fartak ، إلى دلتا نهر السند . وما من شك فى أن هذه الرحلة البحرية ، قد استشعرت الأمان ، وكان الابحار شبه منتظم . بل لقد أسقطت هذه الرحلة البحرية الرومانية كل أقنعة التكتم

---

(١) كوبر أ.د. المرجع السابق ص١٧ ، ١٨ .

(٢) القبطان البحرى هيبالوس Hippalus ، هو الرجل المغامر أو الجسور ، الذى تولى أمر هذا الاقتحام .

Sharaf, A T. · A Short History of Geographical Discovery . Cairo, 1964, p.39 .

الجغرافى ، بعد أن انتهكت وأنهت التفرد العربى ، أو إن شئت قل الاحتكار العربى ، فى عالم المحيط الهندى (١) .

وصفحات كثيرة ومثيرة ، تلك التى تسجل حكاية الاقتحام الرومانى ، والابحار الجسور فى المحيط الهندى (٢) . وروايات أكثر اثارة تلك التى تصور مدى المنافسة ، بين الابحار العربى والابحار الرومانى ، فى المحيط الهندى اعتباراً من القرن الأول الميلادى . ولا يجسد الابحار الرومانى فى هذه البحار الجنوبية ، معنى أقل من حقيقة الانفتاح الرومانى الحقيقى على عالم المحيط الهندى (٣) .

ويجسد الانفتاح الرومانى على عالم المحيط الهندى مدى نشاط الابحار الرومانى ، ومدى الاهتمام الامبراطورى الرومانى ، بتوظيف الرحلة البحرية فى خدمة التجارة والتعامل التجارى . وكم من مركز تجارى Trade Post ورثة الحضور الرومانى ، أو أسسه الاجتهاد الرومانى فى مواقع منتخبة ، من أجل حضور رومانى يقظ ونشيط ، يؤمن الرحلة البحرية ، ويخدم حركة الابحار الرومانى فى البحار الجنوبية ، على أوسع مدى (٤) .

وهكذا اتسعت دائرة الابحار الرومانى ، وعرفت الرحلة البحرية الرومانية ، وعرفت الرحلة البحرية الرومانية طريقها فى كل الاتجاهات

---

(١) راجع فى كتاب « الطواف حول البحر الأحمر » Priplus of the Erytrean Sea . هو لمؤلف مجهول صدر فى سنة ٦٠ ميلادية . ولقد أودع الكاتب فى هذا الكتاب النفيس تسجيلاً كاملاً عن النشاط الرومانى فى شأن الانفتاح الرومانى والعلاقات الاقتصادية والتعامل التجارى مع عالم المحيط الهندى .

(٢) شريف : المرجع السابق ص٤٤٢ – ٤٤٥ .

(٣) كان التوجه إلى البحار الجنوبية حلم من أحلام الملاحين اليونانيين اعتباراً من قيام دولة الاسكندر . ولكن الابحار اليونانى عاش حبيساً فى البحر الأحمر . (الشامى : الموانى السودانية دراسة فى الجغرافية التاريخية ص٤٤ – ٤٥) .

(٤) ورث الرومان عن البطالمة مراكز التجارة فى البحر الأحمر ، ولكنهم لم يرثوا عنهم الانغلاق فيه . ولقد حافظ الرومان على هذه المراكز ، وأضافوا إليها لكى تؤمن الرحلة البحرية والابحار الرومانى فى المحيط الهندى . (الشامى ، الموانى السوداية ص٤٥) .

والمسطحات المائية ، التى عرفت النفوذ الامبراطورى الرومانى وهيبته التى يحسب حسابها . ولقد اقتحم الابحار الرومانى المياه الساحلية فى الطريق إلى شمال غرب أوروبا ، وصولاً إلى المنطقة الباردة ، على أطراف المحيط المتجمد الشمالى . وسارت الرحلة البحرية الرومانية أيضًا فى المياه الساحلية الأفريقة ، بحذاء الساحل الغربى وصولاً إلى مجموعة جزر كناريا (١) .

ومن أجل أبحار الرحلة الرومانية وتنشيط عملها لحساب التجارة أو لحساب الحرب ، كان الاهتمام الرومانى أيضًا بتصنيع السفن الأفضل . ولقد بلغت حمولة بعض هذه السفن ، التى وظفت فى نقل القمح من مصر إلى روما عندئذ إلى ١٠٠٠ طن . وكانت هذه السفن من القوة والصلابة إلى حد القدرة على الابحار فى عرض البحر العاصف من غير أن تتخوف . وأرست العقلية القانونية الرومانية ، بعض أهم قواعد التقنين لحركة السفن وتوظيف الرحلة فى خدمة التجارة الدولية.

* * *

وفى شأن الرحلة البرية وتنشيطها ، لا يدلل على الاهتمام الرومانى الحقيقى ، شئ أكثر من الابداع والعمل فى تجهيز واعداد الطرق البرية (٢) . ولقد بلغ أمر تعبيد الطرق الرومانية حداً فريداً ، من حيث أسلوب العمل الفنى لتثبيت السطح . وينظر الفنيون إلى أن تعبيد الطرق الرومانية ، كان فتحًا جديداً وابداعًا فريداً . واعتبر البعض - وهم على حق - أن تجهيز الطرق البرية الرومانية ، كان الحدث الانشائى الفريد ، الذى لم يسبق له مثيل . بل قد كان هذا التجهيز نقطة البداية فى صناعة الطريق الأنسب للتحرك البرى المرن .

ولا شئ أروع من انجاز شبكة الطرق ، التى انهمكت روما فى

---

(١) شريف : المرجع السابق ص٤٧٢ - ٤٧٤ .

(٢) فيرجريف .ج : الجغرافية والسيادة العالمية (ترجمة الأنصارى) الألف كتاب ص٧٨ - ٨٣ - القاهرة سنة ١٩٥٦ .

انشائها على الصعيد الأوروبى على وجه الخصوص . ولقد امتدت هذه الطرق فى سائر أنحاء أوروبا الجنوبية والغربية انتشاراً متوازناً ، حتى ربطت بين روما سائر أنحاء امبراطوريتها . وأسفر هذا الانجاز المثير عن ترسيخ المثل الشائع إلى اليوم بين الناس ، الذى يقول « جميع الطرق تؤدى إلى روما (١) » . كما أسفر عن حركة مرنة وانتقال أسرع رحلة برية أكثر أماناً وانتظاماً وفاعلية ، لحساب الهدف التجارى .

وصفحات كثيرة ومثيرة ، تلك التى سجلت حكاية هذه الثورة الفنية الهندسية ، وكيف تولت بكل المهارة أمر انشاء أو اعداد الطرق(٢) . وروايات كثيرة وصادقة تلك التى قصت وصورت حكاية الخبرات الفنية والمهارات المبدعة ، التى عكفت على تطوير استخدام العربات ، وتأمين مرونة تحركها على الطرق ، أو التى تخصصت فى تثبيت سطح الطريق .

وكان الهدف الرومانى الذى تبنته الدولة وارداتها الامبراطورية ، هو ضمان مرونة الانتقال وسرعة التحرك على الطرق . ولقد نشط هذا الانجاز الرحلة البرية تنشيطاً حقيقياً على أوسع مدى ، وفى أوروبا على وجه الخصوص . ووظفت روما هذه الرحلة البرية توظيفًا متنوعًا ومتخصصًا واستجابت الطرق البرية لهذا الهدف الاقتصادى والعسكرى الرومانى .

وكم من رحلات برية وظفتها روما ، وأطلقت لها العنان ، وأمنتها على الطريق . وكم من رحلات برية رومانية استخدمت هذه الطرق استخداماً مثمراً وموفقًا وهى تحقق أهدافها (٣) . وكم من مراكز استيطان ومراكز تجارة ، قد تأسست فى مواقع منتخبة على جوانب هذه الطرق ، أو عند تقاطع بعض الطرق ، من أجل حضور رومانى

---

(١) شريف : المرجع السابق ص٢٦٧ .

(٢) الشامى : النقل دراسة جغرافية ص٤٧ .

(٣) كانت أنجح الرحلات البرية على الصعيد الأوروبى (شريف : المرجع السابق ص٤٣١ – ٤٤١) .

يقظ، يؤمن الرحلة البرية ، ويسهل مهمتها ، وانتشارها على أوسع مدى.

ويجسد الانفتاح الرومانى على صعيد وجودها الإمبراطورى الواسع فى أوروبا وأسيا وأفريقية ، مدى نشاط الرحلة البرية ، ومدى الاهتمام الامبراطورى الرومانى ، بتوظيف الرحلة فى تماسك أوصال الدولة ، وفى مرونة التعامل والعلاقات بين أقطارها . كما يجسد هذا الانفتاح الرومانى أيضًا مدى الاهتمام باستخدام الرحلة البرية ، فى تجاوز حدودها الامبراطورية ، وترسيخ العلاقات مع الأمم والأقوام على أوسع صعيد عالمى .

***

الرحلة الرومانية وتنشيط الاجتهاد الجغرافى :

الاهتمام الرومانى الامبراطورى بالرحلة فى البر أو فى البحر ، سواء تمثل فى تسهيل مهمة الرحلة ، أو فى تأمين تحرك الرحلة ، أو فى تطوير وسيلة الرحلة (١) ، قد أسفر عن :

١- حسن استخدام الرحلة وتوسيع مجالات توظيفها .

٢- تنشيط الاهتمام بالمعرفة الجغرافية وتوسيع مجلات الاجتهاد الجغرافى .

وفى اعتقادى معظم الباحثين ، أن العلاقة بين الرحلة والاجتهاد الجغرافى قد تصاعدت ، وأن الاجتهاد الجغرافى قد واصل اهتمامه بترشيد الرحلة على الطريق . وفى اعتقاد معظم الباحثين أيضًا ، أن المعرفة الجغرافية التى حققها الاجتهاد الجغرافى فى صحبة الرحلة ، هى التى وطدت دعامات التوسع الرومانى الامبراطورى والهيمنة على الصعيد العالمى .

---

(١) تجلى اهتمام الرومان بتطوير وسائل النقل فى تحسين استخدام العربات . كما تجلى أيضاً فى وضع أول لبنة فى صناعة سكة الحديد . ولقد اصطنعوا قضباناً من أحجار مصفوفة ، لكى تمر عليها العربات فى مواقع التكوينات الهشة .
الشامى : النقل دراسة جغرافية ص٤٧ .

وهذا معناه أن الاهتمام الرومانى بحسن اعداد الطريق ، وبتطوير وسائل النقل فى البر والبحر ، وبتأمين تحرك الرحلة وفى صحبتها الاجتهاد الجغرافى ، لم يكن اهتماماً متجرداً من الغرض السياسى . ومعناه أيضاً أن ثمرات هذا الاهتمام ، سواء تمثلت فى معرفة جغرافية بصرت التحرك ، أو فى تجهيز طرق وسائل نقل ، قد حققت هذا التحرك بالفعل . ولقد واكب ذلك كله ارادة الحكم المركزى ، الذى تشبثت به الحكومة الرومانية ، ويسرت لها أن تفرض النظام فى الأنحاء الامبراطورية على أوسع مدى (١) .

وفى الدولة التى تمسكت بنظام مركزى صارم ، تحمل السفير اعباء نقل أوامر وتعليمات الحاكم من العاصمة إلى عماله ، فى الأقطار والأمصار المتفرقة فى أنحاء الدولة . ومن الضرورى أن يختار الحاكم هذا السفير ، الذى يتحلى بالأمانة والاخلاص واستشعار المسئولية . بل ومن الضرورى أيضًا أن يخرج هذا السفير المكلف فى رحلة خاصة ، لكى يؤدى هذه الأمانة أو المهمة المنوطة به .

وهكذا كانت رحلة السفارة واحدة أكثر الرحلات ، امعاناً فى التخصص الوظيفى . كان من شأن هذه الرحلة أن تلبى حاجة تكليف رسمى من الدولة وتطاوعه . فهى رحلة معنية بأمر من أمور الدولة ، أو تكليف فى شأن من شئون نظام الحكم المباشر أو غير المباشر .

هذا ، ولقد تكفلت رحلة السفارة التى استحدثتها أوضاع الدولة الرومانية بالمسئولية على ثلاث مستويات. وتمثلت هذه المستويات فى:

١- على المستوى الأول ، تحملت رحلة السفارة مسئولية نقل الرسائل والتعليمات والأوامر ، فيما بين عاصمة الدولة وعواصم الولايات فى أنحاء الامبراطورية . وكانت مطلوبة لكى تكفل الاستقرار والولاء والانصياع ، فى اطار حكم مركزى قوى ، عينه لا تغفل عن انتظام وانضباط حركة الحياة .

---

(١) Sharaf, A.T. : A Short History of Geographical Discovery p. 40

٢- على المستوى الثانى ، تحملت رحلة السفارة مسئولية نقل الرسائل والمخاطبات والاخطارات ، فيما بين عاصمة الدولة وعواصم الدول المجاورة من حول الامبراطورية . وكانت مطلوبة لكى تخطب الود، أو لكى تلفت النظر ، أو لكى تصفى المواقف ، أو لكى تبلغ الوعيد والتهديد .

٣- على المستوى الثالث ، تحملت رحلة السفارة مسئولية تقصى الحقائق فى مساحات ومناطق فى اطار الدولة أو الاستطلاع فيما وراء حدود الدولة . وكانت مطلوبة لكى تؤمن حدود الدولة ، أو لكى تحبط أى انتهاك لسيادة وسلطة الدولة ، أو لكى تميط اللثام عن بعض المجهول من الأرض ، أو تتحرى عن أحوال الناس التى تستقطب اهتمام الدولة .

وتأسيساً على ذلك ، يجب أن نتبين كيف وجه الرومان هذه الرحلة النشيطة فى معظم الأحيان ، وجهة ، اجتهدت وخدمت الاجتهاد الجغرافى . وصحيح أن الدولة قد طلبت من السفير الصدق والوضوح ، وهو ينقل الرسالة ، ويحدث بالرواية عن انطباعاته ورؤيته . وصحيح أن هذه الروايات الصادقة التى جسدت الرؤية وتحرت الصدق قد تجنبت بعض المبالغات والخلط والتهويل . ولكن الصحيح أيضًا أن حصاد هذه الروايات ، أوشك على أن يجعل من هذه الرحلة رحلة استطلاع جغرافى وتاريخى .

ونذكر على سبيل المثال ، أنه فى سنة ٦٦ ميلادية ، كلفت رحلة من رحلات السفارة بمهمة الصعود مع مجرى النيل فى اتجاه المنابع(١). وكان المطلوب من هذه الرحلة ، أو من تلك السفارة استطلاع المكان، واماطة اللثام عن الأرض وحركة الحياة جنوب مصر ، وكشف النقاب عن منابع النيل . وسواء استهدف هذا التكليف فيما وراء الحضور الامبراطورى الرومانى الاستطلاع لتأمين حدود الدولة ، أو لكشف النقاب عن منابع النيل ، فهل يتجرد هذا الهدف من شبهة الاستطلاع

---

(١) الشامى : دراسات فى النيل ص٢٢ - القاهرة سنة ١٩٦٧ .

والتماس الكشف الجغرافى (١) ؟ .

وفى شأن هذه الرحلة ، هناك زعم يؤكد أن هذه السفارة قد وصلت، وهى تبحر فى فى النيل الأبيض ، على ظهر قارب نهرى صغير إلى منطقة المستنقعات. وهناك زعم آخر يدعى أنها بلغت أوطان البارى عند درجة ٦° شمالاً . ومع ذلك فإن هذه الرحلة ، التى أوشكت أن تمثل رحلة كشف جغرافى ، لا تعنى أبداً هذا التوجه المتخصص . ولا نستطيع أن ندعى أنها قد أضافت شيئًا جغرافيًا مهمًا ، إلى رصيد المعرفة الجغرافية فى ذلك العصر .

وكم من رحلة سفارة رومانية ، توجهت بتكليف من الدولة ، وتكشفت لها على الطريق رؤية جغرافية فى المكان . وكم من عون مادى ومعنوى رومانى مخلص ، شد أزر هذه الرحلات ، التى انفتحت على الرؤية الجغرافية . ولكن رحلة من هذه الرحلات لم تتخصص فى العمل الجغرافى ، أو فى الكشف الجغرافى صراحة . وحتى الرواية التى قصت حكاية الرحلة ، وتحرت الصدق ، لم تتجاوز أبداً حد ما تضمنه أدب الرحلات .

ورحلة باحث مثل سترابو Strabo(٢) ، نموذج ممتاز لهذه الرحلة ، التى أضمرت ورنت وتطلعت إلى معاينة الواقع الجغرافى . صحيح أن سترابو أجاد فى معاينة الروية الجغرافية ، وفى متابعة الأحداث التاريخية ، وفى رصد نبض الحياة وحركتها بين الناس . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أنه ما زاد فى كتاباته وتسجيل انطباعاته وتجسيد معايشته لهذا الواقع ، عن سرد أو تصوير يجسد أدب الرحلة فى مرحلة من مراحله القديمة .

---

(١) سجل القائدان الرومانيان اللذان خرج كل واحد منهما بموجب تكليف من الامبراطور نيرون تقريراً ختامياً عن المهمة . ولا يمثل سوى قطعة من أدب الرحلة . وفى هذا التقرير الذى نتوقع فيه الصدق بعض التهويل والانبهار ، الذى يجسد الحقيقة الجغرافية فى غير حجمها الحقيقى .

(٢) Sykes, B : op cit. p 37.

واهتمام الدولة الرومانية بهذه الرحلة ، التى تخرج فى سفارة وتمويلها وترقب عودتها ، والاستماع إلى الرواية عنها بعد انجاز المهمة المنوطة بها ، لا يجرد الدولة من هدف الاحاطة بالواقع الجغرافى ، فى الأنحاء التى تجولت فيها الرحلة . ومع ذلك يجب أن ندرك أن هذه الاحاطة لم تكن مطلوبة لذاتها . بل قل كانت مطلوبة ، لكى تبصر الدولة عندما تخرج حملات ورحلات للتفح والغزو التأديب والضم والتوسع ، أو لكى ترشد الدولة فى أمر تسيير دفة الحكم ، وفرض النظام والانضباط ، وإدارة أمور ومصالح السياسة على صعيد الدولة الواسع (١) .

وهذا فى حد ذاته ، هو الأمر الذى ينبغى أن يلفت النظر . بل هو ما لا نكاد نتبين له مثيلاً فى المرحلة السابقة لقيام الامبراطورية الرومانية. وما من شك فى أنه العلامة على مدى موضوعية وضع الرحلة ، وهى رحلة سفارة على وجه الخصوص فى خدمة الانفتاح الرومانى . وقد وضع الانفتاح الرومانى فى خدمة التفتح الجغرافى على أوسع مدى .

ومع ذلك لا يجب أن نعطى مفهوم التفتح الجغرافى على أوسع مدى ، معنى أكبر مما يستحق . فهو لا يعنى ولا يجب أن يعنى تخصص هذه الرحلة ، وهى رحلة سفارة أو غيرها فى العمل الجغرافى. كما انه لا يعنى ابداً أن قضية الكشف الجغرافى ، قد وردت على بال الرومان فى اطار هذا التفتح الجغرافى . وما زال الوقت مبكراً بالفعل ، لكى نتوقع نشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة . بل قل وما زال الوقت مبكراً ، لكى يسفر التفتح الجغرافى ، عن ادب جغرافى صريح ، يختلف فى مضمونه عن ادب الرحلات .

وصحيح أن التفكير الجغرافى هو اهم ما اعتنت به روما ، وأن الجغرافية احتلت مكانة خاصة عندهم . وصحيح أن روما ضمت مدرسة من مدارس الفكر الجغرافى ، التى قامت جنبًا إلى جنب مع مدرسة

---

(١) شريف : المرجع السابق ص٣٧٣ - ٣٧٤ .

الاسكندرية وشاركتها فى مضمار الاجتهاد الجغرافى . وصحيح أن الدولة تبنت هذا الاجتهاد الجغرافى ، وأن بعض الأباطرة [1] يعدون فى زمرة الجغرافيين . ولكن المؤكد بعد ذلك كله أن رحلة السفارة لا تمثل أكثر من ارهاص مبكر ، بشأن نشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة . بل قل وكيف تنشأ وتكون هذه الرحلة المتخصصة ، فى وقت لم ينشأ فيه التخصص الجغرافى نفسه ؟

وعلى كل صعيد من الأصعدة ، التى وظف الرومان فيه الرحلة البرية أو الرحلة البحرية ، وفى كل وجهة توجهت فيه رحلة التجارة ، أو رحلة الحرب ، أو رحلة السفارة ، انضم الاجتهاد الجغرافى والتحق بكل رحلة . وكان من شأن هذا الاجتهاد الجغرافى ، سواء تمثل فى شخص قائد الرحلة ، أو شخص خرج فى معية الرحلة ، أن يرشدها ويبصرها ويسدد خطاها ، لكيلا تضل على الطريق ، فى الذهاب ، وفى الاياب .

ومن خلال هذه الصحبة بين الاجتهاد الجغرافى ، وهو تابع ورفيق سلامة الرحلة من ناحية ، والرحلة المتوجهة إلى الهدف على الطريق الصحيحة من ناحية أخرى ، انتفع الاجتهاد الجغرافى انتفاعًا جيداً بالرحلة . وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى قد قضى وطره ، ونال غاية ما تمنى ، أو تطلع إليه ، وهو فى صحبة الرحلة . وسجل هذا الاجتهاد معنى من أهم معانى الانفتاح الجغرافى عن كثب ، على الرؤية الجغرافية . ولقد أمعن هذا الاجتهاد الجغرافى النظر وتوظيف الحس الفطرى ، والتفكير فى هذه الرؤية الجغرافية لحساب المعرفة الجغرافية.

وكم من رحلات رومانية توجهت إلى العمل التجارى أو إلى العمل العسكرى أو إلى انجاز مهمة السفارة المنوطة بها ، واصطحبت معها الاجتهاد الجغرافى ، وتحقق الانتفاع المتبادل بينهما فى اطار هذه الصحبة . وكم من روايات وحكايات وقصص وكتابات ، جسدت واعتنت

---

(١) كان يوليوس قيصر فى القرن الأول قبل الميلاد من الأباطرة الذين أضافوا شيئاً عن بعض مساحات الأرض . ولقد اعتبر فى عداد الجغرافيين فى ذلك الوقت (شريف : المرجع السابق ص٣٧٨ ، ٣٧٩) .

بتسجيل الانطباعات التى أسفرت عنها الانفتاح على الرؤية الجغرافية . وما كان فى وسع الاجتهاد الجغرافى ، أن يسجل هذا الانجاز ، لو لم يخرج فى صحبة هذه الرحلة .

وصحيح أن هذا الانجاز يمثل امتداداً لبعض الجيد من أدب الرحلة ، فى المرحلة السابقة لقيام الدولة الرومانية . ولكن المؤكد أن الخلط والتشويه فى هذه الكتابة الجغرافية ، التى احتواها أدب الرحلة الرومانية، قد قل وتناقص كثيراً . بل لقد كف الحديث أو التسجيل فى الانزلاق فى التخريف الاسطورى ، وعن تلويث الحقائق الجغرافية ، أو عن اخفاء المعلومة الجغرافية ، وحرمان المعرفة الجغرافية منها . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى فى صحبة الرحلة الرومانية خطا خطوة فى الاتجاه الصحيح ، وعرف كيف يضع الخيط الرفيع الفاصل ، بين أدب الاسطورة واستغراقه فى التخريف والتخويف والمبالغة فى جانب ، وأدب الرحلة وتوجهاته الواقعية المروية أو المسجلة فى جانب أخر .

وعندئذ ، ينبغى أن ندرك كيف أحسن المفكرون الاستماع والاصغاء إلى الرواية أو الحكاية ، التى عادت بها كل رحلة . كما ينبغى أن نتبين كيف التقط بعضهم من حسن الاستماع لهذه الروايات ، فهماً ممتازاً ، أو تعبيراً جيداً ، أو تصويراً سليماً ، للرؤية الجغرافية على الطريق . وكانت هذه الوجبة الشهية التى أجاد الاجتهاد الجغرافى صياغتها وهو فى صحبة الرحلة ، من وراء اضافات جيدة ، لحساب المعرفة الجغرافية .

هذا ، ولقد عززت هذه الاضافات التى جاءت فى سياق كتب أدب الرحلات ، الرصيد الجغرافى على وجهين متكاملين :

١- على الوجه الأول ، كان التعزيز تعزيزاً بالوصف الأدبى المناسب ، الذى جسد الرؤية الجغرافية تجسيداً واضحًا فى الأقطار والأمصار ، التى وطئتها الرحلة وتجولت فى أنحائها (١) .

٢- على الوجه الثانى، كان التعزيز تعزيزاً بالرسم المناسب ، الذى

---

(١) شريف : المرجع السابق ص٣٨٢ - ٣٨٥ .

كشف غموض الرؤية الجغرافية ، وأوضح على الخريطة علاقة المكان بالأماكن الأخرى من حولها .

وعلى ذكر التعزيز بالوصف ، الذى جاء فى شكل من أشكال أدب الرحلة ، ليس أروع من الوصف الذى سجله سترابو أو هيردوت . وما من شك فى أنه الوصف التصويرى البديع ، الذى أسفر عنه امعان النظر فى الواقع الجغرافى . وصحيح أن هناك خلط بين الرؤية الجغرافية والحدث التاريخى ، من غير أن يلوثها ، أو يشوه معالمها وحسن بيانها التخريف اسطورى .

ولقد احتلت كتابات هيردوت واسترابو وغيرهم ، أهم مكانة من حيث حسن التعبير والوصف ، وحسن العرض والبيان . وما من شك فى أنها تعبر عن حسن تذوق الواقع الجغرافى والاطلاع عليه . وجاء هذا التسجيل مبشراً ومفيداً ، لأنه بصر بالمعرفة الجغرافية ، وبسياق الأحداث التاريخية وأشبع الباحثين عنهما . وتعتبر هذه الكتابات بداية حقيقية فى أدب الرحلة ، وتطور فى الاتجاه السوى أو الصحيح ، من بعد البدايات المتواضعة فى المرحلة السابقة .

وفى المرحلة السابقة للوجود الرومانى الامبراطورى ، ربما أساء التخريف الاسطورى أو التهويل إلى الكتابة ، وهو يلوث الرؤية الجغرافية ، ولا يكاد يكشف عن الواقع الجغرافى . كما أساء التكتم والاخفاء إلى الكتابة ، وهو يتعمد تشويه الحقيقية الجغرافية ، ويأبى الافصاح عن الواقع الجغرافى . ومن ثم كانت الكتابة التى تمثل البداية المتواضعة فى أدب الرحلة ، كانت كتابة ركيكة وغير مشبعة ، وهل نشك فى أن الاهتمام الرومانى بالرحلة التى هتك حجاب التكتم ، ورفض الاخفاء ، قد والى حفز الانفتاح ، والهب التفتح ورفض الكذب، وهو الذى انتشل الكتابة الجغرافية ، من الضلالة والركاكة وعدم الوضوح ؟

وعلى ذكر التعزيز بالرسم ، الذى جاء فى شكل من أشكال انجاز الخرائط ، ليس أروع من الخرائط التى رسمها هيردوت ، وسترابو ،

وايراتوسين ، وبطليموس ، وغيرهم (١) . وما من شك فى أنها الخرائط، التى جسدت معرفتهم بأنحاء الأرض ، وفى اطار الواقع الجغرافى الذى تكشف لهم . وصحيح أن هناك أكثر من تشويه فى كل هذه الخرائط . ولكن الصحيح أيضًا أن دلالة الخرائط كانت جيدة ، ولم تفرط فى الموضوعية والصدق .

وتنبئ هذه الخرائط بالمحاولات الجادة ، التى بذلت وتطلعت إلى وضع قواعد وأسس للرسم . وصحيح أن الاجتهادات التى بذلت فى رسم الخرائط قد برهنت على التوجه الهادف نحو التعديلات ، طلبًا لحسن الدلالة . ولكن الصحيح أيضاً ، أن هذه التعديلات قد انتفعت بالتقدم فى قياسات أبعاد الأرض من ناحية ، وبوضوح الرؤية الجغرافية فى اطار المعروف من العالم من ناحية أخرى . وهكذا نجح بطليموس الجغرافى فى انشاء خريطته المشهورة التى سجلت قمة التفوق ، فى شأن رسم خريطة العالم .

وانتساب هذه الخرائط إلى أصحابها الاغريق ، الذين عاشوا على صعيد الواقع الرومانى الامبراطورى ، دعا البعض إلى انكار حق الرومان فى تطوير هذا الانجاز . وصحيح أن الخريطة فى نظر معظم الرومان ، ليست أكثر من رسم يصور الطريق ، ويحدد بعض الأسماء، على امتداد هذا الطريق . ولكن الصحيح أيضًا أن الرومان قد اهتموا كثيراً بخرائط المعسكرات ، والخرائط التى صورت امتداد الامبراطورية الرومانية على الصعيد العالمى (٢) . وتداول هذه الخرائط وغيرها يمثل علامة لا تضل ولا تضلل على مدى الاهتمام بالخريطة ، وحسن دلالتها الجغرافية .

---

(١) هناك أكثر من محاولة لرسم خريطة العالم . ونذكر من هذه المحاولات ، محاولة فراطيس وجوريا ومارنيوس . ولكن خريطة بطليموس القلوذى الاسكندرانى هى الخريطة الأفضل التى احتلت القمة ، وصورت بالفعل أقصى ما بلغته دائرة المعرفة الجغرافية بالعالم .

(٢) عبد الحكيم ، محمد صبحى ، الليثى ، ماهر عبد الحميد ، علم الخرائط ص١٤، ١٥ – القاهرة سنة ١٩٦٩ .

وحتى لو كانت الخرائط من انجاز الجغرافين الاغريق بالفعل ، فهل نشك فى أن فضل الرومان فى شأن اعداد هذه الخرائط قد تمثل فى :

١- انتظام الرحلة وانفتاح حضورها على رؤية الواقع الجغرافى ، وجمع البيانات التى تزودت بها وسجلت على الخريطة ؟



خريطة العالم الرومانية

٢- هتك حجاب الاخفاء والتكتم الجغرافى ، وطلب الصدق والوضوح وحسن التعبير ، من خلال الانفتاح الجغرافى ، وتسجيله على الخريطة .

وهناك على سبيل المثال علاقة مؤكدة بين اقتحام الابحار الرومانى المحيط الهندى ، وانتظام الرحلة فيه وانفتاح الحضور الرومانى على الرؤية الجغرافية ، التى امتدت إلى قلب أفريقية الاستوائية من ناحية ، وانجاز بطليموس رسم خريطة الجغرافية المشهورة ، وصدق ما ورد فيها من ناحية أخرى . وهل كان من الممكن أن يفلح بطليموس مثلاً فى

التمييز ، بين منابع النيل الحبشية ، ومنابع النيل الاستوائية ، من غير أن تصل إليه البيانات الوصفية ، التى جمع أوصالها الاجتهاد الجغرافى فى صحبة أو فى معية الرحلات المنتظمة فى المحيط الهندى ؟ (١) .

ويبدو أن الاهتمام الرومانى الامبراطورى بالمعرفة الجغرافية ، التى اعتنى بأداء وعمل المدرسة الجغرافية فى روما ، والمدرسة الجغرافية فى الاسكندرية عناية متوازية ومتزامنة ومتوازنة ، كان اهتمامًا واقعياً . ولكن كان هذا الاهتمام الواضح غير متجرد من الغرض . وقد تعنى هذه العناية فيما تعنى كيف حفز ونشط ودعم الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة ، أى رحلة وكل رحلة . وقد تعنى هذه العناية أيضاً مدى ادراك الرومان واستيعاب وتفهم مغزى ومعنى وجدوى عالمية الفكر الجغرافى ، وتفتحه من غير حدود على صعيد العالم (٢) .

ولأن الحضور الامبراطورى الرومانى فى المكانة المرموقة بين مجتمع الدول ، امتلك روح ومنطق وفلسفة وارادة الهيمنة على العالم ، ولأن روما المتعالية رنت وتطلعت إلى الدولة العالمية ، التى تسيطر من غير منافس ، فلقد بان الغرض ، وانكشف معنى عدم التجرد ، فى شأن توظيف الفكر الجغرافى وتفتحه على الصعيد العالمى . ذلك أن الحضور الرومانى الامبراطورى قد أدرك قيمة الاجتهاد الجغرافى فى معية الرحلة واستملح تفتحه ، وأراد منه أن يكون لحساب روما :

١- عيناً مبصرة تبصر الرحلة ، وتحسن توجهها لأداء دورها الوظيفى ، حتى تمسك روما بزمام التفوق الاقتصادى ، والسياسى، والعسكرى ، والحضارى .

٢- عيناً مبصرة ترشد الانتشار الرومانى ، وتخدم إرادة التوسع والهيمنة على العالم(٣) .

---

(١) الشامى صلاح الدين : دراسات فى النيل ص٢٣ - ٢٥ .

(٢) شريف ، محمد شريف : المرجع السابق .

(٣) الشامى : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ص١٣٥ .

وروما التى وجدت فى عالمية الفكر الجغرافى وتفتحه من غير حدود، صدى لمنطق وارادة هيمنتها عالمياً ، قد طوعت اجتهاده ، وطلبت منه أن يطاوعها ، وروما التى وجدت فى الاجتهاد الجغرافى وانصياعه دليلاً يبصر أهدافها التوسعية العالمية ، اقتصادياً وسياسيًا ، قد تبنت كل اهتمام بالجغرافية وأحسنت إليه . ومن ثم حسنت روما مستوى العلاقة أو الصحبة بين الرحلة والاجتهاد الجغرافى وأمنت انتفاعه بها .

ولقد بلغ هذا الأمر حداً ، زج فيه قيصر بنفسه فى القرن الأول قبل الميلاد ، فى صميم الاجتهاد الجغرافى ، أثناء خروجه إلى الرحلة العسكرية التوسعية ، لكى يباشر الغزو ، أو إلى الرحلة العسكرية التفقدية ، لكى يؤمن أحوال الرعية . وبصرف النظر عن سوء استعداد هذا القيصر ، وعدم قدرته على التصدى للعمل الجغرافى الجيد والمفيد، يجب أن نفطن إلى أن هذا التوجه ، أو إلى أن هذا الاقدام ، علامة لا تضل ولا تضلل فى شأن استشعار مبلغ الاهتمام الرومانى الامبراطورى بالاجتهاد الجغرافى ، فى صحبة الرحلة وجدواه (١) . بل هو علامة أيضاً على مدى توقع الخير والمصلحة التى ترنو إليها روما وتنتظرها ، من وراء الاجتهاد الجغرافى فى صحبة كل رحلة .

ومن خلال اجتماع مصلحة روما فى العمل المنسق بين الرحلة والاجتهاد الجغرافى من ناحية ، وارادة الهيمنة على العالم من ناحية أخرى ، وجد الاجتهاد الجغرافى فرصته لكى يشبع غايته ، أو لكى يوسع دائرة رؤيته الجغرافية . ولقد تعاونت الرحلات الرومانية ، وهى رحلة تجارة ، أو رحلة حرب ، أو رحلة سفارة ، فى دعم العمل الجغرافى فى اطار أدائها الوظيفى . وقد أمد هذا الاجتهاد الجغرافى المصلحة الرومانية العليا برصيد كبير من أدب الرحلات .

ورصيد هذه المرحلة التى استثمرت الاهتمام الامبراطورى الرومانى بالرحلة ، رصيد جغرافى مفيد . وفى الوقت الذى سجل فيه

---

(١) شريف : المرجع السابق ص٣٧٨ – ٣٧٩ .

هذا الرصيد مدى اتساع دائرة الرؤية الجغرافية من عالم المحيط الهندى شرقاً ، إلى عالم غرب أوروبا غرباً ، سجلت الخرائط بياناً واضحاً . وقد حسب هذا التسجيل وحدد أبعاد المعروف من العالم فى ذلك الوقت . وما من شك فى أن دخول روما فى المسيحية قد أنهى هذه المرحلة ، وازدهار العمل الجغرافى فيها وأدخل أمر الرحلة والعمل الجغرافى فى وضع جديد ردئ .

***

روما المسيحية وتضليل العمل الجغرافى :

اعتنقت روما المسيحية ، وهى فى قمة المكانة المرموقة سياسيًا واقتصادياً ، وحضارياً . ولأن الثراء الفكرى الجغرافى هو الوليد الشرعى لهذا التفوق فى الدولة الرومانية ، يجب أن نتبين ماذا فعلت المسيحية ، أو بالأحرى رجال الدين المسيحى بالاجتهاد الجغرافى وثمراته ، وكيف توجه فى الاتجاه غير الصحيح .

هذا ، ولقد تغيرت الأوضاع فى روما المسيحية تغيراً جذرياً . بل قل لقد تهيأت أوضاع جديدة فرضتها الكنيسة ، وتأثرت بها حركة الحياة. وصحيح أن الكنيسة أرادت أن تتسلل إلى فكر الناس ، لكى تهديهم سواء السبيل وتثبت الايمان بالله فى قلوبهم ، ولكن الصحيح أيضاً أنها توجهت فى الاتجاه غير الصحيح ، عندما شككت وتشككت فى التراث الفكرى الانسانى ، الذى صنعه الانسان ، وهو غير مؤمن قبل المسيحية على المدى الطويل .

ولقد امتدت حملة التشكيك والرفض إلى الفكر الجغرافى القديم ، الذى اعتبره رجال الكنيسة فكراً ضالاً يروج للكفر . وصحيح أن رجال الكنيسة قد طاردوا الفكر الجغرافى الصحيح ، وأعلنوا عليه الحرب وأهدروا دمه ، لكى يكف عن تضليل الناس . وصحيح أيضًا أن هذا الفكر الجغرافى القديم -وهو صحيح ولا غبار عليه- قد عاش مهجوراً، ولاجئًا فى أرض فارس غير المسيحية . ولكن المؤكد أن رفض الفكر

الجغرافى القديم ، لأنه يروج للكفر فى رأى رجال الكنيسة شئ ، وأن رفض الفكر الجغرافى رفضاً مطلقاً شئ آخر .

وهذا معناه أن هذا الرفض كان رفضًا للفكر الجغرافى القديم ، الذى تنكرت له ورفضته الكنيسة . ومعناه أنه ليس ثمة ما يمنع الدولة الرومانية من متابعة الاهتمام بالفكر الجغرافى ، الذى تقبل به الكنيسة(١) . وما من شك فى أنه لم يكن فى وسع الحضور الرومانى الامبراطورى ، أن يفرط فى الاجتهاد الجغرافى . كما لم يكن فى وسع رجال الدين التفريط فى حاجة ينتفع بها الحضور الامبراطورى الرومانى ، ويتشبث بها .

ومن ثم ابتدع الرجال الذين تلمسوا رضا رجال الدين فكراً جغرافيًا ساذجًا . وصحيح أن هذا الفكر الجغرافى المسيحى الساذج ، كان مضللاً ومتوجهاً فى الاتجاه غير الصحيح . ولكن الصحيح أن نشأة هذا الفكر الجغرافى المسيحى ، وقبول رجل الدين به ، قد حافظ على قوة دفع الاهتمام الرومانى الامبراطورى بالاجتهاد الجغرافى وبالرحلة .

وهذا معناه أن الحضور الرومانى الامبراطورى وأصل حركة الحياة، سياسياً واقتصادياً وهو :

١- حريص على الرحلة ، وتوظيفها فى خدمة أغراضه الاقتصادية أو أغراضه الحربية التوسعية .

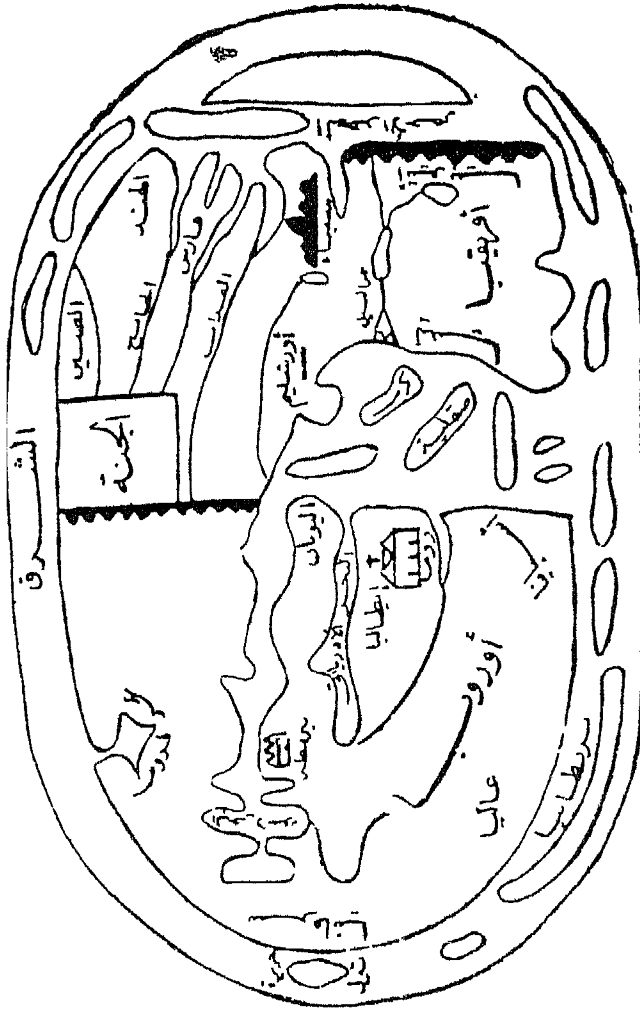
٢- حريص على الاجتهاد الجغرافى والتحاقه بها ، لكى يواصل انفتاحه على العالم .

وهذا معناه مرة أخرى أن التحاق الاجتهاد الجغرافى بالرحلة الرومانية ، ظل أمراً مهما يكترث به الاهتمام الرومانى الامبراطورى ويدعمه ، ويتطلع إلى ثمراته وانجازاته . ولقد عمل الاجتهاد الجغرافى

---

(١) الشامى صلاح الدين : الاسلام والفكر الجغرافى العربى ص٢٢ - ٢٤ - القاهرة ١٩٨٧ .

فى معية الرحلة ، بنفس قوة الدفع ، فى جمع أوصال المعرفة الجغرافية ، ولكن فى الشكل الذى يقبل به رجال الكنيسة .



خريطة سان بيتوس سنة ٧٧٦م

ويمكن القول أن الكنيسة فى الدولة الرومانية ، لم تعترض على توظيف الرحلة ، ولم تعترض على التحاق الاجتهاد الجغرافى بالرحلة ، طالما عمل هذا الاجتهاد لحساب الفكر الجغرافى المسيحى الضال ، الذى

قبلت به ورزوجت له الكنيسة . وربما وجدت الكنيسة فى الرحلة فرصتها ، لكى تستخدم الاجتهاد الجغرافى العامل فى ركابها ، فى خدمة التبشير المسيحى ، وانتشار المسيحية على الصعيد العالمى .

وشرود أو تمرد الاجتهاد الجغرافى، على الفكر الجغرافى الصحيح، وامتثاله وعمله فى خدمة الفكر الجغرافى المسيحى الضال ، قد استمر فترة طويلة . وامتدت هذه الفترة من حوالى أواخر القرن الأول الميلادى إلى القرن الرابع عشر الميلادى . وكان الاجتهاد الجغرافى متفرداً فى أداء مهمته ، تسعفه الرحلة ، وتحميه عصا الكنيسة الغليظة .

وما من شك فى أن هذا التفرد قد أتاح للاجتهاد الجغرافى الضال ، أن يعيد إلى الأذهان المحنة التى تسبب فيها التكتم الجغرافى فى مرحلة سابقة . بل ربما أساء الاجتهاد الجغرافى الضال إلى المعرفة الجغرافية اساءة بالغة ، لأنه ساق مسيرة التفكير الجغرافى فى طريق الضلال . ولقد دام أو استمر هذا التفرد فى مسيرة الضلال إلى ظهور الاسلام .

ومع ظهور الاسلام وانتصاره ، تحمل الاسلام مسئولية انتشال الاجتهاد الجغرافى من الضلال (١) وتحمل أيضًا مسئولية احياء الفكر الجغرافى الصحيح المهجور . كما تولى أمر تنشيط الرحلة والتحاق الاجتهاد الجغرافى بها ، وتوجيههما فى الاتجاه الصحيح .

---

(١) انظر إلى الخريطة التى تمادت فى الضلال حتى وضعت الجنة فى مكان معين على صعيد الأرض .

الفصل الرابع

الإسلام وإسهام الرحلة فى الكشف الجغرافى

- تمهيد .
- الإسلام وتنشيط الرحلة .
- الرحلة وتنشيط العمل الجغرافى .
- ارهاصات الرحلة الجغرافية .
- الرحلة وأدب الاسطورة .
- الرحلة وأدب الرحلة .
- الرحلة والأدب الجغرافى .

الفصل الرابع
الإسلام وإسهام الرحلة فى الكشف الجغرافى

لأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة منفتحة ومتفتحة ، ولأن التحضر والتفتح يكفل التقدم ، ويؤمن حركة الحياة ويدعمها ، ويبشر بحياة أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها . بل والتهب نشاط الرحلة الإسلامية ، فى اطار اهتمام رشيد مطمئن . وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير .

ونالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل فى الاهتمام والأمان من ناحية ، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على الطريق فى البر والبحر من ناحية أخرى . وواصل نفر نشيط من المسلمين ، أصحاب الخبرة فى الرحلة أداء دورهم الوظيفى . وكان الخروج فى الرحلة لانجاز المهام المنوطة بهم ، فى كل رحلة فى البر ، أو فى البحر على حد سواء .

ولأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة منفتحة ومتفتحة ، ولأن التحضر والتفتح يكفل الأمن ، ويحرر الفكر من الخوف ، ويدعمه ويبشر بانجاز أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الفكر الجغرافى وتحمسوا له . بل التهب هذا التفكير الإسلامى الجغرافى ، فى اطار اهتمام رشيد وتحولات ، تبشر بحياة أفضل وتنور بصير .

ونال الفكر الجغرافى العربى الإسلامى حقه الكامل ، من الاهتمام والأمان من ناحية ، واستحقاقه الفعال من قوة الدفع والحوافز المجدية من ناحية أخرى . وتبنى نفر نشيط من المسلمين الاجتهاد الجغرافى . بل عكف بعض المسلمين على الفكر الجغرافى القديم المهجور ، وعملوا على استيعابه واحيائه ، قبل أن تكون الاضافة المجددة إليه .

الإسلام وتنشيط الرحلة :

هذا ، ولقد اجتمع فى صعيد واحد وتحت مظلة الإسلام ، الاجتهاد المغامر العامل لحساب الرحلة وتوظيفها المتخصص ، مع الاجتهاد

الجغرافى الخبير فى شأن ترشيد الرحلة والانتفاع بها . ومن خلال هذه الصحبة عمل الشريكان سوياً عملاً مخلصًا على طريق الرحلة ، فى البر أو البحر . بل وما كان من مصلحة أى منهما أن يفرط فى هذه الصحبة ، أو أن يتنكر لها ، أو أن يتوانى فى شأن الانتفاع بها ، انتفاعاً حقيقياً ، لحساب حركة الحياة .

وصحيح أن توظيف الرحلة وترقب ثمراتها ، قد حافظ وأبقى على الرحلات المتنوعة ، التى ورثها المسلمون ضمن التركة الحضارية الانسانية ، التى آلت إليهم فى الحضارات السابقة ، وهى رحلة التجارة ، ورحلة الجهاد ، ورحلة السفارة . وصحيح أن أداء كل رحلة من هذه الرحلات ، كان مطلوباً بكل الالحاح لحساب حركة الحياة ، التى أمسك المسلمون بزمامها ، واستحقوا قيادتها وتوجيهها فى التوجهات الصحيحة . ولكن المؤكد أن الإسلام ، الدين والدولة معاً ، قد تمادى فى العناية بأمر الرحلة وتأمينها ، وفى الاهتمام بثمراتها .

وامعاناً فى هذا الاهتمام الإسلامى بالرحلة ، أضاف الإسلام ثلاثة رحلات جديدة ، إلى قائمة الرحلات المتنوعة ، التى تلبى أو تجاوب حاجات الحياة وتنوعها . وتمثلت هذه الاضافة التى عبرت عن مبلغ تنشيط الرحلة فى :

١- رحلة الحج .

٢- رحلة طلب العلم .

٣- رحلة التجول والطواف .

وعن الرحلات التى ورثها المسلمون ، يجب أن نذكر كيف أنها قد وظفت التوظيف المتخصص . بل عملت هذه الرحلات المتنوعة ، لحساب المسلمين تحت مظلة الأمن الإسلامى السائدة ، وهيبته على أوسع مدى. وما من شك فى أن عمل هذه الرحلات هو استمرار على الدرب . ومع ذلك فلقد طهر الإسلام هذه الرحلات تطهيراً من أى خطيئة ينهى عنها الإسلام . ومن ثم خرجت كل رحلة فى حال سبيلها فى البر أو فى البحر إلى أهدافها ، فى الشكل المناسب ، والتوظيف النشيط ، والاجتهاد العملى الذى رضى عنه الإسلام .

وهذا معناه أن الإسلام **الدولة** قد وضعت الرحلة البرية أو الرحلة البحرية فى مكانتها الأفضل ، التى جاوبت أوضاع التفوق الإسلامى اقتصادياً وسياسيًا وحضارياً . ومعناه أيضاً أن الإسلام **الدين** قد بارك الرحلة البرية أو الرحلة البحرية ، وحفل بها وتفهم دورها الوظيفى البناء ، وقدر مدى ضرورته الحيوية اقتصادياً وسياسيًا وحضارياً . وهل ننكر أن الإسلام ، وهو دين ودولة ، كانت له تطلعات عالمية ؟ هل ننكر أن الإسلام وهو دين ودولة ، قد وضع قواعد الانفتاح التى جاوبت هذه التطلعات العالمية ؟ وهل ننكر بعد ذلك كله أن الإسلام ، وهو دين ودولة ، قد اتخذ من الرحلة سبيلاً من سبل هذا الانفتاح الاقتصادى، والسياسى ، والحضارى ، على العالم ؟

ورحلة التجارة ، سواء كانت رحلة برية ، أو كانت رحلة بحرية ، قد واصلت المغامرة بكل تأكيد ، وعرفت طريقها إلى أهدافها . بل لقد انهمكت الانهماك المثابر ، فى أداء المهام المنوطة بها لحساب دورها الوظيفى الحيوى البناء على أوسع مدى ، فى أنحاء المعروف من العالم . وما من شك فى أن توجه هذه الرحلة كان مفيداً ومجزياً ، سواء كان التحرك على صعيد العالم الإسلامى ، أو على صعيد ما وراء تخوم هذا العالم .

وصحيح أن أداء هذه الرحلة ، قد واصل وتمم أداء مماثل سابق ، طالما اشترك الاجتهاد العربى التجارى فى انجازه فى عالم المحيط الهندى وجزيرة العرب ، أو وهو يلعب دور الوسيط التجارى النشيط المتفرد أحياناً ، وغير المتفرد أحياناً أخرى ، بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط ، قبل الإسلام . ولكن ا المؤكد أن الإسلام قد طهر أداء هذه الرحلة ، وحرره من الحرام ، وأمن مسيرتها على الطريق ، ونشطها تنشيطاً فعالاً ومجدياً من غير حدود (١) .

---

(١) رحلتا الشتاء والصيف من رحلات التجارة البرية فى جزيرة العرب قبل الإسلام ، وكانتا تمران بمكة وهى تعبر الجزيرة العربية من عدن جنوباً إلى الشام شمالاً . وتحملت مراكز التجارة فى المستوطنات على الطريق البرى =

ورحلة الجهاد ، هى التعديل الإسلامى البناء لرحلة الحرب والعمل العسكرى ، التى تعاملت بموجبها الأمم والأقوام قبل الإسلام . ولقد بنى هذا التعديل الإسلامى على أساس أن شرعية حمل السلاح واستخدامه ، ينبغى أن تكون فى سبيل الله دفاعًا أو هجوماً . وهذا هو عين الجهاد الذى يرضى عنه الإسلام ويلتزم به ، وأن حمل السلاح وسوء استخدامه فى غير سبيل الله ، هو العدوان الذى يرفضه الإسلام ويتبرأ منه . وما من شك فى أن توجه هذه الرحلة كان مفيداً ومجزياً فى سبيل الله ، سواء وهو يعلى كلمة الله وارداته ، أو وهو يحبط العدوان ويدرء الخطر (١) .

وفى اطار هذا المنطق الرشيد البناء ، أدت رحلة الجهاد دورها الفعال فى سبيل الله ، واعلاء كلمة الإسلام . وكم لعبت هذه الرحلة أدواراً فى الحرب الوقائية ، التى تصدت لعدوان الكفر وعناده ، أو فى الحرب الهجومية التى احبطت تحديات الكفر ورفضه ، بل وكان دور رحلة الجهاد مرموقاً فى الفتوح الإسلامية ، وهى تحرر الناس من الكفر . كما قامت هذه الرحلة أيضًا بدور فعال وحيوى من أجل تأمين الإسلام والمسلمين . ولقد أشاعت رحلة الجهاد الهيبة والأمن والأمان ، لحساب الإسلام والمسلمين فى العالم الإسلامى ، وفيما وراء العالم الإسلامى على السواء .

ورحلة السفارة هى رحلة المسئولية والتكليف ، ووضع التعليمات موضع التنفيذ أكثر من أى شئ آخر . ومن شأن هذه الرحلة أن تخرج فى البر ، أو فى البحر ، وأن تعمل بموجب التكليف من ولى الأمر ، وامتثالاً لمصلحة عامة مشروعة لحساب الإسلام والمسلمين .

= مسئولية تأمين هاتين الرحلتين . ولقد ازدادت هاتان الرحلتان أمنًا ونشاطًا بعد الإسلام .

(١) رحلة الجهاد فريضة واجبة على كل مسلم قادر ، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وامتثالاً لأمر الله وفى سبيله . ولا يعفى المسلم القادر منها ، أو من تجهيزها وتمويلها ، احتساباً لوجه الله .

وفى دولة الإسلام ، التى صعدت إلى قمة المكانة المرموقة فى مجتمع الدول ، عملت رحلة السفارة بموجب هذا التكليف ، من أجل ترسيخ مكانة الدولة فى مجتمع الدول ، أو من أجل خدمة النظام فى أنحاء الدولة الكبرى ، أو من أجل نقل الأخبار العامة والخاصة فيما بين أمصار الدولة (١) .

وفى سبيل هذه المهمة ، تولت رحلة السفارة أمر العلاقات الخارجية مع غير المسلمين ، وعملت فى سبيل حسن الجوار والتفاهم على الصعيد الدولى(٢). كما تولت أيضاً مسئولية نقل وابلاغ التعليمات والأوامر من ولى الأمر ، فى عاصمة الدولة إلى عماله فى الأمصار . هذا بالاضافة إلى تكليف هذه الرحلة بأمر البريد العادى ، لحساب الناس كل الناس ، على الطرق التى كانت بمثابة الشرايين فى كيان دولة الإسلام .

هذا وخروج رحلة من هذه الرحلات ، لكى تنجز المهمة المنوطة بها ، كان لا يستغنى عن اصطحاب الاجتهاد الجغرافى . وسواء تمثل الاجتهاد الجغرافى فى شخص قائد الرحلة أو فى شخص رجل يصاحبه، ويلتحق بالرحلة ، فإنه كان مسئولاً عن ترشيد الرحلة على الطريق لكيلا تضل . ومثلت هذه الصحبة امتداداً واستمراراً للصحبة والعلاقة والمصلحة المتبادلة بين الاجتهاد الجغرافى والرحلة فى المراحل السابقة . كما مثلت روح ومنطق وكنة الانفتاح الجغرافى على الواقع ،

---

(١) من رحلات السفارة المشهورة ، رحلات السفراء الذين اوفدهم الرسول (صلعم) برسائل إلى ملك فارس ، وامبراطور بيزنطة ، ونجاشى الحبشة ، وعظيم القبط فى مصر . ومنها أيضاً سفارة الرشيد إلى ملك الفرنجة ، ورحلة أبو دلف سعر النيبعى إلى الصين مبعوثاً من الأمير السامانى فى القرن العاشر الميلادى .

راجع أ – خصباك ، شاكر : فى الجغرافية العربية – بغداد سنة ١٩٧٥ .

ب– محمد رشيد الفيل : العلاقات التجارية بين العراق والصين فى العصور الوسطى – بغداد سنة ١٩٧٥ .

(٢) حسن ، حسنى محمود : أدب الرحلة عند العرب – المكتبة الثقافية ص١٥ – ١٦ القاهرة ١٩٧٦ .

أو على الرؤية الجغرافية ، الذى واكب إرادة الانفتاح الإسلامى ، وهو الذى جاوب طلب العلم والمعرفة بصفة عامة ، والمعرفة الجغرافية بصفة خاصة .

وعن الرحلات التى استحدثها الإسلام الدين والدولة ، واضافها إلى الرصيد الحضارى الانسانى ، وهى رحلة الحج ، ورحلة طلب العلم ، ورحلة الطواف والتجول ، نذكر كيف أنها قد جاوبت تفتح الإسلام أحياناً ، وجاوبت فرائضه أحياناً أخرى . ولقد اهتم المسلمون بخروج كل رحلة من هذه الرحلات اهتماماً كبيراً ، وهى لحساب المصلحة الذاتية أكثر من أى شئ آخر . بل لقد جهزوا وخرجوا إليها بشغف عظيم ، وهم على يقين بأن لهم فيها مآرب كثيرة ، ترضيهم وتبتغى رضوان الله فى وقت واحد .

وهذا معناه أن توظيف الرحلة فى هذه الحالة ، قد كفل تأكيد الذات الشخصية المسلمة ، ومصالحها المشروعة فى الرحلة . ومعناه أيضاً أن الإسلام قد تفهم قيمة وجدوى كل رحلة من هذه الرحلات ، لحساب الانسان المسلم وتفتحه ، فباركها وحفز الخروج إليها ، وحث على تأمين مسيرتها . ومن ثم كانت كل رحلة من هذه الرحلات ، حريصة على تخصصها الوظيفى ، وعلى انجاز المهمة المنوطة بها ، من أجل الهدف النبيل ، الذى يتطلع إليه من يخرج فى أى من هذه الرحلات .

ورحلة الحج (العمرة) ، هى رحلة سفر إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة . وهى رحلة فريضة تعبدية خالصة ، تجاوب إرادة الله فى ركن من أركان الإسلام . وصحيح أن الخروج فى هذه الرحلة فيه امتثال لإرادة الله ، ولكنه الخروج الذى جاء مشروطاً بالقدرة ، ومبنياً على الاستطاعة المادية والصحية والاجتماعية . ومع ذلك يتشوق كل مسلم للخروج وحده ، أو للخروج فى جماعة فى هذه الرحلة . ولا يكاد يحفل المرء ، أو يكترث كثيراً بالمشقة والمتاعب على الطريق ، إلى بيت الله الحرام (١).

---

(١) فى رحلة الحج يجتمع الحجاج ، وهم يتسامرون ، ويحكى كل واحد منهم عن بلده الأرض ومواصفاتها ، وعن بلده الناس وأحوالهم .

وسـواء كانـت الرحلة إلى بيت الله الحـرام فى البر أو فى البـحـر ، فإنها قد التزمت بمواقيت وأيام معدودات ، من شهـر ذى الحجة من كل عام . ويتلمس الحاج فى هذه الرحلة طريقة ، بكل الحذر لكيلا يضل . وأقل ما يقال فى شأن هذه الرحلة أن دروباً وطرقاً قد تخصصت ، يتوجه عليها الحجيج من أوطانهم . وما من شك فى أن رحلة الحج فى كل عام وتكرارها ، قد خدم الانفتاح بين المسلمين ، كما أيقظ فى كل خارج مع الرحلة إلى بيت الله ، حسه الجغرافى الفطرى . بل قل أتاح هذا التحرك الاطلاع على الرؤية الجغرافية ، وما تنبئ به عن كثب ، على كل طريق فى الاتجاه الصحيح إلى مكة المكرمة .

ورحلة طلب العلم ، هى رحلة تشوق إلى العلم ، والجلوس فى مجالس العلم والاستماع إلى العلماء . وهى رحلة تفتح حبذه الإسلام ، أو رحلة انفتاح دعى إليه الإسلام ، أو رحلة تنور لحساب الإسلام . وخروج طالب العلم فى هذه الرحلة وصولاً إلى مجالس العلماء ، يمثل دعوة مفتوحة من الله لكل الناس لكى يتدبروا ويتمعنوا ، وهم جلوس يستخدمون العقول ، أو وهم قعود يحصدون ثمرات العقول المتفتحة ، والخبرات البصيرة لحساب حركة الحياة .

وسـواء كان الخروج فى الرحلة وصولاً إلى مجالس العلماء ، من أجل التفقه فى الدين وعلوم الدين والسنّة ، أو من أجل التعمق فى علوم الدنيا ، فالرحلة وشد الرحال إلى هذه المجالس ، قد خدم الانفتاح الإسلامى والتفتح العلمى . ولقد أيقظ كل خارج فى رحلة طلب العلم حسه الجغرافى الفطرى ، وأحس استخدام حسه وحدسه ، لكى يرشده على الطريق . وما من شك فى أن هذا التحرك قد أتاح فرص الاطلاع على الرؤية الجغرافية ، وما تنبئ به عن كتب على كل طريق فى الاتجاه الصحيح، وفى كل موقع احتوى أو ضم مجلساً من مجالس العلماء (١).

ورحلة الطواف ، هى رحلة تجول فى الأرض من أجل الرحلة . وهى انطلاق متحرر من أى التزام ، ومتجرد من كل غرض ، غير غرض الاستمتاع بالرحلة ذاتها. وقد يتمثل غرض الرحلة ذاتها فى هواية جمع

---

(١) يتعايش طلاب العلم الوافدين من كل حدب وصوب . ويقص كل طالب علم شيئاً عن بلده الأرض ، وبلده الناس فى هذه الأرض .

أوصال المعرفة ، والانفتاح على الحياة ، أو فى تعشق زيارة الأقطار والأمصار والتعامل مع حركة الحياة فيها . وخروج الرجل فى هذه الرحلة ، كان فى الغالب خروجًا منفرداً ، فلا تكاد تغريه صحبه على الطريق . ولقد أمن هذا الخروج ، الأمن الذى أشاعه الإسلام فى أنحاء الدولة ، أو أشاعته هيبة الإسلام ودولة الإسلام ، فيما وراء التخوم الإسلامية .

وسواء كانت هذه الرحلة رحلة طواف فى البحر ، أو رحلة تجول فى البر ، فإنها لم تطلب أكثر ، من المعاينة ، عندما تشاهد الرؤية الجغرافية التى تلفت النظر ، أو أكثر من المعايشة ، عندما تتعامل مع الناس على الطريق ، أو الذين تعايشهم فى الأقطار والأمصار . وكأنها كانت رحلة متعة ذهنية ونفسية أحياناً ، ورحلة انفتاح واكتساب مهارات وخبرات أحياناً أخرى . وقل أنها كانت تجاوب إرادة توسيع دائرة المعرفة بصفة عامة . ومع ذلك فهى ليست رحلة هجرة تطلب فراراً من موطن ، وتطلب استيطاناً فى موطن آخر . كما أنها ليست رحلة تسكع وصعلكة تضرب فى الأرض على غير هدى . ولكنها رحلة هادفة ينبع هدفها من ذات صاحبها . بمعنى أن من يخرج فى هذه الرحلة ، هو وحده الذى يعرف ما يطلبه أو يبتغيه من الخروج فى هذه الرحلة . وعندما تضرب هذ الرحلة فى الأرض وتتجول فى أنحاء المجهول ، وتتنتقل من مكان إلى مكان آخر ، فإنها – بكل تأكيد – قد أشبعت هواية ، وأرضت انفتاحاً ، وحققت تفتحاً كاشفاً ، عن بعض المجهول من الأرض .

وفى رحلة الحج إلى بيت اللّه الحرام ، أو فى رحلة طلب العلم فى مجالس العلماء ، يخرج الرجل وقد عرف غايته وحدد طريقه . ولا يثنى هذا الرجل عن عزمه ، ولا يقعده عن بلوغ الغاية ، التى خرج من أجلها شيئًا عادياً . وسواء كان على الطريق فى عجله ، أو كان غير متعجل ، فإنه يتعامل مع الناس – فى الغالب – تعامل من لا يثنيه الغرض عن مقصده . ومن خلال الرؤية والمعاينة على الطريق ، ومن خلال التعامل مع الناس ، وهو يلتقط الأنفاس ويكسب رزقه ، يجمع الرصيد والعلم ، الذى يجسد حكاية هذه الرحلة ، فى الذهاب وفى الاياب .

أما فى رحلة الطواف ، فهناك رجلان يقومان بهذه الرحلة ، لكى يقضى كل واحد منها وطره .

والرجل الأول يتعشق الرحلة ، ويهوى التجول إلى حد يصل إلى مرتبة أو مستوى الاحتراف . ونذكر من هذا النمط الذى تشبع الرحلة هوايته واحتراف السفر ، ابن جبير وابن بطوطة .

والرجل الثانى يتعشق الرحلة لأنها تضعه فى مواجهة الرؤية الجغرافية التى يهواها ويتطلع إليها . ونذكر من هذا النمط ، الذى تشبع الرحلة عشقه للمعرفة الجغرافية المقدسى والبيرونى (١) .

والفرق كبير بين هذين الرجلين ، سواء الواحد منهما ، وهو يخرج إلى الرحلة التى تستهويه ، أو والواحد الآخر منهما ، وهو يعود منها بعد أن يقضى منها وطره ويبلغ غايته .

ومن شأن الرجل الأول أن يرى ويعاين ويعايش أحياناً ، أو أن يعجب ويتعجب وينبهر أحياناً أخرى . ومن ثم يسجل رؤيته فى شكل من أشكال التدوين فى أدب الرحلات .

ومن شأن الرجل الثانى أن يرى ويعاين ويتعامل ويشبع تطلعه فى اطار تشوق حقيقى إلى المعرفة الجغرافية ، أو فى اطار تيقن من صدق رواية استمع إليها عن الحقيقة الجغرافية ، وتشكك فى فحواها . ومن ثم سجل رؤيته فى شكل من أشكال الأدب الجغرافى (٢) .

ومن شأن هذه الرحلات ، التى أضيفت إلى قائمة التحرك والانتقال والسياحة على عهد الإسلام، أن تعرف لماذا تتحرك، ومتى تخرج، وكيف تبدأ (٣) ؟ بل وكانت تعرف جيداً ، كيف تدرك الغرض أو تحقق الهدف ، الذى تسعى إليه . ولكنها رغم ذلك كله لا تعرف - فى الغالب - شيئاً

---

(١) عن رحلة البيرونى إلى الهند ، راجع حسن ، حسنى محمود ، أدب الرحلة عند العرب - المكتبة الثقافية ٣٢٥ ص١٧ - القاهرة ١٩٧٦

(٢) الشامى صلاح الدين : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص٩٥ - ١١٢ .

(٣) حسن ، حسنى محمود : المرجع السابق فى دواعى العلة ص١١ - ١٤ .

عن موعد احتمال العودة بالضبط بعد انقضاء الغرض . كما لا تعرف أيضًا متى وكيف تكون هذه العودة من حيث أتت . بل ربما لم تكترث رحلة من هذه الرحلات كثيراً بأمر العودة ، من بعد انهاء المهمة المنوطة بها ، والتى خرجت وتكبدت المشقة على الطريق من أجلها . والسؤال الوجيه حقًا ، هو ولماذا ينبغى أن تعود من حيث بدأت رحلة من هذه الرحلات ؟

ولا يعنى ذلك بالضرورة أن هذه الرحلات رحلات مغامرة وضياع ، تلقى بكل وزنها وثقلها ومصيرها فى المخاطر ، دون أن تتخوف أو أن تحسب حساب الضياع ، أو عدم العودة . وعدم الاكتراث بأمر العودة ، لا يمكن أن يعنى بالضبط أكثر من ترك أمر العودة والتفكر فيه للظروف والعوامل والمتغيرات . وقد تعود الرحلة بكل الشوق والاصرار من حيث بدأت . وقد لا تعود الرحلة أبداً ، ويستقر من تجنب العودة بكل الاطمئنان فى مكان ما تطيب فيه له الحياة . والسؤال الوجيه مرة أخرى ، هو لماذا الاصرار على العودة أو عدم العودة ، والأرض كلها هى أرض اللّه ؟

ومن شأن كل رحلة من هذه الرحلات أيضًا ، وهى رحلة الحج ورحلة طلب العلم ، ورحلة الطواف ، أن تبدأ وهى فى أشد حالات التشوق واللهفة والاصرار . ولكن عندما تخرج بالفعل ، وتتحرك على الطريق ، وتضرب فى الأرض ، قد لا تملك الحماس لكى تتعجل ، ولا تجد المبرر لكى تواصل التحرك من غير توقف . ولا يبقى لها بعد ذلك إلا الاصرار مهما تعاظمت المشقة على استمرار التحرك وبلوغ الغاية . هذا ، ولا شئ مهم يمكن أن يثنى هذا العزم ، أو أن يحبط هذا الاصرار .

وربما كانت خطوات كل رحلة من هذه الرحلات سواء خرجت على ظهر دابة ، أو تربعت على ظهر سفينة ، أو مضت سيراً على الأقدام متأنية . بل ولا مانع من التوقف طويلاً ، والتخلف من حين إلى حين أخر لالتقاط الأنفاس ، كأن الرحلة تتسكع ، وهى تمضى من مرحلة

على الطريق إلى مرحلة أخرى . ولا تعارض أبداً بين التشوق واللهفة ، التى تحفز الرحلة ، وتتعجل خروجها من ناحية ، والتأنى والتسكع والتوقف أكثر من وقفة على الطريق من ناحية أخرى .

هذا ، وقد يصل أمر التأني والتسكع على الطريق ، أو التوقف من حين إلى حين آخر ، فى بعض المدن والبلدان إلى حد الاقامة لبعض الوقت ، طلبًا للرزق الحلال ، وجمع نفقات الرحلة . ولا يعنى ذلك أنها رحلات وهن وتكاسل وتسول ، وهى لا تتكاد تتعجل بلوغ الغاية أو الهدف . ولكنها - فى الحقيقة - رحلات مشقة ونصب وطلب العمل ، وهى تضرب فى البر ، أو فى البحر ، فى اتجاه الغاية . ولا يفرغ أمل الرحلة أبداً من طلب الرزق ، والتكسب بالعمل المناسب على الطريق ، أو فى كل موقع تدعو الحاجة عنده الرحلة إلى التوقف ، لبعض الوقت المناسب .

***

الرحلة وتنشيط العمل الجغرافى :

على عهد الإسلام ، وفى اطار انفتاحه على العام ، ازداد تنوع الرحلات . وبدلاً من ثلاث رحلات فقط ، هى رحلة التجارة ورحلة الحرب ورحلة السفارة ، خرج الرحالة المسلمون فى ست رحلات متباينة ، وهى رحلة التجارة ، ورحلة اجهاد ، وحلة الحج ، ورحلة طلب العلم ورحلة الطواف والتجول . وهذا معناه أن الرحلات المتنوعة قد أصبحت النافذة العريضة ، التى أطل من خلالها الإسلام على العالم . ومعاه أيضًا أن الانفتاح الجغرافى العربى ، قد توجه واطل من خلال هذه النافذة العريضة على العالم . وهل خروج الاجتهاد الجغرافى فى صحبة أى رحلة من هذه الرحلات ، لا يجسد معنى الانفتاح الجغرافى ؟ وهل يعفى الانفتاح الجغرافى أى رحلة ، أو يجردها ، من خدمة الهدف الجغرافى بشكل غير مباشر ؟

وصحيح أن أى رحلة اصطحبت الاجتهاد الجغرافى ، قد خدمت الانفتاح الجغرافى ، وهى تجوب فى ربوع الأرض ، وتجنى ثمرة الهدف

الأصلي ، الذي خرجت من أجله أصلاً ، وصحيح أن هذه الصحبة ، وهذا الانفتاح الجغرافي يضفي على الرحلة شبهة العمل لحساب الهدف الجغرافي . ولكن الصحيح أن رحلة من هذه الرحلات الست ، لم تكن معنية أصلاً بالهدف الجغرافي بشكل مباشر . ولا تثريب على الرحلة أي رحلة إذا ما أصبح الهدف الجغرافي هدفاً ثانوياً ، ولكنه لا يقعدها أو لا يعفيها من الهدف الأصلي ، وهو هدف اقتصادي ، أو هدف عسكري ، أو هدف ديني ، أو هدف علمي ، أو هدف حب التجول في ربوع الأرض .

وقد لا نحتاج لبيان جديد ، يصور كيف اصطحبت رحلة التجارة ، أو رحلة الجهاد ، أو رحلة السفارة ، في معيتها الاجتهاد الجغرافي ، لكي يبصرها على الطريق ، ويسدد خطاها في البر أو في البحر . ولا نحتاج لبيان جديد آخر ، يصور كيف التحق الاجتهاد الجغرافي برحلة من هذه الرحلات ، لكي يشبع هوايته أو احترافه ، وهو يطلب معاينة وتمحيص الرؤية الجغرافية ، وينتفع باغترابه مع الرحلة . ويكفي أن نؤكد على أن هذه الصحبة ، هي استمرار للعلاقة القديمة ، أو الصحبة ، التي ورثتها وقوت أواصرها ، المصلحة المشتركة والانتفاع المتبادل بينهما .

وهذا معناه أن كل رحلة من هذه الرحلات الثلاثة، وهي متخصصة في العمل التجاري، أو في العمل العسكري ، أو في العمل الدبلوماسي، ظلت في حاجة ملحة للاجتهاد الجغرافي ، الذي يبصرها على الطريق في الذهاب وفي الاياب ، فلا ولم تفرط فيه أو في صحبته أبداً. وفي المقابل ظل الاجتهاد الجغرافي في حاجة إلى الالتحاق بالرحلة التي تجاوب حساً فطرياً متيقظاً ، وادراكاً حسياً ذكياً ، وتفكيراً عقلياً رشيداً، في مواجهة الرؤية الجغرافية ، فلا ولم يفرط فيها أو في صحبتها أبداً . وكيف يكون التفريط ، أو كيف نتوقع التفريط في وقت أمسك فيه التفكير الجغرافي العربي الإسلامي بلواء أو بزمام مسيرة الفكر الجغرافي الصحيح ، وكانت الرحلة هي العين المبصرة لحساب هذه الريادة ؟

أما الذي يحتاج إلى بيان بالفعل ، ويستحق الاهتمام ، فهو ذلك

الموضوع الذى يصور أو يكشف النقاب عن مدى العلاقة ، بين رحلة الحج ورحلة طلب العلم ورحلة الطواف من ناحية ، والاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى من ناحية أخرى . ولا ينبغى - على كل حال - أن نشك أو أن نتشكك فى حاجة كل رحلة من هذه الرحلات ، إلى ما يبصرها على الطريق ويسدد خطاها ، أو فى جدوى اصطحاب الاجتهاد الجغرافى معها . وهذا معناه أن كل رحلة من هذه الرحلات ، كانت على استعداد لالتحاق الاجتهاد الجغرافى بها . ومعناه أن كل رحلة من هذه الرحلات ، كانت لا تملك أن تفرط ، أو ترفض هذه الصحبة . وكيف يمكن أن ترفض هذه الصحبة ، والاجتهاد الجغرافى ، هو الذى يوجه التحرك ، ويكفل السلامة على الطريق فى الاتجاه الصحيح ؟

ومن الجائز أن اصطحبت بعض هذه الرحلات أحياناً الاجتهاد الجغرافى ، لأنها استشعرت الحاجة إليه رفيقًا وفيًا ، لا يضل ولا يضلل. ومن الجائز أيضًا أن افتقدت الرحلة أو بعض هذه الرحلات أحياناً أخرى هذه الصحبة ، واعتمدت على يقظة الحس الجغرافى الفطرى الذاتى ، الذى يمتلكه من يخرج فى الرحلة ، وحدسه الموفق . وفى بعض الأحيان وجدت الرحلة التى افتقدت صحبة الاجتهاد الجغرافى ، وتشككت فى حدس الحس الجغرافى الفطرى عند من يبصرها ، لأن الدرب مطروق تجرى عليه الحركة ، ولأن السؤال عنه . يجد الاجابة التى ترشد التحرك توجهه فى مسيرة الحركة المنتظمة على الطريق . ولكن المؤكد بعد ذلك كله ، أن مسيرة كل رحلة من هذه الرحلات ، قد وجدت الترشيد على الطريق ، إما :

١- لأن الاجتهاد الجغرافى قد بصرها ، ولا ينبغى أن تضل ، وهو فى صحبتها .

٢- لأن الحس الجغرافى الفطرى الذاتى قد بصرها ، ولا ينبغى أن تضل ، وهو يرعاها .

٣- لأن التحرك انساب وتكرر ، مع مسيرة الحركة ، ولا ينبغى أن يضل ، وهو يتعقبها .

وما ينبغى أن تجنيه المعرفة الجغرافية ، أو ما يمكن أن تغتنمه من كل رحلة من هذه الرحلات ، التى استحدثها الإسلام تفاوت أشد التفاوت. وتتبين ذلك التفاوت بصفة خاصة ، إذا لم يخرج الاجتهاد الجغرافى بنفسه فى صحبتها على الطريق . وقد تجد المعرفة الجغرافية فى رواية حاج عن رحلته ، أو فى حكاية طالب العلم عن تحركاته ، أو فى قصة الرحالة عن طوافه ، شيئًا مفيداً تتزود به أحياناً . وقد تفتقد المعرفة الجغرافية هذا الشئ المفيد تماماً ، عندما يشوه الخلط فى الرواية أو الحكاية أو القصة ، الرؤية الجغرافية ، وتضيع معالمها فى زحمة التهويل والانبهار بالعجائب والغرائب . ولكن أخطر احتمال هو أن ينساق الاجتهاد الجغرافى ، وهو يستمع إلى الرواية ، من حيث لا يدرى وراء ما لا يستحق الاهتمام به . وعندئذ ينكب عى وجهه فى سوءات التزيف والتحريف ، حتى يضل ويضلل المعرفة الجغرافية .

وهناك احتمال آخر مثير تنتفع به المعرفة الجغرافية . ويتمثل هذا الاحتمال ، فى تيقظ الحس الجغرافى الفطرى فى الحاج ، أو فى طالب العلم أو فى الرحالة على الطرق ، أو فى تفجير واستنفار إرادة التفكير الجغرافى فى أى منهم . وعندئذ يستشعر الواحد منهم قيمة الرؤية الجغرافية فيمحصها، ويلتمس جدوى الاطلاع عليها والتدبر فى أمرها ، وما تنطوى عليه من تفاصيل . وقد يدعوه ذلك إلى الانضمام بكامل الارادة ، إلى زمرة المجتهدين ، ويشغله التفكير الجغرافى حقاً وصدقاً أحياناً ، أو إلى الصدق فى جمع أوصال الرؤية الجغرافية ، وفى تعبير الرواية التى تتحدث عنها أحياناً أخرى .

وهذا التوجه الذى يسجل اضافة مقبولة إلى الأدب الجغرافى ، أو اضافة مفيدة إلى أدب الرحلات ، لا يعنى أبداً الانصراف عن هدف الرحلة الأصل ، أو التنصل من بلوغ الغاية . بل معناه أن يتحقق الهدف الأصلى من الرحلة بالدرجة الأولى ، وعلى هامشها أن تكسب المعرفة الجغرافية رصيداً تتزود به ، أو أن يكسب الاجتهاد الجغرافى مفكراً أو رحالة يعتز ويزهو به . ومعناه أيضاً أن الانفتاح على الرؤية الجغرافية ،

كان عملاً مفيداً ، لحساب التفتح الجغرافى ، واستنفار إرادة التفكير الجغرافى ، لحساب المعرفة الجغرافية .

وهكذا يجب أن ندرك كيف انضمت رحلات الحج وطلب العلم والطواف إلى رحلات التجارة والجهاد والسفارة ، لكى تذلل للاجتهاد الجغرافى مهمة الاطلاع على الواقع الجغرافى ، ولكى تضع الانفتاح الإسلامى فى خدمة التفتح الجغرافى . ولقد تنعمت هذه الرحلات المتنوعة بمظلة الأمن الإسلامية ، وانتفع الاجتهاد الجغرافى اعتباراً من القرن التاسع الميلادى بصحبة هذه الرحلات . ولأن هذه الرحلات المتنوعة قد ازدادت انتشاراً على صعيد جزيرة العالم . وانتظامًا فى تحركاتها ، ولأن هذه الرحلات المتنوعة قد طال مداها فى البر والبحر ، زاد معدل انتفاع الاجتهاد الجغرافى بها . ومن ثم زاد وتصاعد عطاء هذه الرحلات المتنوعة زيادة كبيرة ، فى مقابل زيادة والحاح الطلب على هذا العطاء ، والتطلع إليه .

ولقد أنجزت هذه الرحلات المهام المنوطة بها دائمًا من غير تردد . وأعطت المسلمين أرحب الفرص للانفتاح الذى دعى إليه الإسلام ، من غير تقتير . وهيأت للمسلمين أعظم التوجهات إلى التفتح والتنور من غير حدود . وهل نشك بعد ذلك فى أن هذه الرحلات المتنوعة ، قد أسعفت وأسهمت فى ترسيخ الدولة الإسلامية ، وهى تحتل مكانة الدولة الأعظم فى العالم ، أو وهى تنطوى على إرادة تكوين الدولة العالمية ، والهيمنة على العالم ؟

كما ينبغى أن نؤكد أيضًا على أن عدد الرحلات المتنوعة التى انطلقت وتفرغت لأداء الأدوار الوظيفية ، كانت أكثر من أن تعد أو تحصى . ورحلة من هذه الرحلات المتنوعة الكثيرة ، لم تكن غير هادفة، وهى تضرب فى البر ، أو وهى تبحر فى البحر . وكم من استثمارات عامة وخاصة ، قد وظفت فى شأن تجهيز واعداد وتمويل هذه الرحلات. وكم من خبرات قد استخدمت ، واضافات قد أضيفت ، من أجل تطوير وسائل النقل التى تخدم الرحلات . ونذكر فى هذا الصدد بالذات ، ما كان من أمر تطوير السفن من حيث الشكل والحجم والتجهيزات ، من

أجل رحلة بحرية أفضل . كما نذكر ما كان من أمر العناية بالطرق والدروب ، وتحديد معالمها ، من أجل رحلة برية أيسر . كما نذكر أيضاً كيف انتخبت بعض المرافئ الجيدة ، وكيف جهزت لاستقبال وايواء السفن ، أو كيف وظفت فى تصنيع السفن وصيانتها .

وصحيح أن هذا الاهتمام بأمر الرحلة ، وأمر التحرك على الطريق ، قد ضخم أو عظم مبلغ الالحاح على انجاز الرحلة . وصحيح أن انجاز الرحلة فى البر أو فى البحر ، قد جاوب هذا الالحاح ، وقد حالفه التوفيق فى بلوغ الغاية من كل رحلة ، وفى دعم مكانة الدولة الإسلامية . ولكن الصحيح أيضاً أن عطاء الرحلة والعائد غير المنظور منها كان عظيماً ، ومهما إلى أبعد الحدود . والعائد غير المنظور من الرحلة الذى نعنيه بالضبط ، هو كشف جغرافى أو ثمرة جغرافية ، تأتت من غير أن تكون فى اطار الهدف ، الذى وظفت الرحلة فى انجازه أصلاً .

وربما تمثل هذا العائد غير المنظور من الرحلات المتنوعة فى انتشار الدعوة إلى الله ، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا . وربما تمثل فى صياغة ووضع وترسيخ قواعد وأسس فى شأن عمليات التبادل التجارى والتجارة الدولية ، أو فى شأن العلاقات الدولية والتعامل بين الأمم والأقطار . ولكن الأهم من ذلك كله ، ذلك العائد غير المنظور الذى أعطى المعرفة الجغرافية ، وجاوب ارادة الاجتهاد الجغرافى المتفتح عند المسلمين. وهل نشكك بعد ذلك كله ، أو نشكك فى مبلغ استشعار جدوى الرحلة فى البر أو فى البحر ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟ بل وهل نشك أو نشكك فى مبلغ حاجة الرحلة إلى التحاق الاجتهاد الجغرافى بها ، لكى يبصرها على الطريق ؟

هذا ، ولقد كان الاجتهاد الجغرافى المتفتح أشد لهفة ، وأكثر الحاحاً على هذه الصحبة ، والخروج فى معية الرحلة . وتراوح هذا الاجتهاد الجغرافى الذى خرج فى معية الرحلة بين :

١- دليل محترف يحسن توظيف حسه الجغرافى الفطرى ، ويتكسب من هذا التوظيف ، ويجنى ثمرة ترشيد الرحلة ، وانضباط توجهها على الطريق إلى الغاية التى خرجت من أجلها .

٢- رحالة هاو ، يحسن توظيف حسه الجغرافي الفطري المتيقظ ومعرفته الجغرافية ، ويطلب اشباع هوايته من الرؤية الجغرافية ويرشد الرحلة على الطريق ، إلى الغاية التي خرجت من أجلها .

٣- جغرافي متخصص يشغله التفكير الجغرافي ، والتمعن في الرؤية الجغرافية يرشد الرحلة على الطريق ، إلى الغاية التي خرجت من أجلها ، ويستثمر في المقابل صحبته لها .

وسواء كان الاجتهاد الجغرافي ، اجتهاد دليل محترف ، أو اجتهاد رحالة هاو ، أو اجتهاد جغرافي متخصص ، فإن خروجه والتحاقه بالرحلة، قد وضع في جعبة الرحلة هدفًا ثانوياً . وسواء تبنت الرحلة هذا الهدف الجانبي اضافة إلى الهدف الرئيسي ، الذي خرجت من أجله أو لم تفعل ذلك لاخفاء مطالب هذا الهدف الجانبي عنها ، فإن الاجتهاد الجغرافي قد أمد المعرفة الجغرافية برصيد جغرافي جيد وجديد . وبصر المفكر الجغرافي ، الذي سار على درب التفتح الجغرافي .

وما من شك في أن اتساع مجالات الرحلة العربية الإسلامية ، وتنوعها وانتشارها ، وتعددها في البر أو في البحر ، قد وسع دائرة المعرفة الجغرافية . واستطاع الاجتهاد الجغرافي أن يطل على كثير من مساحات الأرض والمسطحات المائية . كما جمع أوصال هذه الرؤية الجغرافية ، وتمعن في دلالاتها كثيراً . وعكف المفكرون الذين حفلوا بهذا الرصيد الجغرافي على دراسته وتسجيله والاهتمام به . وأحسن بعض المفكرين استخدام حسهم الجغرافي الفطري أحياناً ، وأحسن بعض المفكرين استخدام بصيرتهم وخبرتهم الجغرافية أحياناً أخرى ، في تذوق هذه الدلالة واكتساب الخبرة ، وتسجيل الاضافة المناسبة إلى الرصيد ، أو الانجاز الجغرافي .

ومن ثم يجب أن نفطن إلى أن التزامن والتوازن بين تنوع وتعدد واتساع مدى الارتحال الإسلامي من جانب ، والاهتمام بالمعرفة الجغرافية وتبني المفكرون المسلمون مسيرة الفكر الجغرافي الصحيح من جانب أخر ، قد وضع الرحلة من غير تمييز بين أنواعها ، في مكانة

مهمة ومرموقة . كما يجب أن ندرك كيف كان من وراء دعم وترسيخ واعلاء هذه المكانة من غير حدود ثلاثة أمور هى :

١- الأمن الذى كفلته الدولة داخل حدودها ، وهيبتها فيما وراء هذه الحدود .

٢- التمويل المناسب ، الذى اشترك فيه الاستثمار العام والخاص .

٣- الاجتهاد الجغرافى الذى شدد على اصطحاب الرحلة ، والانتفاع بها .

وفى اطار هذا المناخ المناسب ، والدعوة المفتوحة للانفتاح الإسلامى على العالم ، تهيأت الأوضاع لصالح الرحلة ، والاجتهاد الجغرافى المتفتح فى معيتها . بل لقد تأهب الاجتهاد الجغرافى المتخصص ، لتوظيف واستخدام الرحلة فى العمل الجغرافى الاستخدام الأنسب لحاجة العصر ، الذى تولى فيه الجغرافيون العرب أمر قيادة مسيرة الفكر الجغرافى ، اعتباراً من القرن التاسع الميلادى .

ومن غير أن يكون الهدف الحافز الأصلى للرحلة وخروجها فى البر أو فى البحر ، هو الهدف الجغرافى الصريح ، قدمت الرحلة أهم الانجازات للمعرفة الجغرافية . كما أباحت للاجتهاد الجغرافى المتخصص ، أن ينتفع بتحركاتها ، أو بالرواية التى تحكى عن نشاطها وأدائها . وهذا معناه أن الرحلة العربية الإسلامية لم تكن أبداً رحلة جغرافية متخصصة فى مغزاها ومرماها . ومع ذلك خدمت هذه الرحلة الهدف الجغرافى ، ولبت تطلعاته . وهل نشك عندئذ أن هذا التوجه كان مبشراً بميلاد الرحلة الجغرافية المتخصصة فى وقت لاحق ؟

* * *

ارهاصات الرحلة الجغرافية :

فى غيبة الهدف الجغرافى الصريح ، الذى تخدمه الرحلة ، وتوظف من أجله ، لم تفتقد الرحلة العربية الإسلامية الحافز لخدمة العمل الجغرافى. ولقد أعطت الرحلة من أى نوع فى البر، أو فى البحر فرصة ، لكى يمسك الهدف الجغرافى غير المعلن فى ذيل الهدف الحقيقى ، الذى

خرجت من أجله الرحلة ، ويلتمس صحبتها . وسواء قبلت الرحلة بهذا الوضع أو رفضت ، أسعفت هذه الفرصة الاجتهاد العربى الإسلامى الذى عمل – بكل الأمانة – لحساب العمل الجغرافى ، ومسيرة الفكر الجغرافى الصحيح .

وصحيح أن هذا العمل لم يتجاوز حد مباشرة الرؤية الجغرافية ، والتمعن فيما انطوت عليه ، أو أعلنت عنه . ولكن الصحيح أنه قد ساق العمل الجغرافى ووجهه فى اتجاه الكشف الجغرافى (١) . واعتباراً من القرن العاشر الميلادى ، أعطت الرحلة العربية الإسلامية من غير تردد ، كل ما فى وسعها للاجتهاد الجغرافى الملتحق بها . بل لم ترفض – فى الغالب – تبنى الهدف الجغرافى اضافة إلى الهدف الحقيقى ، الذى خرجت من أجله . ولكن المؤكد أن هذا ، الهدف الجغرافى كان هدفًا ثانويًا ، وأن انجازه لا يجب أن يعطل أو أن يحول دون انجاز الهدف الحقيقى ، للرحلة.

وكتابات كثير من الاعلام الجغرافيين العرب ، مثل المقدسى وابن

---

(١) فيما يلى بيان يوضح خروج بعض اعلام الجغرافية فى المدرسة الجغرافية العربية الإسلامية فى الرحلة على الصعيد الأفريقى . ويعبر طواف كل واحد منهم عن معنى غير ناضح من معانى الكشف الجغرافى . وتعتبر الزيارة التى شملت مساحة معينة زيارة تعارف على أحسن تقدير . وهؤلاء الاعلام هم :

١– المسعودى وقد زار السودان (المفهوم الجغرافى) . كما زار مدغشقر فى أواخر القرن العاشر الميلادى .

٢– ابن حوقل وقد زار شرق السودان وأطراف من النيل الأبيض فى أواخر القرن العاشر الميلادى .

٣– البكرى وقد زار السودان (المفهوم الجغرافى) فى القرن الحادى عشر الميلادى .

٤– الأدريسى وقد زار السودان (المفهوم الجغرافى) فى القرن الثانى عشر الميلادى .

٥– ابن بطوطة وقد زار السودان فى ثلاث رحلات فى القرن الرابع عشر الميلادى .

٦– ابن خلدون وقد زار السودان فى القرن الربع عشر الميلادى .

الجمل ، شوقى : تاريخ كشف أفريقة واستعمارها ص٣٥ – ٥٥ – القاهرة سنة ١٩٧١ .

حوقل والأدريسى – على سبيل المثال لا الحصر – تسجل محصلة هذا العطاء ، الذى سجل بعد العودة من الرحلة (١) . وصحيح أن توظيف الرحلة – أى رحلة – غير الجغرافية المتخصصة فى خدمة الهدف الجغرافى الجانبى أو الثانوى ، يمثل انعطافًا عن القاعدة . ولكن الصحيح ايضاً أنه يمثل ترسيخ قاعدة جديدة ، ويعنى ادراك حقيقى مباشر لجدوى الرحلة ، ولفاعلية انجازاتها ، لحساب العمل الجغرافى المتخصص .

وقد يعنى ذلك أيضًا أن الاهتمام العربى الإسلامى بالعمل الجغرافى ، وتمحيص العمل الجغرافى فى اطار الرحلة – أى رحلة – قد سار خطوة جادة ، فى الاتجاه الصحيح ، عندما كلف غير المتخصص ووظفه فى خدمة المتخصص الجغرافى . وتضع هذه الخطوة الرحلة فى وضع الاستعداد الفعلى ، عند نقطة التحول الحقيقى ، لاعداد واخراج وتوظيف الرحلة توظيفاً متخصصًا من أجل الهدف الجغرافى البحت من جانب ، ولتجريدها من العمل أو الولاء أو التصدى لأى هدف آخر غير جغرافى من جانب آخر .

وهذا هو ما نعنيه بالضبط بالتوجه الصحيح ، إلى ظهور الرحلة الجغرافية ، أو ما نعنيه بالضبط بارهاصات ولادة الرحلة الجغرافية ، فى اطار الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى . ومن أجل ذلك ، لا يجب أن ندعى أو نزعم أن نشأة أو ولادة الرحلة المتخصصة فى العمل الجغرافى ، أو التى خرجت ووظفت فى خدمة الهدف الجغرافى وحده ، قبل أى هدف آخر ، كانت انجازاً مباشراً من انجازات الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى الخالصة .

وفى اعتقاد أى باحث منصف ، أن يسجل فى شأن نشأة وتخصص الرحلة فى خدمة الهدف الجغرافى خطوتين :

١– **فى الخطوة الأولى** ، تقدم الاجتهاد الجغرافى الرومانى ، وهو

---

(١) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ص٢٤٢ – ٢٤٥ .

متهيب ، فى اتجاه تخصيص الرحلة وتوظيفها فى خدمة الهدف الجغرافى . ولقد حمل هذا الاجتهاد رحلة السفارة أكثر من أى رحلة أخرى هذه المسئولية . ومع ذلك فلا يمكن أن توصف رحلة السفارة ، بأنها رحلة جغرافية متخصصة . كما لا ينبغى أن يوصف من تولى مسئولية فى هذه الرحلة بأنه جغرافى متخصص .

٢- **فى الخطوة الثانية** ، تقدم الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، وهو متيقظ ، فى اتجاه تخصيص الرحلة وتوظيفها فى خدمة الهدف الجغرافى . ولقد حمل هذا الاجتهاد الرحلات المتنوعة من غير تمييز بين نوع ونوع آخر هذه المسئولية . وفى الوقت الذى لا ينبغى أن توصف فيه الرحلة التى تحملت هذه المسئولية ، بأنها رحلة جغرافية متخصصة ، يمكن أن يوصف بعض من تولى مسئولية العمل فى هذه الرحلة ، بأنه جغرافى متخصص .

ويبدو أن أمر هذا التحول قد سار فى بطء حقيقى ، ولكن فى الاتجاه الصحيح . وخروج الجغرافى المتخصص فى صحبة الرحلة غير المتخصصة فى العصر الإسلامى ، علامة تبشر بهذا التحول فى الاتجاه الصحيح . وما ينبغى أن يتأتى من متغيرات وعوامل ، لكى يمضى هذا التحول فى الاتجاه الصحيح ، ولكى تنشأ الرحلة الجغرافية المتخصصة، قد اقتضى وقتاً طويلاً ، لكى تتبلور المفاهيم ، وتتأتى العوامل وتتفاعل المتغيرات ، التى ينبنى عليها جوهر أو كنة هذا التحول بالفعل .

وهذا معناه - بكل تأكيد - أننا ما زلنا فى حاجة ملحة لأن نميز فى شأن الرحلة وتوظيفها بين :

١- رحلات متنوعة ، تخصصت ووظفت فى التجارة ، أو فى الجهاد، أو فى السفارة ، أو فى الحج ، أو فى طلب العلم ، أو فى الطواف ، وخدمت بكل الاخلاص والجدية الغرض المباشر الذى تخصصت فيه ، والحقت معها الغرض الثانوى وهو جغرافى ، لكى يتيقظ الحس الجغرافى الفطرى ، أو لكى يجنى الاجتهاد الجغرافى ثمرات الرؤية الجغرافية ، أو لكى يشبع المتخصص الجغرافى حاجته من

المعرفة الجغرافية والواقع الجغرافى السائد فى المكان والزمان .

٢- رحلات متخصصة بالفعل فى خدمة العمل الجغرافى ، والتصدى لعمليات الكشف الجغرافى ، لحساب المعرفة الجغرافية والتفكير الجغرافى فى المرحلة ، التى تولت فيها النهضة الأوروبية مسئولية التغيير والتبشير الحضارى ، والاقتصادى ، والثقافى ، والسياسى ، على الصعيد العالمى .

وهذا معناه أن ارهاصات الرحلة الجغرافية التى أسفر عنها الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، قد مهدت الطريق واصطنعت التحول ، لكى تولد الرحلة الجغرافية ولادة طبيعية فى أحضان النهضة الأوروبية، اعتباراً من القرن الخامس عشر الميلادى . ومع ذلك فينبغى أن نطرى اجتهاد الجغرافيين العرب ، وأن نمتدح هذه الرحلات غير المتخصصة ، لأنها تبنت الهدف الجغرافى ، وجعلت منه هدفاً جانبياً أو هدفاً ثانوياً(١)، ولم تتخوف منه على الهدف الحقيقى ، الذى خرجت من أجله الرحلة . كما ينبغى أن نثنى ثناء طيباً على حصاد ومنجزات هذه الرحلات غير المتخصصة فى العمل الجغرافى ، التى نورت البصيرة الجغرافية ، ورشدت التفكير الجغرافى .

ويبقى من بعد ذلك كله مزيداً من الاطراء والثناء ، على الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى المتنور ، الذى جهز وأعد لقضية التحول فى الاتجاه ، الذى نشأت بموجبه الرحلة الجغرافية المتخصصة . وذهاب البيرونى فى رحلة إلى الهند ، لكى يشاهد الواقع الجغرافى الطبيعى ، ويعايش الناس ، قبل أن يكتب كتابة عن الهند ، يعطى النموذج الذى وظف الرؤية والمعاينة لحساب الصدق والموضوعية الجغرافية ، ورحلة الطواف اعتباراً من القرن الثانى عشر الميلادى،مثل رحلة ابن بطوطة(٢)،

---

(١) الشامى صلاح الدين . الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص٩٦ .

(٢) طاف ابن بطوطة فى البر والبحر على بلدان على الصعيدين الأفريقى والآسيوى فى القرن الرابع عشر الميلاى . المرجع السابق ص١٥٥ - ١٥٧م .

أعطت النمـوذج الأنسب الذى جسسد الخطوة العـربيـة الإسـلامـيـة الصـحـيحة ، وصـور اسـهـامـهـا المجدى فى اتجـاه نشـأة أو ولادة الرحلة الجغرافية المتخصصة .

***

وحـصـاد هذه الرحـلات غيـر المتـخـصـصة ، الذى انتفـعت المعـرفـة الجـغرافـيـة به ، وعكف الجـغـرافيـون العـرب المسلمـون على اسـتيعـابه واسـتـخـدامه ، حصاد وفـيـر ومفـيـد ، وجيد ومناسـب . وهـو حـصـاد وفير ومـفـيـد ، لأنه أعان الجـغرافـيين العـرب ، وشـد أزر اجـتـهـادهـم الجـغـرافـى الفـكرى ، وأنضـج انجـازاتهم وكـتاباتهم الجـغرافـيـة المدونة . وهـو حـصـاد جـيـد ومنـاسـب ، لأنه طور شـغـف واهتـمام الجـغـرافـيين بالرحلة ، وهـم يصـطنعون بعض قـواعد وأسـس الارهاصات المبشـرة بالتـحـول الصـريح فى مرحلة تالية، إلى الرحلة الجغرافيـة المتخصصة ، شكلاً وموضـوعاً .

وفـى شـأن هذا الحـصـاد أو الـرصـيـد ، الـذى أسـفـرت عنه رحـلات مـتنوعـة وغيـر مـتـخـصـصـة ، يجب أن نميـز مـوضـوعـياً بين قـسـمين متباينين . ولقد تمثل هذا القسمان فى :

١- قسـم من حـصـاد الرحلات حظى بكل الاهتـمام والعناية وحسـن الانتباه ، لأنه خدم التفـتح الجغرافى ، ونور البصيرة الجغرافية المنفتحة . ولقد دوّن الجغـرافيون العرب هذا الرصيد ، أو هـذا التـراث تدويناً جيداً ومـفـيـداً . ومـعنى ذلك أن تحـصـيل هذا الحـصـاد ، سـواء تمثل فى أدب الرحلة ، أو فى الأدب الجـغـرافى ، قـد اهـتـدى وهـدى ، لأنه التـزم كثـيـراً بالصدق ، وحفل دائماً بالموضوعية .

٢- قـسـم آخـر من حـصـاد الرحـلات ضـيـع بعضـه الاهمـال وعـدم الاكـتـراث ، لأنـه لـم يخـدم التـفـتح الجـغـرافـى ، ولـم يطاوع الانـفـتـاح الجـغـرافى . وضـيع بعـضـه الآخـر الخلط ، والتـردى فى سـوءات الكـذب والتـهويل والتـخريف الأسـطورى . وقد ترفع الجغرافيون العرب وامتنعوا عن تدوين هـذا الرصيد ، وتركوا الأمر لغيرهـم . ومـعنى ذلك أن تحـصـيل

هذا الحصاد الذى تمثل فى أدب الأسطورة ، قد ضل وضلل لأنه أفرط فى الكذب ، وفرط دائماً فى الموضوعية .

وعن الحصاد أو الرصيد الذى جاء مفيداً فى كتب أدب الرحلات، أو فى كتب الأدب الجغرافى ، ينبغى أن يوصف بالموضوعية ، لأنه من انجاز اجتهاد جاد فى صحبة الرحلة . ويمكن أن نتبين كيف أنه اهتدى ، عندما جمع أوصال الرؤية الجغرافية ، أو عندما أطل عليها ومحصها ، وهو يطوف ويتحرك مع الرحلة غير المتخصصة فى العمل الجغرافى ، فى البر أو فى البحر . كما يجب أن ندرك أيضاً ، كيف توخى هذا التجميع أو التمحيص ، الصدق والأمانة ، عندما سجل انطباعاته عن الرؤية الجغرافية ، وعبر عن دلالاتها الجغرافية ، تعبيراً واضحًا وسليماً .

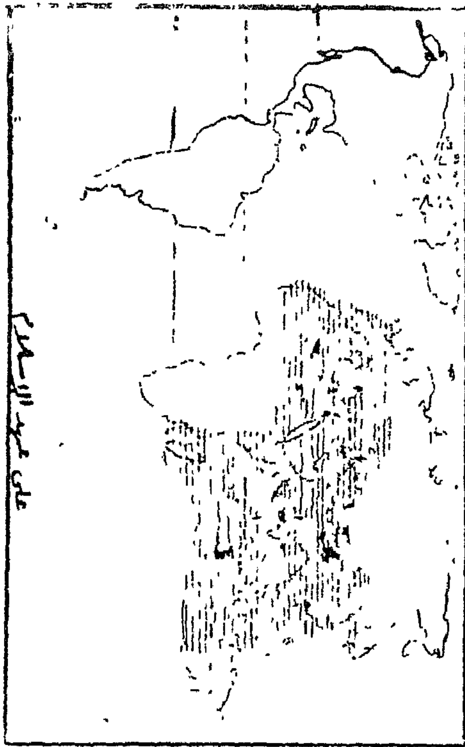
وهذا الحصاد أو الرصيد – على كل حال – هو خلاصة انجاز الاجتهاد العربى الإسلامى المستنير ، وهو يقود مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح ، ويتولى أمرها والاضافة إليها ، اعتباراً من القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر الميلادى . وجاء هذا الانجاز الجيد ، فى كتابات الجغرافيين العرب المبرزين فى هذه المرحلة ، فى صورة من صورتين هما :

١- **الصورة الأولى** ، وعبر فيها هذا الانجاز المفيد عن الرؤية الجغرافية ، وما انطوت عليه من بيانات عن الأرض والناس وحركة الحياة فيها . واحتوى هذه الصورة كتاب اهتم صراحة بالرحلة أصلاً ، فهو قطعة من **أدب الرحلة** . ولقد ضم كل كتاب من هذه الكتب رواية واقعية ، أو صورة حية ، تقص وتروى وتسجل حكاية الرحلة خطوة بخطوة . وتجسد هذه الرواية الواقعية – فى الغالب – الانطباعات التى استشعرها ، أو التى اقتنع بها الرحالة . ومثل هذا التسجيل – رحلة ابن بطوطة مثلاً (١)- لا يسلم من سوءة الخلط (٢) وافتقار القدرة على

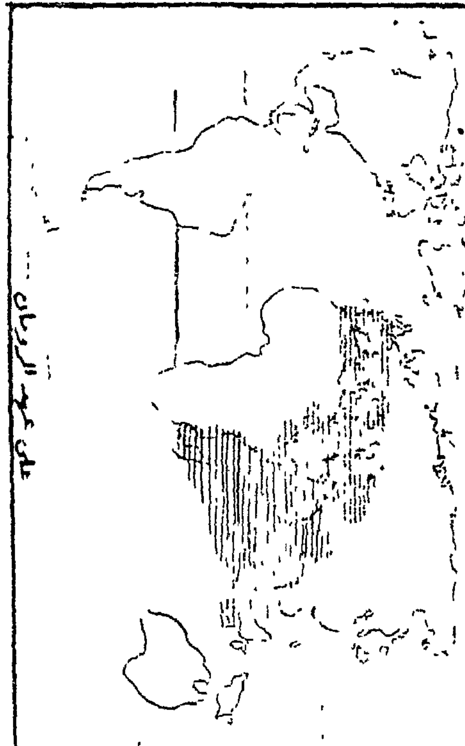
---

(١) جاءت رحلة ابن بطوطة فى كتاب بعنوان : « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

(٢) لا يتجاوز الخلط الذى نعنيه الخلط بين الواقع الجغرافى والظاهرة الجغرافية =









تطور الرؤية الجغرافية على الصعيد العالمى

تصنيف المعلومات . كما لا يسلم أيضًا من التردى فى سوءة الكذب والادعاء والتزييف (١). وسواء حدث ذلك كله بقصد ، أو من غير قصد ، فإنه لا يشوه الواقع كثيراً ، ولا يضر بانتقاء الصدق واستخلاصه من الكذب . ومع ذلك ربما أساء هذا التسجيل أحياناً ، إلى الحقيقة الجغرافية وضيعها وضيع تألقها الموضوعى أحياناً أخرى .

٢- **الصورة الثانية** ، وعبر فيها هذا الانجاز المفيد عن الرؤية الجغرافية ، وما انطوت عليه من بيانات عن الأرض والناس وحركة الحياة فيها . واحتوى هذه الصورة كتاب اهتم صراحة بالوصف الجغرافى التصويرى . فهو قطعة من **الأدب الجغرافى** . ولقد احتوى كل كتاب من هذه الكتب كتابة جيدة وصور حية ، تسجل الوصف وتعبر عن الدلالة الوصفية (٢) . وتجسد هذه الكتابة الجغرافية الوصفية - فى الغالب - الواقع الجغرافى ومدى انتفاع الكاتب بالرحلة ، ورصد ومعاينة هذه الصور ، أو هذه الرؤية الجغرافية . ومثل هذا التسجيل - صفة جزيرة العرب (٣) - يسلم فى معظم الأحيان من التردى فى الخطأ أو فى الخطيئة التى تشوه صاحبه ، أو التى تشوه موضوعية الكتابة الجادة (٤) . وصحيح أن هناك خلط بين المعرفة الجغرافية والمعرفة

= والحدث التاريخى والحكاية المثيرة . ومع ذلك فإن هذا الخلط الذى يصطنعه الاستطراد لا يمثل شكلاً من الشرود الذى يفسد الكتابة والتسجيل .

(١) تردى ابن بطوطة فى سوءة الكذب والافتراء والتزييف هو من صنع ابن بطوطة نفسه بقصد أحياناً ، ومن غير قصد احياناً اخرى . ومع ذلك دافع عنه بعض المعاصرين له واسقطوا عنه تهمة التلفيق والغش ومنهم ابن خلدون نفسه .

(٢) حسين ، حسنى محمود : المرجع السابق ص٥ .

(٣) مؤلف هذا الكتاب هو أبو محمد الحسين بن يعقوب الهمدانى الذى عرف بابن الحائك . ولقد عرف بصفته جغرافياً ومؤرخاً وأديباً فى وقت واحد . وهو كتاب متخصص فى الوصف الجغرافى على المستوى الاقليمى (راجع الشامى : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص....) .

(٤) يمثل كتاب صفة جزيرة العرب كتابنا جغرافيا وصفيا جيدا . وهو كتاب من كتب الأدب الجغرافى المتخصصة فى جغرافية جزيرة العرب . ويتضمن الكتاب دراسة موضوعية عن خصائص الأرض ومظاهر الطبيعة ، وعن الناس وفرص الحياة فى الحضر وفى البادية . كما يتضمن دراسة عن موارد الثروة الحيوانية=

التاريخية ، ولكن الصحيح أيضاً أنها تجسد حسن استثمار الرحلة فى الاعداد والكتابة . ولقد أحسن هذا التسجيل الجيد ، إلى الحقيقة الجغرافية والواقع الجغرافى ، ولم يضيع أبداً جدوى الانتفاع بها .

ومع ذلك ، فيجب أن ندرك بكل الفطنة كيف مثل التسجيل ، أو كيف مثلت الكتابة فى أى من هاتين الصورتين المتباينين شكلاً من أشكال التصور الذاتى ، والانطباعات التى استشعرها الكاتب . كما يجب أن نتبين أيضًا كيف لم يلتزم الكاتب ، وهو رحالة ، أو وهو جغرافى ، بمنهج معين . ويستوى فى ذلك أن تكون معرفته والمصدر الذى اعتمد عليه قد تأتى من خلال معاينة الرؤية الجغرافية معاينة مباشرة أثناء الرحلة ، وتمحيص دلالاتها ، أو أن تكون معرفته والمصدر الذى اعتمد عليه ، قد بنى على انطباع غرسه استماع مرهف واصغاء للرواية ، التى تحكى عن الرحلة ، وعن رؤيتها الجغرافية .

وهذا معناه أن الكتابة الجغرافية (١) أصبحت تمثل تعبيراً واقعياً وكاشفًا عن مدى وجدوى استيعاب الكاتب للرؤية الجغرافية ، وادراك ما تنطوى عليه من معانى ودلالات ، أو ما تحدث به هذه الرؤية عن نفسها . ولأن الرحالة أطل على الرؤية الجغرافية فى المكان والزمان بأسلوبه وطريقته ، ولأن الجغرافى أطل على الرؤية الجغرافية فى نفس المكان والزمان ، بأسلوبه وطريقته الخاصة ، أصبح التمييز بين التسجيل والكتابة عن الرحلة فى أدب الرحلة من ناحية ، والتسجيل

= والمعدنية . وصحيح أن الهمدانى قد أفرط كثيراً فى الكتابة عن جنوب جزيرة العرب واليمن على وجه الخصوص ، وإلى الحد الذى نفتقد فيه التوازن بين حصص الأقاليم على صعيد الجزيرة . ولكن الصحيح أيضاً أن مثل هذا الكتاب الذى صدر فى القرن العاشر الميلادى يصور مبلغ اعتماد الكاتب اعتماداً جيداً على الرحلة فى أنحاء الجزيرة لاعداده . كما يجسد مدى حسن استخدام البيانات التى صورت الواقع الجغرافى تصويراً مقبولاً فى ذلك الوقت المبكر . ولا يقلل من شأن هذا الكتاب أو من قيمته وجدواه ، سوى بعض الخلط بين الجغرافية والتاريخ والأدب على النحو كان سائداً فى ذلك الوقت . (الشامى : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص١٣٣ - ١٣٤) .

(١) الشامى : المرجع السابق ص١٢٢ - ١٢٤ .

والكتابة الجغرافية فى الأدب الجغرافى الوصفى التصويرى من ناحية أخرى ، أمر ضرورياً وسهلاً .

وعن الحصاد **أو الرصيد غير المفيد** ، والذى احتوته كتب أدب الأسطورة ، فينبغى أن يوصف بالمروق والشرود ، لأنه من انجاز اجتهاد ضال ومضلل فى صحبة الرحلة . ويمكن أن نتبين أنه قد ابتعد تماماً عن الموضوعية ، وتمادى فى الوهم والخيال . ولا نكاد نعرف لماذا استنفرت فيه الرؤية الجغرافية فى كثير من الأحيان ، هذا التردى المبالغ فيه ، وهو يستغرق فى العرض الأسطورى . فهل هو البحث عن التكتم الجغرافى وتعمد اخفاء الحقيقة الجغرافية ؟

وهذا الحصاد أو هذا الرصيد ، – على كل حال – تتبرأ منه الاجتهادات الجغرافية الجادة . ولا يمكن أن يكون من انجاز رحالة يتطلع إلى الصدق ، أو من انجاز جغرافى يتوخى الموضوعية . بل هو من انجاز كاتب شارد ، ويفتقد الانتماء إلى زمرة الاجتهاد الجغرافى الجادة . وهل يستحق هذا الانجاز الذى ضل وضلل غير الاهمال ؟

***

وبعد كل ذلك التداخل غير المخل ، بين توظيف الرحلة التخصصى والتحاق الاجتهاد الجغرافى بها ، تفتحت شهية الاجتهاد الجغرافى المتخصص ، إلى ما يجمعه من حصاد وهو فى صحبة الرحلة ، بدأت الارهاصات المبشرة التى بشرت بحاجة المعرفة الجغرافية ، ومسيرة التفكير الجغرافى العربى الإسلامى ، للرحلة الجغرافية المتخصصة . ومع ذلك ظهر وتجلى – بكل الوضوح – أن هذه الارهاصات المبشرة ، قد تأتت فى وقت غير مناسب ، حيث أصاب الاجتهاد الجغرافى العربى والإسلامى شيئاً من الوهن .

واعتباراً من القرن الرابع عشر الميلادى ، كان هذا الاجتهاد الجغرافى المتهالك ، أعجز من المضى قدمًا فى مسيرة التحول . وهذا معناه أنه قد افتقد قوة الدفع ، فلم يقدم الاقدام الفعال أو المجدى ، لكى يجسد هذه الارهاصات المبشرة أو الواعدة ، فى شكل رحلة جغرافية

خاصة ومتخصصة . ومعناه أيضاً أنه أبقى على العلاقة أو الصحبة بين هدف الرحلة غير المتخصصة الحقيقى من جانب ، وهدف الاجتهاد الجغرافى المنتفع بها من جانب آخر ، على ما هى عليه ، وهى علاقة مصلحة متبادلة ، بين التابع والمتبوع .

وصحيح أن الرحلات العربية الإسلامية كانت كثيرة ومتنوعة وهادفة ، فى أنحاء العالم الإسلامى ، وفيما وراء العالم الإسلامى . وصحيح أن هذه الرحلات فى البر والبحر على السواء ، قد جسدت معنى ومغزى الانفتاح الإسلامى البناء ، وأنجزت الهدف أو الغرض الذى تطلعت إليه ، وخرجت وتكبدت المشقة من أجله . ولكن المؤكد أن رحلة واحدة من هذه الرحلات المتنوعة لم تخرج صراحة ، ولم تعمل فعلاً ولم تخاطر أصلاً ، من أجل الهدف الجغرافى وحده .

وهذا معناه أن الهدف الجغرافى لم يكتسب أولوية ، ولم يتقدم على الهدف الحقيقى ، الذى خرجت من أجله الرحلة . وبمعنى آخر ربما لم يصبح الهدف الجغرافى الصريح بالوضوح المقنع ، لكى تتفرد أو تتخصص من أجله هذه الرحلة ، أو لكى تجد الرحلة التمويل الذى يكفلها لخدمة هذا الهدف . ومن ثم يجب أن ندرك كيف أن الارهاص ، الذى بشر بالتحول إلى الرحلة الجغرافية المتخصصة ، شئ يصور الرغبة والتطلع ، وأن التحول بالفعل ونشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة شئ آخر ، يجسد هذه الرغبة وذلك التطلع ، وهى ترى النور .

ولأننا ندرك الفرق الكبير بين شئ يصور رغبة أقرب ما تكون إلى الأمل ، وشئ آخر يجسد هذه الرغبة فى اطار الواقع بالفعل ، يمكن أن نتبين كيف لم تكتمل دواعى هذا التحول . ولأننا نفتقد الهدف الجغرافى الصريح ، وأولويته بين جملة الأهداف الحقيقية ، التى خصصت وتخصصت من أجلها كل رحلة ، يمكن أن ندرك لماذا لم تكتمل دواعى هذا التحول . ومن ثم ينبغى أن نتبين كيف ولماذا احتفظ الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، بمكانة ومكانته فى معية أو صحبة الرحلة

وهدفها الأصلى ، ولم يتقدم الخطوة الأخيرة ، فيتأتى التحول ، وتنشأ الرحلة الجغرافية المتخصصة .

* * *

الرحلة غير المتخصصة وخدمة العمل الجغرافى :

لأننا ندرك أنه ليس كل من خرج فى صحبة الرحلة ، وهو صاحب مصلحة وهدف ، قد أوتى الفطنة والتفتح ، لكى يهتم أو يكترث بالرؤية الجغرافية أو بالواقع الجغرافى ، ولأننا ندرك أيضاً أنه ليس كل من خرج فى صحبة الرحلة ، وهو صاحب مصلحة وهدف ، قد امتلك حسن استخدام حسه الجغرافى الفطرى أو حس توظيف تفكيره ، لكى يجتهد لحساب المعرفة الجغرافية ، يجب أن نعرف تمامًا وبكل الوضوح ، لماذا وكيف ومتى أفلت من الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى أمراً استكمال مقومات الرحلة الجغرافية المتخصصة . كما يجب أن نعرف تمامًا وبكل الثقة ، لماذا ، وكيف ، ومتى ، دب الوهن فى الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، واقتنع بمكانه ومكانته فى معية الرحلة غير المتخصصة ، وهى تخدم العمل الجغرافى .

ومن ثم ، تستحق كل رحلة من هذه الرحلات المتنوعة ، وهى غير متخصصة فى الهدف الجغرافى ، أن تكون محل نظر ودراسة . والمقصود من هذه الدراسة بالضبط ، هو أن نقوم معنى ومغزى وأهمية وجدوى التحاق الاجتهاد الجغرافى بها . والمقصود من هذه الدراسة أيضًا ، أن تتبين قيمة أو جدوى الاضافات والخدمات ، التى أنجزها الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، لحساب المعرفة الجغرافية، ومسيرة الفكر الجغرافى ، وهو فى صحبة أى رحلة من الرحلات المتنوعة .

وفى مجال هذا التقويم ، يجب أن نميز بين قدرات واهتمامات ثلاثة رجال التحقوا بالرحلة . وقد نسأل عن الدواعى التى دعت كل واحد منهم ، للالتحاق بالرحلة . وقد نبحث فى شأن التوجهات ، التى كشفت عنها مسألة التحاق الواحد منهم بالرحلة . ولكن المهم فى نهاية الأمر أن

نتبين ماذا فعل ، وماذا أنجز ، كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة ، عندما التحق بالرحلة .

والأنماط المتميزة من الرجال الذين التحقوا بالرحلة ، وساروا فى صحبتها على الطريق ذهاباً وإياباً ، قد تمثلت فى :

١- رجل محترف فى شغل شاغل بالرحلة ، يشغله التفرغ للهدف الحقيقى ، أو الأصلى ، الذى خرجت من أجله الرحلة ، أكثر مما يشغله أى شئ آخر . ومن شأن هذا الرجل أن يسافر ويتحمل مشقة الرحلة ويتكسب منها ، وأن يعكف على انجاز الهدف ، الحقيقى فقط . وصحيح أنه يعاين الرؤية الجغرافية ، وأنه يعايش الواقع الجغرافى فى اطار هذه الرؤية ، ويكاد يلتحم بحركة الحياة فيها ، ولكن من غير أن تستنفر فيه الحس الجغرافى الفطرى ، أو توقظه ، أو من غير أن تحرك فيه ارادة استيعاب ، أو تمحيص دلالات هذه الرؤية . ولأن هذا الرجل غير المتفرغ تشغله مسئولياته ، ولا يكترث بالرؤية الجغرافية ولا تستهويه ، فهو لا يسجل ، ولا يدون ، ولا يستوعب شيئاً فى الواقع الجغرافى ، ويكتفى عندئذ بما تنطوى عليه الذاكرة ، أو ما تلتقطه المخيلة .

وقد لا يقص هذا الرجل بعد اتمام الرحلة الحكاية ، التى تصور أو تعبر عن بعض انطباعاته أو بعض ما علق بذاكرته ، إلا إذا سأله سائل وألح عليه فى السؤال . ولكن المؤكد أن سرد القصة وسياقها ، أو الثرثرة لا تتأتى فى الشكل القويم ، الذى يخدم الوضوح وحسن التعبير وصدق الدلالة عن الرؤية الجغرافية . بل قد يصل السياق أو تصل الثرثرة إلى حد التداعى ، والاستغراق فى الخلط والتلفيق ، الذى يضل ويضلل ، لأنه ينسى من غير قصد ، أو الذى يضل ويضلل لأنه يتعمد النسيان بكل قصد . وهذا الرجل نفسه ، وهو يملك الاستعداد للانحدار فى التزوير والتحزيف الاسطورى ، لكى يتكتم أمراً ، أو لكى يصور جسارته ، أو لكى يحقق غرضاً يخفيه فى أعماق نفسه لسبب أو لآخر ، لا ينبغى قبول حكايته أو روايته قبولاً مطلقاً .

٢- رجل فطن فى ركاب الرحلة ، يشغله اجتهاده وعمله فى انجاز



خريطة الإدريسى

الهدف الحقيقى أو الأصلى ، الذى خرجت من أجله الرحلة ، ولكنه لا يفرط أو لا يقصر ، فى متابعة وتذوق واستيعاب الرؤية الجغرافية . وفى اطار التوازن بين ما ينبغى أن يشغله ، وما ينبغى الا يقصر فيه ، يرحل الرجل ، ويتحمل مشقة الرحلة فى البر أو فى البحر ، وهو حريص على المعاينة والمشاهدة وتجميع أوصال ما يستشعره ، وما تعنيه انطباعاته عن الواقع الجغرافى . ويستنفر هذا الحرص فى الرجل حسه الجغرافى الفطرى استنفاراً مثمراً ، فيبصره فى شأن دلالات هذه الرؤية الجغرافية فى المكان والزمان ، والتمعن فيها .

ولأن هذا الرجل الفطن متزن وأمين ، ويهتم بعمله واحترافه وبهوايته اهتماماً متوازياً ومتزامناً ، فهو يدون مشاهداته ، ويسجل

انطباعاته ، ويكتب مذكراته لكى يضمنها رأيه ورؤيته . ومن الجائز أن يتحرى الصدق فى هذا التسجيل ، لكى ينجز كتاباً يحكى عن قصة الرحلة بكل ما تنطوى عليه من اهتماماته بالرؤية الجغرافية ، وانطباعاته ورأيه الصريح . ولكن المؤكد أن السياق الذى يسجل خطوات الرحلة ، ويحكى حكايتها ، لن يتجنب الخلط غير المقصود أحياناً ، أو لن يتجنب التهويل والانبهار ببعض الغرائب أحياناً أخرى . والخلط أو التمادى فى ذكر الغرائب والاستطراد أو الشرود ، يشوه موضوعية التصوير أو التعبير ، الذى يعبر عن الرؤية الجغرافية أثناء الرحلة . ومع ذلك ، ينبغى قبول كتابة هذا الرجل ، فى اطار شئ كثير من الحذر ، وحسن انتقاء الثمين من الغث ، أو الصدق من الكذب ، أو الواقع من الخيال .

٣- رجل مفكر يطلب العلم ، ويحترف البحث والعمل فى أمور المعرفة الجغرافية ، فينهمك فى التفكير الجغرافى ويمشى فى مسيرته ، قبل أن يستشعر جدوى الرحلة وتستهويه وتستقطب اهتمامه . وفى اطار هذا الاهتمام الجاد ، بالرؤية الجغرافية لحساب الاحتراف الجغرافى، يخرج هذا الرجل فى معية الرحلة أحياناً ، أو يخرج فى رحلة خاصة متفرداً أحياناً أخرى . وفى الحالتين ، لا يكون الهدف الجغرافى وحده ، هو الحافز الوحيد إلى خروج هذه الرحلة . بل يكون من وراء الرحلة أكثر من هدف . ولكن قبل أن يلتحق هذا الرجل بالرحلة أو قبل يخطو الخطوة الأولى متفرداً فى الرحلة ، ينطوى فى أعماقه وفكره الخاص غير المعلن ، عن إرادة استثمار الرحلة من جانبه لحساب الرؤية الجغرافية ومباشرة الوصف الجغرافى للصور الجغرافية السائدة ، فى المكان والزمان .

هذا ويسافر هذا الرجل المفكر طالب العلم والمعرفة ملتحقًا بالرحلة ، ويتحمل مشقة السفر والارتحال ، وينتقل من بلد إلى بلد أخر . وهو فى صحبته الرحلة حريص على معاينة ومعايشة وجمع أوصال الرؤية الجغرافية ، تجميعًا مثمراً حتى تكاد تملأ عليه فكره وتشبعه ، أو حتى يجد الاجابة عن كل ما يراه من تساؤلات

واستفسارات . عندئذ يعرف الرجل لماذا ، وكيف ، ومتى ، يتمعن فى هذه الرؤية الجغرافية . بل يعرف أيضاً كيف ولماذا ومتى يدس خلاصة ما استخلصه منها ، وجمع أوصاله فى كتاباته الجغرافية . وهو من خلال ذلك الاسهام المناسب ، يصور تصويراً كاشفًا عن مبلغ مهارة وفطنة وتيقظ حسه الجغرافى الواعى من جانب ، وعن مدى قدرة تفكيره فى شأن تمحيص وتدبر الرؤية الجغرافية من جانب آخر . وينبغى قبول هذا الاسهام بكل الاطمئنان ، لأنه لم يضل ، ولم ينكب فى سوءات تسئ إلى كتاباته التى تمثل أدباً جغرافياً .

***

وفى هذه المرحلة التى حفلت بالنشاط والحيوية ، فى شأن خروج الرحلات المتنوعة ، وفى هذه المرحلة ذاتها التى شهدت نضج وتقدم مسيرة التفكير إلى ما هو أفضل ، يجب أن نطل على اسهام كل رجل من هؤلاء الرجال الذين خرجوا على بركة الله ، وتحت مظلة الأمن والهيبة والتفتح الإسلامى المستنير إلى الرحلة . ومن غير تعريض بأى اجتهاد ، ومن غير تشكيك فى جدواه ، ومن غير تفريط فى الموضوعية ، ينبغى أن نواصل مهمة التقويم الصحيح للانجاز الجغرافى ، الذى أسفرت عنه الرحلة ، سواء تمثل فى رواية أو قصة ، أو تمثل فى مذكرات ، أو تمثل فى كتابة جغرافية .

والافراط فى التعريف ، أو التشكيك فى الجدوى ، أو التفريط فى الموضوعية ، توجهات خاطئة . ذلك أنها تضلل التقويم وحساب الجدوى الحقيقية لهذا الاسهام ، الذى قدمه كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة الذين استثمروا الرحلة . ومن ثم يجب أن نتجرد لكى نقوم هذا الاسهام أو هذا الانجاز ، حتى نتبين كيف ، ولماذا أثرى المعرفة الجغرافية بالأقطار والأمصار ؟ وكيف ، ولماذا حفلت به بعض كتابات الجغرافيين العرب ؟ بل يجب أن نتمادى فى التجرد قبل الحكم على هذا الاسهام ، الذى اتخذ أحياناً شكلاً فجاً ومهزوزاً من أشكال الدراسة الميدانية ، وأحياناً أخرى جسد حكماً صحيحاً ، من وجهة نظر جغرافية خالصة .

الرحلة وأدب الأسطورة :

والرجل الأول الذى خرج مع الرحلة ، لأنه يحترف الرحلة ، أو لأنه

يتكسب منها ، قد اجتهد وخاطر وعمل لحسابه الشخصى ، ومن أجل بلوغ الغاية وتحقيق الربح المرتقب . وما من شك فى أن هذا الرجل قد انهمك فى انجاز الغرض من الرحلة ، وشغله إلى حد أنه لا يتفرغ للرؤية الجغرافية أحياناً ، أو إلى حد أنه لا يستشعر قيمة أو جدوى معاينة الرؤية الجغرافية أحياناً أخرى .

وهذا معناه أنه لم يستخدم حسه الجغرافى الفطرى أصلاً استخداماً مناسباً . ومعناه أحياناً أخرى أنه لا يملك القدرة على استخدام حسه الجغرافى ، لأنه خامل ، وأن الرؤية الجغرافية لم تستنفر أو توقظ فيه هذا الحس . ويحق لنا ألا نتوقع من أمثال هذا الرجل انجازاً مفيداً ، تنتفع به المعرفة الجغرافية . ولا تثريب عليه البتة إذا لم يفعل ولم ينفع لأنه لا يستطيع . ونكون على حق لو توقعنا منه انجازاً تتضرر منه المعرفة الجغرافية . وعليه كل التثريب والوزر ، لو أنه فعل وأضر المعرفة الجغرافية بفعله . فهل فعل ، ولماذا ، وكيف تردى فى خطيئة ما فعل ؟

ومن الجائز أن يصبح هذا الرجل غير المؤهل ، وبكامل ارادته المتجردة أحياناً من الغرض ، وغير المتجردة أحياناً أخرى ، مصدر رواية أو حكاية يعتمد عليها طالب المعرفة الجغرافية ، بشرط أن توجه إليه – فى الغالب – دعوة لكى يروى ويقص الحكاية . ولكن المؤكد أن هذا الرجل الذى يمتلك حساً جغرافياً فطرياً خاملاً وغير متيقظ ، لا يجيد بقصد أحياناً ، ومن غير قصد أحياناً أخرى ، عرض الرواية ، وما تنطوى عليه من رؤية جغرافية . وبالقصد المتعمد غير المتجرد ، أو بالقصد ، المتعمد المتجرد ، تضل هذه الرواية ، وتضلل من يستمع إليها، ويحاول أن ينتفع بها . ومن ثم يكون اسهام هذا الرجل فى خدمة المعرفة الجغرافية مشكوكاً فيه ، وغير ذات موضوع . بل هو الاسهام المضلل ، الذى يوقع المعرفة الجغرافية فى الخطأ أو الخطيئة .

ومن شأن هذا الاسهام الضال والمضلل ، ألا يعطى شيئاً مهما تنتفع به المعرفة الجغرافية . ومن ذلك فإن ضلالة هذا الاسهام ، قد

تعطى قوة الاستنفار والدفع ، التى تفجر فى طالب المعرفة الجغرافية ارادة التيقن من سلامة ودقة وصدق البيانات والمعلومات ، التى وردت فى سياق الرواية الأسطورية المضللة . وهذا - فى حد ذاته - هو الجانب الايجابى الوحيد المبشر ، الذى يمكن أن يسفر عنه مثل هذا الاسهام غير السوى ، من وجهة النظر الجغرافية .

ولقد تورط فى هذا التضليل كثير من الرجال الرحالة ، بكل القصد الذى تعمد تكتم وتشويه حقيقة جغرافية . وتورط فيه أيضاً فريق آخر من غير قصد وبكل حسن النية . وفى الحالتين كان التورط مثيراً وغريباً ، عندما انزلقت الرواية إلى أدب الأسطورة ، وأغرقت معها وشوهت الحقيقة الجغرافية . ومن شأن الأدب الجغرافى أن يتبرأ من هذه الرواية ونسيجها الأسطورى .

وليس أروع من دلالة قصة البحث عن النيل ، التى أوردها المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم (١) ، وقصة التاجر سليمان فى حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى (٢) ، وقصة السندباد البحرى ، تفلحان

---

(١) تقول الرواية « كان رجل من بنى العيص يقال له حائذ بن أبى شالوم بن العيص ، وأنه خرج هارباً من ملك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر ، فأقام بها سنين ، فلما رأى عجائب نيلها ، وما يأتى به جعل لله على نفسه أن لا يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه من يخرج أو يموت قبل ذلك . فسار حتى انتهى إلى البحر أخضر ، فنظر إلى النيل يشق البحر ... (واصرار الرجل على الرحلة لحساب الكشف عن منابع النيل ، ارهاص مبشر برحلة جغرافية متخصصة) وأشار المقدسى إلى أن ذلك الرجل قد التقى برجل آخر سأله عن الطريق ، فطلب منه أن يسير حتى يصل إلى قبة من ذهب عندها علم النيل (هنا بدأ الانزلاق فى التخريف) فسار حتى بلغ القبة فإذا ما ينحدر من السور إلى القبة ثم يفترق فى الأبواب الأربعة ، فأما ثلاثة تفيض فى الأرض ، وأما واحد فشق على وجه الأرض وهو النيل . فشرب منه واستراح وأهوى إلى السور ليصعد فأتاه ملك (استمرار فى التخريف) فقال له يا حائذ قف مكانك ، فقد انتهى إليك علم النيل، وهذه الجنة . (وصلت الرواية إلى حضيض التخريف الأسطورى) . راجع : علوى ، س.م ضياء الدين : الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادين (ترجمة د. عبد الله الغنيم ود. طه جاد) الكويت سنة ١٩٨٠ ص١٦٤ .

(٢) سليمان التاجر : سلسلة التواريخ الجزء الأول نشر لانجل النسخة العربية (باريس سنة ١٨١١) .

فى التعبير عن مدى الانزلاق ، الذى تهاوت فيه الرواية ، إلى حضيض التخريف الأسطورى المثير (١) . وهل يتيح هذا السقوط فرصة لبيان واضح عن الرؤية الجغرافية (٢) ؟ وهل يمكن أن يدعى أحد أن هذه الكتابة فى أدب الأسطورة ، تمت بصلة ما لما تبتغيه المعرفة الجغرافية الصحيحة(٣) ؟ .

وأدب الأسطورة الذى يضم الروايات والقصص الأسطورى المثير ، هو جزء من حصاد الرحلة العربية ، لحساب أى هدف باستثناء الهدف الجغرافى . وصحيح أنه يمثل استمراراً لنفسه التوجه ، الذى سجل القصص الأسطورى قبل الإسلام ، ولكن الصحيح أيضاً أنه لا يمكن أن يضم أو أن ينضم إلى أدب الرحلة ، أو إلى الأدب الجغرافى . بل وكيف يضم أو ينضم هذا الأدب الساذج الضال والمضلل ، إلى الرصيد الذى يبتغى الصدق والواقعية ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟ وهل تقوم المعرفة الجغرافية ، على غير الصدق والواقعية ؟

الرحالة وأدب الرحلة :

والرجل الثانى الذى خرج مع الرحلة ، لأنه يتعشق الرحلة ويهوى الأسفار هو من الرحالة . ولأن هذا الرحالة يتمتع بالكسب ، الذى يجنيه من الرحلة ، فلقد اجتهد وخاطر وسافر لحساب الكسب المادى ، ولحساب المتعة المعنوية ، أو الروحية فى وقت واحد . ولقد فجر حب الرحلة فى هذا الرجل المغامر ، الباحث عن الكسب والمتعة ، حسه الجغرافى الفطرى ، وأيقظه وشحذه . ربما أحسن هذا الرجل توظيف

---

(١) الفيل ، محمد رشيد : أثر التجارة والرحلة فى تطور المعرفة الجغرافية عند العرب – الكويت سنة ١٩٧٩ .

(٢) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ص٢٥٣ – ٢٥٧ – الاسكندرية سنة ١٩٨٠ .

(٣) حتى ولو افلح باحث فى التقاط بعض البيانات من قصة أسطورية ، أو فى انتقاء حقيقة وانتشالها من حضيض التخريف الأسطورى تبقى الرواية غارقة فى خطيئة التخريف الأسطورى ، ولا تستحق أن تخرج من الاطار الذى يجمع شمل الأساطير ، وهو أدب الأسطورة .

هذا الحس الجغرافى الفطرى ، لكى يتلمس المتعة ، وهو يتأمل الرؤية الجغرافية ويعايشها ، ويتمعن فى مكوناتها الطبيعية والبشرية .

ويحق لنا عندئذ أن ندرك معنى يقظة الحس الجغرافى الفطرى ، وكيف شد انتباه الرجل إلى الرؤية الجغرافية . كما ينبغى أن ندرك مدى وقيمة وجدوى توظيف هذا الحس الجغرافى المنفتح ، فى معاينة الواقع الجغرافى الطبيعى ، ومعاملة الواقع الجغرافى البشرى . ومن ثم يجب أن نتوقع من أمثال هذا الرجل انجازاً مفيداً ، تنتفع به المعرفة الجغرافية، فى كثير من الأحيان . وحتى لو لم نجد فى سياق هذا الانجاز فائدة ترتجى ، أو جمعت الكتابة بين الغث والثمين ، فهو – على كل حال – لن يضر المعرفة الجغرافية ضرراً مؤكداً ، أو لن يتوجه بها أبداً ، إلى الضلال المبين .

ومن الجائز أن يعطى هذا الرجل بكامل ارادته تصويراً أو تعبيراً فى كتاب . ومن شأن هذا الكتاب أن يحكى عن رحلته ، وهو يضرب فى الأرض ، أو فى البحر ، وأن يستعرض رؤيته وتصوراته وانطباعاته ، وهو يعاين ويعايش الواقع الجغرافى . ومن غير دعوة أو من غير الحاح، يقدم هذا الكتاب – عن طيب خاطر – هذا الاسهام المناسب ، الذى يعتمد عليه طالب المعرفة الجغرافية اعتماداً مطمئناً ، وهو يلتقط معلومة جغرافية ينتفع بها .

ومثل هذا الاسهام يصور ما نعينه بالضبط بأدب الرحلة . وقد تنطوى الكتابة فيه على خلط ، بين الحقيقة الجغرافية ، والحدث التاريخى، والسلوك الاجتماعى . وقد يتمادى الخلط فى الكتابة ، التى تسجل حكاية الرحلة ، حتى تستغرق أحياناً فى ذكر الغرائب والعجائب التى تستهوى الكاتب . لكن لا الخلط ، ولا التمادى فى الخلط ، يعنى التورط فى التضليل ، أو الانسياق فى الضلالة ، التى تتضرر بها المعرفة الجغرافية . وهو بعد ذلك كله ، تسجيل منطقى مع نفس الرحالة على الأقل ، لأن ولعه بالرحلة وبحثه عن رزقه أثناء الرحلة ، قد تفوق فى الغالب على أى اهتمام أخر من صميم العمل الجغرافى .

وصاحب مثل هذا الاسهام ، لا يكتب إلا ما يحسه ويجسد انطباعاته . بل لا يسجل إلا ما يلفت نظر ويستهويه ، لأنه صادق مع نفسه . ولا تثريب عليه لو عرض الصورة على النحو ، الذى يرضيه ، ولا تجاوز حد الموضوعية والواقعية . بل ولا تثريب عليه أيضاً لو خلط ، أو تمادى فى الخلط ، ولم يخضع عرضه للمنهج الذى نرضاه . وكيف نطلب منه غير ذلك ، وهو انسان يسجل رؤيته الجغرافية وانطباعاته ، وليس كاميرا تلتقط الصورة ولا تفرط فى تفاصيلها ، وليس مسجلاً يسجل كل صوت ، ولا يميز بين تفاصيله ؟

هذا ولقد أدت هذه الرحلة إلى استنفار كل استعدادات الرحالة الفطرية ، وحسه الجغرافى ، وحسه التاريخى ، وحسه الاجتماعى ، وهو يمارس هوايته فى الأسفار . ولا عجب لو أنه أطل على الواقع من خلال استشعار هذا التنوع الحسى ، ثم سجل انطباعاته التى تجسد هذا الاستشعار . ولا غرابة فى أن يوجه استشعاره إلى المكان ، ويكتب عن الرؤية الجغرافية ، أو أن يوجه استشعاره إلى حركة الزمان ، ويكتب عن الأحداث التاريخية ، أو أن يوجه استشعاره إلى المجتمع ، ويكتب عن التوليفة الاجتماعية .

وهذا معناه أن هذه الرحلات لم تقدم حصادها ، وتختص به جانباً واحداً من جوانب المعرفة . بل قدم صاحب هذا الحصاد انجازه ، إلى كل أبواب المعرفة ، وطلاب المعرفة الجغرافية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، والدينية . ولأن الرحالة غير متخصص فى أى باب من أبواب المعرفة ، ولأن أحداً لم يكلفه ، أو يطلب منه التركيز على باب معين من أبواب المعرفة ، سجل الرحالة باختياره رؤيته وانطباعاته على النحو الذى أطل على كل جانب من جوانب المعرفة . ولقد عرف هذا التسجيل الأمين طريقه إلى التراث العريق ، الذى تمثل فى أدب الرحلة العربية .

ومن أصحاب الكتب الجيدة فى أدب الرحلة العربية(١) ناصر خسرو

---

(١) راجع اهم ما يصور مدى اجتهاد الرحالة العرب فى انجاز كتب الرحلات فى =

والبغدادى ، وابن جبير ، والغرناطى ، وابن بطوطه . وسواء كان الرحالة من المشرق العربى ، أو من المغرب العربى ، فلقد خرج الرحالة باختياره إلى الرحلة . وهناك أكثر من دليل على أن الواحد منهم قد أطل على الواقع وسجل انطباعاته . ولكن المؤكد أن التسجيل كان متحرراً من أى التزام قبل باب معين من أبواب المعرفة . والخلط فى كتابة المحترف من الرحالة لا يعنى انحرافًا أو تحريفًا ، وفى كتابه الهاوى منهم لا يعنى شروداً أو تشرداً .

وبعض كتب الرحلات التى تضمها المكتبة العربية الإسلامية ، فى اطار ما تحتوى عليه من تراث أدبى عريق ، مهمة إلى حد كبير . ويكاد يلتزم الباحث الجغرافى فى كل مكان وزمان ، بالاطلاع عليها والانتفاع بها . ومع ذلك فهى وحدها لا تسعف الاجتهاد الجغرافى وتشبعه أو تقنعه . بل يكون الباحث دائماً فى حاجة ملحقة إلى قدر كبير من المهارة والحنكة والحصافة ، لكى يعرف كيف يحسن الانتفاع بهذه الكتب .

وسواء كان هذا الانجاز الأدبى من كتب الرحلات ، من انتاج وصياغة هواة الرحلة ، أو من انتاج وصياغة محترف الرحلة ، فإنه يخدم المعرفة الجغرافية الوصفية ، وهو يصور الواقع فى المكان والزمان . ومع ذلك فهو فى اعتقاد الجغرافيين والمتخصصين لا يتداخل تداخلاً فعلياً فى صميم بنية التفكير الجغرافى وفلسفته . وهذا - بكل تأكيد - هو الجانب الايجابى المبشر المفيد ، الذى أسفر عنه أدب الرحلات . ويجد هذا الانجاز المبشر من أدب الرحلة ، المكان المناسب واللائق به - كما قلنا - فى اطار رصيد التراث الجغرافى العربى الإسلامى .

الرحالة والأدب الجغرافى :

والرجل الثالث الذى خرج فى رحلة أو مع رحلة ، لأنه استشعر قيمة أو جدوى الرؤية الجغرافية وتمحيصها ، والاطلاع عليها بنفسه ، هو جغرافى بالفعل . وما من شك فى أنه الأصدق فى اجتهاده ، والأقدر

= الشامى ، صلاح الدين : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص١٤٠ - ١٥٩ .

فى عمله لحساب المعرفة الجغرافية . بل هو الذى يقدم مصلحة المعرفة الجغرافية ، والهدف الجغرافى على هدف الرحلة الأصلى . بمعنى أنه لا يترك أو يدع لهدف الرحلة الحقيقى ، وهو اقتصادى ، أو وهو عسكرى، أو وهو دينى ، أو غير ذلك ، أن يضيع منه فرصة الرؤية الجغرافية ، وتمحيصها والتمعن فيها أثناء الرحلة .

وصحيح أن خروج هذا الجغرافى إلى الرحلة ، لا يعلن صراحة عن هدفه الجغرافى . ولكن المؤكد أنه يضم هذا الهدف ، ويعمل لحسابه من غير أن يعترض أو يتعارض ، مع الهدف الحقيقى المعلن للرحلة . بل هو لا يطلب التفكير الجغرافى أو يستغرق فيه ، ولا ينجز ما يتصدى لانجازه لحساب المعرفة الجغرافية من غير احاطة ، وتمعن فى عناصر الرؤية الجغرافية ، وهو مشارك فى الرحلة ، أو وهو متفرد فى الرحلة .

ومعنى الخروج فى الرحلة على هذا النحو مشاركاً أو متفرداً ، أنه قد عقد العزم على أن يضطلع بالمهمة الجغرافية ، دون أن تكون الرحلة رحلة متخصصة فى العمل الجغرافى ، أو مخصصة للهدف الجغرافى وحده . وهو كجغرافى متنور لا يريد من الرحلة أكثر من أن :

١- يتبين رؤية جغرافية معينة ، كان قد أحيط بها علمًا ، ولكنه تشكك فى هذه الاحاطة ، ويطلب - بكل تأكيد - التثبت من صدق وموضوعية هذه الاحاطة ، وازالة أسباب وحجب الغموض عنها .

٢- يجمع أوصال جغرافية معنية أحياناً ، أو غير معنية أحياناً أخرى ، ويطلع عليها ويمحصها ، ويعاين الواقع الذى تنبئ به ، ويطلب التمعن فيها .

ولأن هذا الرجل متنور ، ويدرك قيمة وجدوى الرؤية الجغرافية ، والتمعن فيها ، فلقد أحسن استخدام حسه الفطرى جغرافيًا ، وتاريخيًا ، واجتماعيًا ، وهو يحيط علمًا بهذه الرؤية . كما أحس توظيف خبرته وتفكيره الجغرافى ، فى شأن التمعن فى أبعاد هذه الرؤية ، وتداخل العوامل والعناصر المتعددة فى صياغتها . ومن ثم هو بذاته كان حريصًا على حسن استخدام محصلة المعاينة والاحاطة ،

ومحصلة التمعن والتفكير فى الكتابة الجغرافية عن هذه الرؤية .

ومن غير أن نعرض ، أو من غير أن نعترض ، على الخلط بين الحقيقة الجغرافية ، والحدث التاريخى ، والظاهرة الاجتماعية ، يجب أن نطرى هذه الكتابة ، الذى لا يتسبب الخلط فيها فى أى خلل . بل يجب أن نثنى على الكاتب ، وأن نمتدح قدراته على العرض ، من غير استطراد أو شرود ، فى أى اتجاه غير صحيح . وهل نشك أو نتشكك فى أنها كتابة أدبية مقبولة ، ومفيدة شكلاً وموضوعيًا ؟ ويكفى أن تكون قد جسدت الحقيقة الجغرافية ، ولم تنغمس فى ضلالة الخلط بين الغث والثمين ، أو لم تنزلق فى خطيئة الكذب والافتراء ، لكى تصبح انجازاً أدبياً مفيداً .

وتوجه مثل هذا الرجل المتزن إلى الانتفاع بالرحلة ، هو التوجه الصحيح المثمر . ولقد برهن هذا التوجه الصحيح ، على صدق وموضوعية الاجتهاد الجغرافى ، سواء التحق بالرحلة أو خرج فيها متفرداً . وما من شك فى أنه يعرف ماذا يريد من الرحلة . وكيف يحصل على ما يريد ، وكيف يحسن استخدام ما حصل عليه بالفعل ، فى اخراج وصياغة الكتابة الجغرافية الوصفية التصويرية .

وهناك زمرة أو صفوة من الجغرافيين العرب ، قد مارس الرحلة والتحق بها ، وانتفع بالتحرك معها بكل الانفتاح والتفتح . بل كان الواحد منهم وكأنه يخرج إلى ما نعرفه الآن باسم الدراسة الميدانية . وصحيح أن هذه الدراسة التى أنجزها بعض الجغرافيين العرب ، قد افتقدت الخطة والمنهج ، ولكن المؤكد أنها لم تفتقد المنطق والهدف والتوجه الصحيح . وفى كتابات بعض هؤلاء الجغرافيين الذين خاضوا تجربة الرحلة ، قبل الاقبال على الكتابة الجغرافية الوصفية التصويرية عن بعض الأقطار والأمصار ، بيان حسن ومفيد لا يضل ولا يضلل فى شأن جدوى الرحلة لحساب العمل الجغرافى . بل لقد أوشكت بعض الرحلات ، أن تعلن عن مولد ونشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة .

ومن الجغرافيين العرب الذين خرجوا فى الرحلة طلبًا للرؤية

الجغرافية أكثر من أى شئ آخر ، أبو الحسن المهلبى . وكانت رحلته من النماذج الفريدة ، التى تقدم فيها الهدف الجغرافى على سائر الأهداف الأخرى . ولقد كلف المهلبى بهذه المهمة ، التى تطلعت وعملت من أجل الهدف الجغرافى ، من قبل الخليفة الفاطمى فى مصر ، فى حوالى القرن العاشر الميلادى . وبموجب هذا التكليف كانت رحلة المهلبى فى أنحاء السودان ، بمعناه الجغرافى الفضفاض جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى رحلة سفارة . ولكنها من وجهة النظر الجغرافية ، نقول بأنها كانت رحلة جغرافية ، لم تعلن عن تخصصها صراحة .

وصحيح أن كتابات المهلبى الجغرافية عن السودان بعد الرحلة بموجب أمر التكليف ، قد جاءت فى شكل تقرير رسمى . وصحيح أن هذا التقرير الأصلى مفقود . ولكن الصحيح أيضاً أن جودة هذا الانجاز، قد أظهرت فاعلية وجدوى الرحلة التى طوف فيها المهلبى فى أنحاء السودان ، لكى يجمع أوصال المادة التى أوردها فى التقرير الرسمى(1).

ومثل هذا التكليف الذى حمل المهلبى هذه المسئولية ، وأسلوب التنفيذ ، لا يخفى دلالة التعبير عنه .

١- مدى الاهتمام بالمعرفة الجغرافية على مستوى الدولة ، وحسن اختيار المسئول عن انجاز المهمة .

٢- مدى العلاقة بين الرحلة ، والطواف ، وتقصى الحقائق ، من أجل انجاز هذه المهمة ، وتسجيل قطعة مفيدة من الأدب الجغرافى .

بل قل ، إن حسن تنفيذ التكليف ، وطواف رحلة المهلبى فى أنحاء السودان بمعناه الجغرافى ، لا يخفى دلالة التعبير عن :

١- جودة الكتابة الجغرافية وحسن عرض الصورة الجغرافية التى

---

(١) عرف التقرير الذى أعده المهلبى باسم التقرير العزيزى . ولقد انتفع بهذا التقرير المتخصص فى وقت لاحق بعض الجغرافيين ، ونقلوا عنه معلومات قيمة عن السودان كما فعل ياقوت الحموى . ومن خلال ذلك النقل وصل إلى علمنا أمر هذا التقرير المفقود .
الشامى : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص١٣٣ .

يصرتها الرحلة ، وكأنها التوجه الفعلى لدراسة ميدانية .

٢- اعتماد بعض الجغرافيين العرب على ما ورد فى التقرير ، وكأنه التوجه الصحيح لتوثيق الكتابة الجغرافية .

ومثل هذا التوجه الصحيح من أجل بيان جغرافى واقعى ، تكشف عنه الرؤية الجغرافية ، ومن أجل توثيق كتابة جغرافية جيدة ، يعلى من شأن الرحلة وحسن استخدامها ، وما أسفرت عنه جغرافياً . كما أنه علامة على مدى يقظة ارادة التحول ، فى شكل طبيعة العلاقة ، بين الرحلة وهدفها الحقيقى المعلن من ناحية ، والاجتهاد الجغرافى المتخصص فى معيتها من ناحية أخرى . وصحيح أن هذه العلاقة لم تتحول بالفعل من علاقة ، بين تابع ومتبوع ، إلى علاقة بين انداد ، وصحيح أن ذلك قد أخر ولادة أو نشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة . ولكن الصحيح أيضاً أنها قد بشرت بذلك التحول ، وعبرت عن التوجه إليه تعبيراً ضمنياً .

ومن الجغرافيين العرب المرموقين الذين خاضوا تجربة الرحلة طلباً للرؤية الجغرافية أكثر من أى شئ آخر ، أبو ريحان البيرونى . ولقد خرج البيرونى فى هذه الرحلة ، التى وضعت كتابته الجغرافية فى المكانة المرموقة فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان مقصد رحلته الهند ، حيث عايش الناس فى أنحائها ، وطاف وأطل على الواقع الجغرافى فيها ، قبل أن ينجز كتابه عن الهند .

هذا ولقد دقق البيرونى وتأنى كثيراً ، فى شأن جمع أوصال الرؤية الجغرافية . بل أحس استخدام حسه الجغرافى اليقظ ، وخبرته الجغرافية فى شأن تمحيص هذه الرؤية والتمعن فيها . ومن خلال مراجعة كتاب البيرونى عن الهند (١) ، لا يمكن أن نشك أو نشكك فى

---

(١) ينبغى الاطلاع على كتاب أبو ريحان محمد ابن أحمد البيرونى تحت عنوان «كتاب الهند» . وهناك طبعة نشرت فى لندن سنة ١٨٨٨ وطبعة حديثة أخرى فى مجلدين نشرت فى لندن سنة ١٩١١ .

جدوى اعتماده على الرحلة . بل كانت هذه الرحلة ، وكأنها الدراسة الميدانية التى نورت بصيرة البيرونى ، وجاوبت على كثير من تساؤلاته(١) .

واجتهاد مثل هذا الرجل فى الرحلة ، يستحق الاطراء والثناء ، لأنه أرسى دعامة قوية ، فى شأن توظيف الرحلة لحساب الهدف الجغرافى قبل ولادة الرحلة الجغرافية فعلاً بحوالى أربعة قرون كاملة (٢) . وما من شك فى أن كتابته الجغرافية التى أنجزها مثل هذا الرجل ، الذى نورت بصيرته الرحلة كتابة جيدة . وهذه الكتابة الجغرافية هى التى تستحق بالفعل أن تضرب المثل لما نعنيه بالأدب الجغرافى .

***

هذا ، وإذا رفضنا تراث الرحلة الذى تمثل فى **أدب الأسطورة** ، فلا ينبغى أن نقلل من شأن تراث الرحلة الذى تمثل فى **أدب الرحلة**. ولكن الذى يجب أن نعتز به فعلاً ، هو تراث الرحلة الذى تمثل فى **الأدب الجغرافى** . وما من شك فى أن الاسهام الذى تأتى على مدى أكثر من ستة قرون كاملة من الأدب الجغرافى ، كان اسهامًا مفيداً وحيوياً وهادفاً ، بكل الحسابات والمعايير لحساب مسيرة الفكر الجغرافى .

وهذا الاسهام الجيد الذى أعلن عنه ، وصوره الأدب الجغرافى الجيد، هو الذى بشر ووضع أهم العلامات البارزة التى أنبأت ببداية التحول والتغيير . وما كانت الكتابة الجغرافية الأصدق ، التى بصرتها الرحلة إلا تجسيداً لارادة هذا التغيير . وما كانت الخرائط الجغرافية الأوضح ، التى أسفرت عنها الرحلة إلا تعبيراً عن إرادة هذا التغيير . ولقد كان هذا التغيير المطلوب أو المستهدف ، ليس هو تغيير فى العلاقة ، بين طلب وهدف الرحلة الحقيقى من ناحية ، وطلب وهدف

---

(١) الشامى : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص١٣٤ .

(٢) كانت رحلة البيرونى الهند فى سنة ١٠١٧ راجع حسنى ، حسن محمود المرجع السابق ص١٧ .

الاجتهاد الجغرافى فى معيتها فقط من ناحية أخرى ، بل قل كان التطلع بالفعل إلى نشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة .

ولا تثريب على ادعاء نؤكد فيه أن ارادة هذا التغيير ، قد وضعت الاستعداد كله ، لكى توظف الرحلة توظيفاً متخصصاً فى خدمة الهدف الجغرافى . ولقد حدث هذا التغيير بالفعل فى المرحلة التالية ، التى تولت فيها النهضة الأوروبية مسئولية ولادة هذه الرحلة ، والانفتاح الجغرافى على الصعيد العالمى . وفى هذه المرحلة أصبحت الرحلة مطية الاجتهاد الجغرافى متفرداً ، وهو يميط اللثام عن المجهول من الأرض ، أو وهو ينجح فى انجاز الكشوف الجغرافية الكبرى .

الفصل الخامس

الرحلة الجغرافية المتخصصة

نشأتها وتوظيفها فى الكشف الجغرافى

- تمهيد .
- التفتح الأوروبى والتوجه الجغرافى الصحيح .
- الرحلة الجغرافية والعمل الجغرافى .
- الرحلة الجغرافية والكشف الجغرافى .
- الرحلة الجغرافية والانفتاح الجغرافى .
- الانفتاح الجغرافى ومنافسات الرحلة الجغرافية .
- الرحلة الجغرافية صانعة الانفتاح الأوروبى .

الفصل الخامس
الرحلة الجغرافية المتخصصة
نشأتها وتوظيفها فى الكشف الجغرافى

عاشت أوروبا المسيحية العصور الوسطى على امتداد أكثر من ألف عام ، بداية من القرن الثانى الميلادى إلى القرن الثانى عشر ، فى ظلمة الجهل . بل لقد عاشت الانغلاق كله ، وانساقت فى ضلال مبين ، وهى تقبل الفكر الجغرافى المسيحى الضال والمضلل ، الذى رضيت عنه أو قبلت به الكنيسة ورجال الدين (١) . وربما انغمس التفكير الأوروبى كله، سواء من تولى انجازه ، أو من قبل به ، أو من رضى عنه، فى سذاجة وانحراف هذا الفكر الجغرافى المسيحى الضال والمضلل .

ومن غير أن تفطن أوروبا العصور الوسطى ، إلى كنه ومغزى هذا التضليل الساذج ، ومن غير أن تكترث العقول الأوروبية بمدى الخطيئة التى انساقت فيها ، حافظ الاجتهاد الجغرافى الضال على قوة الدفع للالتحاق بالرحلة . ورحلات كثيرة ومتنوعة قد التحق هذا الاجتهاد بها، لكى يخدم الرؤية الجغرافية والهدف الجغرافى فى هذه المرحلة . ولكن الذى يجب أن نؤكد عليه هو أن تولى أقدام هذا الاجتهاد الجغرافى الأوروبى على لوى ذراع الحقيقة الجغرافية ، بكل الانصياع للضلال ، لكى ترضى عنه وعنها الكنيسة ورجال الدين المسيحى .

ولوى ذراع الحقيقة الجغرافية امتثالاً لارادة رجال الدين المسيحى ،

---

(١) جمدت الكنيسة مسيرة الفكر الجغرافى القديم والصحيح ، وأهدرت دمها . وقد تبنت مسيرة جغرافية ضالة . وكانت هذه المسيرة الضالة فى الاتجاه غير الصحيح . وجاء الإسلام فأحيا مسيرة الفكر الجغرافى القديم وتبناها ، وأضاف الاجتهاد الجغرافى الإسلامى إليها اعتباراً من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادى . وهذا معناه أنه اعتباراً من القرن التاسع كانت هناك مسيرتان للفكر الجغرافى ، مسيرة مسيحية ضالة ، ومسيرة إسلامية صحيحة . ولم تكن ثمة علاقة بين هاتين المسيرتين.وكيف يمكن أن تكون ثمة علاقة بين ضلال ورشد؟

الشامى صلاح الدين : الإسلام والفكر الجغرافى العربى ص٢٣ – ٢٥ .

وطلبًا لبركة الكنيسة ، قد يعنى التحرك فى الاتجاه غير الصحيح أو الانحراف . ولكن المؤكد أن المضى قدماً فى الاتجاه غير الصحيح ، هو الذى أوصل الاجتهاد الأوروبى الجغرافى الضال إلى حد تصور خاطئ ، حتى أفسح فى الخريطة للجنة مكاناً على الأرض . ولست أدرى كيف قبلت الكنيسة هذا التصور ؟ وهل يجوز دينياً ، القبول بمنطق تحيّز الجنة فى مكان ما على الأرض ؟ (أنظر خريطة سان بيتوس سنة ٧٧٦ ميلادية) (١) .

هذا ، وبقدر تشبث العقل الأوروبى المضلل ، بهذا التضليل والالتزام به ، تنكر له وتمرد عليه واستهان به اعتباراً من القرن الثانى عشر الميلادى . ومع ذلك فإنه لم يعلن عصيانه وتمرد علناً . بمعنى أن التمرد على الفكر الجغرافى المسيحى الضال شئ (٢) ، وأن اعلان العصيان الصريح فى مواجهة هذا التضليل شئ آخر . وربما لم يتجاوز التمرد هذا ، حد الرفض على غير علم من الكنيسة .

وكان هذا التمرد الذى حدث بعد ألف عام ، علامة على الانتباه المفاجئ لما انطوى عليه الفكر الجغرافى المسحيى من ضلال وتضليل(٣)، وسذاجة واستحفاف بالعقل السليم . ولقد تأتى هذا الانتباه المفاجئ من خلال احتكاك حضارى بناء ، بين عالم أوروبا المسيحى والعالم الإسلامى المستنير ، على أكثر من جبهة من جبهات التعامل الايجابى . بمعنى أنه انتباه لم ينشأ من فراغ ، وأنه كان أكثر من حذر ، يتخوف رد فعل رجال الكنيسة وغضبتهم .

وما من شك فى أن التعامل التجارى ، والتعامل الحربى – الحروب

---

(١) عبد الحكيم صبحى ، الليثى ، ماهر : علم الخرائط ص١٧ .

(٢) تاتهام ، جورج : الجغرافية فى القرن التاسع عشر (ترجمة د. غلاب ، مرسى أبو الليل) ص٤٥ سنة ١٩٧٤ .

(٣) لم تفلح النهضة فى حوالى القرن السابع الميلادى أن تغير من أمر ضلال وتضليل الفكر الجغرافى المسيحى شيئاً .
راجع تاتهام : المرجع السابق ص٤٦ .

الصليبية – قد وضعت العقل الأوروبى فى موضع الرؤية ، والانفتاح على منجزات الاجتهاد العربى الإسلامى ، فى كل مجال من مجالات التفكير والعمل . ولقد هزت ، بل قل زلزلت صدمة هذا الانفتاح ، العقل الوجدان الأوروبى هزات عنيفة ، قبل أن يتيقظ وينتبه . وكان لا بد من هذه اليقظة والانتباه ، لكى تنتفع أوروبا بهذا الانفتاح ، وتجنى ثمراته حضارياً ، واقتصادياً ، وفكرياً .

هذا ، وينبغى أن نؤكد على أن فترة طويلة قد مضت ، وهى تفصل بين الصدمة التى أيقظت العقل الأوروبى مرة ، واليقظة التى أثارت الانتباه مرة أخرى . وفى هذه الفترة عاشت أوروبا حالة من حالات الانبهار الشديد ، وهى أقرب ما تكون إلى حالة انعدام الوزن .

وفى هذه الحالة واعتباراً من القرن الثانى عشر الميلادى ، ربما أنكر العقل الأوروبى ، واستنكر سذاجات الفكر الجغرافى المسيحى الضال ، فى الخفاء – كما قلنا – تخوفًا من رجال الكنيسة . ولكن المؤكد أن رجاحة العقل الأوروبى المتيقظ ، قد تمردت ورفضت بالفعل كل ما ورد فى الفكر الجغرافى المسيحى ، من تضليل ساذج يستخف به ويسخر منه .

وكان من الطبيعى أن يتلفت العقل الأوروبى من حوله بحثًا عن الفكر الجغرافى البديل الصحيح . وفى اعتقاد أى باحث جغرافى منصف أن تقريب الأدريسى العربى المسلم المرموق فى بلاط الملك روجر المسيحى ، واستخدامه ، والاغداق السخى الذى انهال عليه – على سبيل المثال – هو العلامة التى لا تضل ولا تضلل عندما تكشف عن :

١- مدى التشكك الأوروبى فى جدوى انجازات الفكر الجغرافى المسيحى الساذج ، ومبلغ استغراق هذا الفكر فى الخطأ والضلال .

٢- مدى توجه الاهتمام الأوروبى إلى العالم الإسلامى ، بحثاً عن البديل ، الأفضل.بل قل البحث عن البديل الأصدق والصحيح .

واعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى ، بدأ الانفتاح الأوروبى الحذر على الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، وانبهر به . ومن غير

أن تنتبه الكنيسة ويداخلها الشك . وفى غفلة من تزمتها الشديد ، اقترف العقل الأوروبى هذه المعصية .

ولقد استشعر العقل الأوروبى الذى هزته الصدمة ، وطأة الضغوط والتزمت من ناحية ، ووطأة الانبهار وانعدام الوزن من ناحية أخرى ، بعد أن ارتكب هذه المعصية . وربما انتفض هذا العقل انتفاضات متعقلة، استعداداً للتمرد على ارادة رجال الدين ، وطلبًا للتحرر من الوصاية ، التى تملي وترهب أكثر مما تؤمن وتحرس . ولكن المؤكد أن العقل الأوروبى قد سار قدمًا إلى درس الانفتاح على الفكر الجغرافى العربى الصحيح ، واستنكار الفكر الجغرافى المسيحى الساذج .

التفتح الأوروبى والتوجه الجغرافى الصحيح :

على مدى ثلاثة قرون كاملة ، من عمر الزمن ، واعتباراً من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر الميلادى ، اصطنع العقل الأوروبى كل أسباب وأدوات وأساليب التمرد على الماضى ، وهو رهينة السذاجة والضلالة فى أيدى التزمت والانغلاق . كما اصطنع كل الثغرات التى تسلل منها الانتفاح الأوروبى ، على محصلة وانجازات العقل والعمل الإسلامى المتنور . وعكف العقل الأوروبى المتيقظ على استيعاب وتذوق ، بعض أهم انجازات الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى .

وما من شك فى أن العقل الأوروبى ، قد تكشف له مدى استخفاف الفكر الجغرافى المسيحى به . بل تيقن هذا العقل من صدق وجدية التفكير الجغرافى العربى الإسلامى ، الذى بدأ بداية منطقية من حيث انتهى الفكر الجغرافى القديم الصحيح ، الذى كانت الكنيسة قد لعنته وأهدرت دمه . وازداد العقل الأوروبى يقيناً فى شأن جدوى الخطوات ، والأشواط ، والانجازات ، التى تقدمت بموجبها خطوات المسيرة الفكرية الجغرافية الصحيحة ، فى اطار العقل فى الاتجاه الصحيح البناء .

ومن بعد تلك اليقظة والاستيعاب والانفتاح ، تفتحت أوروبا . وأصبحت أوروبا المتفتحة فى حاجة ملحة إلى وقفة شجاعة ، لكى يعلن العقل الأوروبى المتنور استنكاره وعصيانه – من غير تخوف – للفكر

الجغرافى المسيحى الضال ، وايمانه وتطلعه إلى الفكر الجغرافى الصحيح . الذى لا يسخر من العقل السليم ولا يضلله .

ولأن الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى ، الذى نور التفتح الأوروبى وبصره ، كان قد تردى وأصابه الوهن وافتقد حسن القيادة ، فلقد تكشف الاستعداد الحقيقى ، لكى يترك زمام المسيرة الفكرية الجغرافية ، لمن يجد فى نفسه القدرة على حسن قيادتها وتولى أمرها . ولم ينتهز العقل الأوروبى المتنور هذا الوضع حتى يتبنى المسئولية ، ويتولى أمر مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح ، إلا بعد أن كانت الوقفة الشجاعة ، التى حررت ارادته . فكيف ومتى كانت هذه الوقفة الشجاعة ؟

ولقد جاءت هذه الوقفة الشجاعة فى الوقت المناسب تمامًا ، عندما كلت وضعفت وتراخت القبضة الإسلامية ، التى تمسك بزمام الفكر الجغرافى الصحيح ، واشتدت وقويت القبضة الأوروبية التى تلقفت هذا الزمام . وربما مهدت النهضة الأوروبية بصفة عامة لهذه الوقفة الشجاعة الصلبة . ولكن الموقف الشجاع الذى كفل هذه الوقفة الشجاعة بالفعل ، جاء عندما تفجر الرفض العلنى ، أو العصيان الأوروبى المكشوف ، احتجاجًا وتمرداً على رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وسلطانها المتزمت (١) .

وأسفر هذا الاحتجاج المتمرد والعصيان المتحرر عن ثورة عارمة . ولقد حررت ثورة الاصلاح الدينى ، ارادة العقل والتفكير الأوروبى ، وأطلقت سراحه أكثر من أى شئ آخر (٢) . وهذا معناه أن هذه الثورة قد

---

(١) قاد هذه الثورة مارتن لوثر الذى رفض التزمت الدينى ، ولم يرفض الدين . وأسفرت هذه الثورة عن نشأة الكنيسة البروتستنية ، وهى كنيسة المحتجين . وفى أحضان الحضور البروتستنتى على الصعيد الأوروبى ، يمكن أن نتبين بالفعل كيف تحرر العقل الأوروبى الألمانى بصفة خاصة ، وكيف سجل التفوق فى غيبة الضغوط الدينية الكاثوليكية التزمته بدون وجه حق .

(٢) انطلاق ملكات العقل الأوروبى فى غيبة ضغوط رجال الدين لا يعنى =

انتشلت العقل الأوروبى من حالة الانبهار وانعدام الوزن ، فى مواجهة التفتح الإسلامى الرشيد المتنور ، ووضعته فى حالة اليقظة والانتباه والانفتاح ، طلبًا للتفتح . ومعناه أيضًا أن أوروبا قد عرفت الطريق ، لكى تخرج من الظلمات إلى النور ، ومن الجمود إلى التغير ، تطلعاً إلى ما هو أفضل .

وتحرير إرادة العقل والتفكير الأوروبى ، وافلاته من ضغوط الكنيسة الكاثوليكية ، كان انتصاراً لارادة الانفتاح المتحرر ، والتفتح المستنير ، على حصاد الفكر الجغرافى الجيد ، الذى يتولى أمره المسلمون. ولقد أصبح هذا الانفتاح المتحرر والتفتح المستنير ، رافداً من أهم الروافد، التى أعطت وزودت ، حتى أشبعت وأطلقت ملكات وقدرات وتطلعات الاجتهاد الفكرى الأوروبى ، وهو يطلب المعرفة الجغرافية .

ولقد أسفر ذلك كله عن التوجه الأوروبى المتوثب ، إلى كل نبع فكرى متنور من ناحية ، لكى ينهل منه ، وإلى كل تراث حضارى مفيد لكى ينتفع به . واكتسب العقل الأوروبى مزيداً من اليقظة ، والتفتح الفكرى الرشيد . بل قل تحمل هذا العقل الأوروبى المتفتح ، مسئوليات التغيير والابداع والابتكار ، والاضافة ، من أجل تطوير واثراء الفكر ، ومن أجل ترشيد مسيرة كل فكر انسانى مفيد .

ومن خلال كل الفشل والاحباط ، الذى منيت به أوروبا على حلبة الصراع الصليبى مع المسلمين ، ومن خلال كل النجاح والتحرر ، الذى

= بالضرورة ، أن الدين يتعارض أو يعترض على حرية العقل وحقه فى التفكير. وما من شك فى أن هذا التعارض أو الاعتراض ، هو خروج عن القاعدة ، وانحراف عن الحقيقة . ومن شأن الدين أن يؤمن حرية العقل والعلم ، وأن يدعو بكل الالحاح إلى التفكير السوى البناء . ومن شأن الدين أيضاً الا يتعارض مع العلم وطلب العلم ، والا يتخوف من تحرر العقل . وهل يمكن أن ننكر العلاقة السوية بين الإسلام والعلم ؟ وهل يمكن أن نتنكر للأمن الذى كفله الإسلام ، لحساب التفكير الحر ؟ وهذا معناه أن العيب هو فى من يستخدم الدين سلاحاً للارهاب ، أو فى من يتخذ منه ضغوطاً لا مبرر لها ، تكبل العقل وارادة التفكير السوى ، وليس العيب فى الدين نفسه .

أحرزته أوروبا على حلبة الصراع الدينى ، ضد رجال الدين ، تفتح العقل الأوروبى تفتحاً حقيقياً ومن غير حدود . وأصبح هذا العقل الأوروبى المتفتح المستنير فى وضع الاستعداد الفعلى لصناعة وصياغة وانجاز ، التحولات الحضارية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية ، لحساب التطلع الأوروبى إلى ما هو أفضل . بل لقد تولت ملكات وقدرات هذا العقل المتفتح المستنير ، الأخذ بالعمل والتفكير بموجب كل سبب من أسباب التغيير . وهل يخفى علينا أنه كان بصدد صياغة النهضة الأوروبية ، وتوجيه حركة الحياة الأوروبية إلى ما هو أفضل ؟

ومن خلال الضعف والوهن ، الذى تسلل إلى بنية الأمة الإسلامية على حلبة الصراع السياسى بين أوروبا المسيحية ، وبين المسلمين ، ومن خلال الظلمة والجهالة التى سدت قنوات التفتح الإسلامى على حلبة العمل الحضارى لحساب المسلمين ، انغلق العقل الإسلامى ، وافتقد قدراته وحريته . وأصبح هذا العقل الإسلامى المتجمد فى وضع الاستعداد للتخلى عن مسئولية الريادة والتفوق والانجاز البديع . كما عجزت قدرات هذا العقل الجامد ، وعملت وفكرت واجتهدت بموجب كل سبب من أسباب الجمود والتأخر . وهى يخفى علينا أنه كان بصدد رقدة الاسترخاء والتخلف ؟

وهكذا شهد القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادى ، هذا الاستعداد المتناقض على هاتين الجبهتين . ومن غير أدنى اعتراض أو تمنع ، استسلم الاجتهاد الإسلامى المسترخى ، وترك زمام الريادة الفكرية . ومن غير أدنى أعراض أو تردد تسلم الاجتهاد الأوروبى زمام الريادة الفكرية . ومن ثم أصبح الفكر الجغرافى بكل اهتماماته وانجازاته وتراثه ومصيره ، أمانة فى عنق هذه الريادة الأوروبية المتفتحة ، اعتباراً من القرن السادس عشر الميلادى (١) .

وهكذا أيضاً آلت التركة الجغرافية ورصيدها، بكل ما لها وما عليها

---

(١) تاتهام ، جورج : المرجع السابق ص٤٧ .

إلى الوارث الأوروبى . وعكف العقل الأوروبى المستنير ، على استيعاب تراث هذه التركة ، وانجازاتها الجيدة بكل التحرر . ومن الجائز أن استشعر الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قيمة الرحلة ، لحساب الرؤية الجغرافية التى اطلع على انجازاتها ، وأحاط بها علمًا فى اطار التركة الجغرافية العربية الإسلامية . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الأوروبى ، هو الذى جعل من الارهاص الذى بشر بميلاد الرحلة الجغرافية حقيقة . وأعلن ذلك عن مولد الرحلة الجغرافية المتخصصة .

الرحلة الجغرافية والعمل الجغرافى :

من خلال كل الفشل والاحباط الذى منيت به أوروبا صليبياً ، ومن خلال كل النجاح والتحرر ، الذى أحرزته أوروبا دينيًا ، تولدت فى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قوة الدفع وعوامل الاستنفار ، التى حفزت روح المغامرة والخروج إلى الرحلة . ولم يمكن خروج الرحلة أمراً جديداً على أوروبا فى حد ذاتها . وكم من رحلات كانت تخرج فى خدمة أهداف تجاوب ارادة الحياة الأوروبية . ولكن المؤكد أن خروج الرحلة التى نعنيها بالضبط ، قد جاء بكل الوضوح لحساب العمل الجغرافى ، أو من أجل الهدف الجغرافى .

والهدف الجغرافى الذى خرجت من أجله هذه الرحلة فى ثوبها الجديد ، وتطلعت إليه ارادة ومصلحة الحياة فى أوروبا ، تمثل فى الانفتاح من غير حدود على الصعيد العالمى . بمعنى أنه الهدف الجغرافى ، هو الذى تصدى لتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية . ولا نشك أبداً فى أن الرحلة الجغرافية قد أنجزت هذه المهمة ، وحققت الهدف فى الوقت المناسب ، لكى تسعف إرادة التحول فى أوروبا إلى ما هو أفضل ، ولكى تدعم ارادة التغيير حضارياً ، واقتصادياً ، وسياسياً .

ومن الجائز أن تلمس الاجتهاد الجغرافى الأوروبى أول الأمر ، بعض المبررات ، لكى يقنع الممول بجدوى هذه الرحلة . ولكن المؤكد أنه قد أضمر وانطوى على ارادة توظيف هذه الرحلة ، توظيفاً متخصصاً فى خدمة العمل الجغرافى ، وفى اعتقاد أى باحث منصف أن نشأة هذه

الرحلة الجغرافية وتوظيفها وجنى ثمراتها ، كان أسبق من ظهور ونشأة علم الجغرافية ، فى ثوبه العلمي المتخصص . وهذا معناه أن حصاد وانجازات هذه الرحلة ، قد أسهم اسهامًا حقيقياً فى ترشيد التفكير الجغرافى الحر ، الذى أفلح فى صياغة علم الجغرافية ، وفى تحديد مغزى ومرمى هذا العلم العملى .

وهكذا كانت الرحلة الجغرافية المتخصصة ، التى تحايل الاجتهاد الجغرافى الأوروبى على توظيفها فى العمل الجغرافى ، وخدمة الهدف الجغرافى ، اضافة مجددة وجديدة فى وقت واحد . وهى من غير شك الخطوة الجادة ، التى لم يتمكن الاجتهاد الجغرافى العربى الإسلامى من اتخاذها بالفعل ، بعد أن جهز لها واستشعر جدواها ، وبانت تباشيرها المبكرة .

وهذه الاضافة الجديدة والمجددة ، كانت فى حاجة إلى حوافز وقوة دفع ، لكى تكون وتؤدى دورها الوظيفى . ولقد تبلورت قوة الدفع والحوافز فى أحضان النهضة الأوروبية ، تحت سمع وبصر وبصيرة الزمرة الأوروبية المتنورة ، التى وليت أمر وتبنت التفكير الجغرافى الصحيح . وأصبحت الرحلة الجغرافية رافداً من أهم وأعظم الروافد ، التى جاوبت تعطش التفكير الجغرافى الأوروبى للمعرفة الجغرافية ، وأطلعته على الرؤية الجغرافية فى أوسع مدى . وفى المقابل قدم التفكير الجغرافى الأوروبى المنفتح للرحلة الجغرافية ، الدعم والعون والامتنان .

وصحيح أن هذه الرحلة الجغرافية ، قد اتخذت الشكل المتطور للرحلة ، التى كان الجغرافى العربى المسلم قد تولى أمرها ، وهو من محترفى العمل الجغرافى والتفكير الجغرافى ، واعتبرناها ارهاصًا مبكراً ومبشراً ونذيراً بالتغيير . ولكن الصحيح أيضاً ، بل قل المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد طور هذه الرحلة الجغرافية . وما كان لهذه الرحلة الجغرافية أن تكون مجددة بالفعل ، إلا إذا تطورت التطور الحقيقى ، الذى جاوب ارادة توظيفها توظيفاً متخصصًا فى خدمة الهدف الجغرافى قبل أى شئ آخر .

ومن خلال كل العوامل والضوابط والمتغيرات ، التى جعلت من التفكير الجغرافى الأوروبى المتحرر ، وسيلة من أهم وسائل التفتح الأوروبى ، تجلى الهدف الجغرافى . ومن خلال كل العوامل والضوابط والمتغيرات ، التى جعلت من الرحلة وسيلة للانفتاح الأوروبى ، تولت الرحلة مسئولية هذا الهدف . ولا غرابة فى توافق مثمر ، بين التفتح والانفتاح . بل ولا غرابة فى أن يصبح الانفتاح فى خدمة التفتح ، وأن يكون التفتح فى عون الانفتاح .

وهكذا عرفت الرحلة الجغرافية – بكل الوضوح – أهدافها الحقيقية ، فى خدمة الانفتاح الأوروبى . بل وعرفت أيضاً كيف تنجح فى بلوغ الغاية ، التى تحقق وتخدم هذا الهدف . وقدر التفتح الأوروبى لها اجتهادها ونشاطها ، وامتدح توجهاتها الصحيحة المثمرة . بل ولم يبخل عليها ، فأعطاها لكى تعطيه وأحلها فى المكانة المرموقة ، لكى تحله أو تضعه فى أعظم مكانة .

ومن ثم انضمت هذه الرحلة الجغرافية من غير أى اعتراض ، أو من غير أى تحفظ إلى زمرة الرحلات الأوروبية المتنوعة . بل لقد شاركت – بكل النشاط والجسارة والخفة – الرحلات الأخرى ، وهى تتوجه نحو الهدف الجغرافى . ووجدت نفسها فى المقدمة تقود وتوجه وتصعد الاهتمام الأوروبى كله بالرحلات ، وتوجهاتها المجدية فى البر وفى البحر على حد سواء .

والرحلة الجغرافية التى خصصت ، وتخصصت فى العمل الجغرافى ، قد أخلصت فى أداء دورها الوظيفى . ولقد كانت أكثر من مخلصة فى خدمة الهدف الجغرافى ، قبل أن يظهر علم الجغرافية ويعرف مغزاه ومرماه ، وبعد أن ظهر وتوجه فى الاتجاه الصحيح . بل واشتد ساعد الرحلة الجغرافية ، وعملت بكل الأمانة والاخلاص والتفانى فى خدمة الهدف الجغرافى ، الذى تطور فى ركاب التغير والتحول ، من مغزى ومرمى علم الجغرافية الحديثة ، إلى مغزى ومرمى علم الجغرافية المعاصرة .

وعلى هذا الدرب الطويل اعتباراً من القرن السادس عشر ، عملت الرحلة الجغرافية . وقد جاوبت ارادة التغير ، فغطت الهدف الجغرافى من غير تحفظ ، أو من غير تخوف . ولقد تمثلت وظيفة هذه الرحلة فى مراحل متوالية ، هى :

١- **رحلة كشف جغرافى** ، عندما تطلب اماطة اللثام أو كشف النقاب عن المجهول من الأرض ، وحركة الحياة على الصعيد العالمى . ولا فرق فى الهدف ولا تميز فى الجدوى ، بين هذه الرحلة ، وهى تعمل فى هذه المهمة المنوطة بها ، فى القرن السادس عشر ، وتميط اللثام عن امريكا ، أو وهى تعمل فى هذه المهمة في القرن العشرين ، لكى تميط اللثام عن القارة الجنوبية (انتركتيكا) .

٢- **رحلة تفتح جغرافى** ، عندما تطلب دراسة الرؤية الجغرافية ، والتمعن فى أبعاد هذه الرؤية وما تنطوى عليه من ظاهرات جغرافية ، وما يمكن أن تنبئ به . ولا فرق فى الهدف ، ولا تميز فى الجدوى ، بين هذه الرحلة ، وهى تعمل فى هذه المهمة المنوطة بها فى القرن التاسع عشر ، لكى تنجز الشق العملى من بحث جغرافى ، فى اطار المفهوم العلمى الجغرافى ، أو وهى تعمل فى هذه المهمة فى الوقت الحاضر ، لحساب بحث جغرافى فى نفس الاطار .

٣- **رحلة دراسة ميدانية** ، عندما تسعف البحث الجغرافى المتخصص ، وتجاوب أو تؤمن له المادة العلمية الجغرافية الخام ، من ميدان البحث والدراسة . ودور هذه الرحلة فى خدمة هذه المهمة ، التى تكفلت بالبحث الجغرافى المتخصص ، لم يتجسد بالفعل ، إلا من بعد نضج علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الثانى من القرن التاسع . وما من شك فى أن دخول علم الجغرافية فى أحضان الدراسة الأكاديمية ، هو الذى أرسى قواعد هذه المهمة ، وحدد أصولها فى القرن العشرين .

٤- **رحلة مسح تطبيقى جغرافى** ، عندما تطلب وتنجح فى وضع الخبرة الجغرافية والعمل الجغرافى بكل ما تملكه الخبرة الجغرافية من مهارات ، وبكل ما يكفله العمل من تجارب فى خدمة

العمل العملى التطبيقى . ودور الرحلة فى شأن هذه المهمة ، التى تكفلت بالمسح الجغرافى الشامل فى الاقليم المعين ، هو الاستجابة الفورية للتحول ، من مفهوم الجغرافية الحديثة إلى مفاهيم الجغرافية المعاصرة . وما من شك فى أن هذا الانجاز الممتاز ، قد رشد ويرشد عمليات التنمية ، وبصر ويبصر فريق المخططين ، وسدد ويسدد الخطى فى مجال وضع برامج انمائية وتنفيذها ، فى أى اقليم تخطيطى.

* * *

وقبل أن نتابع دور الرحلة الجغرافية وتوظيفها المتخصص الهادف ، وكيف تطور هذا الدور ، وكيف استجاب ، وهو يتطور لحساب إرادة الاجتهاد الجغرافى اعتباراً من القرن السادس عشر الميلادى ، يجب أن نؤكد على أن انطلاق الرحلة الجغرافية ، سواء وهى متجردة من الغرض أو غير متجردة ، حدث عظيم من كل الوجوه . بل لقد اصطنع هذا الحدث العظيم ، أهم المتغيرات ونقط التحول التى تأثرت بها حركة الحياة على الصعيد العالى . وهو ننكر أن هذا الحدث العظيم ، من وراء كل اجتهاد أوروبى ، وكل تغير ، وكل انفتاح ، وكل تفتح ، انتفعت به أوروبا ، حضارياً ، واقتصادياً ، وسياسيًا ؟ . بل وهل ننكر أيضًا أن الانتفاع الأوروبى بهذا الحدث العظيم ، قد أثر فى كل نبض الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والحضارية ، وتداعياتها المباشرة وغير المباشرة فى أنحاء العالم ؟

ولقد أعفت الرحلة الجغرافية حقًا كل الرحلات المتنوعة الأخرى ، وهى تتفرغ للمهام المنوطة بها ، من عبء الاجتهاد الجغرافى وانطلاقاته المتحررة ، أو نزواته الشاردة . ولكن التخفف من هذا العبء ، لا يعنى أقل من تحرر أى رحلة تحرراً كاملاً من التحاق الاجتهاد الجغرافى بها . ولكن هذا التحرر لا يعنى أبداً التفريط فى حسن العلاقة مع الاجتهاد الجغرافى ، الذى بصرها ويبصرها على الطريق .

وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية منحت الاجتهاد الجغرافى استقلاله الحقيقى ، على الطريق ، لكى يتفرغ للعمل الجغرافى .

ومعناه أيضاً أن أعباء جديدة قد أضيفت على كاهل بعض الرحلات الأخرى ، بعد أن فتحت الرحلة الجغرافية أمامها أوسع الآفاق . وإذا بها رحلات تلتهب نشاطاً ، ويتسع مدى انتشارها ، وتزداد جدواها . وتبقى كل رحلة بعد ذلك كله ، فى حاجة إلى ترشيد الاجتهاد الجغرافى على الطريق . وكان الكشف الجغرافى يفتح الطريق ويحدد معالمه ، لكى تمضى كل الرحلات الأخرى ، إلى أهدافها الاقتصادية ، والعسكرية ، والدينية .

وما من شك فى أن نجاح الرحلة الجغرافية ، قد نشط معظم الرحلات المتخصصة الأخرى . وقد شحذ الحوافز التى وظفت وتخصصت بموجبها هذه الرحلات المتنوعة على الصعيد العالمى . وما من شك فى أن كل رحلة من هذه الرحلات المتخصصة والمتنوعة ، قد تشبثت بالاجتهاد الجغرافى لكى يبصرها - على أقل تقدير - على الطريق فى البر أو فى البحر ، وفى الذهاب وفى الاياب .

ومن غير أن تتنكر الرحلة الجغرافية لحاجة هذه الرحلات المتخصصة والمتنوعة ، توجهت الرحلة الجغرافية توجهاً صحيحاً وجهة الهدف أو العمل الجغرافى . ومضت الرحلة غير الجغرافية فى حال سبيلها ، تؤدى دورها الوظيفى المتخصص فى خدمة التجارة ، أو فى خدمة التبشير الحضارى والدينى ، أو فى خدمة الاستعمار ، وفى صحبتها الاجتهاد الجغرافى يهديها سواء السبيل .

وهذا معناه أن تكريس الرحلة الجغرافية المتخصصة لحساب العمل الجغرافى أو الهدف الجغرافى ، ليس من قبيل التمرد على صحبة الرحلات المتخصصة غير الجغرافية ، أو تنكر الاجتهاد الجغرافى لحقها فى الترشيد . بل هو نتيجة طبيعية تأسست على استشعار القيد ، الذى قيدت به كل رحلة متخصصة غير جغرافية فى الماضى ، ارادة الاجتهاد الجغرافى الملتحق بها ، أو تأسست على استخفاف بعض الرحلات المتخصصة غير الجغرافية ، بالهدف الجغرافى .

هذا ، ولكى تتوجه الرحلة الجغرافية وجهة العمل الجغرافى ،

وتتفرغ لأداء المهمة المنوطة بها ، وتخدم الانفتاح والتفتح الجغرافى ، على أوسع مدى فى أنحاء العالم ، كان المطلوب لها أن :

١- تجد الممول الثرى الطموح السخى ، الذى يعطى ويمول الرحلة الجغرافية من غير تردد ، ويجزل العطاء للاجتهاد الجغرافى فيها من غير حدود . ويا حبذا لو أدرك هذا الممول ، أن هذا التمويل يمثل استثماراً حقيقيًا ، يحقق العائد المرضى على المدى الطويل - واقتناع بعض ملوك وأمراء أوروبا أول الأمر ، وتقديم العون المادى المناسب ، قد أسعف الرحلة الجغرافية ، وهى تتوثب فى صباها . ولكن النجاح فى مهمة الرحلة الجغرافية ، وهو منقطع النظير ، قد ضم الأثرياء وهم من الهواة ، وأصحاب المصالح التجارة وهم منتفعون إلى زمرة الممولين . وتولت الجمعيات الجغرافية المنظمة ، هذه المهمة فى نهاية الأمر .

٢- تجد المغامر الجسور الذى يتحمل المسئولية الكاملة ، وينتفع بالخبرات السابقة ، لانجاح الرحلة الجغرافية فى أداء دورها الوظيفى المتخصص ، وأن يثق هذا المغامر فى أن انجاز الرحلة وبلوغ الغاية منها هو أهم عائد يرضيه . واقتناع بعض المغامرين أول الأمر وقبولهم باقتحام المخاطر اقتحامًا جسوراً لا يتهيب ، قد أسعف الرحلة الجغرافية ، وهى تتوثب فى شبابها . ولكن النجاح فى المهام التى انجزتها الرحلة الجغرافية ، فى المراحل الأولى المبكرة ، قد استهوت زمرة كبيرة من المغامرين ، واستقطب طلاب الشهرة والأمجاد ، الذين اصطنعوا من النجاح فى رحلة الكشف الجغرافى انتصاراً متألقاً .

٣- تجد القوة القادرة عسكرياً ، التى تجعل من الهيبة مظلة للأمن ، فتؤمن الرحلة الجغرافية من غير تردد ، أو من غير تخوف فى اتجاه الهدف الجغرافى ، وكان من الضرورى أن تدرك هذه القوة بكل ما تمتلك من هيبة وسلطان ، أن سلامة الرحلة وتأمينها يؤمن لها ، سياسيًا ، واقتصادياً ، العائد المجزى . واقتناع الحكومات من البدايات المبكرة بقيمة وجدوى هذا التأمين ، قد أسعف الرحلة الجغرافية ، وهى تتوثب فى بابها . ولكن النجاح الذى أحرزه النظام الرأسمالى ،

عندما حـل محل النظام الاقطاعى فى أوروبا ، قد حفز الحكومات لكى تكثف هـذا العون للرحلة الجـغرافـية ، من أجل مكاسب اقـتصـادية وسياسية .

***

ولأن الرحلة الجغرافية ، قد سارت على دروب النجاح والتوفيق ، فى البـر والبـحـر على السـواء ، ينبـغى أن ندرك كـيف أنهـا وجـدت واستثمرت التعاون المشترك بين ، الممول ، والمغامر ، والقوة ، لكى يتأتى هذا النجاح ، ولكى يجنى كل شريك حصته من ثمراتها المهمة .

ومن غير أن نهتم أو أن نكترث بالعائد المرضى، الذى حققته الرحلة الجغرافية ، وكيف اقتسمه شركاء المصلحة فيها ، يجب أن ندرك كيف :

١- توجهت الرحلة المتخصصة ، التى يقوم بها مغامر غير متخصص ، إلى الهدف الجغرافى ، وتفتحت شهية الاجتهاد الجغرافى من غير حدود .

٢- تفتق وتنامى الفكر الجغرافى ، ووضع قواعد علم الجغرافية ، وكيف تطورت توجهات الرحلة الجغرافية لحسابه ، وجاوبت ارادته .

هذا ، وينبغى أن نطرى نجاح الرحلة الجغرافية المتخصصة المبكر ، وهى تكشف النقاب عن المجهول من الأرض . كما يجب أن نمتدح التفكير الجغرافى ، ونثنى على اجتهاده المتفتح ، الذى انتفع بالرحلة وطور توظيفها ومعدلات نجاحها . وهل نشك فى أن هذا النجاح المبكر ، هو الذى رسخ وجودها ووثق تعاون الشركاء الثلاثة ، أصحاب المصلحة المشتركة فى سبيل دعمها ؟

كما ينبغى أن ندرك كيف تدخل النظام الرأسمالى فى شأن هذه الرحلة وتوظيفها المتخصص ، وكيف طوعها ووجهها وأملى عليها ، لكى يكفل التوازى والتوازن بين ما تبتغيه :

١- إرادة الفكر الجغرافى وتفتحه ، الذى اصطنعت فلسفة تجسد مغزى ومرمى علم الجغرافية .

٢- إرادة السياسة والاقتصاد ، اللذان يتداخلان تداخلاً متعاوناً ومتكاملاً ، فى بنية نظام الرأسمالى .

ولقد تأتى هذا التطوير الذى افتعله النظام الرأسمالى ، فى صورة من صور التطويع ، إلى الحد الذى وضع الرحلة الجغرافية فى خدمة إرادة النظام الرأسمالى ، وهو يعربد استعماراً واستيطاناً على الصعيد العالمى . وكان من شأن الفكر الجغرافى المتطور ، أن يجنى ثمرات العمل الجغرافى الجيد ، الذى أنجزته الرحلة ، وتفرغت له بكل الأمانة ، وهى تطاوع إرادة النظام الرأسمالى . ولم يعترض علم الجغرافية على ذلك ، إلا فى القرن العشرين حيث طلب تفرغ الرحلة الجغرافية ، وتجردها من كل هدف آخر ، غير الهدف الجغرافى .

ومن المفيد على كل حال - أن نتابع الرحلة الجغرافية ، فى كل مرحلة من مراحل تطور أدائها الوظيفى . وفى الوقت الذى ينبغى فيه حصر انجازات الرحلة الجغرافية ، وتقويم نجاحها فى خدمة الهدف الجغرافى ، يجب أن نتبين كيف تحولت الرحلة الجغرافية ، من رحلة متخصصة غير متجردة من الغرض الرأسمالى ، إلى رحلة متخصصة متجردة من كل غرض ، إلا الهدف العلمى الجغرافى .

الرحلة الجغرافية والكشف الجغرافى :

كان من الطبيعى أن توظف الرحلة الجغرافية فى فجر نشأتها وتخصيصها ، فى مسألة الكشف الجغرافى . وما من شك فى أن إرادة الفكر الجغرافى ، وإرادة حركة الحياة ، قد التقتا معاً عند هذا الهدف الجغرافى . وأصبح المطلوب من الرحلة الجغرافية ، اماطة اللثام عن المجهول من الأرض ، وتوسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، لكى تشمل العالم كله . ولقد امتثلت الرحلة الجغرافية لهذا الطلب ، وجاوبت هذه الارادة الملحة . وتبنى الاجتهاد الجغرافى فى الرحلة الجغرافية هذا الهدف ، وهو حريص على بلوغ الغاية لحساب المعرفة الجغرافية .

ومن غير أن نلتزم بسياق تاريخى رتيب ، عن مسألة الكشوف الجغرافية ، وتوظيف الرحلة لأداء هذه المهمة ، يجب أن نذكر بعض أهم

العوامل والدوافع والمتغيرات ، التي فجرت في ضمير أوروبا الحضارى ، إرادة هذا التوظيف الهادف . كما يجب أن نتبين كيف جاوب هذه الارادة وطاوعها اجتهاد جغرافي مستنير ، يرنو إلى هذا التوظيف ، ويحسب حساب جدواه .

ومن الجائز أن ندرك كيف اصطنعت النهضة الأوربية والتفتح الحضارى ، عوامل ومتغيرات كثيرة ، لعبت دوراً بارزاً في هذا التفجير . ولكن المؤكد فعلاً أن هذه الارادة الحضارية المتفتحة ، بكل ما انطوت عليه من وعى اقتصادى ، قد تطلعت بكل اللهفة إلى :

١- البحث عن طريق مناسب ، يكفل الوصول الأوروبى المباشر إلى مراكز انتاج وتصدير التوابل ومنتجات الشرق في جنوب شرق أسيا ، وعالم المحيط الهندى والعودة منها ، على النحو الذى يكفل ويؤمن الابحار ، لحساب أوروبا والانفتاح التجارى .

٢- التنصل من أعباء الوساطة العربية الإسلامية والتعامل معها ، والتخلص من قبضتها الحاكمة والمتحكمة ، في تجارة المرور بين عالم المحيط الهندى والشرق الأقصى من ناحية ، وعالم البحر المتوسط وأوروبا من ناحية أخرى .

٣- التيقن من جدوى ربحية رحلة التجارة ، لو انفتح أمامها الطريق المباشر للتعامل الحر والمتحرر من قبضة وارادة الوسيط ، ومن ابتزازه وفرض ارادته الاحتكارية ، وتوظيف مكانه وموقعه الجغرافي في دعم مكانته في حركة التجارة الدولية ، والتسلط الاحتكارى عليها .

ومن الجائز أيضاً أن نتصور كيف كان الاخفاق في الحروب الصليبية كفيلاً باستنفار هذه التطلعات ، استنفاراً من غير حدود . ومن ثم يمكن أن ندرك كيف اتخذت الارادة الحضارية الأوروبية المتفتحة ، من هذه التطلعات سبيلاً وحافزاً ، لكى ننتزع من حضيض هذا الاخفاق انتصاراً ، يشد أزرها في صراعها الحضارى ، والاقتصادى، والسياسى ، والعسكرى ، ضد الاسلام والمسلمين .

ولقد أفلحت هذه الارادة الحضارية الأوروبية المتفتحة ، في أن

تكسب إرادة الكنيسة وقوتها فى صفها ، وأن تدخل فى روعها جدوى التوافق ، بين هدف الكشوف الجغرافية من ناحية ، وهدف التحدى الصليبى للوجود الإسلامى من ناحية أخرى .

واجتماع مثير ومنطقى ، ضم إرادة أوروبا الحضارية ، وإرادة الكنيسة الأوروبية ، فى صف واحد وتوجه مشترك ، كان حافزاً من أهم وأخطر الحوافز ، التى كفلت توجه الرحلة الجغرافية، وألهبت حماسها ، وساندت دورها الوظيفى .

وهكذا كانت هذه الارادة المشتركة إرادة متوثبة وملتهبة ، وهى تحفز الاجتهاد الجغرافى ، أو وهى توظف الرحلة الجغرافية فى خدمة الكشوف الجغرافية الكبرى . وقبول الاجتهاد الجغرافى الاضطلاع بهذه المهمة ، والتجاوب معها ، هو الذى أطلق عنان الاستشعار الجغرافى الذكى الواعى ، الذى تلمس جدوى العلاقة بين الرحلة وتوظيفها فى الكشف الجغرافى. بل قل ما لبث أن صعد التوجه الأوروبى ، هذا التجاوب الوظيفى بشكل يثير الانتباه .

وهذا معناه – بكل تأكيد – أن الاجتهاد الجغرافى قد جاوب حاجة العصر ، وطاوع تطلعات الارادة الأوروبية المتفتحة اقتناعاً منه :

أولاً : بجدوى وفاعلية هذه الاستجابة ، التى توظف الرحلة الجغرافية فى خدمة الهدف الجغرافى .

ثانيًا : بجدوى وفاعلية هذا التوظيف ، فى انجاز وتجسيد هذه التطلعات فى خدمة التفتح الأوروبى .

ومن أجل التنفيذ أو التطبيق ، الذى وضع الاجتهاد الجغرافى المتوثب فى خدمة إرادة الضمير الحضارى الأوروبى ، ووضع الرحلة الجغرافية المتخصصة فى خدمة الكشف الجغرافى على الصعيد العالمى، تجمعت وتعاونت :

١– همة وجسارة وخبرة وأقدام المغامر المثابر، على القيام بالرحلة.

٢– سخاء وثقة وتطلعات الممول الثرى ، الذى أعطى ومول الرحلة وترقب تداعياتها .

٣- فاعلية وقوة الحكومة أو الحكومات ، التى هيأت الأمن على طريق الرحلة .

وصحيح أن اجتماع هؤلاء الشركاء الثلاثة ، فى شأن اخراج وتكليف الرحلة الجغرافية ، كان اجتماعاً ضرورياً . وصحيح أن الاجتهاد الجغرافى ، قد استثمر اجتماع وتعاون هذه الزمرة ، استثماراً مفيداً وناجحًا . ولكن الصحيح أيضاً أن يبقى السؤال ، الذى يستحق الاجابة من غير حرج ، وهو الذى يسأل عن نصيب ومصلحة كل شريك من هذه الزمرة ، فى مسألة توظيف الرحلة الجغرافية فى الكشف الجغرافى .

وفى اعتقاد أى باحث منصف ، أن الرجل المغامر الجسور يطلب المغامرة فى حد ذاتها ، لأنها ترضى طموحه الشخصى وتطلعاته ، وميله الذاتى للمغامرة . وقد لا يكترث هذا المغامر ، وهو يوظف خبرته بشئ أهم وأجدى ، من اشباع روح المغامرة وحب المخاطرة ، وتلمس أسباب البطولة الفذة ، فى انجاز العمل الجغرافى الخارق أو المثير . وهو لذلك على أتم الاستعداد دائماً لتوظيف مواهبه ، وبيع خبراته ومغامراته والعمل فى خدمة الرحلة الجغرافية ، وتحقيق أهدافها وهى تضرب فى المجهول ، لقاء الأجر المادى المعلوم، أو لقاء الثناء المعنوى المطلوب . ومن ثم يكون المغامر شريكاً بالخبرة المثابرة فى الرحلة الجغرافية . وله منها فى المقابل الشهرة والمجد ، واشباع الطموح الشخصى والكسب المادى .

وفى اعتقاد أى باحث منصف أيضًا ، أن الممول السخى يطلب توظيف ثرائه وسخائه ، لأنه يطلب العائد المجزى من تداعيات الرحلة . ولكنه لا يمكن أن يقدم التمويل ويوظف ماله لحساب الرحلة الجغرافية، وقد تجرد من الغرض أو الغاية ، كل التجرد . ومعنى ذلك السخاء عندئذ، هو أن هذا الممول لا يوظف المال من قبيل الكرم والجود ، أو من قبيل البذخ والتفريط ، ولا من قبيل الشهرة والزهو . ولكن المؤكد أنه يوظف هذا المال فى الرحلة الجغرافية ، من أجل مردود مرتقب ، أو عائد متوقع على المدى الطويل . ومن ثم يكون شريكًا بالمال فى الرحلة الجغرافية . وله منها المقابل الكسب المادى ، قبل الكسب المعنوى ، أو أى كسب من أى نوع آخر .

وفى اعتقاد أى باحث منصف أخيراً ، أن الدولة التى حققت الأمن للرحلة الجغرافية على الطريق ، لأنها تتحمل مسئولياتها ، كانت لا تعمل عملاً متجرداً من الغرض ، أو من الهدف . وتكون فاعلية هذه القوة شكلاً ايجابيًا ، من العمل المسئول من أجل مسئولية تتحمل أوزارها ، ولا ينبغى أن تتهرب منها ، أو من أجل عائد ومصالح ترنو إليها ، ولا ينبغى أن تخفى لهفتها عليها . وهذا معناه - أن اسهام الدولة واستعدادها ، وهى تسهر على سلامة وأمن الرحلة الجغرافية ، جزء من مسئولياتها أحياناً ، وجزء من حقها وتطلعاها إلى توسيع وترسيخ سلطانها من ناحية أخرى . ومن ثم تكون الحكومة شريكة بالدعم فى الرحلة الجغرافية . ولها منها فى المقابل المصلحة الاقتصادية ، والمكانة السياسية ، على أوسع مدى .

ومن ثم يجب أن ندرك فى شأن تقويم أنصبة هؤلاء الشركاء الثلاثة فى توظيف الرحلة الجغرافية ، أن المصالح متنوعة ، وأن توجهات هذه المصالح المتنوعة توجهات غير متجردة . بل ربما كان الهدف الجغرافى - فى حد ذاته - هدفاً غير متجرد من الغرض . ولكى نتبين ما نعنيه بالضبط بعدم التجرد من الغرض ، يجب أن ندرك :

١- كيف كان الممول الثرى ، الذى أعطى الرحلة بسخاء ، وأجزل العطاء للمغامر ، صاحب مصلحة مادية مباشرة . وهو من غير شك لا يطلب أكثر من الربح والعائد الحقيقى المرتقب . وكأن المال الذى قدمه بكل الرضا كان استثماراً موظفًا فى الرحلة ، ولا ينبغى أن يضيع هدراً . ولقد كان هذا الممول أكثر الشركاء الثلاثة تحمساً للرحلة ، وقلقاً عليها ، وأكثرهم مصلحة فى قيام الرحلة بالمهمة المنوطة بها ، وأكثرهم الحاحاً على جنى ثمرات توظيفها فى الكشف الجغرافى ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

٢- كيف كانت الدولة العين الساهرة ، على سلامة وأمن الرحلة فى الغدو والرواح ، غير مبرئه من المصلحة المادية المباشرة أو غير المباشرة . وهى - من غير شك - تطلب بسط نفوذها ودعم هيبتها

ومكانتها . وكأن الأمن الذى قدمته الدولة بكل الاعتزاز ، كان عربوناً تستثمر بموجبه الرحلة الجغرافية . ولقد كانت الدولة لا تخفى اهتمامها ، ولا تنكر الحاحها على استثمار الرحلة الجغرافية . بل ربما كانت أقوى الشركاء الثلاثة ، على تطويع ثمرات هذه الرحلة والانتفاع بها ، على المدى الطويل بشكل أو بآخر .

٣- كيف كان المغامر الجسور ، الذى قام بالرحلات فعلاً ، وسخر خبراته ، لكى تبلغ الغاية المرجوة ، أقل الشركاء مصلحة فى ثمرات الرحلة الجغرافية . وهو من غير شك لا يطلب أكثر ، من الأجر العاجل، والذكر الحسن . وكان الخبرة والمهارة والمغامرة التى أقدم عليها ، كانت لا تستحق أكثر من ذلك . ويمكن أن نذكر أن الدولة والممول معاً ، قد لعبا دوراً مشتركاً ، ليس فى شأن ابتزاز اجتهاد وخبرة هذا المغامر فقط ، بل وفى توظيف وتسخير خبراته تسخيراً غير متجرد من الغرض السئ .

وكأن مسألة الكشف الجغرافى ، وهو الهدف الأصلى ، التى خرجت من أجله الرحلة الجغرافية المتخصصة ، كانت وسيلة لغاية مادية غير متجردة ، لوثت هذا الهدف الجغرافى . ويستوى فى ذلك أن تكون الغاية ، هى حيازة أرض ، وامتلاك حق السيطرة عليها ، لحساب الدولة التى لم تخفى نهم سلطانها الاستعمارى العدوانى ، أو أن تكون الغاية هى حيازة فرص أوسع لحركة تجارة أكثر مرونة وربحية لحساب الاستثمار ، الذى لا يخفى ولا يتكتم نهمه وجشعه واحتكاره العدوانى . وهل لا تكفى غاية من هاتين الغايتين ، لكى تلوث الهدف الجغرافى ، وتجعل الرحلة الجغرافية فى خدمة هذه الأهداف غير المعلنة ، رحلة غير متجردة ؟

وهكذا ينبغى أن نفطن فى ضوء تقويم مصالح هؤلاء الشركاء الثلاثة فى أداء هذه الرحلة ، التى وظفت بالفعل فى الكشف الجغرافى وتوقعاتهم ، أن هذا التوظيف كان توظيفاً غير متجرد . والتوظيف غير المتجرد ، لا يمكن أن يكون لحساب الهدف الجغرافى المتجرد ، أو أن

يكون لحساب العمل الجغرافى المجرد ، فى هذه المرحلة التى شهدت مولد ونشاط ، الرحلة الجغرافية المتخصصة ، هل يدعو عدم تجرد الهدف الجغرافى ، إلى التشكك فى حسن نوايا الاجتهاد الجغرافى الحقيقية ؟

وربما خطط الشركاء الثلاثة أصحاب المصلحة فى هذه الرحلة ، لكى تخرج هذه الرحلة الجغرافية ، من غير اعلان عن النوايا والأغراض الحقيقة . ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى الرشيد المتجرد ، كان غائباً أو كان غير متفرع ، ولم يشترك اشتراكًا فعلياً فى وضع هذا المخطط . والغياب أو عدم التفرع – فى مثل هذه الحالة – ليس علامة من علامات التفريط ، أو عدم الاكتراث بأمر الرحلة الجغرافية ، وتوجهها لحساب الهدف الجغرافى أبداً . بل قل انه علامة على أن الاجتهاد الجغرافى لم يكن قد بلغ رشده بعد . وكيف يبلغ رشده والفكر الجغرافى الأوروبى الحديث غير ناضج ، وقد كان فى مهده وليداً هشاً ؟

وعدم تفرغ الاجتهاد الجغرافى الأوروبى أو غيابه ، لأنه كان عاكفاً على استيعاب حصاد الفكر الجغرافى فى المرحلة السابق ، قد لا يعنيه أمر الانضمام إلى زمرة الشركاء أصحاب المصلحة فى الرحلة الجغرافية. ولكن المؤكد أن تفريط الشركاء فى هذا الاجتهاد ، لا يعفيهم من مسئولية غيابه ، ولا يبرئهم من شبهة استبعاده ، ولا ينجيهم من تهمة تلويث وتطويع الهدف الجغرافى لمصالح غير جغرافية .

ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى ، وهو الأمين على الهدف الجغرافى ، قد أعفى نفسه من ابداء الرأى ، أو فرض الارادة فى شأن الرحلة الجغرافية ، وقيمة الهدف الجغرافى. وما من شك فى أنه قد طاوع الرأى، الذى اتفق عليه الشركاء ، ولم يملك من أمره شيئًا . وهذا معناه أن نشأة وخروج الرحلة الجغرافية الخروج غير المتجرد ، الذى لوث الهدف الجغرافى ، لم يتم فى الغالب فى غيبة الاجتهاد الجغرافى . بل قل تم ذلك كله فى اطار غفلته .

وقد يبدو الغياب عذراً مقبولاً ، لكن الغفلة تبدو عذراً غير مقبول . وعدم نضج الاجتهاد الجغرافى النضج الفكرى الكامل ، هو الذى يجسد

معنى الغفلة ، وكيف أنه لم يملك القدرة على الدفاع عن الهدف الجغرافى (١) . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى كان حاضراً ، ولكنه لم يملك من أمره شيئًا . وهل يمكن أن نتصور رحلة جغرافية ، وقد افتقدت فى الذهاب والاياب ترشيد الاجتهاد الجغرافى ، وهو جزء من الأمن الذى تطلبه على الطريق ؟

ومن الطبيعى أن نتصور عندئذ ، كيف اجتمع الشركاء حول مصلحة مشتركة فى الرحلة الجغرافية ، وكيف تفاوتت فى شأنها الأنصبة والأهداف غير المعلنة . كما يجب أن ندرك كيف وظفت هذه المصلحة المشتركة ، الرحلة الجغرافية فى عمليات الكشف الجغرافى ، وكيف وظفت الاجتهاد الجغرافى فى ترشد الرحلة على الطريق .

ومن ثم كانت نشأة هذه الرحلة الجغرافية المتخصصة ، التى استغرقت فى عدم التجرد نشأة فريدة بالفعل . بل لقد كانت هذه الرحلة ، وهى تضرب فى المجهول براً أو بحراً ، تعرف بالضبط ماذا تريد. ولكنها فى الواقع كانت لا تعرف لماذا تريد . بمعنى أنها كانت فى البداية تعرف جيداً ماذا تريد من الرحلة ، وهى تكشف النقاب عن المجهول ، ولقد أفلحت فى انجاز هذه المهمة . ولكنها فى نفس الوقت لم تكن تعرف لماذا تريد هذا الذى تطلبه وتحققه على الصعيد العالمى . بمعنى أن تعرف الرحلة ماذا تريد ، ولكنها لا تعرف بالفعل لماذا تريد .

وهكذا كانت الرحلة الجغرافية فى مستهل وجودها مثيرة إلى أبعد الحدود ، لأنها تحكى المغامرة وتواجه المخاطر . ومع ذلك كانت الرحلة الجغرافية موفقة . وتمثل هذا التوفيق فى تحقيق هدفين متكاملين . وهذان الهدفان المتكاملان هما :

---

(١) فى هذه المرحلة واعتباراً من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، كان الاجتهاد الجغرافى الذى تبنى مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح فى وضع لم يفرغ فيه بعد من تحديد معالم الطريق ، أو صياغة القواعد التى تحدد الاطار العلمى للجغرافية . (الشامى : الفكر الجغرافى) .

١- هدف جغرافى مباشر ومعلن على الملأ ، لحساب الرصيد الجغرافى ومصلحة الانسان فيه .

٢- هدف غير جغرافى وغير معلن على الملأ ، لحساب الوجود الأوروبى ومصلحة رأس المال فيه .

وعن **الهدف الجغرافى** ، نذكر أنه قد تمثل فى الكشف عن المجهول من اليابس والماء ، أو فى توسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، لكى تغطى العالم كله . ويخدم هذا الهدف المعلن على الملأ العمل الجغرافى ، ويلبى تطلع الاجتهاد الجغرافى لاستكمال ووضوح معرفته بالأرض . بل قل أسهمت هذه الكشوف الجغرافية فى تأييد توجهات الجغرافية العالمية ، وفى ترسيخ صدق القول بوحدة الأرض ، ووحدة مصالح الناس ، ومصيرهم على الأرض . بمعنى أن انجاز هذا الهدف الجغرافى العظيم ، هو الذى جسد الانفتاح الجغرافى تجسيداً فعلياً وفعالاً ، لحساب التفتح الجغرافى ، وتأمين ومسيرة التفكير الجغرافى الرشيد .

وعن الهدف **غير الجغرافى** ، نذكر أنه قد تمثل فى انفتاح وتطوير وترسيخ حركة التجارة الدولية . وفى أخذ أوروبا بناصية وزمام الريادة والقيادة والتفوق فى شأن هذه الحركة ومصالح العالم فيها . ولقد أباح هذا الهدف غير الجغرافى للاستثمار الأوروبى ، أن يجنى أرباحاً ، وأن يزداد ثراء ، وأن يمتلك قوة ضغط جبارة ، وأن يتسلط على مصالح وإرادة ومصير حركة الحياة فى العالم . ولقد تمادى هذا التسلط ، حتى تمثل فى حيازة الأرض وممارسة أشكال الاستعمار ، واغتصاب الحق بغير حق من صاحب الحق . بمعنى أن هذا هو الهدف [١] ، الذى جسد الانفتاح الأوروبى الحضارى ، والاقتصادى ، والسياسى ، لحساب التسلط والهيمنة على العالم .

وغريب وطريف ، بل قل ومثير فى وقت واحد أمر الرحلة

---

(١) أسهم هذا الهدف فى صياغة وتطوير النظام الراسمالى (الشامى : دراسات فى الجغرافية السياسية ص١٧١ - ٢٣٢) القاهرة سنة ١٩٨٢ .

الجغرافية المتخصصة فى هذه المرحلة ، التى كفلت التوازى ، بين الانفتاح الجغرافى وغايته العلمية العالمية من ناحية ، والانفتاح الحضارى الأوروبى وغايته التسلطية العالمية من ناحية أخرى . ولقد تمادى هذا التوازى إلى حد مثير ، أصبح فيه الانفتاح الجغرافى صنيعة ومطية ، ورأس جسر الانفتاح الحضارى الأوروبى . وهل هناك من ينكر أن الانفتاح الجغرافى ، قد مهد الطريق لحساب الانفتاح الحضارى ، الأوروبى ، والاستعمارى ، وهو يتسلل ، أو وهو يقتحم ، أو وهو يستوطن فى أنحاء متفرقة من الأرض ؟

* * *

الرحلة الجغرافية والانفتاح الجغرافى :

ورحلتان من هذه الرحلات الجغرافية مشهورتان ، تسجلان نشأة وبداية وتوجه ناجح بالفعل إلى الهدف الجغرافى . وتتربع هاتان الرحلتان الخارقتان على قمة الانجاز الناجح فى بداية هذه المرحلة ، التى سجلت توظيف الرحلة الجغرافية فى خدمة الفكر الجغرافى ، وتطويع الكشف الجغرافى لحساب الأهداف غير الجغرافية لحساب مصالح أوروبا الحضارية ، والاقتصادية ، والسياسية ، ولحساب الأهداف الجغرافية لحساب المعرفة الجغرافية فى جانب أخر .

وفى نهاية مرحلة من محاولات متعددة أثناء القرن الخامس عشر الميلادى ، تعثرت فيها الرحلة الجغرافية أحياناً ، وأخفقت احياناً أخرى ، نجحت الرحلة الجغرافية . ولقد سجلت هاتان الرحلتان المتزامنتان الاقتحام الجسور فى المحيط الأطلنطى . وما من شك فى أنها كانت البداية ، التى حررت إرادة الانفتاح الأوروبى على العالم . بل قل أنها كانت البداية التى حققت الانفتاح الجغرافى والأوروبى على العالم . وهل يمكن أن بعد ذلك أن نتشكك فى مدى العلاقة ، بين الانفتاح الجغرافى ، والانفتاح الأوروبى ، على العالم ؟

ومن غير التزام بسياق تاريخى رتيب ، يحكى عن مسيرة الأحداث، كانت الرحلة الجغرافية الأولى ، تحاول اقتحام المحيط

الأطلنطى على المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب . وانبرت الرحلة الثانية لاقتحام أكثر جسارة ، يخترق المحيط الأطلنطى ، على المحور العرضى ، من الشرق إلى الغرب . ومن وراء الشركاء الثلاثة الذين أخرجوا هاتين الرحلتين الجغرافيتين ، كان التفوق الحضارى اللاتينى فى جنوب أوروبا .

هذا ، ولقد تمثلت هذه التجربة الجغرافية الموفقة والمثيرة ، على جبهة المحيط الأطلنطى فى :

١- رحلة الدوران حلول أفريقية ، واكتشاف مدى امتداد الأرض الأفريقية جنوب خط الاستواء ، عند رأس الرجاء الصالح .

٢- رحلة اقتحام المحيط الأطلنطى اقتحاماً مثيراً فى اتجاه الغرب ، على أمل الوصول ، إلى جنوب شرق أسيا وجزر الهند الشرقية .

وقاد الرحالة المغامر فاسكودجاما رحلته الجغرافية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ونجح داجاما مع نجاح هذه الرحلة البحرية ، وهى تتقدم جنوباً بحذاء الساحل الأفريقى . وبلغت الرحلة ذروة التوفيق لدى تجاوز رأس الرجاء الصالح (١) . وكان من شأن هذا التوفيق أن أمسكت الرحلة الجغرافية البحرية عندئذ ، بزمام الاقتحام والابحار الجسور فى المحيط الهندى . ومن ثم كان الانفتاح من غير حدود ، بين الغرب والشرق ، على قنوات اتصال بحرية جديدة .

وقاد الرحالة المغامر كولومبس رحلته الجغرافية الأكثر اثارة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ونجح كولومبس مع نجاح هذه الرحلة البحرية ، وهى تضع العلامات على الطريق الأنسب إلى الأرض الجديدة . وبلغت هذه الرحلة ذروة التوفيق لدى اكتشاف هذه الأرض الجديدة (أمريكا) . وكان من شأن هذا التوفيق أن أمسكت الرحلة الجغرافية البحرية عندئذ ، بزمام الاختراق الجسور فى المحيط

---

(١) اكتشف باثيلوميو دباز رأس الرجاء الصالح فى رحلته سنة ١٤٨٧ (راجع الجوهر ، يسرى : المرجع السابق ص١٥٩ - ١٦٤) .

الأطلنطى . ومن ثم كان الانفتاح من غير حدود ، بين أوروبا وأمريكا على قنوات اتصال بحرية .

وهذا النجاح معناه أن هاتين الرحلتين الجغرافيتين الرائدتين فى سنة ١٤٩٣ ، سنة ١٤٩٧ ميلادية ، قد اشتركتا معاً فى تجسيد ملامح الرحلة الجغرافية وترسيخ أدائها . كما اضطلعت بخدمة الأهداف غير المعلنة ، التى غامرت من أجلها ، كما أراد لها الانفتاح الأوروبى أن تكون . ولقد وضعت هاتان الرحلتان الجغرافيتان أوروبا بأسرها ، فى وضع الاستعداد الفعلى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، لممارسة التغيير واستيعابه ، والمضى على طريق هذا التغيير حضارياً ، وسياسياً ، واقتصادياً .

وهذا معناه أن محصلة الانجاز الناجح الذى أسفرت عنه الرحلة الجغرافية قد أطلق عنان التغيير . وتمثل هذا التغيير أصلاً فى :

١- هجرة وانتقال مراكز التجارة ، من مواقعها فى عالم البحر المتوسط ، إلى مواقع جديدة فى عالم غرب أوروبا . وصحيح أن هذه الهجرة لم تحدث فى يوم وليلة . وصحيح أيضاً أنها تمثل الاستجابة الفورية للانفتاح الأوروبى على المحيط الأطلنطى وللسيادة الأوروبية ، على حركة الملاحة البحرية المنتظمة فيه . ولكن المؤكد أن تحرك مراكز التجارة إلى مواقعها الجديد ، قد تم واكتمل فى حوالى منتصف القرن السابع عشر . وكان من الطبيعى أن تعيش أوروبا أبعاد هذا التحرك ، وما ينطوى عليه من تحول ، لكى تجنى ثمرات أخطر تغيرات فى شأن توزيع جغرافى مستجد ، وهو يحتوى مراكز الثقل الاقتصادية ، ومراكز الثقل السياسية ، ومراكز الثقل الحضارية ، على الصعيد الأوروبى . ولقد اصطنع هذا التغيير ، كل المتغيرات التى وجهت ، أو رشدت ، أو قادت حركة الاقتصاد وحركة السياسة ، فى تاريخ أوروبا الحديث على الصعيد الأوروبى من ناحية، وفى نشاط وانجازات الانفتاح الأوروبى فيما وراء البحار على الصعيد العالمى من ناحية أخرى .

٢- هجرة وتدفق الخروج الأوروبى ، إلى أنحاء متفرقة من العالم

الجديد ، ونشأة حضور أوروبى مغترب ، نشيط فيما وراء البحار . وكان هذا الحضور الأوروبى المغترب فيما وراء البحار ، على صعيد الأرض فى العالم الجديد ، حضوراً يقظاً ومتوثباً ، حضارياً ، وسياسياً، واقتصادياً . وفى بعض الأنحاء تحول هذا الحضور الأوروبى اليقظ ، إلى استيطان وأفلح فى حيازة الأرض . وفى بعض المواقع المنتخبة والموانى المنتقاة ، تحول هذا الحضور الأوروبى المتوثب إلى سلطة وقوة، وأفلح فى وضع وتنفيذ استراتيچية تأمين الملاحة ، والتسلط الأوروبى على حركة التجارة الدولية . وهذا معناه أن أصبح هذا الحضور الأوروبى المغترب حضوراً متلهفاً ، على انتظام الرحلات المتنوعة من وإلى أوروبا. واصطنع هذا الحضور الاستيطان المغترب قاعدة عريضة وصلبة ، لانتشار أوروبى استعمارى حضارى ، واقتصادى ، وسياسى ، على أوسع مدى فى العالم .

هذا وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، الذى انهمك – فى هذه المرحلة – فى مسألة استيعاب وتطوير الفكر الجغرافى وصياغة القواعد والأصول والاطار ، الذى يجعل منه علماً بالفعل ، قد انتبه إلى قيمة أو جدوى انجازات الرحلة الجغرافية انتباهاً شديداً . وكان من شأن هذا الانتباه أن يهز الاجتهاد الجغرافى ، وأن تؤثر فى مسيرة الفكر الجغرافى ، هذه التغيرات التى أفضت إليها الرحلة الجغرافية ، على الصعيدين الأوروبى والعالمى .

ولقد تلهف هذا الانتباه بكل الوعى ، ليس من أجل استيعاب الرؤية الجغرافية ، والكشوف الجغرافية ، التى أماطت الرحلة الجغرافية اللثام عنها فقط . بل من أجل التمادى فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية وتوجيهها لحساب العمل الجغرافى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، قد استحسن هذا التوظيف ، واستشعر جدواه ، ولكنه طلب التوظيف الأفضل لحساب العمل الجغرافى . بل لقد طلب بالفعل وضع وتوظيف الانفتاح الجغرافى ، الذى كفلته الرحلة الجغرافية ، فى خدمة التفتح الجغرافى .

وهكذا استحدثت الرحلة الجغرافية أهم النتائج المباشرة وغير المباشرة ، التى اصطنعت فى أوروبا مناخاً مبشراً بثورات التغيير . وفى نفس الوقت الذى انهمكت فيه أوروبا على تعديل وتطوير أوضاعها ، وهى تتوقع وتترقب وتصطنع التغيير الحضارى ، والسياسى ، والاقتصادى ، عكف الاجتهاد الجغرافى على تصعيد وتنشيط اهتماماته بالرحلة الجغرافية . بمعنى أنه طلب الاسهام المباشر فى الاهتمام بأمر الرحلة الجغرافية ، لكيلا يكون توظيفها فى غيبته ، أو فى غفلة منه ، أو لكيلا يكون أداتها على غير إرادته .

ولقد انضم أصحاب الخبرة الجغرافية عندئذ ، إلى أصحاب المصلحة فى توظيف الرحلة الجغرافية . وصحيح أن انضمام هذا الشريك قد أسفر عن جهد متواضع ، إلى حد كبير فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية . ولكن الصحيح أيضاً أنه قد بذل جهداً عظيماً فى شأن تنفيذ هذا التوظيف . وهذا معناه أن المصلحة التى جمعت الشركاء ، من أجل توظيف واستثمار الرحلة الجغرافية ، لم تستنفد أغراضها بعد . وهى وإن كانت قد ضمت إليها الاجتهاد الجغرافى ، إلا أنها لم تطلق أيدى الخبرة الجغرافية ، لكى تملى وتفرض ارادتها فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية ، لحساب العمل الجغرافى .

وطلب الاجتهاد الجغرافى الاسهام فى الاهتمام بأمر الرحلة الجغرافية ، لا ينبغى أن يصور شكلاً من اشكال التمرد ، على شركاء المصلحة فى توظيف الرحلة . وكيف يكون التمرد ، والاجتهاد الجغرافى يدرك مدى الحاجة إلى دور كل شريك ، فى شأن تنظيم وتمويل وتأمين الرحلة الجغرافية ؟

ولكى تمضى الرحلة الجغرافية فى أداء دورها الوظيفى ، وأصل التجار الأثرياء أصحاب المصلحة المباشرة فى التجارة الدولية ، تمويل الرحلة الجغرافية التى لم تستنفد أغراضها من وجهة نظرهم بعد . وكان هؤلاء التجار على يقين كامل بأن الرحلة الجغرافية وانجازاتها المباشرة ، هى التى تطلق يد البحرية التجارية الأوروبية ، وتشد أزرها على الصعيد العالمى .

وصحيح أن ثراء التجار أصحاب كل المصلحة المادية فى الرحلة البحرية ، قد كفل ومول التحسينات ، التى أدخلت على بناء وتجهيز السفن الأفضل ، وعلى تصنيع البوصلة ، وعلى وسائل التعرف على اتجاه وسرعة الريح وحسن تسخيرها ، قد أسهم فى انجاح الرحلة فى البحر ، وشد أزر دورها الوظيفى . وصحيح أن الرحلة الجغرافية قد انتفعت بهذه التحسينات المفيدة ، وهى تطاوع ارادة المنتفعين بها ، وتفتح الآفاق أمام البحرية التجارية . ولكن المؤكد أن ثراء التجار قد مول ونشط رسم الخرائط ، التى أمنت تحرك الرحلة من وجهة نظر أصحاب المصلحة فى أى رحلة ، وأرضت الاجتهاد الجغرافى من وجهة نظر البحث ، عما يجسد ويحدد اطار التوسع فى دائرة المعرفة الجغرافية .

ولكى تمضى الرحلة الجغرافية فى أداء دورها الوظيفى ، سجلت الدول أصحاب المصلحة المباشرة فى الانتشار الاستعمارى ، أعظم دعم يؤمن الرحلة الجغرافية ، التى لم تستنفد أغراضها من وجهة نظرهم بعد . وكانت هذه الدول على يقين كامل ، بأن الرحلة الجغرافية وانجازاتها المباشرة ، هى التى تبنى وترسخ رأس الجسر للتوسع الاستعمارى ، فى كل أرض على الصعيد العالمى ، وتسعف انتصاره وهيمنته فى المستعمرات . وصحيح أن هذه الدول قد كفلت الاستعمار الاستراتيجى ، وأحسنت توظيفه من أجل حماية وتأمين وانجاح الرحلة فى البر أو فى البحر ، وشد أزرها وهى تؤدى دورها الوظيفى . وصحيح أن الرحلة الجغرافية قد انتفعت بهذه الانجازات ، وهى تطاوع إرادة المنتفعين بها ، وتفتح الآفاق أمام الاستعمار . ولكن المؤكد أن أقدام الدول على استباحة الأرض لحساب الاستعمار ، والاستيطان فى أنحاء متفرقة من الأرض الجديدة ، قد أطلق يد الرحلة الجغرافية فى هذه الأرض ، وأتاح للاجتهاد الجغرافى من وجهة نظر البحث ، الفرص للعمل الجغرافى على الصعيد العالمى ، واستشعر مدى التنوع بين أقاليم الأرض .

وهكذا يمكن أن نتبين أنه لم يكن فى وسع الاجتهاد الجغرافى أن

ينفرد فى شأن الرحلة الجغرافية ، أو أن يعترض على دور كل شريك وصاحب مصلحة فيها ، أو أن يستغنى عن اسهام أى شريك . بل كان عليه أن يطاوع هؤلاء الشركاء ، وأن يبقى على قوة الدفع التى افتعلها الشركاء ، لتنشيط الرحلة الجغرافية . وهل لا يكفيه أن تنتظم الرحلة الجغرافية ، وأن يعمل فى مثابرة لاستثمارها ؟ .

ولقد انبرى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، سواء تمثل فى أصحاب الهواية ، أو فى أصحاب الاحتراف ، لاستثمار الرحلة الجغرافية . وتمثل هذا الاستثمار فى جمع أوصال المعرفة الجغرافية وتصنيفها . كما تمثل أيضاً فى التمعن فى الرؤية الجغرافية وتمحيصها . وسواء اعتمد هذا الاستثمار على حسن استخدام الحس الجغرافى الفطرى ، أو على حسن استخدام خبرته المدربة ، فلقد أدرك هذا الاجتهاد الجغرافى ، أبعاد هذه الرؤية الجغرافية وما تنبئ به .

وكانت التقارير أو الكتابة الجغرافية ، التى أعدها هذا الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، تمثل تصويراً صحيحاً ، أو توصيفاً جيداً ، يحكى عن الواقع الجغرافى الطبيعى أو البشرى ، أو عن الأرض ونبض الحياة فيها . ولم تنزلق هذه الكتابة الجغرافية إلى سرد أو خلط ، يجمع بين الصدق والكذب ، أو لا يميز من الحقيقة والضلال . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد بصرته الرحلة الجغرافية ، ورشدت الكتابة الجغرافية . ومعناه أيضاً أنه امتلك القدرة على الكتابة بأمانة ، ولم يبادر إلى خطيئة خلط أو تهويل ، يلوث الرؤية الجغرافية، أو يضلل حسن التعبير عنها .

ويبدو بعد ذلك كله ، المدى الذى استشرت فيه عوامل التغيير ، فى شأن الواقع الاقتصادى الأوروبى وبنيته ومفاهيمه من ناحية ، والمدى الذى أسفرت عنه عوامل التغيير فى الواقع السياسى الأوروبى وفلسفته ومفاهيمه من ناحية أخرى . وما من شك فى أن محصلة هذا التغيير ، هى التى استوجبت تشبث أوروبا ، بكل أسباب ودواعى المضى فى هذا التغيير بكل ما انطوى عليه من تطلعات . وكان ذلك التشبث من وراء

كل الحوافز ، التى استنفرت همة المغامر لكى يباشر الرحلة ، وسخاء الممول لكى يمعن فى التمويل ، وقوة الدول ووضعها بكل التنسيق وراء الرحلة الجغرافية ، لكى تواصل استثمار تداعياتها .

وهذا انفتح الباب على مصراعيه ، وخرجت رحلات جغرافية كثيرة وعملت لحساب كشوف جغرافية كبرى . ومن وراء هذه الرحلات الجغرافية ونجاحها الخارق ، انطلقت الرحلات الأوروبية المتنوعة . وكانت هذه الرحلات المتنوعة هادفة ، وهى تجنى ثمرات الكشوف الجغرافية ، وتعمل لحساب حركة التجارة الدولية والسيطرة عليها ، أو تعمل لحساب السياسة والقوة الأوروبية ومباشرة الاستعمار فيما وراء البحار ، أو تعمل لحساب استيطان وتأمين الحضور الأوروبى المغترب فى المهجر ، على الصعيد العالمى .

الانفتاح الجغرافى ومنافسات الرحلة الجغرافية :

نجاح الرحلة الجغرافية التى دارت من حول أفريقية ، وتخطت رأس الرجاء الصالح ، وجه الانفتاح الأوروبى بكل الاهتمام والتطلع على جبهة المشرق (١) . واقتحام المحيط الهندى فى القرن السادس عشر ، والتفوق على الحضور العربى المغترب فى عالم المحيط الهندى ، قد وضع التوجه الأوروبى على الطريق الصحيح . ومن ثم انفتح الباب على مصراعيه ، لكى يحقق الانفتاح الأوروبى تطلعاته اقتصادياً ، وسياسياً، وحضارياً .

ولقد توالت رحلات برتغالية ، وهولندية ، وفرنسية ، وانجليزية ، جسدت هذا الانفتاح وتطلعاته ، فى المحيط الهندى . وتولت الرحلات الجغرافية أمر الكشف الجغرافى والانفتاح الجغرافى . وتولت الرحلات الأخرى غير الجغرافية أمر التعامل العسكرى ، مع الحضور العربى المغترب ، فى عالم المحيط الهندى وسحقه من ناحية ، وأمر الانفتاح على عالم المحيط الهندى واقتصادياته من ناحية أخرى . ولم يكف هذا

---

(١) الصقار ، فؤاد محمد : جغرافية التجارة الدولية ص١٩ الاسكندرية ١٩٧٣ .

وضع الانفتاح عن العلامات ، التى تبصر الانتشار والعدوان أو السيطرة الأوروبية .

وقادت هذه العلامات رحلات جغرافية ، ورحلات غير جغرافية ، إلى جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى . كما أطلقت يد الرحلات الجغرافية فى شأن البحث عن الأرض الجنوبية واماطة اللثام عنها . وما من شك فى أن انتشار الرحلة الجغرافية ، والرحلة غير الجغرافية ، التى تتعقبها وتجنى ثمرة نجاحها ، قد وضع الانفتاح الأوروبى على أهبة الاستعداد للتردى ، فى خطيئة المنافسة الاستعمارية،والصراع الدامى بين الدول الأوروبية .

ونجاح الرحلة الجغرافية الأخرى ، التى اقتحمت المحيط الأطلنطى ، ووصلت إلى الأرض الجديدة ، وجه الانفتاح الأوروبى بكل الاهتمام والتطلع على جبهة الغرب (١) . وعبور المحيط الأطلنطى فى القرن السادس عشر الميلادى ، وحيازة الأرض الجديدة الأمريكية ، قد وضع علامات التوجه الأوروبى على الطريق الصحيح . ومن ثم انفتح الباب على مصراعيه ، لكى يحقق الانفتاح الأوروبى تطلعاته ، حيث كان الاستيطان فى الأرض الجديدة على أوسع مدى .

ولقد توالت رحلات أسبانية ، وبرتغالية ، وهولندية ، وانجليزية ، وفرنسية . وجسدت بالفعل هذا الانفتاح الأوروبى ، فى أنحاء الأرض الأمريكية . وتولت رحلات جغرافية أمر الكشف الجغرافى والانفتاح الجغرافى . وتولت رحلات أخرى غير جغرافية ، أمر استيطان العناصر الأوروبية ، وحيازة الأرض ، وسحق مقاومة الهنود الحمر من ناحية ، وأمر التعامل الأوروبى مع هذه الأرض الجديدة من ناحية أخرى . ولم يكف هذا الانفتاح عن وضع العلامات ، التى تبصر وتدعم الحضور الأوروبى الاستيطانى المغترب فى أمريكا .

---

(١) حاول الفايكنج فى القرن العاشر الميلادى وفى سفينة حمولة ٨٠ طناً اقتحام المحيط الأطلنطى الشمالى فى أقصى أطرافه الشمالية . ولقد فشلت هذه المحاولة رغم الادعاء بأنهم وصلوا إلى موقع ما على الساحل الأمريكى بين ولايتىّ ماسوشيت وفرجينيا .

الجوهرى ، المرجع السابق ص١١٧ – ١١٩ .

وقادت هذه العلامات رحلات جغرافية ، تلمست الكشف الجغرافى، ورحلات غير جغرافية ، لبت حاجة الاستيطان ، واستباحة الأرض للتعامل الأوروبى وحيازتها . كما أطلقت يد الرحلات الجغرافية المبكرة المغامرة ، التى اخترقت حاجز المسافة البحرى المخيف ، واقتحمت المحيط الهادى ، ووصلت إلى عالم الشرق الأقصى فى آسيا (١) .

هذا ، وكان من شأن كل الرحلات الجغرافية البحرية السابقة على نجاح رحلتىّ داجاما وكولومبس ، أن تمثل شكلاً من أشكال الاصرار الشديد والمثابرة والحرص على بلوغ الغاية . وربما انطوى هذا الاصرار، وذلك الحرص على إرادة المنافسة بين الدول الأوروبية ، طلباً وتطلعاً إلى هذه الغاية واستثمارها. ولكن بلوغ الغاية بالفعل، قد فجر هذه المنافسة والصراع . وأطلق لها العنان لكى تتمادى المنافسة إلى أقصى حد .

والمنافسة التى نعنيها بالضبط ، ليست مجرد التنافس ، بين الرحلات الجغرافية والتسابق فى شأن الكشف الجغرافى المثير ، واماطة اللثام عن الأرض أو المسطح المائى ، وادخالهما فى اطار المعرفة الجغرافية فقط . ولكنها المنافسة من غير حدود ، بين الاجتهاد الأوروبى على جنى ثمرات الانفتاح الجغرافى على المجهول من الأرض ، وعلى حيازة هذه الأرض ، وعلى الحصص فى حركة التجارة الدولية . بل وصلت هذه المنافسة بين الاجتهاد الأوروبى أيضًا على رسم الخرائط (٢) واعدادها

---

(١) اتخذت اسبانيا بعد أن أطلقت اتفاقية توردسيلاسى يدها فى حصتها من الأرض الأمريكية ، سبيلاً ومنطلقاً لاقتحام المحيط الهادى . ولعب ماجلان دوراً بارزاً فى نجاح الهدف الأسبانى . وكانت مراكز التجارة فى المكسيك اعتباراً من منتصف القرن السادس عشر الميلادى محط الرحلات التى تعبر المحيط الهادى، وتتعامل مع عالم المحيط الهادى . ومن هذه المراكز التجارية على الطريق عرفت التجارة السلع الواردة فى المحيط الهادى طريقها إلى أوروبا . ولقد استخدم البحارة نوعاً من السفن القوية ، هى سفن الغليون لانجاز مهمة الرحلة فى المحيط الهادى . واحسن الابحار المغامر فى هذا المحيط استخدام حركة الرياح وعبور المحيط الهادى ذهاباً واياباً .
كوبر ، أ.د : المرجع السابق ص٣٦ ، ٣٧ .

(٢) تصدر الاجتهاد الهولندى مسالة صناعية واعداد الخرائط فى القرن السادس =

لترشيد الرحلة البحرية وتحركاتها، من غير حدود على الصعيد العالمى.

وقد تجلت هذه المنافسة من غير حدود ، بين الرحلات الجغرافية التى طافت من حول الأرض الجنوبية المجهولة ، وحاولت الكشف عن وجودها وتحديد امتداداتها فى اطار البحار الجنوبية . كما تفجرت بكل أسباب الاثارة بين الرحلات الأخرى غير الجغرافية ، والاجتهادات الأوروبية فى أنحاء عالم المحيط الهندى وجنوب شرق أسيا . وصحيح أن الاجتهادات الأوروبية لم تتنافس ، بل قل تعاونت ، وهى تقهر الحضور العربى المغترب ، أو وهى تطوق العالم الإسلامى . ولكن الصحيح أيضاً أنها قد صعدت المنافسات فيما بينها فى كل المجالات الأخرى .

وعلى الجبهة الأخرى ، كانت المنافسات الساخنة بين أسبانيا والبرتغال فى أمريكا اللاتينية ، وكان المنافسات الملتهبة بين انجلترا وفرنسا وهولندا فى الأرض الأمريكية الشمالية . وتمادت هذه المنافسات ، فى شأن حيازة الأرض ، وفى شأن دعم الاستيطان فيها ، بين الدول الأوروبية وتطلعاتها التوسعية . كما انطلقت هذه المنافسات ، لكى تتجلى فى عالم المحيط الهادى . ولم تعرف هذه المنافسات لها حداً يقف عنده الصراع ، إلا عندما يواجه التوسع الأوروبى أصحاب الأرض ، وهم يدافعون عن حقوقهم فيها .

وإذا كان توظيف الرحلة الجغرافية ونجاحها فى أداء المهام المنوطة بها قد فتح الباب على مصراعيه ، لكى تبدأ هذه المنافسات ، ولكى توقع بين الدول الأوروبية المتنافسة ، فإن تصعيد واستمرار هذه المنافسات قد الهب الاهتمام بالرحلة الجغرافية ، وأمعن فى حسن توظيفها . وسجل

= عشر والسابع عشر الميلادى . ولقد احس الرسام الهولندى استثمار البيانات التى حصلت عليها رحلات الكشف الجغرافى . وكان مركيتور على رأس المدرسة الهولندية ، التى تخصصت وأجادت فى صناعة الخريطة . ولقد نافست المدرسة الفرنسية المدرسة الهولندية . وتمكن الفرنسى سامشو من احراز انتصار حقيقى فى هذه المنافسة .

راجع صبحى ، عبد الحكيم ، الليثى ، ماهر : المرجع السابق ص٣٦ - ٤٢ .

الجوهرى ، يسرى : المرجع السابق ص٣٩٣ - ٤٠٢ .

القرن السادس عشر والسابع عشر ، أبعاد هذه المنافسات ، التى لم تهدأ فيما وراء البحار فى عالم المحيط الهندى ، وفى عالم المحيط الهادى على السواء .

وكانت المنافسات الحامية أصلاً بين البرتغال وإسبانيا ، ولكن تسلل وانتقال وهجرة مراكز الثقل الاقتصادية ، إلى مواقعها الجديدة فى غرب أوروبا ، قد زج بهولنده وانجلترا وفرنسا فى حلبة هذه المنافسات . ولم تكن هذه المنافسات صراعًا مسرفًا فى المراوغة فقط ، بل كانت هذه المنافسات الحامية ، سباقًا لا يهدأ ولا يكل من أجل كشف جغرافى ، وإماطة اللثام عن أرض مجهولة ، أو من أجل جنى ثمرات النجاح ، الذى تحققه كل رحلة جغرافية ناجحة .

الرحلة الجغرافية صانعة الانفتاح الأوروبى :

على امتداد القرن السابع عشر والقرن الثانى عشر ، توالت إسهامات الرحلة الجغرافية البحرية ، التى عملت بموجب كل الضوابط، التى حددت منطق وفلسفة وتطلعات المنافسات الأوروبية ، فى خدمة الانفتاح الأوروبى على أوسع مدى . ولكن المؤكد أن استمرار وتصعيد هذه المنافسات الملتهبة ، قد أعلى شأن الرحلة الجغرافية علواً كبيراً . وصحيح أن علو شأن الرحلة الجغرافية ، قد جمع من ورائها الاهتمام الأوروبى كله ، ولكن الصحيح أيضًا أنها أصبحت صانعة الانفتاح الأوروبى العظيم .

والذى نعنيه بأن الرحلة الجغرافية أصبحت صانعة وصنيعة الانفتاح الأوروبى على العالم بالضبط ، هو التوافق بين توجه الفكر الجغرافى إلى الرؤية الجغرافية والمعرفة الجغرافية توجهًا عالميًا من جانب ، وتوجه إرادة الهيمنة على العالم حضارياً ، واقتصادياً ، وسياسيًا ، فى نفس التوجه العالمى من جانب آخر . بمعنى التوجه على التوازى ، بين أهداف الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى جانب ، وأهداف إرادة الهيمنة الأوروبية على العالم فى جانب آخر . وهذا معناه أن الانفتاح الأوروبى قد طوع الرحلة الجغرافية لحسابه ، وأن إرادة الهيمنة

التى تطلع إليها هذا الانفتاح الأوروبى جعلت منها مطية له . وحصلت الرحلة الجغرافية على مزيد من الدعم ، وحققت مزيداً من العلو ، شأنها فى ذلك شأن كل رحلة أخرى خدمت الانفتاح الأوروبى على الصعيد العالمى .

ولقد أسفر اعلاء شأن الرحلة الجغرافية وغير الجغرافية عن نتائج حيوية . وما شك فى أن هذه النتائج قد أدت فى حد ذاتها إلى مردود انتفعت به كل رحلة . وتمثلت هذه النتائج الحيوية فى :

١- تطوير شكل وحجم السفن وتحسين تجهيزاتها ، لكى تسعف الابحار فى أعالى البحار . ولقد انهالت رؤوس الأموال والاستثمارات الأوروبية ، على ترسانات بناء السفن ، وعلى الخبرات العاملة فى تصميم وصناعة السفن الأفضل . ودخلت مسألة بناء السفن وتحسين أنواعها فى صميم المنافسات، بين ترسانات بناء السفن فى بعض الدول الأوروبية (١) . واتجه التصنيع وجهة التخصص والتمييز بين صناعة سفن الملاحة الساحلية ، وسفن الملاحة فى أعالى البحار . وعكفت الخبرات الأوروبية على تطوير الأجهزة وتحسين أدائها (٢) . وتفننت الخبرة الهولندية فى صناعة طراز جيد من سفن عريضة القاع عرف باسم الهولندى الطائر . كما تألقت الصناعة الانجليزية فى صناعة

---

(١) نجح البرتغاليون فى صناعة سفن حمولة ٢٠٠ طن . وكان فى مقدور هذه السفن الصمود فى مواجهة التغير فى سرعة الرياح . وكان هنرى الملاح من وراء هذا الانجاز فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى . وهذه السفينة من طراز Caravell مطية جيدة فى البحر . ولقد أسهمت فى نجاح أول رحلة بحرية جغرافية موفقة . كوبر ، أ.د : المرجع السابق ص٣٧ .

(٢) عرفت البحرية الإسلامية الاسطرلاب والبوصلة وأجادت استخداماتها فى توجيه السفن فى عرض البحر . وعرفت أوروبا عنهم كيف تطور هذا الجهاز وغيره من الأجهزة وتحسن أدائها فى خدمة الابحار المأمون . وكان أول تعديل هو الحاق المؤشر الذى يبين اتجاهات الرياح فى عرض البحر .
راجع لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط٣ ص٤٨٣ القاهرة سنة ١٩٥٦ .
عبد العليم ، انور : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص١٨١ عالم المعرفة - الكويت سنة ١٩٧٩ .

سفن كبيرة الحجم من طراز أجود . ولقد أمن هذا التطوير التحسين ، الذى وجد العون المادى السخى ، حركة الملاحة البحرية وتوظيف الرحلات البحرية الهادفة بصفة عامة . ولكن المؤكد أن هذا التطوير قد أمن سلامة الرحلة الجغرافية أيضاً ، وشد أزرها ، وهى تقتحم المحيط ، وتغامر فى أعالى البحار ، وتنجز دورها المتخصص فى الكشف الجغرافى ، وكأنها عين الانفتاح الأوروبى المبصرة .

٢- ترسيخ حصة أوروبا والاستثمار الأوروبى من التجارة الدولية ، ونموها نمواً هائلاً بلغ حد التخمة . وأغرت هذه التخمة وفيض الأرباح الاستثمارات ، لكى تقدم فى سخاء منقطع النظير ، على دعم وتمويل الرحلة الجغرافية ، ودعم وتمويل رسم الخرائط الجغرافية ، التى ترشد أى رحلة بحرية هادفة . ولم يتزعزع ايمان هذه الاستثمارات فى جدوى الرحلة الجغرافية ، وهى صانعة وصنيعة الانفتاح الأوروبى تفتح الطريق أمام كل رحلة ، وتوسع دائرة التعامل التجارى على أوسع مدى. ولقد أغرقت الأرباح وعوائد التجارة الدولية الاستثمارات فى غمرة السعادة . كما أغرقت أوروبا الغربية حكومات وشعوباً ، فى خضم المتغيرات الاقتصادية (١) والاجتماعية ، والسياسية، والحضارية. وتوالت هذه التغيرات ، وتداخلت حتى أسفرت عن وضع القواعد والأسس ، فى بناء النظام الرأسمالى ، واحلاله محل النظام الاقطاعى أو نظام تحالف التجاريين . ولا تثريب على هذا النظام إذا هو ازداد اهتمامًا بالرحلة بصفة عامة ، وبالرحلة الجغرافية على وجه الخصوص ، وجعل منها صنيعته الأفضل . وكيف لا يهتم هذا النظام بالرحلة الجغرافية ، وهى التى اصطنعت رأس الجسر ، الذى يؤمن تحرك إرادة الهيمنة فى الاتجاه الذى تطلعت إليه ؟

---

(١) من صميم التغيرات ظهرت فكرتان هما فكرة التأمين البحرى ، وفكرة تمويل التجارة الدولية . وبشأن التأمين البحرى تكونت أول شركة للتأمين البحرى على مقهى لويذر فى لندن سنة ١٦٨٧ . وعاشت هذه الشركة لكى تيهمن فى عالم التأمين البحرى . أما مسألة التمويل فلقد تولى أمرها بنك انجلترا الذى تأسس سنة ١٦٤٨ . ولقد وضع الضوابط الحاكمة لهذه العملية .
كوبر أ.د : المرجع السابق ص٤٥ .

٣- انتخاب موانى بحرية جيدة فى مواقع مناسبة ، لاقامة مواكز أوروبية متقدمة فى ما وراء البحار . وطور الاهتمام الأوروبى هذه المراكز ، ودورها الوظيفى من عمل فى شأن التجارة ، إلى عمل فى شأن تأمين السفن ، وحركة مرور التجارة والرحلة البحرية . وكل من شأن هذا التحول ، الذى أسهم فى نشر مظلة الأمن على الطرق البحرية الرئيسية ، أن جسد الشكل الاستراتيجى من الاستعمار الأوروبى (١) .

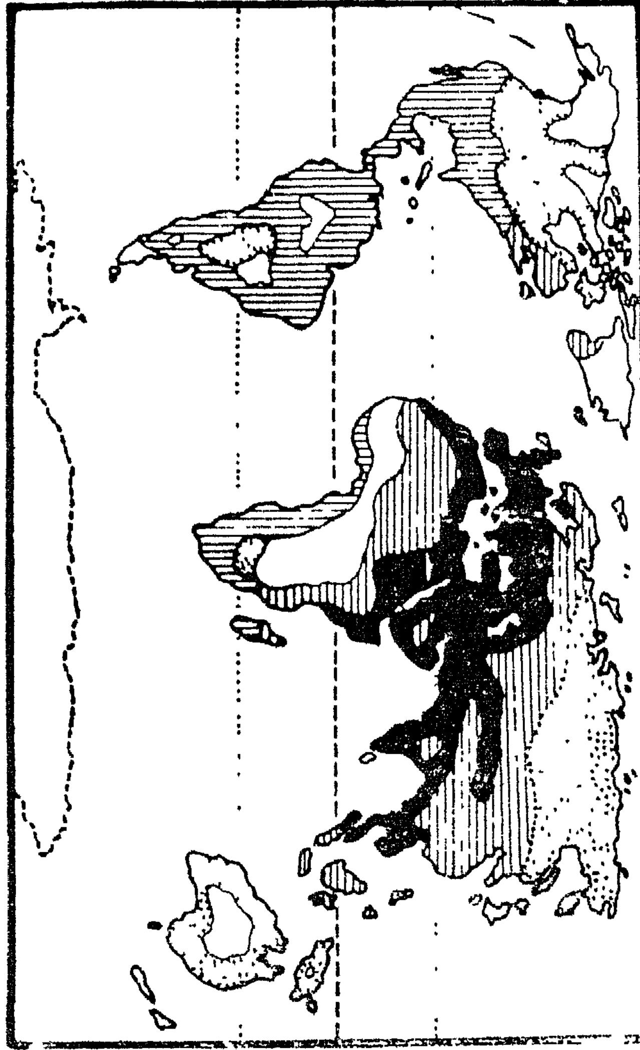
واستهل هذا الشكل الاستراتيجى من الاستعمار بدايات العلاقة ، بين الانفتاح الأوروبى وتطلعاته على الصعيد العالمى من ناحية ، والأرض غير الأوروبية وحركة الحياة فيها من ناحية أخرى . ولقد عاشت هذه العلاقة منذ البداية عيشة غير متوازنة سياسيًا أو اقتصاديًا . وكيف يكون التوازن ، وهى لا تبشر إلا باهتمام أوروبى مريب بالأرض غير الأوروبية ، فى مقابل عدم اهتمام أوروبى مخلص بالناس ، وحقوق الناس فى هذه الأرض ؟ بل وكانت هذه المواقع وتلك المراكز فى كثير من الأحيان ، موضع القدم الذى بدأت به رحلة السيطرة ، والاستعمار على الأرض غير الأوروبية ، والتسلط على الناس فيها .

٤- تدافع أفواج وموجات من الهجرة الأوروبية الهاربة من ضغوط سياسية ، ودينية ، واجتماعية ، وهى تطلب فرص الحياة الأفضل بعيداً عن أوروبا . ولقد وصلت هذه الموجات الأوروبية الحانقة كرهاً ، أو طوعاً إلى مساحات من الأرض ، التى كشفت الرحلة الجغرافية النقاب عنها من أجل الاستيطان ، وبداية رحلة حياة جديدة فى أرض أو فى أوطان جديدة . وكان من شأن الاستيطان الذى غرس حضوراً أوروبياً مغترباً فى هذه الأرض ، أن يجسد بنية وصياغة شكل آخر من أشكال الاستعمار الأوروبى (٢) . وما من شك فى أن مثل هذا الحضور المغترب، قد أعطى نفسه حق حيازة الأرض ، وارتكب خطيئة العدوان من غير حق على مصالح أصحابها الأصليين . ولقد ارتكب أيضاً حماقات الاستعلاء

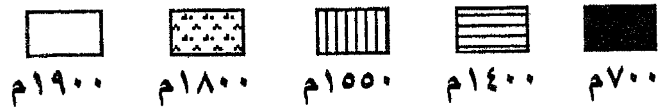
---

(١) الشامى ، صلاح الدين : دراسات فى الجغرافية السياسية ص٢٦٨ - ٢٧٤ .

(٢) نعنى به الاستعمار الاستيطانى .



خريطة المعلوم من خريطة العالم فى عام



والتفرقة العنصرية ، واقترف ذنوباً لا تغتفر فى ظلمها ، ضد إرادة الشعوب ، والأقوام المغلوبة على أمرها . وانتشار هذا الحضور الأوروبى المغترب فى المهجر على الصعيد العالمى ، لا يخفى ما ينطوى عليه الاستيطان من توجه الانفتاح الأوروبى ، توجهًا واضحًا وفاضحًا نحو الهيمنة على العالم ، حضارياً ، واقتصادياً ، وسياسياً .

وبالاضافة إلى كل هذه الانجازات ، التى أسفرت عنها المنافسات بين الرحلات البحرية ، وفى مقدمتها الرحلة الجغرافية ، والتى طورت شكل وطبيعة حركة الحياة على أوسع مدى ، ينبغى أن نذكر كيف نال الحضور الأوروبى المنتشر فيما وراء البحار ، ما تمناه الحقد الصليبى الجارف ، ونزعاته العدوانية ضد الإسلام (١) ، وجموع المسلمين ، عندما أطاح بالحضور العربى المغترب فى عالم المحيط الهندى ودمر مصالحه(٢). بل لقد تمادى هذا العدوان فى ممارسة منطق وفلسفة الحقد الصليبى ، عندما طوق العالم الإسلامى حتى ضيق الخناق عليه ، وأحكم الحصار من حوله .

هذا ، ومن غير أن نبالى بسلبيات وايجابيات التحرك الأوروبى ، والانجازات التى أدت إليها الرحلة الجغرافية ، لا ينبغى التشكيك فى

---

(١) نذكر على سبيل المثال كيف جاءت فى أعقاب الرحلة الجغرافية التى اقتحمت المحيط الهندى ، رحلة عدوان حربى ضد الإسلام والمسلمين . وتألفت هذه الرحلة العدوانية من أساطيل أسبانية فرنسية برتغالية مشتركة . ولقد اقتحمت البحر الأحمر فى سنة ١٥٤١ فى اطار تحالف مسيحى عدوانى مع الحبشة ، بقصد العدوان على الأماكن المقدسة فى الحجاز . وقاد هذه الحملة دون جوان دى كاسترو البرتغالى . ورابطت سفن الأساطيل الثلاثة فى عصب ومصوع وسواكن ، بقصد أن تقفز إلى جده ، والعدوان على الأرض المقدسة فى مكة والمدينة. وصحيح أن البحرية الإسلامية العثمانية فى البحر الأحمر وحضور هيبتها اعتباراً من سنة ١٥٣٧ قد أجهض هذا العدوان ، ولكن الصحيح أيضاً أن تقرير دى كاسترو الجيد ، يمثل أحسن دراسة جغرافية عن البحر الأحمر فى مثل ذلك الوقت . راجع الشامى صلاح الدين : الموانى السودانية – القاهرة سنة ١٩٦١ .

(٢) الشامى صلاح الدين : الرحلة البحرية العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية (غير منشور) .

مدى نجاح الرحلة البحرية الجغرافية ، ولا فى جدوى هذا النجاح . وصحيح أن الرحلة الجغرافية لم تحجم عن أداء دورها الوظيفى المتخصص ، وهى صانعة وصنيعة للانفتاح الأوروبى على العالم ، ولم تتبرأ من توظيف هذا الأداء ، فى شأن اقتراف الخطايا التى دنسته . ولكن الصحيح أيضًا أنها وسعت دائرة الرؤية الجغرافية ، والانفتاح الجغرافى توسيعاً مثمراً ومثيراً ، على الصعيد العالمى .

ومن غير أن نجرم العلاقة بين ، الانفتاح الجغرافى والانفتاح الأوروبى السياسى ، والاقتصادى ، والحضارى ، لا يجب أن نخفى الاعجاب بالرحلة الجغرافية البحرية . كما لا ينبغى أن نحرمها من الاطراء والتقدير . وهل لا يستحق هذا النجاح ، وكل أولئك الذين أسهموا فيه ، وشدوا أزره هذا الاطراء فعلاً ؟ ولكن الاطراء كل الاطراء ، هو حق من حقوق تلك الزمرة أو الصفوة ، التى استشعرت حاجة العمل الجغرافى إلى توجيه وتوجه الرحلة الجغرافية فى اتجاه جديد . وصحيح أن الاتجاه الجديد أراد به التفكير الجغرافى – وقد ازداد نضجًا– من الرحلة الجغرافية أن تطاوع تطلعاته ، وأن تجاوب نضجه وتفتحه . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا الاتجاه الجديد ، لم يهتم أبداً بأمر تبرئة الرحلة الجغرافية من خطيئة الانصياع لصحبة الانفتاح الأوروبى، أو لم يعترض على ترشيد هذا الانفتاح ، وتطلعاته العدوانية الاستعمارية على الصعيد العالمى .

* * *

الفصل السادس

الرحلة الجغرافية المتخصصة
والتفتح الجغرافى العلمى

- لماذا التحول إلى خدمة التفتح الجغرافى .
- الرحلة الجغرافية والبحث الجغرافى .
- الجمعيات الجغرافية والرحلة الجغرافية .
- نماذج من رحلات التفتح الجغرافى .
- استراليا والرحلة الجغرافية .
- أفريقية والرحلة الجغرافية .

الفصل السادس
الرحلة الجغرافية المتخصصة والتفتح الجغرافى

من غير أن نلتزم الالتزام الصارم بتاريخ معين ، فى شأن نهاية مرحلة وبداية مرحلة تالية من مراحل ، توظيف الرحلة الجغرافية المتخصصة ، ومن غير أن نعرض بمدى التداخل بين أداء الرحلة الجغرافية الوظيفى ، فى مرحلتين متواليتين ، ومن غير أن نتعرض لمدى التكامل بين أداء هذه الرحلات الجغرافية فى هاتين المرحلتين ، يجب أن نتصور فى البداية ، معنى هذا التحول المرحلى فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية فى أداء الدور المنوط بها . بل يجب أن ندرك لماذا هذا التحول ، وكيف حدث ؟ كما ينبغى أن نذهب إلى المدى الذى نتبين عنده جدوى هذا التحول ومرماه ومغزاه ، لحساب المعرفة والعمل والفكر الجغرافى .

هذا ، ويجب أن نتصور تصوراً موضوعياً مدى التزام هذا التحول فى توظيف ، أو فى استثمار الرحلة الجغرافية المتخصصة ، برؤية جغرافية، يتمعن الفكر الجغرافى فى فحواها وفيما تنبئ به . كما يجب أن نتصور تصوراً موضوعيًا مرة أخرى ، مدى التزام هذا التحول المرحلى فى توظيف الرحلة الجغرافية المتخصصة ، بفكر جغرافى رشيد ومتنور ، أحسن استخدام الرؤية الجغرافية وتحليلها ، وطور جدواها فى اطار الشكل العلمى ، الذى احتوى الجغرافية ، وجسد تطلعاتها وحدد أهدافها .

لماذا التحول إلى خدمة التفتح الجغرافى :

التحول الذى نعنيه بالضبط ، هو تحول يواكب دخول التفكير الجغرافى فى طور الانسلاخ ، أو الانفصال عن التفكير التاريخى . وهو أيضاً التحول الذى تواكب فيه الرحلة الجغرافية ، ويجاوب أدائها انهماك التفكير الجغرافى فى شأن صياغة الاطار العلمى ، لعلم الجغرافية الحديثة . ولا تثريب على التفكير الجغرافى ، وهو يطلب من الرحلة

الجغرافية أن تطاوعه ، وأن تقدم له بعض ما ينبغى أن يتزود به من معرفة جغرافية .

وما من شك فى أن ارادة علم الجغرافية الحديثة ، كانت تتطلع إلى أداء تتمكن فيه الرحلة الجغرافية من اشباع مرماها ، أو ارضاء مغزاها . ومن ثم كان المطلوب بالفعل ، هو تحول الرحلة الجغرافية من أداء وظيفى نشط ، تصدى للانفتاح الجغرافى ، وسار فى مسيرة الانفتاح الأوروبى إلى أداء وظيفى رشيد ، وأكثر نشاطاً يتصدى للتفتح الجغرافى ، ويساير التفتح الأوروبى .

وهذا معناه أن هذا الطلب قد جاء فى الوقت المناسب تماماً ، لكى تكف الرحلة الجغرافية ، عن توسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، وتقلع عن العمل لحساب الكشف الجغرافى على المستوى الأفقى (١) بعد أن طافت فى أنحاء المحيطات ، وأحاطت بالعالم طولاً وعرضاً ، من غير أدنى تفريط . وهل هناك وجهة يمكن أن تواصل الرحلة الجغرافية البحث عنها ، أو الوصول إليها ، وكشف النقاب عن مكانها على الصعيد العالمى، لكى يترك لها الحق فى هذا التوجه ؟

وهذا معناه أيضاً انه قد آن الأوان بالفعل ، لكى تؤدى الرحلة الجغرافية المتخصصة دورها الوظيفى ، فى خدمة هدف جغرافى علمى جديد . ولقد تمثل هذا الهدف الجغرافى الجيد ، أنذاك فى طلب تعميق الرؤية الجغرافية تعميقاً رأسياً . ومن أجل هذا التكليف طلب هذا التحول الجوهرى من الرحلة الجغرافية ، أن تتحرى الصدق والموضوعية ، لدى جمع أوصال وتفاصيل الرؤية الجغرافية وتجسيد الواقع الجغرافى ، أو لدى التمعن فى هذه الرؤية ، وتحليلها تحليلاً علمياً جغرافياً .

ويبدو أن هذا التحول الهادف فى الأداء الوظيفى ، للرحلة الجغرافية

---

(١) لم يكن هناك فرصة تتوجه فيها الرحلة الجغرافية لاستكمال الكشف الجغرافى على المستوى الأفقى ، إلا إلى القارة القطبية الجنوبية . ولكن هل كانت قادرة على ذلك التوجه بوسائل هذا العصر ؟ وهل كانت هناك حاجة ملحة لهذا التوجه؟

المتخصصة ، من تغطية المساحات تغطية افقية سطحية متعجلة بقصد الكشف الجغرافى ، إلى تغطية المساحات تغطية رأسية عميقة متأنية بقصد البحث الجغرافى ، كان تحولاً منطقياً . وما من شك فى أن هذا التحول الموضوعى ، كان من قبيل الاستجابة لأمرين هامين هما :

١- حاجة العصر الذى انكب فيه التفكير الجغرافى فى اطار المنهجية العلمية ، على التأمل والتدبر فى أمر الظاهرة الجغرافية ، أو الواقع الجغرافى ، من أجل التحليل وادراك العلاقات فى موضوعية وعناصر الصورة الجغرافية .

٢- حاجة العصر الذى انبرى فيه التفتح الأوروبى الحديث فى اطار تطلعاته الرأسمالية ، إلى دعم وتنشيط وتكثيف الاستيطان ، وتصعيد العمل الاقتصادى الاستثمارى ، والعمل السياسى العدوانى ، من أجل تأكيد الهيمنة على الصعيد الدولى .

والاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، الذى طور الفكر الجغرافى ، وأفلح فى صياغة الاطار العلمى الأنسب لعلم الجغرافية ، قد حدد الكيفية التى تعمل بموجبها الرحلة الجغرافية . كما عرف أيضاً الكيفية التى تدرك بها الرحلة الجغرافية ، مواصفات المكان وكيف احتوى فى أحضانه الحياة . ومن ثم أدرك هذا الاجتهاد الجغرافى جدوى الرحلة الجغرافية ، وهى تبين وتتبين مدى التنوع الجغرافى ، من واقع جغرافى فى مكان ، إلى واقع جغرافى مختلف فى مكان آخر .

وهذا معناه - بكل تأكيد أن هذا الاجتهاد الجغرافى المتنور ، قد تلمس أساليب حققت الانتفاع الأجدى بانجازات الرحلة الجغرافية وثمراتها ، فى صالح البحث الجغرافى العلمى . بل لقد ازداد هذا الاجتهاد يقيناً فى جدوى الرحلة الجغرافية المتخصصة ، لحساب العمل الجغرافى ، وما ينطوى عليه من أهداف علمية . ويستوى فى ذلك أن يكون العمل الجغرافى الذى تتكفل به الرحلة الجغرافية عملاً عمليًا ودراسة فى الميدان ، أو أن يكون العمل الجغرافى الذى تبصره الرحلة الجغرافية ، رسماً فنياً وصناعة خريطة للواقع الجغرافى فى الميدان .

والاجتهاد الرأسمالى الأوروبى الذى عرف طريقه للهيمنة على العالم ، وأفلح فى تنفيذ الأسلوب الأنسب للسيطرة ، قد انتفع بالتحول الذى عملت بموجبه الرحلة الجغرافية فى خدمة التفتح الجغرافى . كما عرف أيضاً الكيفية التى يطوع بها الرحلة الجغرافية ، ويستثمر التفتح الجغرافى . ومن ثم أدرك هذا الاجتهاد الرأسمالى جدوى الرحلة الجغرافية ، وهى ترسخ تطلعات أوروبا المتنوعة ، من واقع جغرافى فى مكان ، إلى واقع جغرافى مختلف فى مكان آخر .

وهذا معناه – بكل تأكيد – أن هذا الاجتهاد الرأسمالى المثمر ، قد تلمس أساليب ذللت الانتفاع الأجدى بانجازات الرحلة الجغرافية وثمراتها ، فى صالح الحضور والتطلع الرأسمالى . بل لقد ازداد هذا الاجتهاد يقيناً فى جدوى الرحلة الجغرافية ، لحساب هيمنة هذا الحضور الرأسمالى ، على الصعيد العالمى . ويستوى فى ذلك أن يكون الدعم الجغرافى الذى تتكفل به الرحلة الجغرافية دعمًا لاستيطان حضور أوروبى مغترب ، أو دعماً لغزو واستثمار واستغلال موارد متنوعة ، أو دعماً لاختيار وحيازة مواقع حصينة لتأمين حركة التجارة الدولية ، أو دعماً لانفتاح الاستثمارات على الأسواق والتعامل معها .

هذا ، وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد صعد الاهتمام بالرحلة ، وطور توظيفها فى خدمة الهدف والعمل وتفتح شهيته فعلاً للبحث العلمى ، وتقصى الحقائق الجغرافية . وما من شك أيضاً فى أن الاجتهاد الرأسمالى الأوروبى ، قد صعد الاهتمام بالرحلة الجغرافية ، وطوع توظيفها فى خدمة الهدف والتطلع الرأسمالى،وتفتح شهيته للهيمنة والتسلط على العالم . والتقاء الاجتهاد الجغرافى مع الاجتهاد الرأسمالى على طريق واحد ، وتوجه صريح نحو حسن استثمار الرحلة الجغرافية ، قد أسفر عن اضافة هامة لحساب الرحلة الجغرافية . ولا تعنى هذه الاضافة المعنية أقل من تطوير قدرات الحشد أو الزمرة التى تجمعها المصلحة فى الرحلة الجغرافية . وهذا التطوير الذى نعنيه بالضبط ، هو التمادى فى دعم الرحلة الجغرافية والاهتمام

بها ، والعمل من أجل نجاحها فى اطار العمل الجغرافى العلمى فى أى ميدان .

الرحلة الجغرافية والبحث الجغرافى المتفتح :

إذا كانت الرحلة الجغرافية فى المرحلة الماضية قد نشأت وواكبت الانفتاح الأوروبى على العالم رحلة بحرية ، اقتحمت المحيطات وغامرت فى أعالى البحار فى الغالب ، فلقد اقتضى التحول الأنسب لحاجة العصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، تنشيط الرحلة الجغرافية البرية. وتنشيط الرحلة الجغرافية البرية ، يعنى تجاوز حد الكشف الجغرافى ، وتلمس المعرفة ، وتقصى وجمع الحقائق الجغرافية ، التى واكبت التفتح الأوروبى وتطلعاته .

وإذا كان الانفتاح الأوروبى على العالم قبل القرن التاسع عشر قد طلب الكشف والرؤية الجغرافية والتعامل الحذر على الصعيد العالمى ، وطاوعته الرحلة الجغرافية ، فلقد اقتضى التفتح الأوروبى فى القرن التاسع عشر تعميق المعرفة وتصعيد التعامل ، وتحقيق الهيمنة على الصعيد العالمى ، استجابة الرحلة الجغرافية البرية . واستجابة الرحلة الجغرافية تعنى تمادى العمل أو البحث الجغرافى ، وتوجهه التوجه الذى واكب التفتح الأوروبى ، وجاوب تطلعاته .

ولقد كانت استجابة الرحلة الجغرافية الفورية استجابة متوقعة ومنطقية . وكيف لا تكون الاستجابة والرحلة الجغرافية ، جزء متوثب من التفتح الأوروبى ؟ وعلينا- على كل حال- أن نتصور كيف تزاملت، الرحلة الجغرافية البحرية ، والرحلة الجغرافية البرية ، فى سبيل هذه الاستجابة ، وما تنطوى عليه من تبعات . وعندئذ يجب أن ندرك كيف تأنت هاتان الرحلتان ، وعملتا فى غير عجلة ، وفى اطار ينسق التكامل، فى انجاز العمل الجغرافى ، أو فى خدمة الهدف الجغرافى .

وفى مقابل هذه الاستجابة الفورية ، لارادة التفتح الأوروبى ، انهالت الأموال والاستثمارات ، التى مولت وشدت أزر الرحلة الجغرافية فى البر والبحر من ناحية ، وانهال الفكر الجغرافى الذى رشد وبصر

عمل الرحلة الجغرافية ، فى سبيل الهدف الجغرافى من ناحية أخرى . وكان من شأن الهدف الذى جمع التمويل الاستثمارى والتفكير الجغرافى ، أن يرضى هذين الطرفين فى المصلحة المشتركة . وفى الوقت الذى توقع فيه التمويل الاستثمارى بكل اللهفة انجاز البحث الجغرافى لخدمة مصالح الرأسمالية ، والاستيطان الأوروبى المغترب ، طلب فيه التفكير الجغرافى بكل التشوق انجاز البحث الجغرافى ، لخدمة علم الجغرافية ، وترسيخ مغزاه ومرماه وتفتحه على الصعيد العالمى .

ومن الجائز أن نتبين كيف أصبحت الرحلة الجغرافية البرية ، هى الرحلة الأكثر أهمية وقدرة على انجاز البحث الجغرافى ، الذى يغطى مساحات معينة أو معنية . ومن الجائز أن ندرك كيف نال تجهيز اعداد وتوجيه هذه الرحلة الجغرافية البرية ، القدر الأهم من العناية والاهتمام. واقتضى القدر الأفضل من الخبرة والمهارة فى تقصى الحقائق الجغرافية ، فى أنحاء المساحات المعينة أو المعنية . ولكن المؤكد أن حصة الرحلة الجغرافية البرية من الاهتمام والعناية ، لم يحرم الرحلة الجغرافية البحرية من حصتها .

وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية البحرية ظلت مطلوبة أيضاً ، لأنها لم تستنفد أغراضها ، أو لم تستوجب التفريط فى أدائها الوظيفى ، لحساب التفتح الأوروبى . وكان من شأن هذه الرحلة الجغرافية ، أن تحصل على حصتها من التمويل ، وعلى نصيبها المناسب من التأمين ، وهى فى عرض البحر . بل عرفت هذه الرحلة الجغرافية البحرية ، كيف تعمل فى خدمة التفتح الجغرافى وتسعفه .

وعندما اقتضت الرحلة الجغرافية البرية فى هذه المرحلة ، وهى تضرب فى دروب الأرض ، وتتسلل إلى صميم حركة الحياة ، فى أى مساحة معنية ، اجتماع الاستعداد والجسارة والخبرة معاً . وقد أصبح اختيار عضو أو أعضاء الرحلة مسألة حيوية . وهذا معناه بالضبط ، حسن الاختيار أو حسن التكليف ، لكى تفلح الرحلة الجغرافية فى أداء

دورها الوظيفى ، وانجاز المهمة المنوطة بها فى المساحة المعنية . ومعناه - فى معظم الأحيان - أيضاً اختيار حسن التوقيت المناسب ، لكى تتوجه الرحلة الجغرافية البرية إلى المساحة المعنية .

وشرط الخبرة والمهارة فى عضو الرحلة ، لا يعنى بالضرورة أن يكون المغامر الجسور ، الذى يقع عليه الاختيار ، أو الذى يتطوع باختياره جغرافياً متخصصاً . بل المقصود بالفعل فيه أن يكون هاوياً أو محترفًا ، عارفًا ومتيقظاً ، لما يتطلع إليه العمل الجغرافى ، وكيف توظف الرحلة فى انجازه . كما ينبغى أن يكون أيضاً محترفاً أو هاوياً ، متمكناً فى شأن جمع أوصال الرؤية الجغرافية ، أو فى شأن تقصى الحقيقية الجغرافية .

وسواء امتلك الرجل حساً جغرافياً فطرياً متيقظاً ومتفتحاً ، أو امتلك الرجل ناصية الخبرة الجغرافية ، واحتراف العمل الجغرافى ، فينبغى أن يعرف كل واحد منهما كيف يوظف ملكاته وقدراته التوظيف المناسب ، فى شأن انجاز الرحلة الجغرافية على صعيد المساحة المعنية . ومن غير المعقول ألا يتلمس الاختيار ويفضل هذه القدرات . وهل نشك فى أن الأكثر خبرة وقدرة والاستجابة ، لما هو مطلوب من الرحلة الجغرافية ، هو الأنسب والأولى بالاختيار للقيام بهذه الرحلة ؟

وفى كثير من هذه الرحلات الجغرافية ، التى خدمت التفتح الجغرافى وتوجهت التوجه السوى لحساب الهدف الجغرافى ، كان المغامر الجسور الذى غطى المساحة المعنية ، وأنجز المهمة التى تكفلت بها الرحلة ، طبيباً ، أو أديباً ، وجيولوجياً ، أو عالم نبات . ولكن المؤكد أن هذا التخصص ، أو الاحتراف غير الجغرافى ، لم يتعارض أبداً مع الاستعداد الفطرى ، ويقظة الحس الجغرافى . بل لا يتعارض ذلك أيضاً مع تمحيص وتدارس العناصر ، التى تتداخل فى صياغة الرؤية الجغرافية ، أو التى تكسب الواقع الجغرافى فى المساحة المعنية خصائصه ومواصفاته .

ومن خلال مراجعة سجل الرحلات الجغرافية ، وأولئك الرجال

الذين تصدوا لانجاز المهام المنوطة بها ، نتبين أنه قلما إلهى التخصص العلمى ، أو الاحتراف غير الجغرافى ، الرحالة عن حسن توظيف حسه الجغرافى الفطرى ومواهبه ، توظيفًا ماهرًا فى المساحة المعنية . وقد نتوقع العكس تمامًا فى بعض الأحيان . وهل ننكر مثلاً أن همبولت خرج فى الرحلة الجغرافية واضطلع بمهمة العمل الجغرافى ، قبل أن يحترف الجغرافية ؟ وهل ننكر أن انجاز الرحلة الجغرافية ، هو الذى وجه واستقطب اهتمام هبمولت ، حتى احترف وامتلك الخبرة الجغرافية ؟

وهكذا يمكن أن ندرك مدى التوفيق والعناية والموضوعية لدى اختيار عضو الرحلة الجغرافية البرية وتكليفه . كما يجب أن نتصور كيف خدم حسن الاختيار أغراض الرحلة الجغرافية ، وكيف كفل حسن الانجاز فى المساحة المعنية . ويبدو أن الجمعيات الجغرافية ، التى نشأت فى بعض الدول الأوروبية ، قد تكفلت أحيانًا بهذا الاختيار ، وتحملت تبعاته ، أو أدلت فى شأنه برأى صريح ومسموع ، على أقل تقدير أحيانًا أخرى .

الجمعيات الجغرافية والرحلة الجغرافية :

فى هذه المرحلة التى شهدت تعاظم جدوى الرحلة الجغرافية ، وكيف جنى الانفتاح الأوروبى على العالم ثمرات هذه الرحلة ، نشأت الجمعيات الجغرافية . وصحيح أنها اتخذت الطابع الوطنى القومى ، وتحمست للدولة التى تنتمى إليها . ولكن الصحيح أيضًا أنها تبنت الاجتهاد الجغرافى ، الذى جمع بين الهواة والمحترفين ، وتحملت مسئولية الاهتمام به ، وشدت أزره لحساب الدولة التى تنتمى لها .

وفى كثير من الدول الأوروبية ، التى أخذت بناصية الانفتاح حتى حققت التفتح ، تشكلت هذه الجمعيات الجغرافية الوطنية . ولقد تحملت هذه الجمعيات مسئولياتها بكل الفطنة والوعى ، فى خدمة العمل الجغرافى لحساب الهدف الجغرافى ، قبل أن تهتم الجامعات والدراسات الأكاديمية فى تلك الدول ، بعلم الجغرافية الحديثة، أو أن

تكترث به . ولقد ضمت هذه الجميعات الجغرافية فى لوائحها ، وفى تشكيلها ، وفى تقاليد الانتساب إليها ، ما ينبئ أو يصور مبلغ الاهتمام بالرحلة الجغرافية ، والعمل الجغرافى الذى تنجزه ، ومدى الرعاية التى وجهت الرحلة الجغرافية المتخصصة بإلحاح للتفتح الجغرافى .

وفى تشكيل الجمعية الجغرافية الوطنية والانتساب إليها ، جمعت أو ضمت إلى عضويتها ، ولم تميز بين :

١- زمرة صغيرة من أصحاب الخبرة الجغرافية المحترفين ، ومن العاملين فى حقل الاجتهاد الفكرى الجغرافى . وهم - بكل تأكيد - فريق الاحتراف المنتسب إلى علم الجغرافية الحديثة ، والذى يعرف بالضبط معنى ومغزى ومرمى توظيف الرحلة ، فى خدمة الغرض الجغرافى ، أو العمل لحساب الهدف الجغرافى .

٢- زمرة كبيرة من أصحاب الهواية الجغرافية ، ومن العالمين بيقظة حسهم الجغرافى الفطرى . وهم - بكل تأكيد - فريق الهواة المتلهف على المعرفة الجغرافية ، والذى يعرف بالضبط معنى ومغزى ومرمى الانتفاع العام والخاص بانجاز الرحلة الجغرافية . ومن شأن الهاوى ألا يتورع فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية ، فى خدمة الهدف غير الجغرافى ، أو فى شأن تطويع الهدف الجغرافى ، واستثماره فى خدمة الغرض غير الجغرافى .

ولا تثريب على اجتماع يضم صفوف وقدرات الهواة والمحترفين ، فى الجمعيات الجغرافية الوطنية . وهل نشك فى أنهما معًا أصحاب مصالح متبادلة فى العمل الجغرافى ، وفى الرحلة الجغرافية وتوظيفها ، فى خدمة التفتح الجغرافى على أوسع مدى ؟ وقدرة الهواة على التمويل من جانب ، وقدرة المحترفين على التنظيم من جانب آخر ، أصبحت من خلال التجمع المشترك فى اطار كل جمعية جغرافية وطنية ، قوة دفع مثمرة ومثيرة وفعالة ، فى شأن تجهيز الرحلة الجغرافية وتوظيفها ، وأداء المهمة المنوطة بها على الصعيد العالمى .

ولا تثريب على توجه الجمعيات الجغرافية ونزوعها النزعة

الوطنية، وهى تستشعر مكانتها فى دعم مصالح الدولة ، التى تنتمى إليها فى الرحلة الجغرافية على الصعيد العالمى فيما وراء البحار . بل لقد كان من شأن هذه الجمعيات الجغرافية الوطنية ، أن توظف الرحلة الجغرافية التوظيف الذى ينتصر لها فى المنافسات مع الدول الأوروبية الأخرى ، أو الذى يكفل اعلاء وترسيخ مصالح الدولة الحيوية ، فى بعض المساحات المعنية .

ومن الجمعيات الجغرافية الوطنية نذكر ، جمعية كوزموجرافية الألمانية ، وجمعية هولندا الجغرافية . وهاتان الجمعيات من الجمعيات التى نشأت فى القرن الثامن عشر ، قبل كثير من الجمعيات الجغرافية الأخرى . ومع ذلك فشلتا فى الاستمرار وتبدد شملهما ، بعد أن استنفدت كل واحدة منها الغرض من نشأتها . وهذا معناه أن القرن الثامن عشر الميلادى ، لم يكن الوقت المناسب لضمان الاستمرار . كما أن المتغيرات والأحوال فى كل من ألمانيا وهولندا ، لم يكن من شأنها أن تبقى على الجمعيات الجغرافية فى أى منهما .

والقرن التاسع عشر ، هو بالفعل القرن الذى شهد مولد الجمعيات الجغرافية الوطنية ، التى أدت دورها الوظيفى حسب حاجة العصر وأبقت عليها المتغيرات . ولقد تكونت الجمعية الأفريقية African Association فى لندن سنة ١٧٨٨ لرعاية الكشف الجغرافى . وقد تحولت بعد ذلك ، لكى تدعم الرحلة الجغرافية فى خدمة التفتح الجغرافى. وشهدت الفترة من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٧٠ مولد أكثر من خمسة عشر جغرافية وطنية أوروبية ناجحة (١). وسجلت كل جمعية من هذه الجمعيات مدى اهتمامها العريض بالتفتح الجغرافى والعمل الجغرافى ، ورسخت أقدام الرحلة الجغرافية وأدائها ، على الصعيد العالمى .

والجمعية الجغرافية الفرنسية ، نموذج ممتاز من حيث التفرغ

---

(١) رأيت .ج.ك : مجال الجمعية الجغرافية (الجغرافية فى القرن العشرين) جـ٢ ص٢٧٦ – ٢٧٨ .

والاهتمام بالاجتهاد الجغرافى . ولقد قامت هذه الجمعية الجغرافية فى سنة ١٨٢١ ، وتولت أمر الرحلة الجغرافية من ناحية ، وأمر رسمْ الخرائط من ناحية أخرى (١) . ومن أهم انجازاتها الجيدة فى الحقل الجغرافى اخراج دراسة متكاملة عن جغرافية فرنسا ، تجاوباً منها مع النعرة الوطنية . هذا بالاضافة إلى تنشيط الرحلة الجغرافية الفرنسية وتمويلها ، لكى تعمل بنشاط عظيم على الصعيد العالمى ، ولكى تدعم الاستعمار الفرنسى فيما وراء البحار (٢) .

أما الجمعية الجغرافية البريطانية ، فلقد تولت أمر الاجتهاد الجغرافى قبل أن تدرس الجغرافية فى الجامعات بوقت كبير . ولقد عكفت هذه الجمعية على تنظيم الرحلات الجغرافية ، والاهتمام بالعمل الجغرافى ، الذى أجازته كل رحلة فى المساحة المعنية . وعرفت عندئذ كيف تطوع انجازات هذه الرحلات لحساب التعاظم الامبراطورى البريطانى فيما وراء البحار . بل ساقت الجمعية الجغرافية البريطانية العمل الجغرافى كله ، فى ركاب الاستعمار البريطانى ، وسخرت كل انجازاته فى اعلاء وترسيخ مكانة بريطانيا الامبراطورية ، على الصعيد العالمى .

والجمعية الجغرافية المصرية ، نموذج أخر اقتحمت بموجبه مصر حقل العمل الجغرافى . ولقد تأسست هذه الجمعية فى سنة ١٨٧٥ . وتولت الجمعية الجغرافية الاهتمام بالرحلة الجغرافية لحساب الكشف الجغرافى . ونذكر فى هذا المجال ، تكليف السير صموئيل بيكر ، للاسهام المباشر فى الكشف عن منابع النيل . كما تولت نشر البحوث الجغرافية فى مجلة علمية متخصصة . وكانت الجمعية من وراء ترسيخ الاهتمام بعلم الجغرافية ، حتى وجد له مكاناً فى اطار الجامعة ، ومجال الدراسات الأكاديمية .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ص٣٢٤ – ٣٢٦ .

ومن خلال هذه النماذج يمكن أن ندرك كيف امتلكت الجمعيات الجغرافية الوطنية فى الدول الأوروبية - الاستعمارية بوجه خاص - قوة الدفع والحماس والخبرة فى حقل العمل الجغرافى . بل لقد أفلحت فى توظيف هذه القدرات فى تنظيم وتوجيه وتمويل وتكليف الرحلات الجغرافية المتخصصة فى البر والبحر على السواء . وهناك سجل حافل يبين كيف اجتهدت الجمعية الجغرافية فى كل دولة من الدول الاستعمارية ، لكى توظف الرحلة الجغرافية فى خدمة الهدف الجغرافى، ولكى تطوع الهدف الجغرافى فى خدمة الانجاز الاستعمارى (١) .

هذا ، ولقد تحملت هذه الجمعيات الجغرافية الوطنية فى القرن التاسع عشر الميلادى ، الذى بلغ التنافس الاستعمارى فيه حد الذروة ، المسئولية فى شأن :

١- تحديد وتصور ما ينبغى أن تكون عليه الرحلة الجغرافية فى المساحة المعنية .

٢- تقويم الضوابط الحاكمة ، والاطار الواسع لمدى تحرك الرحلة الجغرافية وفاعليتها .

٣- اختيار وتكليف العضو ، أو الأعضاء الأنسب ، للقيام بالرحلة الجغرافية إلى المساحة المعنية .

٤- تطويع واستثمار وتوظيف منجزات الرحلة الجغرافية ، فى الأسلوب الأنسب ، وفى الأغراض الأفضل .

وهذا معناه أن الجمعية الجغرافية الوطنية ، قد حلت مكان الممول الثرى الذى ربما تفرد أحياناً فى مسألة تمويل الرحلة الجغرافية ، التى خدمت الانفتاح الأوروبى ، والكشف الجغرافى ، فى المرحلة السابقة . ويبدو أن اتساع ميدان عمل الرحلة الجغرافية على الصعيد العالمى ،

---

(١) الجغرافية الاستعمارية التى جاوبت حاجة العصر فى القرن التاسع عشر ، هى العلامة البارزة التى تجسد دور الجمعيات الجغرافية الوطنية فى تطويع العمل الجغرافى ، الذى انجزته الرحلة لحساب المصالح الاستعمارية .

وارتفاع تكاليف الرحلة ، وتعدد الرحلات فى المساحات المعنية على أوسع مدى ، قد أكد الحاجة إلى هذا التمويل المشترك ، الذى يعجز عنه الفرد أو بعض الأفراد .

وصحيح أن تولى الجمعية الجغرافية الوطنية هذا الأمر ، قد خلص الرحلة الجغرافية من عوامل الضغط والانصياع لارادة وأهواء الفرد ، الذى يمول الرحلة . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا التمويل قد أطلق العنان لكى تتحرر الرحلة الجغرافية ، وتعمل فى خدمة الهدف الجغرافى ، حتى لو كانت غير متجردة من الأهداف الأخرى غير المعلنة. بمعنى أن هذا التمويل المشترك ، كفل المصلحة العامة ، والانتفاع الجماعى العريض من انجازات الرحلة الجغرافية . وهل عدم تجرد الرحلة وتطويع انجازاتها لحساب النشاط الاستعمارى ، إلا التعبير عن الشكل الذى تصورت فيه الجمعية الجغرافية الوطنية ، معنى ومغزى وجدوى الانتفاع الجماعى بها ؟

وهذا معناه مرة أخرى ، أن الجمعية الجغرافية الوطنية ، قد قامت فى مقام المنظم ، الذى كان قد تفرد أحيانًا فى مسألة تنظيم وتوجيه الرحلة الجغرافية ، التى خدمت الانفتاح الأوروبى والكشف الجغرافى ، فى المرحلة السابقة . ويبدو أن التطلع إلى تكثيف جدوى الرحلة الجغرافية على الصعيد العالمى ، وإلى تكثيف قيمة الانتفاع بها فى المساحات المعنية على أوسع مدى ، قد أكد الحاجة إلى تنظيم وتوجيه ، لا تنفع فيه امكانيات الفرد ، ولا يصلح فيه تعليق الأمر كله بارادة الفرد أو بعض الأفراد .

وصحيح أن تولى الجمعية الجغرافية الوطنية هذا الأمر ، قد انتشل الرحلة الجغرافية من عوامل الضغط والامتثال للأهواء . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا الاشراف قد كفل وضع الرحلة الجغرافية ، فى اطار برنامج العمل الأفضل بين مجموعة الرحلات الجغرافية الأخرى ، وأحسن توجيه الرحلة فى خدمة الهدف الجغرافى ، وهى غير متجرد من أهداف أخرى غير معلنة . ولقد أمسكت هذه الجمعيات بزمام الرحلات

الجغرافية ، وعرفت كيف تنسق بينها ، وكيف تخفض ايقاعات المنافسة بينها وبين الرحلات الأخرى . ثم كفلت بعد ذلك كله المصالح الحيوية المشتركة ، الذى يسفر عنها التوظيف الأفضل ، للرحلة الجغراقية فى كل مساحة معنية .

هذا ولم يقف دور معظم الجمعيات الجغرافية الأوروبية الوطنية عند هذا الحد ، بل لقد اصطنعت أهم وأجدى علاقة بين الرحلات الجغرافية وحركة الحياة . ويكفى أنها روجت وبشرت بين الناس ، على كافة المستويات بقيمة الاجتهاد الجغرافى . وكفلت هذه الجمعيات حسن الصلة والعلاقات بين انجازات الرحلة الجغرافية وما أسفرت عنه من تفتح جغرافى مثير من ناحية ، ورجال الفكر الجغرافى ومجالات اجتهاداتهم ، وما رنت إليه من أجل ترسيخ مكانة علم الجغرافية الحديثة من ناحية أخرى . هذا بالاضافة إلى اصدار المجلات العلمية ، التى تنشر البحث الجغرافى الذى أسفرت عنه الرحلة ، وإلى دعم عمليات صناعة الخرائط وتجهيزها ، فى الشكل الذى يسجل البيان الواضح لانجازات ، تخدم التفتح الجغرافى ، على الصعيد الوطنى ، وعلى الصعيد العالمى .

واستقطاب الرحلة الجغرافية لاهتمام الجمعية الجغرافية الوطنية فى هذه المرحلة ، هو أعظم كسب وأفضل دعم انتفعت به هذه الرحلة . واعتباراً من أواخر القرن الثامن عشر ، وعلى مدى القرن التاسع عشر كله ، كانت الرحلة الجغرافية أمانة فى عنق الجمعيات الجغرافية . وصحيح أن الجمعيات الجغرافية الوطنية قد فرطت فى الأمانة ، يوم أن سخرت الرحلة الجغرافية فى خدمة الاستعمار والامبرالية ، ولكن الصحيح أيضاً أنها قد نشطت أدائها المباشر لحساب الهدف الجغرافى .

ولقد أخرجت أو نظمت هذه الجمعيات الجغرافية الوطنية ، بعض أهم الرحلات الجغرافية ، لكى تغطى المساحات المعنية على الصعيد الاسترالى والصعيد الأفريقى . وجسدت هذه الرحلات الجغرافية بالفعل مدى عناية الجمعية الجغرافية بأمر الرحلة الجغرافية . كما جسدت انجازات هذه الرحلات التى اعتزت بها الجمعيات الجغراقية ،

ومدى انهماك الرحلة فى العمل والانجاز ، لحساب التفتح الجغرافى ، والهدف الجغرافى على السواء ، فى كل مساحة معنية .

هذا ، ندرك كيف ولدت رحلة الكشف الجغرافى ، وكيف كانت تخرج ولاهم لها غير مباشرة الكشف الجغرافى . وكانت ، وهى تبحر فى المحيط الأطلنطى أو فى المحيط الهندى أو المحيط الهادى ، قد أفلحت فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالقارات ، على صعيد العالم الجديد. بمعنى أن تولت رحلات الكشف الجغرافى ، القارات ، قبل أن تتحرك لكى تصبح رحلات برية ، وكان الهدف عندئذ أن تباشر التحرك فى ربوع قارة من القارات ، لكى تسقط حاجز الغربة ، وتضع العلامات على الطرق والدروب ، توطئة لقدوم الاستعمار ، وتأمين وجوده ، سواء تمثل فى استعمار استيطانى ، أو تمثل فى استعمار استغلالى .

وينبغى أن ندرك أن مرحلة الكشف الجغرافى الأولى ، شهدت أوروبا ، وهى تمول خروج الرحلة البحرية التى كشفت القارات على الصعيد الأمريكى، أو على الصعيد الاسترالى . أما مرحلة الكشف الجغرافى التى تولت العمل على صعيد الأرض الجديدة ، فقد شهدت الجمعيات الجغرافية الأوروبية الوطنية مسئولية خروج هذه الرحلات . ومن ثم قل أن ذلك قد أتاح وضع نقطة البداية ، فى تمكين الدولة التى تنتمى إليها الجمعية الجغرافية ، من فرض وجودها الاستعمارى .

وفضلاً ، عما ندركه ونقدره بشأن جدوى الجمعيات الجغرافية وتفرغها الصادق ، وهى ترعى الرحلة الجغرافية ، يجب أن نتبين أيضاً مدى ما أسهمت به هذه الجمعيات من عناية فى شأن تنسيق العمل بين، حصة الرحلة الجغرافية البرية ، وحصة الرحلة الجغرافية البحرية ، تنسيقًا يخدم التفتح الجغرافى ، والاطلاع على الواقع الجغرافى على أوسع مدى . ونماذج هذه الرحلات الجغرافية ، التى عملت تحت رعاية الجمعيات الجغرافية الوطنية بكل الأمانة ، كان لها حيوية وتفتح وصدق التعبير عن العلاقة الوثيقة بين :

١ - اماطة اللثام عن حقيقة الواقع الجغرافى طبيعياً وبشرياً فى

المساحة المعنية . وكان فى ذلك اضافة مفيدة ومطلوبة ، إلى الرصيد الجغرافى ، وخدمة المعرفة الجغرافية والهدف الجغرافى .

٢- دعم الحضور الأوروبى المغترب فى المهجر ، سواء تمثل فى استيطان ، أو فى استثمار أو فى استعمار فى المساحة المعنية . وكان ذلك من وراء تثبيت للهيمنة الأوروبية وتطلعاتها على الصعيد العالمى .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه العلاقة التى وضعت الرحلة الجغرافية فى خدمة الهدف الامبريالى الأوروبى ، علاقة لا تضل ولا تضلل بشأن عدم تجرد هذه الرحلة . وهل كان فى مقدور الرحلة الجغرافية أن تتجرد ؟ بل وهل كان هناك من يستطيع أن يتبنى الرحلة الجغرافية ، وينتشلها من الغرض الذى أغرقها فى عدم التجرد ؟

* * *

نماذج من رحلات التفتح الجغرافى :

اعتباراً من أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، عاشت أوروبا حياة التفتح ، والانتشار والهيمنة على الصعيد العالمى . وفى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، اضافت الثورة الصناعية فى عالم غرب أوروبا بوجه خاص ، حافزاً جديداً قوياً ، ألهب هذا التفتح والانتشار ، وفجر إرادة الهيمنة الأوروبية . هذا معناه أن النظام الرأسمالى ، الذى حل محل النظام الاقطاعى ونضج النضج الكافى ، قد تولى أمر قيادة التفتح ، وتوجيه الانتشار الأوروبى وممارسة الهيمنة .

هذا ، وما من شك فى أن هذا النظام الرأسمالى الذى أمسك بزمام السياسة والاقتصاد ، وأتقن فن القيادة والتوجيه ، قد تبنى الرحلة الجغرافية من خلال الجمعيات الجغرافية الوطنية . وما من شك أيضاً فى أنه قد أطلق عنان الرحلة الجغرافية ، وأحسن توظيفها فى اطار خطط الهيمنة والتسلط ، سياسياً ، واقتصادياً ، على الصعيد العالمى . ولقد قبلت الرحلة الجغرافية إرادة الهيمنة وطاوعتها ، وتفرغت للدور الوظيفى الذى ألقى على عاتقها .

وكانت استجابة الرحلة الجغرافية ، وهى غير متجردة لأنها تطاوع إرادة الهيمنة فى مقابل معقول ، تطلعت إليه وحصلت عليه بالفعل وتمثل هذا المقابل فى طلب الأمن والتمويل والدعم ، لكى تخدم الهدف الجغرافى فى أى مساحة معنية ، من غير أن تتنكر للهدف غير الجغرافى ، أو من غير أن تقصر فى أدائه .

وتأسيساً على هذا المقابل ، اتقنت الرحلة الجغرافية العمل والأداء والبحث ، وجنت ثمرات التفتح الجغرافى على أوسع مدى . بل لقد عرفت الرحلة الجغرافية التى تجولت فى أى مساحة معنية :

١- كيف تخدم مصالح وأهداف الفكر الجغرافى الحديث ، وتجاوب إرادة الشكل العلمى ، للاطار الذى حدد معنى ومغزى علم الجغرافية الحديثة ، وتكون عيناً مبصرة له (١) .

٢- كيف تخدم مصالح وأهداف النظام الرأسمالى ، وتجاوب إرادة الهيمنة فى الشكل والأسلوب ، الذى يبتغيه هذا النظام ، وتكون عيناً مبصرة له ، ترشد تحركاته ، ومباشرة النمط الاستعمارى المعنى لحساب الدولة الأوروبية الاستعمارية .

ومن غير تفريط فى هذا الاهتمام المزدوج ، عرفت الرحلة الجغرافية جيداً ، كيف تسعف وتبصر إرادة الانتفاع الاقتصادى ، والتسلط السياسى ، فى المستعمرات مرة ، وكيف تنصر إرادة الهيمنة عليها مرة أخرى . كما عرفت هذه الرحلة أيضًا ، كيف تخدم حركة التجارة الدولية ، وما انطوت عليه من احتكار طلبًا للهيمنة على الأسواق العالمية . بل اتقنت الرحلة الجغرافية انجاز البحث الذى رشد الاستيطان ، والحضور الأوروبى المغترب ، وبصره ، حتى عرف كيف يذلل حركة الحياة ويؤمن وجودها ، فى الأرض الجديدة على صعيد المهجر .

وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية فى هذه المرحلة ، أصبحت رأس الجسر التى عبرت عليها إرادة الهيمنة ، إلى أغراضها السياسية

---

(١) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى ص٢٨٩ - ٢٩٧ .

والاقتصادية . بل قل لقد كانت الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية ، مطية هذه الارادة أحياناً ، وعينها التى ابصرت بها أحياناً أخرى .

ومن خلال النماذج المنتخبة على الصعيد الاسترالى الذى جعل منه الحضور الأوروبى البريطانى مهجراً للاستيطان ، ومرتعًا لحيازة الأرض ، ومن خلال النماذج المنتخبة على الصعيد الأفريقى ، الذى جعل منه الحضور الأوروبى المغترب حلبة صراع ومنافسة ومتحفًا انماط وأشكال الاستعمار ، يمكن أن ندرك - بكل الموضوعية - كيف عملت الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية عملاً :

١- لا يتنكر لوظيفة علم الجغرافية الحديثة ، ولا يتمرد على قواعدها وأصولها الموضوعية .

٢- لا يتجرد من الغرض الاستعمارى ، ولا يخذل النظام الرأسمالى وارادته وتطلعه للهيمنة .

بل لعل الرحلة الجغرافية التى لوثها عدم التجرد ، فى هذه المرحلة الخطيرة ، من تاريخ حياة العالم والعلاقات الدولية ، لم تخدم أغراض التفتح والبحث والمعرفة ، كما أرادت الجغرافية الحديثة لها أن تكون ، إلا من خلال وضع هذا التفتح الجغرافى كله ، فى خدمة الحضور الأوروبى المغترب فيما وراء البحار ، ورهن إرادة الغرض الاستعمارى والهيمنة . ولم تجد الكتابة الجيدة فى الجغرافية الاستعمارية (١) أفضل من حصاد هذه الرحلات الجغرافية البرية . المتفتحة ، لكى تبصر بها الاستعمار ، وتشد أزر الهيمنة والتسلط على المصير العالمى .

---

(١) من بعد الحرب السبعينة فى القرن التاسع عشر الميلادى ، سجلت الخبرات الجغرافية الفرنسية انجازات مفيدة ، وكتابات جيدة فى الجغرافية الاستعمارية . ولقد أسعف هذه الكتابة الجيدة وبصرت الدولة والاستعمار الفرنسى وعوضته خيراً أنساه مرارة الهزيمة .

راجع ١- تشرش ، هارمسون : المدرسة الجغرافية الفرنسية (جغرافية القرن العشرين) جـ١ ص٩٧ .

ب- الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى ص٣٢٧ .

وبلغ الأمر حد أن أصبح المغامرون ، ملئ السمع والبصر ، ونظر إليهم الناس فى الدول الاستعمارية ، على اعتبار أنهم بناة الامبراطوريات الاستعمارية .

* * *

استراليا والرحلة الجغرافية البرية :

اعتباراً من انتهاء مهمة الرحلة الجغرافية فى مجال الكشف عن وجود استراليا ، وتحديد مكانها الجغرافى الصحيح فى البحار الجنوبية، توجهت إليها الرحلة الجغرافية البرية ، التى عملت لحساب التفتح الجغرافى . بمعنى أنها رحلة جغرافية برية ، جمعت بين الهدف الجغرافى والغرض الاستعمارى فى وقت واحد . وبمعنى أنها رحلة جغرافية غير متجردة منذ البداية ، وهى تعمل لحساب الكشف الجغرافى على صعيد أرض استراليا .

ولقد بدأت هذه الرحلة الجغرافية خطوة بخطوة ، مع غرس نبتة الحضور البريطانى المغترب ، على أطراف استراليا الجنوبية الشرقية ، فى سنة ١٧٨٨ ميلادية . وسارت رحلة الكشف الجغرافى ، أو توجهت على الصعيد الاسترالى خطوة بخطوة ، وهى تبصر الانتشار الاستيطانى فى الأقاليم الاسترالية الأنسب . وليس من قبيل المصادفة أبداً ، أن يكون هذا التلازم بين الرحلة الجغرافية من ناحية، والاستيطان وحيازة حق الحضور والحياة فى الأرض من ناحية أخرى . ولكنه التلازم الحميم ، الذى يجسد مبلغ التزام الرحلة الجغرافية بالمسئولية ، قبل الغرض الاستيطانى البريطانى ، ودعمه وترشيد حضوره المغترب .

وما من شك فى أن انجاز الرحلة الجغرافية ، وأداء المهمة المنوطة بها على الصعيد الاسترالى ، قد اقتضى اغتراب هذه الرحلة ، وهى تفد إلى استراليا من بعيد . وما من شك فى أن الجمعيات الجغرافية ، قد أوفدت هذه الرحلات الجغرافية ومولتها وتكفلت بتجهيزها . بل قل أنها تولت التنسيق بين هذه الرحلات ، بعد ابحار طويل إلى استراليا . ولكن

والاقتصادية . بل قل لقد كانت الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية ، مطية هذه الارادة أحياناً ، وعينها التى ابصرت بها أحياناً أخرى .

ومن خلال النماذج المنتخبة على الصعيد الاسترالى الذى جعل منه الحضور الأوروبى البريطانى مهجراً للاستيطان ، ومرتعًا لحيازة الأرض ، ومن خلال النماذج المنتخبة على الصعيد الأفريقى ، الذى جعل منه الحضور الأوروبى المغترب حلبة صراع ومنافسة ومتحفًا أنماط وأشكال الاستعمار ، يمكن أن ندرك – بكل الموضوعية – كيف عملت الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية عملاً :

١- لا يتنكر لوظيفة علم الجغرافية الحديثة ، ولا يتمرد على قواعدها وأصولها الموضوعية .

٢- لا يتجرد من الغرض الاستعمارى ، ولا يخذل النظام الرأسمالى وارادته وتطلعه للهيمنة .

بل لعل الرحلة الجغرافية التى لوثها عدم التجرد ، فى هذه المرحلة الخطيرة ، من تاريخ حياة العالم والعلاقات الدولية ، لم تخدم أغراض التفتح والبحث والمعرفة ، كما أرادت الجغرافية الحديثة لها أن تكون ، إلا من خلال وضع هذا التفتح الجغرافى كله ، فى خدمة الحضور الأوروبى المغترب فيما وراء البحار ، ورهن إرادة الغرض الاستعمارى والهيمنة . ولم تجد الكتابة الجيدة فى الجغرافية الاستعمارية (١) أفضل من حصاد هذه الرحلات الجغرافية البرية . المتفتحة ، لكى تبصر بها الاستعمار ، وتشد أزر الهيمنة والتسلط على المصير العالمى .

---

(١) من بعد الحرب السبعينة فى القرن التاسع عشر الميلادى ، سجلت الخبرات الجغرافية الفرنسية انجازات مفيدة ، وكتابات جيدة فى الجغرافية الاستعمارية . ولقد أسعف هذه الكتابة الجيدة وبصرت الدولة والاستعمار الفرنسى وعوضته خيراً أنساه مرارة الهزيمة .

راجع : أ- تشرش ، هارمسون : المدرسة الجغرافية الفرنسية (جغرافية القرن العشرين) جـ١ ص٩٧ .

ب- الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى ص٣٢٧ .

وبلغ الأمر حد أن أصبح المغامرون ، ملئ السمع والبصر ، ونظر إليهم الناس فى الدول الاستعمارية ، على اعتبار أنهم بناة الامبراطوريات الاستعمارية .

* * *

استراليا والرحلة الجغرافية البرية :

اعتباراً من انتهاء مهمة الرحلة الجغرافية فى مجال الكشف عن وجود استراليا ، وتحديد مكانها الجغرافى الصحيح فى البحار الجنوبية، توجهت إليها الرحلة الجغرافية البرية ، التى عملت لحساب التفتح الجغرافى . بمعنى أنها رحلة جغرافية برية ، جمعت بين الهدف الجغرافى والغرض الاستعمارى فى وقت واحد . وبمعنى أنها رحلة جغرافية غير متجردة منذ البداية ، وهى تعمل لحساب الكشف الجغرافى على صعيد أرض استراليا .

ولقد بدأت هذه الرحلة الجغرافية خطوة بخطوة ، مع غرس نبتة الحضور البريطانى المغترب ، على أطراف استراليا الجنوبية الشرقية ، فى سنة ١٧٨٨ ميلادية . وسارت رحلة الكشف الجغرافى ، أو توجهت على الصعيد الاسترالى خطوة بخطوة ، وهى تبصر الانتشار الاستيطانى فى الأقاليم الاسترالية الأنسب . وليس من قبيل المصادفة أبداً ، أن يكون هذا التلازم بين الرحلة الجغرافية من ناحية، والاستيطان وحيازة حق الحضور والحياة فى الأرض من ناحية أخرى . ولكنه التلازم الحميم ، الذى يجسد مبلغ التزام الرحلة الجغرافية بالمسئولية ، قبل الغرض الاستيطانى البريطانى ، ودعمه وترشيد حضوره المغترب .

وما من شك فى أن انجاز الرحلة الجغرافية ، وأداء المهمة المنوطة بها على الصعيد الاسترالى ، قد اقتضى اغتراب هذه الرحلة ، وهى تفد إلى استراليا من بعيد . وما من شك فى أن الجمعيات الجغرافية ، قد أوفدت هذه الرحلات الجغرافية ومولتها وتكفلت بتجهيزها . بل قل أنها تولت التنسيق بين هذه الرحلات ، بعد ابحار طويل إلى استراليا . ولكن

المؤكد أنْ انجازات هذه الرحلات الجغرافية ، قد جسدت قيمة وجدوى الالتزام بالغرض الاستيطانى ، الذى كان أمانة فى أعناقها . وهل نشك فى أن هذه الانجازات ، هى التى بصرت الاستيطان ، وسددت خطاه فى أنحاء الظهير الاسترالى الأنسب ، للحضور البريطانى المغترب ؟

ومع ذلك ينبغى ألا يغيب عنا ادراك أبعاد هذا الالتزام وفاعليته ، حتى وإن بدت الرحلة الجغرافية البرية ، وهى غير متجردة . كما يجب أن ندرك كيف أن هذا الالتزام كان لا يتعارض اطلاقاً مع جدية الغرض أو الهدف الجغرافى . وهذا معناه بالضرورة أن اتمام الرحلة الجغرافية البرية ، فى أى مساحة معنية ، يحقق الانجاز على الوجهين تحقيقًا متوازياً ومتزامناً .

وعلى **الوجه الأول** وهو وجه غير جغرافى ، كانت الرحلة الجغرافية على الصعيد الاسترالى ، عينا أمينة شاهدت وعرفت وتحققت فى المساحة المعنية . وعندما عادت الرحلة البرية ، بصرت ورشدت الاستيطان البريطانى ، وقادت ووجهت محاور انتشاره فى مساحات الأرض ، والأقاليم الأنسب للانسان الأبيض فى المهجر . وهذا فى حد ذاته أمانة وصدق وموضوعية فى خدمة الاستيطان ، لأن الرحلة الجغرافية لم تضلل حركة الحياة ، وإن كانت قد اغتصبت الأرض .

وعلى **الوجه الثانى** وهو وجه جغرافى ، كانت الرحلة الجغرافية على الصعيد الاسترالى ، تؤيد دورها ، وهى تملك حسًا جغرافيًا موهوباً ، وادراكاً موضوعياً واعياً فى المساحة المعنية . وعندما عادت الرحلة ، بصرت ورشدت الفكر الجغرافى ، ورشدت اجتهاده المتفتح على البحث الجغرافى الجاد ، وهو وليد متيقظ فى أحضان علم الجغرافية الحديثة ومفاهيمه . وهذا – فى حد ذاته – هو عين الصدق والموضوعية ، لأن الرحلة الجغرافية لم تضل ، ولم تخذل الهدف الجغرافى ، وإن كانت قد تمادت فى عدم التجرد .

ومن الجائز أن نتصور كيف كانت مسئولية هذه الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية ، وعلى مدى الفترة من سنة ١٧٨٧ إلى سنة

١٩٠٠ ، ثقيلة وصعبة وباهظة التكاليف . ولكن المؤكد أن أداء هذه الرحلة وتكرارها وانتقالها من مساحة معينة ، إلى مساحة معينة أخرى، لم يفتر ، أولم يدركه الملل . بل نجحت كل رحلة جغرافية ، وكانت انجازاتها نافعة وفعالة ومجدية إلى أبعد الحدود ، وهى تبصر خطوات الاستيطان على صعيد المساحات الأنسب .

هذا ، وينبغى أن نذكر أن هذا العمل المستمر ، قد اقتضى أن تعمل الرحلة الجغرافية البرية ، فى ثلاث فترات زمنية متعاقبة . ولقد تحولت الرحلة الجغرافية على مدى هذه الفترات فى ثلاث قطاعات رئيسية من الأرض الاسترالية . ولا نكاد نفتقد فى متابعة الرحلة الجغرافية ، ومدى انتشارها فى هذا القطاعات الثلاث ، الخطة والتنسيق الذى عملت بموجبها الرحلة ، لكى تحقق أهدافها لحساب الاستيطان ، أو لحساب المعرفة الجغرافية على السواء (١) .

وفى الفترة الأولى : اعتباراً من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨٤٣ ، كانت مرحلة عمل الرحلة الجغرافية فى القطاع الأول . ولقد توالى على مدى أكثر من خمسين عاماً ، خروج عدد من الرحلات الجغرافية فى جولات عمل وتقصى حقائق ، ودراسة الواقع الجغرافى فى مساحات معينة . وغطت هذه الرحلات فى هذه الجولات القطاع الكبير من استراليا ، فى ظهير الساحل الجنوبى الشرقى والشرقى ، وحوض مارى دارلنج ، تغطية كاملة .

واشترك في الرحلات الجغرافية التى أنجزت هذه الجولات المتكاملة. نفر أو لفيف مغامر ، من الرحالة الهواه والمحترفين . وكانت هذه الرحلات مدعومة من جانب هيئات وجمعيات جغرافية ، بقدر ما كانت هادفة . ونذكر من بين هذا النفر المغامر من الرحالة ، تنش Tench

---

(١) راجع فى شأن هذه الرحلات .
أولاً : الجوهرى : المرجع السابق ص٣١٩ – ٣٣٥ .
ثانيًا : الشامى صلاح الدين : استراليا ، علاقة النقل بالتعمير والاستغلال الاقتصادى ص١٥/٤١ القاهرة ١٩٦٤ .

وبلاكسـلاند Blaxland وايفـانس وأوكـسلى Oxley وكننجهام Cunningham ، وستورت وهيوم . ولقد قاد كل واحد منهم رحلته الجغرافية البرية ، وبلغ الغاية المرجوة منها .

ومن خلال مراجعة التسجيلات والمدونات ، التى تضمنت اهتمامات هؤلاء الرحالة جميعاً ، أو التى صورت النتائج التى أسفرت عنها كل رحلة ، يجب أن نتبين كيف لم تقنعهم الرؤية الجغرافية المتعجلة ، مع مرور أو تحرك الرحلة الجغرافية السريع على الطريق . وعندئذ ، يمكن أن ندرك كيف تجولت كل رحلة جغرافية فى المساحة المعنية ، جولة المتأنى الذى لا يحبذ التعجل أو السطحية ، وهو يعاين الرؤية الجغرافية. وانهمك بعض الرحالة أحياناً فى تقصى الحقائق والتفاصيل الجغرافية ، بكل الخبرة والمهارة ، والصبر الذى لا ينفذ ، قبل أن يعود ويفرغ من أداء المهمة المنوطة به . وكيف لا ينهمك الرجل بكل الأمانة ، وهو طالب الكشف الجغرافى لحساب معرفة جغرافية ، لا تنفع فى شأنها رؤية متعجلة ، تفتقد التمعن والتمحيص والتدبر ؟

وإذا كان الرحالة اير Eyre قد أنهى هذه المرحلة الأولى ، لكى تنجز الرحلات الجغرافية البرية أهدافها ، التى أشبعت روح البحث ، وتعميقه فى القطاع الجنوبى الشرقى من استراليا ، فإن أهم ما ينبغى أن يلفت النظر فى هذا الشأن هو :

١- أن الاستيطان البريطانى الوافد ، كان يتقدم فى هذا القطاع الجنوبى الشرقى تقدماً حذراً .

٢- أن هذا التقدم الحذر ، قد انتفع كثيراً بانجازات الرحلات الجغرافية البرية فى حيازة الأرض ، واستخدامها فى الرعى ، أو فى الزراعة ، أو فى انشاء وتوزيع المستوطنات فى أنحائها (١) توزيعاً جغرافياً مناسباً .

وهكذا كانت هذه الرحلات الجغرافية ، وكأنها العيون الفاحصة ،

---

(١) عن الاستيطان البريطانى فى استراليا راجع :
الشامى : المرجع السابق مباشرة ص٤١/٦٤ .

التى أطلت وعاينت وتمعنت ، قبل أن تبصر وترشد . وما من شك فى أن بصيرة هذا العمل الجغرافى العملى ، وهو مباشر الكشف الجغرافى، كانت مفيدة ومطلوبة للمعرفة الجغرافية المجددة . كما كانت مثمرة لأنه قدم الدعم ، وثبت جذور الاستيطان البريطانى المبكر . ولقد أسهم هذا العمل الجغرافى الذى أنجزته هذه الرحلات الجغرافية ، فى حسن توجيه هذا الحضور البريطانى ، على صعيد مساحات الأرض الأنسب ، فى ولايات نيوسوث ويلز ، وفكتوريا ، واستراليا الجنوبية .

وفى الفترة الثانية : اعتباراً من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٧٥ ، كانت مرحلة عمل الرحلة الجغرافية فى القطاع الثانى . ولقد توالى فى هذه المرحلة ، وعلى مدى أكثر من ثلاثين عامًا ، خروج الرحلات الجغرافية وطوافها فى جولات عمل ، وتقصى حقائق جغرافية ودراسة الواقع الجغرافى فى مساحات معنية واسعة . وغطت هذه الجولات الطويلة أو القصيرة على حد سواء ، قطاعًا كبيراً من الأرض على صعيد استراليا الوسطى . وتلمست كل رحلة جغرافية ، وهى تتجول وتطوف أهدافها ، من غير أن تتعجل ، أو من غير أن تتخوف من وحشة المكان ، فى القلب الاسترالى الصحراوى الفسيح .

ولقد توجهت بعض هذه الرحلات الجغرافية فى جولات قصيرة المدى ، توجه الباحث الدقيق والمدقق ، وهو يعاين ويتأمل ويمحص الرؤية الجغرافية فى أنحاء المساحة المعنية . ونذكر من هذه الرحلات الجغرافية رحلة ليكهارت وكندى ، وجويجوى ، ووابرتون ، وهان . ولقد انبرت كل رحلة من هذه الرحلات الجغرافية البرية، وهى تتحسس الأرض – إلى أداء المهمة المنوطة بها فى المساحات المعنية أداء ناجحًا ، بكل المقاييس الجغرافية الموضوعية ، طبقاً لحاجة العصر انذاك .

وتوجهت بعض هذه الرحلات الجغرافية فى جولات طويلة المدى وشاقة ، توجه الاستيطان الواعى الحريص ، وهو يبحث عن الطريق ويختار للاقدام موضعها الصحيح ، لكى يعبر القارة من الشمال إلى الجنوب ، أو من الجنوب إلى الشمال . ونذكر من هذه الرحلات

الجغرافية المغامرة فى جوف الصحراء الاسترالية ، وهى تفصل بين الأقاليم المعتدلة ، والأقاليم المدارية ، رحلات ليكارت ، ويورك ، ويل . ولقد انبرت كل رحلة من هذه الرحلات الجغرافية ، وهى تقطع الطريق إلى كشف النقاب ، عن أكبر قطاع من استراليا المدارية الحارة .

ومن خلال مراجعة المدونات والتسجيلات ، التى تضمنت اهتمامات هذه الرحلات الجغرافية ، أو التى صورت النتائج التى أسفرت عنها كل رحلة من هذه الرحلات ، يمكن أن نتبين كيف كانت الرحلة الجغرافية البرية إلى المساحة المعنية ، رحلة عمل جغرافى حقيقى ، لحساب الكشف والمعرفة الجغرافية . كما يجب أن تدرك كيف تأنت تحركات كل رحلة من هذه الرحلات الجغرافية ، وهى تمعن النظر وتجيب على الاستفسارات لحساب الاستيطان .

وبصبر لا ينفد ، كانت الرحلة الجغرافية فى المساحة المعنية أو على الطريق ، وكأنها تتفقد الواقع الجغرافى ، وتتلمس خصائص الأرض . وبكل الخبرة التى لا تضل ، حققت كل رحلة من هذه الرحلات الجغرافية غاية البحث الجغرافى المفيد . وما من شك فى أن هذه الانجازات ، هى التى جعلت الأرض الاسترالية كتاباً مفتوحًا ، تحت بصر الحضور البريطانى المغترب ، وفى بصيرة أصحاب الكتابة الجغرافية عنها .

وكم من رحلة جغرافية ناجحة ، قد عكفت على تحديد محاور انتشار واستيطان الحضور البريطانى المغترب ، فى اتجاه القلب الصحراوى، أو على الصعيد المدارى الحار ، أو فى أنحاء ولاية كوينزلند. بل لقد قادت ووجهت هذا الانتشار توجيهاً بصيراً ، ولم تقصر . كما مكنت للاستيطان فى مساحات الأرض الأنسب ، وفى مباشرة أساليب التعايش لحساب حركة الحياة ، إلى ما هو أفضل .

والأهم من ذلك كله ، ليس هو كثافة الرحلات الجغرافية وتعددها ، وليس هو التداخل بين المسئوليات ، التى تصدت لانجازها كل رحلة فى المساحات المعنية فقط ، بل هو روح التعاون والتنسيق الجيد فيما

بينهما ، فى مجالات التحرك والعمل ، أو فى مجالات تجميع أوصال الرؤية الجغرافية . وما من شك فى أن صدق وموضوعية ، ونفاذ بصيرة هذا العمل الجغرافى العملى المشترك ، قد أفلح فى :

١- ترسيخ العلاقة بين ، انجازات الرحلات الجغرافية ، والاستيطان وحسن اختيار المساحات الأنسب .

٢- توجيه الاستيطان إلى ممارسة الاستخدام الأفضل للأرض وموارد الأرض المتاحة .

وفى الفترة الثالثة ، اعتباراً من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٩٠٠ ، كانت مرحلة عمل الرحلة الجغرافية فى القطاع الثالث . ولقد توالى فى هذه المرحلة ، وعلى مدى حوالى ربع قرن ، خروج الرحلات الجغرافية وطوافها فى جولات عمل ، وتقصى حقائق جغرافية ، وفى دراسة واقع جغرافى فى مساحات معنية . وغطت هذه الجولات فى هذه المساحات المعنية ، قطاعًا كبيراً من الأرض على صعيد الغرب والجنوب الغربى الاسترالى . وتلمست كل رحلة جغرافية ، وهى تطوف وتتجول ، أهداف البحث الجغرافى مرة ، ومصالح الاستيطان وامكانياته فى هذه المساحات مرة أخرى .

ومن غير تفريط أو تعجل ، توجهت هذه الرحلات الجغرافية التوجه الجغرافى العلمى ، الذى يلفت النظر . وخاض هذه التجربة الجيدة رحالة من طراز خبير ، وأكثر تفتحًا . وربما كان معظمهم من أهل الخبرة الجغرافية الأكثر نضجاً . وخبرة بالعمل الميدانى الجغرافى ، أثناء الرحلة ، وما يبتغيه علم الجغرافية الحديثة من هذا العمل . وكان بعضهم أكثر الحاحاً فى طلب المعرفة الجغرافية فى بعض المساحات المعنية . وهل يجد هذا الالحاح فى المقابل ، أقل من أن تجيب الأرض ، أو أن يبوح الواقع الجغرافى بكل ما عنده من أسرار ، يطلب من باشر الرحلة معرفتها ؟

وكانت تجارب الرحلات الجغرافية فى هذه المرحلة ، تجارب متطورة بالفعل . وكفل هذا التطور فريق من الرحالة الأكثر تنوراً .

ونذكر من بينهم الرحالة فانفنيك ليندس وماسون . وكلهم خبير جيد . بل كلهم من الرحالة الذين جابوا المساحات المعنية فى غير عجلة ، وجاوبوا إرادة البحث الجغرافى المتفتح من غير تهاون . ولقد تلمس بعضهم تفسير الظاهرات الجغرافية تفسيراً مقبولاً . وتلمس بعضهم الآخر حسن تجسيد صورة الواقع الجغرافى ، ووصفه وصفاً تفسيرياً جيداً ، فى تلك المساحات المعنية .

ومن خلال مراجعة التسجيلات والمدونات ، التى تضمنت اعمال الرحلة الجغرافية ، وجسدت اهتمامات ومهارات الرحالة ، واقدمت على تحليل الواقع الجغرافى فى المساحات المعنية، يجب أن ندرك مبلغ العمق فى الرؤية ، وتقصى الحقائق الجغرافية فيها . كما ينبغى أن نتبين مدى التمعن فى دلالات هذه الرؤية الجغرافية وتحليلها ، ومدى الاستفسار فى المساحة المعنية ، والتساؤل والبحث عن الاجابة فى أنحائها .

ولسنا فى حاجة إلى اجتهاد ذكى ، لكى ندرك كيف طاوع الاجتهاد الجغرافى الخبير ، الذى تصدى لانجاز الرحلة الجغرافية ، إرادة علم الجغرافية الحديثة ، وكيف واكب العمل الجغرافى فى الرحلة ، قواعد العمل الميدانى الجغرافى الصحيحة . وظهر كما لو كان الرحالة فى أنحاء المساحات المعنية ، يسأل الأرض عن خصائصها ، وعن الضوابط الحاكمة ، التى يمكن أن تواجه حركة الحياة فيها ، وهى تباشر الاستيطان واستخدام الأرض .

* * *

والدراسات التى أفضت إليها هذه الرحلات الجغرافية ، قد اتخذت شكلاً مبكراً ، وغير ناضج من المسح الجغرافى الشامل ، فى أنحاء المساحات المعنية . وصحيح أن انجازات هذه الرحلات الجغرافية ، قد عملت عملاً مفيداً ، لحساب البحث عن الذهب ومصادر الثروة ، وترشيد حركة استقرار الحضور البريطانى المغترب فى هذه الأرض . وصحيح أيضاً أن مصلحة هذه الرحلات الجغرافية ، قد أوضحت بياناً بأهم التفاصيل ، التى تجسد الواقع الجغرافى فى الغرب الاسترالى .

ولكن المؤكد بعد ذلك كله ، أنها رحلات وانجازات كشف جغرافى ، لم تفقد الصلة بالعملية الجغرافية ، ومما تراه وتقبل به وتلح فى طلبه ، لدى انجاز البحث الجغرافى العلمى .

أفريقية والرحلة الجغرافية :

على الصعيد الأفريقى ، كانت الرحلات الجغرافية التى عملت لحساب التفتح الجغرافى ، فى القرن التاسع عشر الميلادى ، أكثر تنوعًا، وأكثر اثارة . بل كانت الجمعيات الجغرافية الوطنية فى عالم غرب أوروبا على وجه الخصوص ، أكثر عناية واهتماماً بهذه الرحلات الجغرافية . ولا شئ يفسر ذلك ألا تطلع الدول الأوروبية الاستعمارية إلى استخدام الرحلة الجغرافية ، وكأنها رأس حربة فى الصراع على حيازة الأرض الأفريقية ، أو رأس جسر للتسلل الاستعمارى إليها .

وينبغى أن نؤكد أن هذه الرحلات الجغرافية ، التى تنعمت باهتمام الجمعيات الجغرافية الوطنية ، قد جاوبت إرادة النظام الرأسمالى وتطلعاته إلى استثمار الاستعمار من غير أدنى تحفظ . بل أصبحت الرحلة الجغرافية مطية إرادة الهيمنة ، التى انطوى النظام الرأسمالى عليها أحياناً ، أو التى أعلنها صراحة أحياناً أخرى . وهذا معناه أنها كانت رحلة جغرافية ، غير متجردة من الغرض ، وهى تعمل لحساب الاستعمار الأوروبى .

ولقد عملت هذه الرحلات الجغرافية فى هذه المرحلة ، عملاً نشيطاً وفعالاً ومنسقاً غاية التنسيق ، فى اطار العلاقات الأوروبية الأفريقية غير المتوازنة . وحتى المنافسات بين الدول الأوروبية الاستعمارية ، لم تطعن فى جدوى هذا التنسيق . بل قل أنها لم تجرده أبداً من حق توظيف الرحلة الجغرافية توظيفاً ، يخدم الغرض الاستعمارى المباشر أو غير المباشر .

ومنذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٣ ، كانت العلاقة بين أوروبا وأفريقية ، علاقة غير سوية أو غير متوازنة . ولقد تطورت هذه العلاقة فى شكلها غير السوى ، لأنها كانت دائماً علاقة بين طرفين

غير متكافئين . وهل تكون العلاقة سوية بين ، الطرف الأقوى ، وهو الرجل الأوروبى بكل تطلعاته وعدوانيته من جانب ، والطرف الآخر ، وهى الأرض الأفريقية بكل ما يطوقها من غموض وابهام من جانب أخر؟ وهل هناك تكافئ بين الرجل والأرض ؟ وهل هناك أسوأ من علاقة تنشأ بين الرجل الأوروبى ، والأرض الأفريقية ، وتهمل فى نفس الوقت الرجل الأفريقى صاحب الحق فى هذه الأرض ؟

هذا ، ودون أن تكترث هذه العلاقة والضوابط الحاكمة لها من جانب الطرف الأقوى ، بمصالح وجود وحقوق وإرادة الرجل الأفريقى ، تشكلت هذه العلاقة غير السوية ، اعتباراً من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادى فى شكلين . وعاش كل شكل من هذين الشكلين ، فى مرحلة خاصة ومتميزة .

وفى المرحلة الأولى التى شهدت الشكل الأول عاش الحضور الأوروبى المغترب على الهامش الأفريقى ، فى مراكز تجارة منتخبة بعناية . وكان الاهتمام الأوروبى موجه إلى الأرض الأفريقية ، بل قل لقد أهمل الأوروبيون أى اهتمام بالناس ، على صعيد هذه الأرض وكانت هذه المراكز المنتخبة تقع على أفضل المرافئ البحرية ، وأكثرها قدرة على تأمين اقتراب السفن واقلاعها . ولم يهمل هذا الحضور الأوروبى المغترب ، فى شأن تحصين هذه المواقع ، خوفًا وتحسبًا لعدوان الأفريقيين عليها .

وربما ساور هذا الحضور الأوروبى المغترب شيئاً من الخوف من الأفريقيين ، فى الظهير أحياناً ، وتحصن بمواقعه واحتمى بها . وربما تشجع هذا الحضور الأوروبى أحياناً أخرى ، وصد العدوان أو هاجم الأفريقيين بكل الشراسة فى الظهير ، وانتصر عليهم فى عقر دارهم . ولكن المؤكد أن هذا الحضور الأوروبى المغترب ، قد اعتاد على أن يستقبل البحر ، حيث يؤمن التحرك الملاحى البحرى ويشد أزره ، وأن يستدير اليابس الأفريقى فى الظهير القريب أو البعيد ، حيث لا حاجة له به .

وهذا معناه أن اهتمام أوروبا واهتمامات الرجل الأوروبى بأفريقيا ، لم تتجاوز حد الموقع الحصين ، الذى تألق فيه دور الحضور الأوروبى المغترب . وسواء استدبر الحضور الأوروبى الظهير الأفريقى ، تخوفاً من الغموض والابهام ، وعدم وضوح الرؤية الجغرافية ، أو تحسباً لما ينطوى عليه ويخفيه هذا الظهير الغامض من أخطار ، فلقد وقفت العلاقة بين ، الرجل الأوروبى الأبيض ، والأرض الأفريقية الغامضة عند هذا الحد .

وحيث لا حاجة للحضور الأوروبى المغترب فى هذا الظهير الغامض ، فإنه لم يجد ما يدعو إلى تنظيم رحلة جغرافية برية ، تتسلل إليه ، وتكشف النقاب عنه ، أو تقتحمه عنوة وتتعرف عليه . وربما لم يكن فى مقدور الرحلة الجغرافية ، أن تجاوب إرادة هذا الحضور الأوروبى ، لو قدر له أن ينفتح ويتعرف ويتعامل مع الظهير الأفريقى المباشر . ومن ثم نعرف جيداً لماذا لم يكن فى وسع الرحلة الجغرافية ، أن تفعل شيئاً أو أن تتحمل أعباء أى انجاز ، على الصعيد الأفريقى .

وفى الرحلة الثانية التى شهدت الشكل الثانى عاش الحضور الأوروبى على الهامش الأفريقى فى مراكز التجارة الحصينة ، وقد عدل أوضاعه ، وتعلق أمله بالظهير الأفريقى . والتطلع إلى الظهير معناه تحول فى شكل العلاقة بالقطع ، مع هذا الظهير والناس الذين يعيشون فيه . وما من شك فى أن هذه العلاقة قد امتدت بموجبها اليد الأوروبية الآثمة ، لكى تتعامل ، وتعتدى على الناس فى الظهير ، لكى تباشر تجارة العبيد . بمعنى أن تحول الاهتمام الأوروبى ، وجهة الاهتمام بالناس على الصعيد الأفريقى .

وفى الوقت الذى تفرغت فيه عين الحضور الأوروبى المغترب ، التى تؤمن حركة المرور البحرى لأداء هذه المهمة ، وهى تطل على المحيط ، وترقب التحركات فيه عن كثب ، امتدت اليد وتلصصت العين الأخرى على أقصر وأضيق مدى ، لكى تعتدى على الناس . وربما تورطت بعض رحلات جغرافية غير متجردة ، لكى تخدم الغرض الأوروبى

اللاخلاقى. ولكن المؤكد أن هذه الرحلات الجغرافية البرية ، التى ترددت فى هذا التوجه اللاخلاقى ، لم تكترث بالفعل بالرؤية الجغرافية ، وهى فى خدمة النخاسة وتجارة العبيد .

وهذا معناه أن اهتمام أوروبا واهتمامات الحضور الأوروبى المغترب بالرحلة ، التى تسللت وتلصصت فى الظهير الأفريقى ، لم يضع فى اعتباره أبداً الهدف الجغرافى ، أو الكشف الجغرافى . بل ربما افتقدنا فى مثل هذه الرحلة ، الانتماء الحقيقى للعمل الجغرافى . فلا هى رحلة كشف جغرافى ، واماطة اللثام عن المجهول الجغرافى من الأرض والناس على هذه الأرض ، ولا هى رحلة تفتح جغرافى ، وانجاز مطلوب للبحث الجغرافى على الأرض وسكانها . ولم تستهدف هذه الرحلة أكثر من ترشيد العدوان أو مباشرته على الانسان الأفريقى ، وهى تعمل لحساب تجارة العبيد .

ولقد أسأت هذه الرحلة كثيراً ، وهى تبصر الرجل الأوروبى ، وهو يصطاد أو يتصيد الرقيق ، ويصدره من مراكز التجارة على ساحل غرب أفريقية . كما تمادت فى الحماقة أحياناً أخرى ، وهى تعاون الرجل الأوروبى ، عندما أقدم على تحويل النصارى من المذهب الأرثوذوكسى إلى المذهب الكاثوليكى فى الظهير الحبشى . واستجابة الرحلة لارادة الحضور الأوروبى المغترب ، وهو يعيث فساداً فى بعض أنحاء الظهير الأفريقى ، أبعدها تماماً عن خدمة الهدف الجغرافى ، والاهتمام بالكشف الجغرافى .

وصحيح أن مراحل العلاقات بين الحضور الأوروبى المغترب والأرض الأفريقية (١) ، قد بدأت اعتباراً من القرن السادس عشر . وصحيح أيضاً أن هذه العلاقات كانت غير سوية وبطيئة الايقاع ،

---

(١) راجع مسألة العلاقة بين أوروبا وأفريقيا فى (أ) الجمل ، شوقي : تاريخ كشف أفريقية واستعمارها ص٥٩ – ٦٩ – القاهرة ١٩٧١ .

(ب) الشامى ، صلاح الدين : دراسات فى الجغرافية السياسية ط٢ ص١٦٩ – ١٨٠ – الأورنج سنة ١٧٧٢ .

ومشوبة بكل الحذر ، ومتحفزة بكل العدوان ، سواء وهى تؤمن حركة الملاحة البحرية والمرور البرئ حول اليابس الأفريقى ، أو وهى تشن العدوان اللاخلاقى على الناس فى الظهير الأفريقى ، وتباشر النخاسة . ولكن المؤكد أنها علاقات جرمت الرحلة الجغرافية البرية ، وطعنت فى جدوى اهتمامها بالعمل الجغرافى فى الصميم .

وفى نهاية القرن الثامن عشر ، حاول الحضور الأوروبى المغترب أن يعدل أوضاعه ، ويطور علاقته بالأرض الأفريقية . ولقد حاول أن يوجه الرحلة الجغرافية البرية الوجهة التى تجاوب المتغيرات السياسية ، والاقتصادية ، التى فرضت الضوابط الحاكمة لهذه العلاقات . وما من شك فى أن النظام الراسمالى ، قد أحسن استخدام أو توظيف الجميعات الجغرافية الوطنية فى دول غرب أوروبا ، لكى يمسك بزمام هذه العلاقات ويستثمرها .

وفى **المرحلة الثالثة** فى أثناء القرن التاسع عشر ، كانت قضية الغاء الرقيق فى سنة ١٨٣٠[١] ، نقطة التحول الحقيقية فى شأن العلاقة، بين الحضور الأوروبى المغترب فى جانب ، والأرض الأفريقية فى جانب أخر ، كما أراد لها النظام الراسمالى أن تكون . بمعنى أن هذا الحضور قد تطهر من خطيئة النخاسة ، وما تنطوى عليه من اهدار للأدمية ، وعدوان على كرامة الانسان . ولكن التطهر من هذه الخطيئة . كان مقدمة لتردى العلاقة بين الحضور الأوروبى المغترب فى جانب ، وأفريقية فى جانب أخر ، ووقوع افريقية فى براثن خطيئة الاستعمار ، وما تنطوى عليه من اهدار لحق الشعوب ، ومصالحها الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، لحساب الاستثمار الأوروبى .

ولقد أخذت الجمعيات الجغرافية عندئذ بزمام المبادرة ، ووظفت الرحلة الجغرافية توظيفاً يخدم تطلعات التفتح الأوروبى ، سواء وهو يطلب الكشف الجغرافى عن الأرض ، أو وهو يجهز للاستعمار ، أو

---

(١) الجمل ، شوقى : المرجع السابق ص٧١ – ١٠٨ .

وهو يحمل لواء التبشير المسيحى . ولقد شددت الدولة الأوروبية على قيمة الرحلة الجغرافية البرية ، وشدت أزرها على الصعيد الأفريقى . وباركت الكنيسة تحرك الرحلة وبشرتها برضوان الله . أما رجال الفكر الجغرافى المهتمون بعلم الجغرافية ، فقد استبشروا بها خيراً ، وتوقعوا الاضافة الجديدة ، إلى رصيد المعرفة الجغرافية .

هذا ، وكان حضور الكنيسة فى المرحلة السابقة ، التى شهدت الأوروبى ، وهو يعمل فى تصيد وبيع وتصدير الرقيق حضوراً نشيطاً. ولقد تكفل هذا الحضور آنذاك بتنصير الرقيق ، قبل ترحيلهم وتوجههم المشئوم إلى الصعيد الأمريكى الفظ ، أو إلى الموت غرقاً ، فى قاع المحيط . ولكن التحول الجوهرى فى شكل العلاقة العدوانية ، بين الحضور الأوروبى فى جانب ، والأرض الأفريقية فى جانب آخر ، فى القرن التاسع عشر ، قد فتح شهية الكنيسة ودعاها إلى الاسهام الحقيقى فى الرحلة الجغرافية . كم من مغامر متخصص ، خاض تجربة الرحلة الجغرافية البرية ، وهو يمنى نفسه بالمثوبة من عند الله .

ومن الجائز أن تنظيم هذه الرحلات الجغرافية البرية ، وتوظيفها التوظيف المتعدد الأغراض ، كان تحت رعاية الجمعيات الجغرافية الوطنية المباشر أو غير المباشر . ومن الجائز أن نتبين كيف أيدت الدول الأوروبية فى غرب أوروبا هذا التوظيف ، وشدت أزره وترقبت نتائجه . ولكن المؤكد أن الكنيسة التى أحست بضرورة العمل فى ميدان التبشير بالنصرانية ، بين أقوام افريقية الوثنية ، قد تحمست وأضافت من عندها قوة الدفع المثيرة . ولم يقف دور الكنيسة وقوة دفعها عند حد مباركة الرحلة الجغرافية البرية ، والدعاء لها بالتوفيق فقط . بل قل لقد أسهمت بالمال والرجال ، اسهاماً حقيقياً فى تحريك الرحلة . وهل كانت تطلب غير فتح الطريق أمام المبشرين ، وتأسيس الارساليات المسيحية على الصعيد الأفريقى ؟

* * *

وهكذا ، يجب أن نتابع بكل التفتح أبعاد هذا التطور فى شكل

وطبيعة العلاقة ، بين الحضور الأوروبى المغترب وأفريقية ، لكى ندرك بعض أهم المتغيرات التى أسفرت عن تحريك الرحلة الجغرافية المتعددة الأغراض . بل ينبغى أن نفلح من خلال هذه المتابعة لعمل الرحلة الجغرافية البرية المتعددة الأغراض فى أن ندرك :

١- كيف كان اتجاه التحول فى العلاقة بين أوروبا وأفريقيا قبل القرن التاسع عشر الميلادى اتجاهاً حذراً وبطيئًا إلى حد كبير ، وكيف كانت الرحلة الجغرافية أعجز من أن تعمل عملاً ، لغير العمل اللاخلاقى .

٢- كيف كان اتجاه هذا التحول فى القرن التاسع عشر ، من ايقاع البطء والحذر والتخوف ، إلى ايقاع التعجل والاندفاع والتهور ، وكيف أصبحت الرحلة الجغرافية البرية ، المتعددة الأغراض مطية لهذا التحول وامعانه فى الخطيئة .

ومن خلال هذه المتابعة ، ينبغى أن نسجل - على كل حال - مبلغ التوازى والتزامن ، بين اندفاع الرحلة الجغرافية البرية غير المتجردة المجرم من جانب ، واندفاع الدول الأوروبية الاستعمارية المتلهف ، على حيازة الأرض من جانب آخر . وصحيح أن الرحلة الجغرافية واندفاعها المتهور قد أيد وشد أزر الاندفاع الاستعمارى النهم . ولكن الصحيح أيضًا أن توظيف الرحلة الجغرافية البرية غير المتجردة ، من جانب الجمعيات الجغرافية الوطنية ، قد فرض عليها أن تلهب المنافسات الاستعمارية ، فى أفريقية السوداء على وجه الخصوص .

ولأن مراكز التجارة فى المواقع المنتخبة على السواحل الأفريقية ، كانت بمثابة رأس الجسر وحلقة الاتصال بين أوروبا المتفتحة . فى جانب ، وقلب أفريقية المجهولة المنغلقة فى جانب آخر ، فلقد ضمت هذه المراكز الحضور الأوروبى المغترب المقيم ، أو الوافد على حد سواء . ومن هذه المراكز التجارية ، بدأت دائمًا عدوانية الرجل الأوروبى ، فى اطار الشكل السائد للعلاقة بين أوروبا وأفريقيا . وما من شك فى أن عدوانية المرحلة الأخيرة فى القرن التاسع عشر ، قد أطلقت العنان لهذه

الرحلات الجغرافية البرية المتعددة الأغراض وحملتها ، مسئولية فتح الطريق ، من أجل ممارسة العدوان . وأصبح شعار كل رحلة جغرافية غير المعلن ، هو توظيف منجزاتها فى خدمة الاستعمار ، وتوظيف منجزات الاستعمار ، فى خدمة الحضور الأوروبى والنظام الرأسمالى ومصالحه الاقتصادية .

وهكذا عملت الرحلة الجغرافية البرية المتعددة الأغراض ، ووظفت التفتح الجغرافى فى المساحات المعنية على الصعيد الأفريقى ، لحساب النظام الرأسمالى ، الذى هيمن على حركة الاقتصاد العالمى ، ومنطق السياسة الأوروبية المتسلطة . ومن ثم اصطنع منهما معًا سبيلاً ومنهجًا وارادة ، لا تخفى تحركات مسيرة الهيمنة على العالم ، وتوجهاتها الايجابية . ومثلما وضعت الرحلة الجغرافية البرية التى خرجت للكشف الجغرافى ، وأبحرت فى أعالى البحار ، حجر الأساس فى بناء النظام الرأسمالى ، وضعت الرحلة الجغرافية البرية فى هذه المرحلة ، بين أيدى النظام الرأسمالى الامبريالى أسباب القوة والقدرة، على مباشرة الاستعمار والهيمنة .

وصحيح أن هناك رحلات جغرافية غير متجردة ، ورحلات غير جغرافية أصلاً ، قد توغلت فى مساحات من الظهير الأفريقى قبل عام ١٧٩٠(١) . وصحيح أن هذه الرحلات قد أنجزت الغرض أو الأغراض ، التى خرجت وتحركت من أجلها . ولكن الصحيح أن الرحلات الجغرافية البرية المتعددة الأغراض ، التى عملت على الصعيد الأفريقى ، فى الفترة من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٩٠٠ ، هى الرحلات التى خدمت أهداف وتطلعات النظام الرأسمالى ، وفتحت الطريق لاعلاء شأنه ومكانته وهيمنته .

---

(١) من الرحلات التى تسللت إلى مساحات معينة فى أفريقية ، تلك التى دخلت عن طريق مصر للكشف عن منابع النيل أو التى تسللت عن طريق شرق أفريقية والحبشة ، ومن أشهر الرحلات نذكر رحلة بونسيه إلى السودان سنة ١٦٩٩ . أما رحلات القرن الثامن عشر ، فنذكر منها رحلة جيمس بروس إلى الحبشة فى سنة ١٧٦٨ ، ورحلات جوردن وباترسون فى حوض نهر الأورنج سنة ١٧٧٠ .

وعن الرحلات الجغرافية البرية فى المرحلة قبل سنة ١٧٩٠ ، يجب أن ندرك أنها لم تتجرأ ، ولم تقدم على ارتياد المساحات المعنية ، إلا تحت عين ساهرة وتأمين السلطة المحلية الحاكمة لها . ومع ذلك ولم يكن فى وسع السلطة أن تدرك أنذاك ، أنها رحلات مشبوهة ، وينبغى التخوف من أغراضها غير المعلنة ، لحساب النظام الراسمالى الأوروبى . ومع ذلك فإن هذه الأغراض غير المعلنة ، لم تكن من حيث الخطورة ، تضارع الأغراض غير المعلنة ، فى القرن التاسع عشر الميلادى .

الرحلة الجغرافية وتعدد الأغراض :

هذه الرحلة الجغرافية البرية على الصعيد الأفريقى ، تتفرد عن غيرها من الرحلات الجغرافية البرية ، فى أى قارة أخرى ، من حيث عدم التجرد مرة ، ومن حيث تعدد الأغراض مرة أخرى . ولا وجه للمقارنة بينها – مثلاً – وبين الرحلة الجغرافية غير المتجردة على الصعيد الاسترالى ، لأن هذه الرحلة الأخيرة لم تصل فى مستوى تعدد الأغراض ، إلى ما وصلت إليه الرحلة الجغرافية على الصعيد الأفريقى . وما من شك فى أن تعدد أغراض هذه الرحلة الجغرافية البرية ، قد استوجب أعظم اهتمام ودعم ، قدمه النظام الراسمالى لها ، وللجمعيات الجغرافية الوطنية ، التى تنظمها .

ولقد اقتحمت هذه الرحلة الجغرافية البرية الأرض الأفريقية بكل الجسارة والاقدام ، فى وقت تفتقد فيه الأمن والقبضة القوية ، التى تؤمنها فى معظم المساحات المعنية . ويعزى لهذه الرحلات الجغرافية المثيرة ، التى خدمت التفتح الجغرافى ، وعملت بموجب توجهات وأهداف علم الجغرافية الحديثة ، اماطة اللثام عن معظم غموض افريقية الجغرافى . بل قل أنها كشف النقاب تماماً عن الصور الجغرافية فيها . وما من شك فى أنها لم تكف عن الطواف فى كل مساحة معنية ، إلا بعد أن جعلت منها صفحة فى كتاب مفتوح ، وأحاطت حركة الحياة الأوروبية بها علماً .

وصحيح أن هذه الرحلة الجغرافية البرية غير المتجردة ، قد أثارت

الاعجاب والاهتمام ، عندما هتكت حجاب الغموض الأفريقى . وصحيح أيضاً أنها فى اطار تعدد الأغراض ، قد فتحت الطريق لكى :

١- يتقدم المبشر المسيحى ، ويغرس نبتة الايمان باللّه فى أفريقية الوثنية ، وهو أمن .

٢- يقدم الاستثمار الأوروبى الاحتكارى ، ويجنى ثمرات التعامل مع الموارد المتاحة ، والتهام حقوق الأفريقيين ، وهو مطمئن .

٣- ينجح الاستعمار ويبسط سلطانه ونمط تسلطه وبطشه ، ويحقق كل تطلعاته ، وهو مهيمن .

وإذا كان ذلك كله صحيحاً ، فإن الصحيح أيضاً ، الذى لا ينبغى أن نتشكك فيه رغم ذلك كله ، هو جدوى هذه الرحلة الجغرافية البرية من وجهة النظر الجغرافية العلمية ، وخدمة الهدف الجغرافى العلمى المفيد.

وادانة الرحلة الجغرافية متعددة الأغراض وتجريمها ، لا يجب أن يصل حد كتم أنفاس الحقيقة ، فى شأن أداء هذه الرحلة ، وما قدمته بالفعل لحساب الهدف الجغرافى . وكيف يمكن أن نسكت عن هذه الحقيقة ؟ وهذه الرحلة الجغرافية رغم كل شئ ورغم كل ادانة أو تجريم، قد أضافت اضافات ممتازة ومطلوبة بكل الالحاح إلى الرصيد الجغرافى العلمى . بل وكيف يمكن أن نشك أو أن نتشكك فى جدوى هذه الرحلة الجغرافية ؟ وهى رغم عدم التجرد (١) ، قد فتحت شهية البحث على الصعيد الأفريقى ، وفى كل مساحة معنية ، لحساب تطلعات الجغرافية الحديثة .

ولأن أفريقية بكل غموضها الأسطورى ، كانت مسرحاً مفتوحاً للمنافسات المعلنة ، بين زمرة الدول الأوروبية الاستعمارية ، التى طلبت حيازة الأرض ، لأكثر من سبب ، أو لأكثر من غاية ، لعب النظام الرأسمالى الراسخ فى بنية كل دولة من هذه الدول دور بارزاً فى

---

(١) عدم التجرد الذى تستحق من أجله التجريم ، لا يعنى أقل من أنها أباحت لأوروبا فرص انتهاك حرمة الأرض ، وحق الناس فى أفريقية .

استنفار الرحلة الجغرافية البرية . ومن خلال الجمعيات الجغرافية الوطنية قدم النظام الرأسمالى الدعم والتمويل ، للرحلة الجغرافية . ومن خلال مراكز التجارة التى احتوت الحضور الأوروبى المغترب على الساحل الأفريقى ، كانت عين النظام الرأسمالى الساهرة ، وهى ترقب وتحرس الرحلة الجغرافية البرية . ومن خلال التحرك الأوروبى السريع، بعد نجاح كل رحلة جغرافية برية فى المساحة المعنية ، تكشفت الأغراض التى كانت من أجلها هذه الرحلة الجغرافية .

وهكذا جعل النظام الرأسمالى فى كل دولة من دول غرب أوروبا الاستعمارية من الرحلة الجغرافية البرية ، رحلة غير متجردة وتستحق التجريم . وكيف لا تستحق هذه الرحلة التجريم والادانة ؟ وهو يوظفها وتطاوعه ، أو وهو يكفلها ويتخذ منها مطية . لكى يعيث فى الأرض الأفريقية ، فساداً وظلمًا واستنزافًا وهيمنة . ولا رحلة جغرافية برية واحدة فى القرن التاسع عشر ، يمكن أن تفلت من الادانة والتجريم ، أو أن تتبرأ من عدم التجرد ، فى هذه المرحلة على الصعيد الأفريقى .

وكانت الرحلة الجغرافية غير المتجردة ، تؤدى دورها الوظيفى بعناية فى المساحة المعنية ، وفى معيتها أصحاب الغرض والغاية ، وبوجه مكشوف لا يستحى فى بعض الأحيان . كما كانت فى بعض الأحيان الأخرى ، تؤدى دورها الوظيفى المتعدد الأغراض فى المساحة المعنية ، من غير أن تصطحب معها أصحاب الغرض ، أو من غير أن تعلن عنه . ولكنها فى كل حالة من هاتين الحالتين ، كانت وهى تستحق التجريم ، رحلة جغرافية ناجحة وموفقة بكل المقاييس الجغرافية العلمية الموضوعية . وكيف لا تكون ناجحة وموفقة ؟ وهى الرحلة التى جاوبت إرادة علم الجغرافية وفلسفة الفكر الجغرافى الناضج ، وما انطوى عليه من منطق ومغزى ومرمى يطالب به العمل الجغرافى الميدانى النشيط .

وذهاب الرحلة الجغرافية غير المتجردة وعودتها وطوافها ، فى أنحاء المساحة المعنية ، كان من شأنه أن يكشف الغطاء عن أبعاد الواقع الجغرافى ، حتى تغمر الأضواء هذه المساحة . وما من شك فى أن

وضوح الرؤية الجغرافية ، قد أباح وييسر أمر الدول الأوروبية ، سواء تمثل فى اجتهاد تبشيرى بالمسيحية ، ينشر بالنصرانية ، أو فى اجتهاد استيطانى يؤمن حيازة الأرض ، أو فى اجتهاد اقتصادى يوظف الاستثمارات لحساب رأس المال الأوروبى . وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية عندما أماطت اللثام وكشفت الغموض ، عن الواقع الجغرافى فى أى مساحة معنية ، كانت تعلم جيداً أنها غير متجردة ، وهى :

١- تخدم الهدف الجغرافى ، ولا تفريط فى العمل الميدانى المناسب، والأداء من أجل هذا الهدف .

٢- تعمل رأس جسر للاستعمار ، ولا تفريط فى فتح الطريق وتأمين العمل والأداء فى مصالح الاستعمار .

وبكل الامتنان استثمر الاجتهاد الجغرافى محصلة الرحلة الجغرافية البرية استثماراً جيداً ، وأطل من خلالها على الواقع الجغرافى السائد ، فى الصعيد الأفريقى ، دون أن يعترض على افساد الاستعمار فيها . وبكل المهارة ، طوع النظام الرأسمالى ، محصلة الرحلة الجغرافية تطويعًا انتفع به الاستعمار ، سواء وهو بدعم الاستيطان والحضور الأوروبى المغترب فى الأرض الأنسب ، أو وهو يطلق يد الاستغلال النهم فى الموارد الأفضل ، أو وهو يوقظ جشع ونهم وشراهة الاستهلاك الأفريقى فى الأسواق الأوسع .

وبكل الرضا الذى تقبل به الضمير الأوروبى الرحلة الجغرافية البرية ، وهى عين مبصرة أطل بها فأشبعت نهمه للرؤية الجغرافية ، تقبل أيضًا الرحلة الجغرافية البرية وهى عين متفتحة أطل بها ، فأشبعت تطلعه للهيمنة والاستعمار والافساد . وما استنكر الضمير الأوروبى قط هذه الصحبة وتوجهاتها غير الأخلاقية ، أو اعترض عليها، وهى تعيث فى أفريقية فساداً كبيراً أضر بحركة الحياة فى ربوعها .

تحركات الرحلة الجغرافية فى أفريقية :

توجهت الرحلة الجغرافية البرية ، إلى القلب الأفريقى ، واقتحمت

الغموض والابهام ، من كل الجبهات . وربما خضع أمر البداية وتوجه الرحلة الجغرافية للاختيار ، من أجل التسلل والاقتراب وتنفيذ المهمة ، وبلوغ الغاية فى المساحة المعنية . ومع ذلك دب النشاط فجأة ، فى ظل تعاظم تداعيات الثورة الصناعية على الصعيد الأوروبى ، على كل الجبهات ، وانطلقت الرحلات الجغرافية البرية منها ، انطلاقاً مسعوراً من غير تردد إلى كافة المساحات المعنية .

وصحيح أن الجمعيات الجغرافية الأوروبية الوطنية ، كانت على علم بهذه الرحلات الجغرافية ، وخططت لها وأمسكت بزمامها وكلفتها وحملتها الأمانة والمسئولية . ولكن الصحيح أيضًا أن مراكز الحضور الأوروبى المغترب ، المتفتح على كل جبهة من الجبهات الأفريقية ، قد يسرت انطلاق الرحلة الجغرافية وشدت أزرها ، وتلهفت على عودتها مظفرة . ولقد شهدت هذه المراكز توجه الرحلات الجغرافية البرية ، فى مغامرات مثيرة ، إلى المساحات المعنية ، من أجل مباشرة دورها الوظيفى ، الذى كان مبشراً ونذيراً بقرب ساعة الوصول الاستعمارى ، وانتهاك كل أرض تطوف فى أرجائها .

ولأن توجه الرحلة الجغرافية كان توجهًا متعجلاً ، ولأن توغل الرحلة الجغرافية كان توغلاً متخوفاً ، وهو يواجه المجهول ، فلقد سارت الرحلة الجغرافية فى الغالب مع المجارى النهرية وأحواضها ، فى اتجاه المساحة المعنية . ولأن كل الأنهار الأفريقية الكبرى شاذة ، ولا تصلح للابحار النهرى ، فلقد كانت الرحلة الجغرافية رحلة برية صعبة ، ولم تستخدم الأنهار والملاحة النهرية ، إلا فى مسافات محدودة وقصيرة وصولاً إلى المساحة المعنية .

وصحيح أن توجه الرحلة الجغرافية ومسيرتها مع مجارى الأنهار ، قد يسر مهمة صعود ، أو اجتياز الحافات الوعرة الصاعدة ، إلى الهضاب الأفريقية . وصحيح أن اصطحاب الدليل الوطنى ، قد بصر مسيرة الرحلة الجغرافية البرية إلى المساحة المعنية . ولكن الصحيح أيضًا أن تحرك الحالة الجغرافية ، وأمنها على الطريق لم يسلم من مواجهة المتاعب والتحديات ، ولم يعفيها من أخطار المغامرة . وكم من

رحلة جغرافية برية ، خاضت التجربة الصعبة ، وواجهت المخاطر ، وانتصرت وعادت وهى تستحق الاعجاب . كم من رحلة جغرافية خاضت التجربة الوعرة ، وواجهت الخطر ، وانتكست وعادت وهى تستحق الاشفاق . وكم من رحلة جغرافية ضاعت واستسلمت وسحقتها التجربة القاتلة ، ولم تعرف طريق العودة .

وصحيح أن توجه الرحلة الجغرافية ومسيرتها فى دروب القوافل ، قد يسر مهمة اجتياز الصحراء الأفريقية الكبرى . وصحيح أن اصطحاب الدليل الخبير بدروب الصحراء ، كان مفيداً لكيلا تضل الرحلة الجغرافية ، أو تضيع فى جوف الصحراء . ولكن الصحيح أيضاً أن تحرك الرحلة الجغرافية وأمنها على الطريق ، لم يسلم من مواجهة المتاعب والتحديات ، ولم يعفيها من أخطار المغامرة . وكم من رحلة جغرافية برية تخوفت وترددت وأحجمت ، فلم تقدم على اتمام مسيرة الرحلة ، وعادت بالفشل والاحباط ، وهى تستحق التقريع . وكم من رحلة جغرافية أخرى خانها الحظ ، وخذلتها الظروف ، وانتكست وعادت بالخيبة والفشل ، وهى تستحق الاشفاق . وكم من رحلة جغرافية ضاعت واستلمت وسحقتها التجربة القاتلة ، ولم تعرف طريق العودة .

ومع ذلك ، هناك رحلات جغرافية برية خاضت التجربة وأقدمت عليها وتقدمت وحالفها التوفيق . ومثل هذه الرحلة الجغرافية البرية الموفقة ، هو الذى أنجز المهمة المنوطة بها ، وعادت وقد حققت كل الأغراض التى تكبدت المشقة من أجلها . وتلك هى الرحلات الجغرافية ، التى اماطت اللثام ، وأفلحت فى اقتحام وهتك حجاب الغموض الجغرافى ، على الصعيد الأفريقى .

***

وعلى جبهة **غرب أفريقية** ، اقترنت الرحلة الجغرافية منذ البداية ، بمسألة الكشف عن نهر النيجر . ولقد غلف الغموض جريان هذا النهر، والمساحة التى تحتوى حوضه الكبير . وكان الحجاب أكثر كثيف ، إلى

حد امتناع أى بصيص من ضوء ، يكشف عن ثغرة تفضى إلى معرفة ملامح الواقع الجغرافى ، فى الظهير الأفريقى ، الذى يحتوى حوض النهر الغامض . ولم يشفع للرحلة الجغرافية البرية ، وهى تضرب وتتخبط فى هذا الغموض ، بداية العلاقة فى مواقع الحضور الأوروبى المغترب ، منذ وجودها على المدى الطويل بداية مبكرة منذ القرن السادس عشر ، على امتداد هذه الجبهة العريضة ، من مصب نهر السنغال إلى مصب نهر الكنغو .

ولقد بدأت الرحلة الجغرافية فى هذا المناخ الغامض ، اعتباراً من سنة ١٧٩٦ . واقتحمت الرحلة الجغرافية الظهير الأفريقى ، لاجلاء هذا الغموض ، وحل مسألة نهر النيجر ، وحل عقده معرفته المستعصية . وتولى مونجابارك الانجليزى الجسور ، أمر هذه الرحلة الجغرافية البرية المبكرة ، وهو شديد اللهفة والاصرار والمثابرة ، من أجل انجاز هذه المهمة . ولم تكن الرحلة نزهة تروح عن النفس ، ولكنها كانت قطعة من المشقة والمعاناة والتخبط . وما من شك فى أنها قد حققت بعض النجاح فقط ، وليس كل النجاح المرتقب .

ومن أجل كل النجاح ، كرر مونجابارك الرحلة الجغرافية البرية مرة أخرى . وقد تطلع بارك إلى توثيق بعض البيانات الجغرافية ، التى كان قد حصل عليها من قبل ، فى رحلته الجغرافية السابقة . كما تطلع إلى تحقيق الاضافة ، التى تزداد بها المعرفة الجغرافية اطمئناناً . ونجاح مونجابارك فى رحلته ، قد أكد للجمعيات الجغرافية ، أن التحرك فى الرحلة الجغرافية البرية ، هو مسيرة الارادة والتوجه الصحيح . كما فجر هذا النجاح واستنفر رحلات جغرافية كثيرة أخرى ، لكى تدخل التجربة على هذا الصعيد .

ومن بعد اختراق حجاب الغموض ، واستنفار روح المغامرة فى الجمعيات الجغرافية الأوروبية الوطنية ، توالت على هذا الظهير الأفريقى الفسيح رحلات جغرافية متعددة . وكانت بعض هذه الرحلات الجغرافية البرية انجليزية ، وهى بتكليف من قبل الجمعية الجغرافية

البريطانية، وتنطلق من مراكز الحضور البريطانى على ساحل غرب أفريقية ، وتعمل بكل الهمة لحساب بريطانيا . وكانت بعض الرحلات الجغرافية البرية الأخرى فرنسية ، وهى بتكليف من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وتنطلق من مركز الحضور الفرنسى المغترب ، على ساحل غرب أفريقية ، وتعمل بكل النشاط لحساب فرنسا .

وعندما تعمل الرحلة الجغرافية لحساب دولة معينة ، وتعلن عن ذلك صراحة تكشف عن حقيقة وأبعاد عدم التجرد . كما يمكن أن نتبين كيف كانت الرحلة الجغرافية البرية ، متعددة الأغراض ، لحساب هذه الدولة . ولكن عندما تعمل أكثر من رحلة جغرافية على نفس الصعيد لحساب أكثر من دولة ، تجسد روح المنافسة ، ودور الرحلة الجغرافية فى تصعيد هذه المنفاسة ، بين هذه الدول الأوروبية المعنية بالاستعمار ، على الصعيد الأفريقى .

ومن شأن السباق الذى التهب بين رحلات جغرافية انجليزية ، وهى توغل على محاور طولية من الجنوب إلى الشمال ، أو من الساحل فى اتجاه حد الصحراء من ناحية ، ورحلات جغرافية فرنسية ، وهى توغل على محاور طولية من الشمال إلى الجنوب ، أو من حد الصحراء فى اتجاه الساحل من ناحية أخرى ، أن يفضح هذه المنافسة بين بريطانيا وفرنسا ، وما تنطوى عليه من أغراض يجرى التنافس عليها . وهذا هو التأكيد الواضح عن عدم تجرد الرحلة الجغرافية البرية ، وعن تعدد أغراضها ، وعن مدى انصياعها لارادة الدولة ، ومدى حماسها لتطلعاتها الاستعمارية .

ولا يمكن أن تبرئ الرحلة الجغرافية نفسها ، أو أن تتنصل من الادانة والتجريم ، فى مسألة العلاقة بين وضوح الرؤية الجغرافية وكشف الغموض الجغرافى من ناحية ، واستباحة هذا الظهير الأفريقى وتمزيق أوصاله لحساب الاستعمار من ناحية أخرى . ويفضح هذه العلاقة الرديئة ، تبعية مساحات من هذا الظهير الأفريقى للاستعمار الفرنسى ، وتبعية مساحات أخرى منه للاستعمار البريطانى . وحتى

البرتغال قد وجدت الفرصة ، واختطفت لاستعمارها مساحة صغيرة في هذا الظهير[1] .

وفي هذه المساحة المعنية ، وعلى صعيدها الفسيح ، اهتدت رحلات جغرافية برية كثيرة ، وانجزت المهام المنوطة بها واستحقت الاعجاب ممن يهمه الأمر ، وضلت رحلات جغرافية أخرى ، ولم تنجز شيئًا واستحقت الاحباط والحسرة .

فأما التي اهتدت على هذا الصعيد ، فقد أفلحت في اماطة اللثام عن مسألة النيجر ، وفي مسح الظهير الرحب على جبهة غرب أفريقية مسحًا جغرافيًا عامًا ، وفي اطلاق يد التنفاس الاستعماري على حيازة الأرض . ونذكر من هذا القبيل رحلات كالابرتون وكايل وغيرهما . وقد تجولت وطافت وعاينت الواقع الجغرافي وكشفت النقاب عن الأرض والناس ، في أنحاء الظهير الواسع .

وأما التي ضلت على هذا الصعيد ، فقد ضاعت وضاع معها ، المغامرون ، وضاعت الأغراض ، التي تطلعت إليها . ونذكر من هذا القبيل تلك الرحلة ذات الشعبتين ، التي ضيعت الشعبة الأولى الرحالة تكي ، وضيعت الشعبة الثانية الرحالة كامبل ، وهما يقصدان النيجر في سنة ١٨١٦ .

* * *

وعلى جبهة **شمال أفريقية** التي شهدت نشأة الحضارة المبكرة ، منذ آلاف السنين ، وعاشت نبض المدنيات المتنورة ، في حوض البحر المتوسط والشرق القديم ، جاءت الرحلة الجغرافية البرية ، في القرن

---

(١) راجع تفاصيل الرحلات على صعيد الظهير الأفريقي في غرب افريقية في الكتب التالية :

أ- رياض ، زاهر : الاستعمار الأوروبي في أفريقية - القاهرة سنة ١٩٦٠ .

ب- الجمل ، شوقي : تاريخ كشف افريقية واستعمارها - القاهرة سنة ١٩٧١ .

جـ- الشامي صلاح الدين : دراسات في الجغرافية السياسية ط٣ - القاهرة سنة ١٩٨٢ .

التاسع عشر ، لكى تبدأ المغامرة كما خطط لها الاهتمام الأوروبى . وصحيح أنها تتوجه من هذه الجبهة ، لكى تتمم مسيرة رحلات غير جغرافية ، ورحلات جغرافية سابقة ، فى اتجاه الصحراء والقلب الأفريقى، ولكن الصحيح أيضاً أنها وفدت وتصدت لانجاز المهمة المنوطة بها ، وهى تنطوى على الأغراض المتعددة ، وتعمل لحساب النظام الرأسمالى وتطلعاته الاستعمارية ، على امتداد الصعيد الأفريقى كله .

ولقد ميزت الرحلة الجغرافية منذ البداية بين شطرين ، على امتداد هذه الجبهة الطويلة من الشرق إلى الغرب . ولأن الاختلاف بيّن وواضح، بين شطر يقع فى حصة مصر والظهير الفسيح ، الذى يحتوى حوض النيل وجريان النهر العظيم من الجنوب إلى الشمال ، وشطر آخر يقع فى حصة المغرب العربى الكبير ، الذى يفضى التوجه منه إلى جوف الصحراء الكبرى ، كان من الطبيعى أن تميز الرحلة الجغرافية البرية ، بين جدوى التحرك بداية من أى من هذين الشطرين غير المتناظرين . بل يجب أن نتوقع عدم التوازن ، أو عدم التوازى ، بين مدى وفاعلية انطلاق الرحلة الجغرافية البرية ، من الجبهة التى يتضمنها كل شطر من هذين الشطرين .

وفى **الشطر الأول** الذى يدخل فى حصة مصر ، التزمت الرحلة الجغرافية التزاماً قاطعًا بالكشف عن منابع النيل . وهذا معناه أنها قد واصلت التطلع الذى رنت إليه مصر على المدى الطويل ، وأكملت المشوار الطويل . ومعناه أيضًا أن الرحلة الجغرافية ، قد تجنبت الصحراء ، ولم تغامر فيها بما تستحق وتوجهت مع ضفاف النهر بصفة عامة . وما كان عليها أن تفعل غير ذلك ، أو أن تتوجه فى غير هذا الاتجاه .

ولأن مصر كانت قد تيقظت وأفاقت ، من بعد الهزة العنيفة ، التى اصطنعتها غزوة الحملة الفرنسية ، ولأن مصر دولة لها مكانها ومكانتها ، فلقد تبنت مصر هى الأخرى الرحلة الجغرافية البرية ، التى بدأت من أراضيها . وما من شك فى أن مصر كانت حريصة ، على أن لا

تتم رحلة من هذه الرحلات الجغرافية فى غيبتها ، ودون علمها . وربما تكون مصر الدولة قد تخوفت من النشاط الأوروبى ، وتماديه عن ارتياد الأرض الأفريقية . وكان من حقها بالفعل أن تطمئن ، وأن تؤمن مصالحها ، حتى لا تتضرر مصالحها فى الظهير على الصعيد السودانى ، بالنشاط الأوروبى .

وعلى عهد محمد على استخدمت مصر زمرة من الرحالة الأوروبيين ، والمصريين على السواء ، فى الرحلة الجغرافية البرية ، لأنها صاحبة خبرة سابقة فى انجاز بعض الرحلات ، فى أنحاء الأقاليم السودانية . وتحت مظلة الأمن التى كفلها الحضور المصرى الحاكم فى الأقاليم السودانية ، انطلقت الرحلة الجغرافية . وأنجز هذا التوجه نتائج مفيدة ، انتفع بها الحكم فى الأقاليم السودانية . بل وتوالى انطلاق الرحلات الجغرافية انطلاقاً متحرراً من الخوف ، لانجاز مزيد من التفتح والانتشار والدراسة الجغرافية فى حوض الغزال (١) .

وعلى عهد اسماعيل ، واصلت الرحلة الجغرافية اهتمامها ، بالتقدم جنوباً نحو القلب الأفريقى . ولقد تبنت مصر هذه الرحلات الجغرافية ، وتكفلت بتمويلها . بل لقد كان تأسيس الجمعية الجغرافية المصرية فى سنة ١٨٧٥ ، خصيصاً من أجل تبنى وتمويل وتوجيه وتوظيف الرحلة الجغراية البرية ، توظيفاً يخدم مصالحها على الصعيد الأفريقى . ووظفت مصر الرحلة الجغرافية مثل رحلة سير صموميل بيكر ليس لمجرد أن تكشف النقاب عن النيل ، ولكن بقصد تجنب الفضول

---

(١) نذكر من الرحلات التى زارت مساحات من الأقاليم السودانية ، ننيان دى بلفوند البلچيكى (١٨٢٧) ماكاد لفين وبروفرى (١٨٢٩) وروبل الألمانى (١٨٢٩) وهوسكز (١٨٣٣) وكومب (١٨٣٣) وفرن (١٨٣٩) وينلم (١٨٣٧) وروسبحير (١٨٣٧) وبرون لوية (١٨٤٣) ولبسيوس الألمانى . هذا بالاضافة إلى رحلات بكباشى سليم فى أنحاء بحر الجبل .
راجع الشامى صلاح الدين : دراسات فى النيل ص٤٧ – ٥٢ – القاهرة ١٩٦٧ .
مقار نسيم : البكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل – القاهرة ١٩٦٠ .

الأوروبى ، واستبعاد الاستعمار الأوروبى وكبت شهواته ، وإبعاده عن حوض النيل ، ومصالح مصرفية (١) .

وفى **الشطر الآخر** ، الذى يدخل فى حصة المغرب العربى الكبير ، التزمت الرحلة الجغرافية البرية التزاماً قاطعاً ، باختراق حاجز الصحراء الكبرى . ومعروف أن اجتياز الصحراء من المغرب إلى السودان (الجغرافى) قبل التزام الرحلة الجغرافية البرية المتخصصة ، كان أمراً عادياً ، تقوم به القوافل على دروب شهدت انتشار الإسلام فى اتجاه الجنوب . ولكن يبدو أن الرحلة الجغرافية البرية المستجدة ، التى التزمت باحتياز الصحراء والتعرف عليها جغرافياً ، أو كشف غموضها الجغرافى ، كانت تبيت النية السيئة ، وتعمل خفية لحساب الغرض الاستعمارى .

واختراق حاجز الصحراء الكبرى ، معناه أن الرحلة الجغرافية البرية كانت على علم بالتحديات الصعبة ، على الطريق ومتاعب المشوار. ومعناه أيضاً أن هذه الرحلة الجغرافية قامت فى غيبة ، أى دولة أو حكومة فى المغرب الكبير ، ولم يفطن أحد للغرض الذى خرجت من أجله . ومعناه مرة أخرى أن خروج هذه الرحلة الجغرافية البرية ، وتوجهها ، كان من شأنه أن يتمم أبعاد التفتح الأوروبى ، الذى أتى إلى أفريقية ، وتسلل إليها من كل جانب ، وهو يفتح الأبواب لحساب الغزو الاستعمارى .

وسواء بدأت الرحلة الجغرافية التحرك ، وعملية اجتياز الصحراء من طرابلس ، أو من طنجة ، فإنها قد واجهت الخطر وجهاً لوجه ، على الطريق . بل تحملت كل رحلة من هذه الرحلات عواقب المغامرة الخطيرة ، وهى تخترق حاجز الصحراء ، أو وهى تطوف فى أنحاء من

---

(١) قول اسماعيل المشهور : « أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا » فيه دلالة التعبير على ارادة تبنى الخط السياسى الأوروبى على الصعيد الأفريقى ، من أجل استبعاد الحضور الأوروبى وفضوله ، عن حوض النيل ومصالح مصر فيه .

الصحراء الأفريقية الكبرى . وكانت الجمعيات الجغرافية الوطنية فى فرنسا وبريطانيا ، من وراء حفز وتنظيم وتمويل هذه الرحلات الجغرافية . بل كانت لا تكف عن الالحاح ، وهى تطلب وتكلف الرحلة الجغرافية البرية بالتصدى لكشف النقاب أو اماطة اللثام ، عن الغموض الجغرافى على صعيد الصحراء الأفريقية الكبرى .

ولقد قامت أكثر من رحلة جغرافية ، لاختراق حاجز الصحراء الكبرى وارتياد المساحات المعنية منها ، فى الفترة من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨٦٠ . وتحمس نفر من المغامرين لأداء هذه المهمة . وكانت رحلة لوكاس سنة ١٧٨٨ ، التى قامت تحت رعاية الجمعية الجغرافية البريطانية غير موفقة . والصدمة أو الاحباط الذى قرر مصير هذه الرحلة الجغرافية المبكرة ، لم يوقف الاندفاع المحموم ، أو لم يثنيه عن عزمه ، بل دعا إلى التجهيز الأفضل للرحلة الجغرافية البرية مرة أخرى ، لكيلا تفشل مرة أخرى .

وقامت بالفعل رحلات جغرافية كثيرة ، نذكر منها رحلة هورنمان، وريتشى ، ولون ، وينهام ، فى أعوام متعاقبة (١). ونجحت كل رحلة من هذه الرحلات ، فى انجاز المهمة المنوطة بها ، وغطت المساحة المعنية ، ولكن أهم الرحلات الجغرافية التى أفلحت أكثر من غيرها ، هى رحلة ريتشاردسون ، وبارت ، وأوفرج ، فى سنة ١٨٥٠ . وبعد نجاح رحلة رولفر فيما بعد سنة ١٨٦٠ ، تكاملت عمليات المسح الجغرافى العام ، وتكاملت مواصفات الصورة الجغرافية ، على صعيد الصحراء الأفريقية الكبرى(٢).

---

(١) هناك اسهام عربى متواضع قدمه التونسى الذى توجه من المغرب إلى وادى ورادور عبر الصحراء الكبرى فى سنة ١٨١٣ . ونشر من بعد هذه الرحلة كتابه المشهور « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . ولقد اشترك فى تحقيق هذا الانجاز د. خليل عساكر ود. مصطفى مسعد .

(٢) عن الكشف الجغرافى وارتياد الصحراء الكبرى . راجع : الجوهرى : المرجع السابق ص٢٥٧ – ٢٦١ .

الرحلات ناجحة ، إلى الحد الذى آثار الاهتمام فى بعض الأوساط الأوروبية . ولقد عملت هذه الرحلات الجغرافية ، بكل النشاط ، على اماطة اللثام عن أنهار أورنج ولمبوبو وزمبيزى وأحواضها ، على سطح هضاب أفريقية الجنوبية . ولم تفتر همة هذه الرحلات الجغرافية البرية، وهى تطوف حتى عرفت اتجاهات الجريان ، واطلعت على الواقع الجغرافى من حولها .

ولأن نجاح هذه الرحلات الجغرافية ألهب الحماس ، وفجر روح المغامرة ، وحفز التطلعات الأوروبية فى دول غرب أوروبا ، فلقد توالت بعض أهم الرحلات الجغرافية البرية اعتباراً من سنة ١٨٤١ . وتطلعت كل هذه الرحلات إلى اتمام المسيرة التى كانت قد بدأت ، ولا ينبغى أن تتوقف ، حتى تتحقق الأغراض الأوروبية ، المعلنة وغير المعلنة ، على هذا الصعيد الأفريقى . وتحركت هذه الرحلات الجغرافية ، بهمة وعزم لا يفتران ، وكأنها كانت تتنافس على الصعيد الأفريقى المدارى الاستوائى .

وصحيح أن الجمعيات الجغرافية الوطنية ، أمدت هذه الرحلات ، بكل المعونة والخبرة ، لكيلا تتخبط . ولكن الصحيح أيضاً أن الرحالة قد استعانوا بخبرات الدليل المحلى ، واصطحبت معظم الرحلات هذه الخبرة . وكانت معظم هذه الخبرات من أصول عربية ، وينتمون للحضور العربى المغترب على سواحل شرق أفريقية . ولقد لمعت أسماء بعض هؤلاء الرجال جنباً إلى جنب مع أسماء الرحالة الذين اجتازوا المخاطرة ، وأنجزوا المهمة وذاع صيتهم (١) .

وصحيح أن هذه الرحلات الجغرافية ، قد حققت نجاحاً سريعاً ، وانجزت انجازات فذة . وصحيح أن بعض الادلاء العرب ، قد وظفوا خبراتهم فى خدمة الرحلة ، حتى استحق الواحد منهم حصته فى نجاح

---

(١) من أشهر الادلاء العرب الشيخ السنى ، الذى رشد رحلة برتن وسبيك ، وهما فى طريقهما للكشف عن منابع النيل . (الشامى : دراسات فى النيل ص٥٤) .

الرحلة . ولكن المؤكد أن كل رحلة جغرافية – فى حد ذاتها – ، كانت قد انطوت على الاصرار والعزم والمثابرة وامتلكت القدرة وقوة الدفع ، لكى تنجح فى أداء المهمة ، التى تكفلت بها على هذا الصعيد الأفريقى . بل لقد وجدت كل رحلة جغرافية البرية ، عملت على هذا الصعيد فى عالم قلب أفريقية ، الدعم المادى والمعنوى الذى شد أزرها وألهب حماسها .

ونذكر من هؤلاء الرحالة ، وكلهم أصحاب شهرة ليفنجستون . وهو بكل تأكيد – صاحب أكبر رصيد من الرحلات الجغرافية الناجحة ، فى عالم قلب أفريقية . بل لقد حمل لواء الرحلة الجغرافية ، وقاد مغامراتها المثيرة على مدى فترة من سنة ١٨٤١ إلى سنة ١٨٥٣ ، سواء كان قد خرج إليها منفرداً ، أو كان قد أشرك معه آخرين . ومن غير أن تفتر همة هذا الرجل ، غطى مساحات كبيرة ، وأطل على الواقع الجغرافى السائد فيها ، وقد أضاف اجتهاد ليفنجستون ، شيئاً مفيداً إلى الرصيد الجغرافى .

وفى الرحلة الجغرافية الأولى ، غطى ليفنجستون مساحات كبيرة على صعيد بتشوانالند فى جنوب أفريقية . وغطى فى الرحلة الثانية مساحات أخرى كبيرة ، فى حوض نهر زمبيزى وصحراء كلهارى . وقد طلف بها حتى أشبعته الرؤية الجغرافية . أما فى رحلته الجغرافية الثالثة، فلقد غطى مساحات أخرى فى قلب أفريقية ، فيما حول بحيرتىّ نياسا وتنجانيقا ، وأعالى حوض الكنغو(١) . وما أروع الصدق فى الوصف الجغرافى ، والكتابة التى جسد فيها ليفنجستون تحركاته ورؤيته ، وكشفت النقاب عن كثير من الغموض الجغرافى الأفريقى .

ونذكر من هؤلاء الرحالة أيضًا ، برتن ، وسبيك ، وجرانت ، وصمويل بيكر ، وكانت رحلاتهم الجغرافية على سطح هضاب شرق أفريقية فى الفترة من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٨ . وهم جميعاً شركاء شهرة فى حل العقدة الجغرافية المستعصية ، فى مسألة كشف النيل

---

(١) الجوهرى : المرجع السابق ص٢٥٣ – ٢٥٧ .

ومنابعه الاستوائية . وسواء جاءت رحلاتهم من ساحل شرق أفريقية ، أو من مصر والسودان ، فلقد وضعت الكلمة الأخيرة الموفقة ، التى أنهت اجتهاد مثابر دام لأكثر من آلاف السنين ، وهو يبحث فى شأن الكشف عن منابع النيل (١) الاستوائية .

وفى مرحلة تالية أضاف رحالة آخرون ، منهم ستانلى ، وشوينفرت ، ومن خلال رحلات جغرافية أخرى ، اضافات جديدة . ولقد كفلت هذه الرحلات الجغرافية البرية ، مزيداً من الوضوح الجغرافى ، عن كل المساحات المعنية على صعيد القلب الاستوائى الأفريقى . وسجل الرحلات الجغرافية فى القرن التاسع عشر ، يبدو حافلاً بنشاط عظيم . ولم تفتر الهمة أبداً فى شأن توظيف هذه الرحلة الجغرافية البرية المدعومة ، من الجمعيات الجغرافية الأوروبية ، فى أفريقية .

وصحيح أن انجازات هذه الرحلات الجغرافية الباهرة ، على مدى القرن التاسع عشر الميلادى ، قد فتحت السبل ، أمام شركات التجارة ، والاستثمار وارساليات التبشير المسيحى ، وسلطة الاستعمار الأوروبى بكل أشكاله الاستيطانى ، والاقتصادى ، والاستراتيجى ، على الصعيد الأفريقى . وصحيح أيضاً أنها أشعلت نار الفتنة والمنافسة ، والصراع الأوروبى على حيازة الأرض واستعمارها ، وألهبت تطلع النظام الرأسمالى للهيمنة على العالم ، ومصيره الاقتصادى ، والسياسى . ولكن المؤكد أن هذه الرحلات الجغرافية قد صعدت ونمت ووثقت العلاقة بين :

١- اجتهاد الرحلة الجغرافية البرية وما تسفر عنه من حصاد أو اضافة ، تعزز المعرفة الجغرافية وتدعم الاجتهاد العلمى الجغرافى .

٢- تفتح الفكر الجغرافى ، واضافاته المبدعة إلى علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

---

(١) الشامى : المرجع السابق ص٥٢ – ٥٨ .

ومهما يكن من أمر الرحلة الجغرافية المتخصصة ، التى خدمت التفتح الأوروبى فى كل الأنحاء ، وهى تكف النقاب عن استراليا ، وأفريقية ، وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وتتردى فى سوْات عدم التجرد وتعدد الأغراض ، فإنها قد ازداد التصاقا وتشبثا بمسيرة الفكر الجغرافى ، وعلم الجغرافية الحديثة . والمقصود بالتشبث والالتصاق ، أن تطاوع الرحلة الجغرافية الباحث الجغرافى ، أو تجارب الرحلة الجغرافية فى أى مساحة معنية فلسفة هذا الفكر الجغرافى ومنهجه ، وما يبتغيه من أساليب العمل الجغرافى العملى .

هذا ، وكان من شأن الرحلة الجغرافية ، حتى ولو كانت متعددة الأغراض وغير متجردة من خطايا النظام الرأسمالى ، أن قدمت إلى الفكر الجغرافى والعمل الجغرافى :

١- بعض العلماء والمفكرين ، الذين خرجوا إلى الرحلة الجغرافية البرية ، خروج الهواة . ومع ذلك فجرت الرحلة فيهم الحس الجغرافى الفطرى ، ونورت بصيرتهم الجغرافية ، وأنستهم تخصصاتهم العلمية الأصلية . وعادوا منها واشتغلوا فى حقل التفكير الجغرافى ، وبلغوا المكانة المرموقة بين الجغرافيين . ونذكر منهم على سبيل المثال اسكندرفون همبولت ، الذى أصبح بعد الرحلات الجغرافية فيما وراء البحار ، علمًا مرموقًا من أعلام المدرسة الجغرافية الألمانية . وهل ننكر أنه هو الذى رسخ دراسة ، الجانب الطبيعى من الدراسة الجغرافية ، وهو الأب الشرعى للجغرافية الطبيعية ؟

٢- الرصيد الجيد من الكتابات الجغرافية . وسواء سجل الرحالة هذا الرصيد أثناء الرحلة فى مذكرات ، أو بعد أن فرغ من انجاز الرحلة الجغرافية . وقد جاء هذا التسجيل تسجيلا أمينًا وصادقًا وموضوعيًا . ولقد تضمن هذا الرصيد كتابات ، تدخل فى اطار أدب الرحلة . ومع ذلك يمكن أن ينتفع بها البحث الجغرافى . أما الكتابات الجغرافية البحتة ، فهى لا تشرد ، ولا تتمرد على الاطار الحاكم لمفهوم علم الجغرافية ، وتوجهاته العلمية . ولقد أضافت هذه الكتابات شيئًا مهمًا ، رنت أو

تطلعت إليه المعرفة الجغرافية ، وأوضحت معنى وجدوى تجسيد الرؤية الجغرافية ، فى المساحة المعنية التى زارتها كل رحلة جغرافية برية من هذه الرحلات . بل لقد بددت هذه الكتابة الجغرافية ، كل الغموض الجغرافى على الصعيد العالمى .

٣- البيانات والمعلومات ، التى تلقفها الاجتهاد الفنى الأوروبى المتخصص ، فى رسم الخريطة وتوقيعها على الخرائط . وصحيح أن الخبرة الفنية قد أبدعت فى عملية رسم الخريطة ، وابتكار المسقط الأنسب . ولكن الصحيح أيضًا أن هذه الخرائط الجيدة ، كانت لا تساوى شيئًا من غير البيانات الموقعة عليها . وكل الخرائط عن القارات، وكل الخرائط الخاصة عن المساحات المعنية ، التى تعد ، أو تجهز ، لحساب التداول والاستخدام فى الأغراض المتنوعة ، بكل ما يسجل عليها من بيانات ومعلومات ، تبدو وهى مدنية لاجتهاد الرحلة الجغرافية البرية ، التى كانت ترى ، وتعاين ، وتسجل ، فى كل أرض نزلت بها ، أو تجولت فى أنحائها .

* * *

هذا ، ولقد استشعر ، بل قل أدرك الجغرافيون المتخصصون ، فى البحث الجغرافى العلمى - بكل اليقين - قيمة وجدوى الرحلة الجغرافية فى المساحة المعنية . وتطلع الجغرافى المتخصص - بكل الأمل- إلى حسن الانتفاع بما تنطوى عليه رؤية الرحلة الجغرافية ، من حسن بيان ووضوح وتعبير ، عن الأرض والواقع الطبيعى ، وعن الناس والواقع البشرى فى أى مساحة معينة . وكان هذا البيان الذى تحصل عليه الرحلة الجغرافية أثناء التحرك ، والطواف ، والتعامل ، وكأنه المادة الخام ، التى ينبغى أن يعتمد عليها الجغرافى فى :

١- انجاز البحث الجغرافى العلمى واعداده .

٢- توقيعها على الخريطة واستكمالها حسن تعبيرها عن الواقع الجغرافى ، فى المكان والزمان .

ولقد استخف التطلع الواثق من جدوى الرحلة الجغرافية فى شأن العمل الجغرافى ، الجغرافيين المتخصصين . وخرج الباحث الجغرافى إليها . وكان هذا الخروج خروجًا متفتحًا ، والرحلة تعكف على الرؤية الجغرافية والتمعن فيها على مستوى المساحة المعنية . وفى أحضان الواقع الجغرافى فى المساحة المعنية ، عاش الباحث الجغرافى المتخصص، تجربة الرحلة الجغرافية المتخصصة وواقعيتها ، وسجل كل ثمرة من ثمراتها المفيدة .

وفى هذا الجو الواقعى ، ترك الباحث الجغرافى ، لحيوية ونبض الواقع الجغرافى الطبيعى والبشرى فى المساحة المعنية ، فرص التعبير المباشر عن نفسه ، أو عن مقوماته وخصائصه . وما من شك فى أن الباحث الجغرافى المتخصص ، قد استخدم حسه الجغرافى الفطرى المدرب ، ووظف كل خبراته العلمية المتفتحة ، فى خدمة العمل الميدانى الجغرافى فى المساحة المعنية . وهل أفضل أو أجدى من رؤية جغرافية ، تكاد ترد على الباحث ، لو طلب منها أن تتحدث عن نفسها حديثًا صامتًا ، فيه بلاغة التعبير ، وصفاء الوضوح ، وجودة التصوير ؟

وفى مطلع القرن العشرين ، فتح الاجتهاد الأكاديمى فى الجامعة صدره وذراعيه لعلم الجغرافية الحديثة . ولقد لجأ بالفعل إلى هذه الأحضان التى استشعر فيها الأمان والاطمئنان على اطاره وتطلعاته العلمية . وتولت الدراسة الجامعية العلمية ، مسئولية وضع وترسيخ قواعد التحول من جديد ، فى قضية توظيف الرحلة الجغرافية واستثمارها لحساب العمل الجغرافى الميدانى العلمى .

وهذا التحول هو الذى أطلق العنان لكى تصبح الرحلة الجغرافية رحلة عمل ميدانى تجريبى ، وممارسة عملية ، ودراسة ميدانية فى المساحة المعنية على كل المستويات .

وبات المطلوب من الرحلة الجغرافية فى هذا الوضع الجديد ، أن تهيئ مناخ التعايش الأنسب ، فى المساحة المعنية بين :

١- خبرات وتطلعات وحسن أداء جغرافى متخصص ، يطلب

التعامل مع الواقع الجغرافى والظاهرة المعنية فيه ، وهو يتدارسها تحت شعار ليس من رأى كمن سمع .

٢- نبض وتعبير الواقع الجغرافى الطبيعى والبشرى أو الظاهرة المعنية فيه ، وهى تجاوب الباحث الجغرافى ، وترد على استفساراته .

وهذا معناه أن هذا التحول الجديد ، قد وضع الرحلة الجغرافية ، من حيث الهدف والغاية ، فى خدمة ودراسة الظاهرة الجغرافية المعنية تحت قيادة الخبرة الجغرافية المتخصصة . هذا معناه أيضًا أن الرحلة الجغرافية قد تخصصت تخصصاً وظيفياً ، من حيث الهدف والغاية فى وقت واحد ، وفى هذه المرحلة الأخيرة يظهر كيف أدى هذا التخصص ، إلى وضع أفضل طاوعت فيه الرحلة الجغرافية ارادة التخصص الجغرافى العلمى .

* * *

الفصل السابع

الرحلة الجغرافية المتخصصة

فى القيادة والهدف

- نشأة علم الجغرافية الحديثة .
- الجغرافية تتبنى الرحلة الجغرافية .
- الرحلة المتخصصة وتطوير علم الجغرافية .
- تجهيز الرحلة الجغرافية الميدانية .
- مكانة الدراسة الميدانية فى البحث الجغرافى .
- خطة الدراسة المكتبية وجدواها .
- خطة الدراسة المدانية أسلوبها وجداوها .
  - ١- رحلة الزيارة الجغرافية (التفقدية)
  - ٢- رحلة العمل الجغرافى .
  - ٣- رحلة العمل التكميلى .
- الرحلة الجغرافية الميدانية والتحول الجغرافى المعاصر .
- الرحلة الجغرافية الميدانية والدراسة الميدانية المعاصرة .
- المسح الجغرافى الميدانى وخدمة التنمية .

الفصل السابع
الرحلة الجغرافية المتخصصة
فى القيادة والهدف

نشأة علم الجغرافية الحديثة :

عندما أفلح الفكر الجغرافى فى قضية الانسلاخ من الفكر التاريخى، وعرف طريقه وذاته وخصوصية اهتمامه بدراسة المكان فى الزمان، وتخلص من أى خلط فى الكتابة الجغرافية والوصف الجغرافى، تبنى التفكير الجغرافى أمر صياغة الاطار الجامع لكل القواعد والأسس، التى حددت شكل علم الجغرافية الحديثة وتركيبه الهيكلى ، واحتوت مغزاه ومرماه وفلسفته . وعندئذ أوجد علم الجغرافية الحديثة ، علاقات وقنوات اتصال مباشر وغير مباشر بينه وبين الرحلة الجغرافية ، التى كانت قد انهمكت فى الكشف الجغرافى على الصعيد العالمى ، وخدمت الانفتاح الأوروبى ، وطاوعت النظام الرأسمالى الامبريالى ، ونصرت ارادته وتطلعاته وهيمنته سياسياً واقتصادياً .

ومن خلال هذه العلاقات وقنوات الاتصال ، كان من الطبيعى أن يهتم من يتصدى للتفكير فى الرؤية الجغرافية ، بمن يعاين وتتكشف له هذه الرؤية الجغراقية بالفعل . ومن خلال هذا الاهتمام ، كان من الطبيعى أن يحول علم الجغرافية الحديثة اهتمام الرحلة الجغرافية ، من كشف جغرافى متعجل ، إلى بحث جغرافى متعمق . ولا شئ يكفل هذا التعميق أفضل من ارتياد المساحة المعنية فى غير عجلة ، وجمع أوصال الرؤية الجغرافية ، والاقبال على تمحيص هذه الرؤية ، وكأنه يطلب الاجابة منها على التساؤلات والاستفسارات التى تهم الباحث الجغرافى .

وبموجبات هذا التحول فى القرن التاسع عشر ، تأنت الرحلة الجغرافية البرية ، وهى تطوف فى المساحات المعنية ، وتتمعن فى الرؤية الجغرافية . ووجه هذا التأنى والطواف والتمعن الرحلة الجغرافية البرية،

التوجه الحقيقى ، صوب التفتح وحسن توظيف أدائها ، فى خدمة الهدف الجغرافى المناسب . ومن ثم كانت انجازات الرحلة الجغرافية المتفتحة ، رصيداً جيداً انتفعت به بحوث ودراسات علم الجغرافية الحديثة ، على أوسع مدى .

وصحيح أن النظام الرأسمالى قد وظف الرحلة الجغرافية وانجازاتها المتفتحة ، توظيفًا حرمها من التجرد . وصحيح أن عدم تجرد الرحلة الجغرافية البرية ، وهى تباشر الكشف الجغرافى قد جعل منها رحلة متعددة الأغراض ولوثها . ولكن الصحيح أيضاً أن عدم التجرد ، وتعدد الأغراض ، لم يلوث صدق الرحلة الجغرافية البرية ، فى خدمة الهدف الجغرافى ، ولم يفسد العلاقة بينها وبين علم الجغرافية الحديثة ، وفكره المتوثب، وفلسفته الواعية. بل قل ينبغى أن ندرك كيف توثقت العلاقة ، وتفتحت قنوات اتصال أخرى، بين الرحلة الجغرافية الخاصة المتخصصة، وعلم الجغرافية الحديثة. وأصبحت هذه العلاقة الوثيقة علاقة التزام ، تشبث بها الطرفان لحساب المصلحة المتبادلة . وكان من شأن التشبث بهذه العلاقة ، والتزام كل طرف بمصلحة الطرف الآخر ، أن أوغلت الرحلة الجغرافية فى خدمة العمل الجغرافى المتخصص ، وأوغل العمل الجغرافى المتخصص فى استثمار الرحلة الجغرافية البرية .

الجغرافية تتبنى الرحلة الجغرافية :

والتوغل المتبادل بين الجغرافية فى اطار مفهومها العلمى ، والرحلة الجغرافية فى إطار أدائها العملى ، كان أمراً منطقياً إلى أبعد الحدود ، لأنه يضع العلاقة بينهما فى وضعها الصحيح . وهل أفضل من أن تتوثق العلاقة فلا تنفصم ، بين المفهوم العلمى والأداء العملى ؟ وما من شك فى أن هذه هى القاعدة ، وأن الفصل بينهما ، هو الخروج أو الانحراف عن القاعدة . وهل يعنى الوصول إلى هذه القاعدة ، شيئاً غير اقدام الجغرافية اقداماً موضوعياً وسليمًا على حسن تبنى الرحلة الجغرافية ، فى أواخر القرن التاسع عشر .

وتبنى علم الجغرافية الرحلة الجغرافية ، لا يعنى أقل من أن تسلم

الرحلة الجغرافية له زمامها وتطاوعه . بل قل جاء الوقت الذى تنحى المغامر فيه عن قيادة الرحلة الجغرافية . وقد اقدم الجغرافى المتخصص ، على تحمل مسئولية الرحلة ، لحساب العمل الجغرافى الميدانى .

مع ذلك فلقد ظلت الرحلة الجغرافية فى حاجة ، إلى دعم ورعاية الجمعيات الجغرافية وتمويلها . وهذا معناه أنه لا تعارض بين هذين الوضعين ، ولا اعتراض من أى من الطرفين . ومن ثم أبقت الرحلة الجغرافية على ولائها للنظام الرأسمالى، والحضور الأوروبى المغترب على الصعيد العالمى . بمعنى أنها لم تتجرد أبداً من سوءات واوزار اقترفها النظام الرأسمالى ، وهو يباشر الاستعمار أو وهو يتسلط ، أو وهو يروم الهيمنة ، ولا علم الجغرافية الذى يهمه التوظيف العلمى لها ، طلب منها أن تتجرد .

ومثلما قبل الفكر الجغرافى الذى أعلن رعاية الأبوة ، التى جمعت بين علم الجغرافية والرحلة الجغرافية ، بعدم تجرد الرحلة ، وسكت على تعدد أغراضها ، ولم يعترض على ولائها للنظام الرأسمالى ، قبل أيضًا بالوضع الذى أبقى قيادة الرحلة الجغرافية أحياناً ، فى أيد غير جغرافية متخصصة . والقبول بهذا الوضع ، لا يعنى استسلام أو تسليم علم الجغرافية بعدم التجرد ، وابقاء الرحلة الجغرافية فى الأيدى غير المتخصصة . ولكن قل هذا موقف مرحلى ، سكوت حصيف ، يسبق عاصفة التغيير .

وهكذا عاشت الرحلة الجغرافية لبعض الوقت فى أحضان الأبوة العلمية الجغرافية ، وهى تنهمك فى العمل الجغرافى المتخصص ، الذى يتولى أمره الهواة فى معظم الأحيان . وصحيح أن انجاز هذا العمل قد أرضى علم الجغرافية ، وهو لا يتمرد على القواعد والأصول ، التى ترتكز عليها بنيته العلمية . وصحيح أن انجاز هذا العمل قد أثبت جدوى اجتهاد الهواة ، ومدى التزامهم بمفاهيم علم الجغرافية . ولكن الصحيح أيضًا أن انجاز هذا العمل قد استقطب بعض هؤلاء الهواة ، حتى تحول من خلال اخلاصه وتفانيه فى العمل أثناء الرحلة الجغرافية ، إلى صف الجغرافيين المحترفين وانضم إليهم .

وسكوت علم الجغرافية على هذا الوضع ، وقبوله بعدم تجرد الرحلة الجغرافية ، وبخروجها تحت قيادة غير جغرافية ، كان لبعض الوقت لا أكثر ولا أقل . ذلك أنه عندما وجد طريقه إلى أحضان الدراسة الأكاديمية فى الجامعة ، وعرف مكانه بين زمرة العلوم فيها ، أنهى هذا السكوت ، وأعلن صراحة عن ارادته ، وتطلعاته فى شأن أبوته للرحلة الجغرافية البرية . بمعنى انهاء هذا السكوت ، وهو لا يعنى أقل من أن علم الجغرافية قد أقدم على التغيير ، الذى يوافق مكانه فى الاطار الأكاديمى، ويرسخ مكانته فى العمل الميدانى الجغرافى على السواء .

وهذا التغيير الذى تطلع إليه علم الجغرافية ، معناه الامعان فى فرض ارادة الابوة على الرحلة الجغرافية . وهذا معناه أنه لم يقف عند حد أن تطاوعه الرحلة الجغرافية ، بل أراد بالفعل أن يطوعها لكى تجاوب أهدافه . والفرق كبير بين أن تطاوع الرحلة الجغرافية علم الجغرافية ، وأن يطوع علم الجغرافية الرحلة الجغرافية . ولا تثريب على الرحلة الجغرافية ، وهى تطاوع علم الجغرافية بالفعل . ولكن الاطراء كله لعلم الجغرافية ، وهو يطوع الرحلة الجغرافية البرية ، لكى يوظفها فى انجازه العلمى .

ولقد توجه التطويع أصلاً إلى تجريد الرحلة الجغرافية من الأغراض، التى حملتها خطايا العمل لحساب النظام الراسمالى ، وانتشالها من سوءات كثيرة . كما توجه التطويع أيضاً إلى عدم التفريط فى زمام الرحلة ، وترك أمر قيادتها لغير الجغرافى المتخصص . وهذا معناه أن تبنى الرحلة الجغرافية البرية ، قد أسفر عن نشأة الرحلة الجغرافية المتخصصة ، فى القيادة ، وفى الهدف ، فى وقت واحد .

وكان من شأن هذه النشأة ، أن تخصصت الرحلة الجغرافية وتفرغت للهدف الجغرافى الصحيح ، وأن تخصصت قيادة الرحلة فى انجاز أبحاث العلم الجغرافى الجيد . وهل نشك فى أن اجتماع تخصص الرحلة الجغرافية ، وتخصص قيادتها ، قد أدى إلى التمادى فى تخصيص الرحلة الجغرافية ، لحساب البحث الجغرافى الميدانى العملى فى المساحة المعنية ؟

وهكذا أفلح علم الجغرافية الحديثة فى أن يجسد ، أو يكرس هذا التوجه التخصصى ، فى الاتجاه الصحيح . بل قل أفلح أيضاً فى تطويع الرحلة الجغرافية ، التطويع الأنسب لموجبات وأهداف وتطلعات العمل الجغرافى الأكاديمى . وتمثل هذا التطويع الأنسب ، فى تكريس الرحلة الجغرافية تكريساً كلياً لحساب البحث الجغرافى العلمى العملى ، على كل المستويات المعنية ، الاقليمية ، والمحلية ، والعالمية ، فى اطار المناهج البحثية المتنوعة .

وتطويع الرحلة الجغرافية المتخصصة ، لا يحول دون اهتمام الجمعية الجغرافية الوطنية بها ، وتمويلها وتوظيفها ، لحساب الهدف الجغرافى المجرد . ومع ذلك هذا لا يمنع ولا يتعارض اطلاقاً مع احتفاظ الجمعية الجغرافية ، بحق توظيف بعض الرحلات الجغرافية من نوع أخر ، لحساب الكشف ، ولحساب التفتح فى أنحاء ومساحات معنية ، لم تتضح الرؤية الجغرافية بشأنها بعد . ولكن المؤكد أن تطويع الرحلة الجغرافية المتخصصة تطويعاً مناسبًا ، لموجبات وأهداف وتطلعات العمل الجغرافى الأكاديمى ، ينبغى أن يفضى إلى :

١- تجريد الرحلة الجغرافية من كل غرض ، يتعارض مع انتمائها المتخصص للابوة العلمية الأكاديمية شكلاً وموضوعاً .

٢- توظيف الرحلة الجغرافية فى أى غرض ، يرسخ انتمائها المتخصص للابوة العلمية الأكاديمية شكلاً وموضوعاً .

والتجرد الذى نعنيه بالضبط ، هو ليس من قبيل التمرد على الأغراض غير الجغرافية ، أو العصيان لارادة الدولة ومصالحها الحيوية ، أو الاستعلاء على ما تصبو إليه تطلعاتها . ولكنه التجرد الذى يفرغ الرحلة الجغرافية أساسًا لأداء المهمة العلمية ، التى تخدم الهدف الجغرافى الحقيقى ، أكثر من أى شئ أخر ، ويسقط عنها وزر أو خطيئة أى هدف أخر غير جغرافى .

واقدام الابوة العلمية الأكاديمية على تجريد الرحلة الجغرافية المتخصصة ، هو ، الذى يعنى انتشالها الفعلى من الانصياع لأهداف وتطلعات ، غير أهداف وتطلعات العمل الجغرافى الصحيح . بل قل هو

انتشال الهدف الجغرافى ، الذى أصبح أمانة عالية فى عنق الرحلة الجغرافية المتخصصة ، من الضياع فى زحمة الأهداف والأغراض غير الجغرافية . وهذا هو صلب التحول الحقيقى الجاد ، الذى وضع الرحلة الجغرافية فى مكانها السوى ، وحدد لها مكانتها الصحيحة ، وحافظ على قيمتها وجدواها ، لحساب علم الجغرافية الحديثة .

وعندئذ عرفت الرحلة الجغرافية المتخصصة ، كيف تتجرد امتثالاً لما يمليه الهدف الجغرافى العلمى . بل عرفت الرحلة الجغرافية المتخصصة أيضاً بكل الصدق والموضوعية والأمانة :

١- كيف تجاوب إرادة العمل الجغرافى المنهجى الأكاديمى ، وتعطيه ولا تخذله ولا تبخل عليه .

٢- كيف تكون العين المبصرة ، التى تضع التجربة الجغرافية الميدانية العملية ، فى خدمة الهدف الجغرافى وتجسده .

وقل - بعد ذلك كله - أن الرحلة الجغرافية المتخصصة ، وجدت نفسها فى وضع جديد تمامًا . وصحيح أنها لا تتنكر لوضعها واهتمامها فى المراحل السابقة ، ولا تخجل منها . ولكن الصحيح أيضاً أنها تملصت من أى ردة ، إلى روح ومنطق الماضى . وهذا معناه أنه التحول الأعظم ، الذى وضع العمل الجغرافى التجريبى ، كله أمانة غالية فى عنق الرحلة الجغرافية الميدانية المتخصصة .

وهكذا ، كان على الجغرافى المتخصص ، أو على الباحث الخبير ، فى علم الجغرافية الحديثة ، أن يراعى إرادة هذا التحول ، الذى اصطنعها فكره ، وأن ينتفع بهذا التحول الذى يرفع قيمة وجدوى عمله . بل لقد كان على الجغرافى المتخصص مسئولية الأخذ بزمام هذا التحول وترسيخه ، والتشبث بما يفضى إليه من نتائج . ولا تحول ولا ترسيخ ولا تجديد اطلاقًا ، من غير ممارسة الرحلة الجغرافية المتخصصة الممارسة الحقيقية الفعالة ، واكتساب الخبرات بشأن حسن استخدامها وتوظيفها فى العمل الجغرافى التجريبى الميدانى، فى أى مساحة معنية.

وتوجه الرحلة الجغرافية المتخصصة ، الذى خرج فيها بعض الرواد

الجغرافيين ، مثل همبولت ، وراتزل ، ولا بلاش ، ودى مارتون وغيرهم كان توجهاً مثمراً (١). ولا شك أن فى تفتح فكر كل واحد منهم، واضافاتهم واستحقاقهم المكانة المرموقة ، التى بلغها الواحد منهم ، بدأ بالفعل بعد انجاز الرحلة على صعيد أى مساحة معنية . وهل أضاف الواحد منهم شيئًا جيداً مهمًا ، أو هل احتل الواحد منهم مكانته المرموقة ، من غير مباشرة الرحلة الجغرافية الميدانية المتخصصة ، وحسن استثمار معطياتها .

وتوجه الرحلة الجغرافية المتخصصة فى هذا الاتجاه الصحيح ، من أجل العمل فى الميدان ، أمر جوهرى وبناء ، من وجهة النظر الجغرافية العلمية . ذلك أنها السبيل لكى يعود الباحث الجغرافى منها بالجديد ، التى يصطنع منها الاضافة المجددة . وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية المتخصصة إلى الميدان فى المساحة المعنية ، وسيلة أى باحث جغرافى ، لانجاز البحث الجغرافى الجيد (٢) . وهل يفلح باحث جغرافى ، أو هل يكتمل بحث جغرافى من غير أن يتخذ ، من الرحلة الجغرافية مطية ، ويعرف كيف يحسن توظيفها فى ميدان البحث على صعيد المساحة المعنية ؟ وهل يسفر بحث جغرافى متخصص عن اضافة جيدة ومجددة، من غير دراسة فى الميدان ، ورحلة عمل جغرافى عملى رشيدة ، تبصره وتزوده بأوصال هذه الاضافة المرتقبة وأصولها ؟ .

الرحلة المتخصصة وتطوير علم الجغرافية :

إذا كان علم الجغرافية الحديثة قد تبنى الرحلة الجغرافية ، واقدم على تطويعها لحساب الهدف الجغرافى، فى أواخر القرن التاسع عشر ،

---

(١) Alen Jones, P. . Field Work in Geography . London 1969, p.1.

(٢) فى مقال الدكتور عادل خطاب فى مقاله بعنوان « الدراسات الميدانية فى الجغرافية – دراسة فى الأهداف والأساليب – » فى مجلة الجمعية الجغرافية العراقية مجلة ١١ سنة ١٩٨٠ يقول « فما هو مكتوب ليس علماً جديداً طالما كان قد كتب ، وإنما الجديد الأصيل هو ما يكتب لأول مرة ، وهو الاضافة العلمية القيمة لما كان قد وصل إليه السابقون ... » ص٢٢٣ – ٢٢٤ .

وإذا كان تطويع الرحلة الجغرافية ، قد وضع العمل البحثى الجغرافى أمانة غالية ، فى عنق الرحلة الجغرافية الميدانية فى المساحة المعنية ، اعتباراً من بداية القرن العشرين ، فإن الرحلة الجغرافية المتخصصة التى تحملت أعباء هذه الأمانة ، قد فتحت الأعين وشحذت العقول وقدمت الانجازات ، التى أثرت وطورت علم الجغرافية الحديثة . هذا ، ولا تثريب على من طوع الرحلة الجغرافية ، ولا تثريب على من طورها ، طالما كان الهدف ، هو التوجه الصحيح إلى ما هو أفضل لحساب الهدف العلمى الجغرافى .

وتعليق العمل الجغرافى أمانة فى عنق الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى المساحة المعنية ، وقبوله بمنطق وفلسفة الفكر الجغرافى ، فيما وراء علم الجغرافية الحديثة ، هو الذى قاد مسيرة التطور . وفى اعتقاد أى باحث منصف ، أن هذه المسيرة قد تقدمت فى الاتجاه الصحيح ، عندما أدرك الباحث الجغرافى المعنى الحقيقى ، والأسلوب الحقيقى ، والمنهج الحقيقى ، والهدف الحقيقى ، من توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى أى مساحة معنية .

وصحيح أن توجه الرحلة الجغرافية الميدانية المتخصصة إلى الميدان فى المساحة المعنية ، قد جعل علم الجغرافية الحديثة فى القرن العشرين علمًا عملياً . وصحيح أن هذا التوجه قد أفضى إلى اهتمام حقيقى بالتجربة الميدانية ، وإلى عناية فعلية بما تنبئ به هذه التجربة . ولكن الصحيح أيضًا أنه قد توجب على الباحث الجغرافى ، أن يتوقع وهو فى الميدان من الظاهرة الجغرافية المعنية أن تتحدث عن نفسها ، وأن تعطى البيان الجلى عنها ، وأن نكشف عن الضوابط الحاكمة لها ، وهو يخوض التجربة ، ويجرى الدراسة ، ويلملم البيانات فى الميدان .

وإذا كان العلم التجريبى – أى علم – قد امتلك المعمل أو المختبر ، ونقل ما يبتغى دراسته إلى هذا المختبر ، لكى يجرى عليه التجربة ويستخلص النتائج ، فإن علم الجغرافية ، وقد توجه وجهة العمل التجريبى ، قد امتلك هو أيضًا المعمل والمختبر . بل هو العلم الذى امتلك أكبر معمل وأرحب مختبر . والمختبر الجغرافى الأصلى

والأصيل، هو الميدان أو الحقل فى أى مساحة معنية . وهل الدراسه والبحث الذى ينجزه الجغرافى فى الميدان أو فى الحقل ، تختلف فى شئ عن اجراء أى تجربة فى المختبر ؟

هذا ويكون خروج الباحث الجغرافى فى الرحلة الجغرافية المتخصصة الميدانية ، إلى المساحة المعنية انتقالاً حقيقياً ، إلى هذا الشكل المتميز من المختبرات . ويكون العمل الجغرافى فى هذا الميدان عملاً تجريبياً ، فى اطار الواقع الجغرافى الطبيعى أوالبشرى . وما من شك فى أن نتائج هذا العمل التجريبى ، التى يستخلص منها النتائج ، ويبنى عليها اضافته ، هى وحدها التى تصطنع أصالة البحث الجغرافى .

وسواء كانت الرحلة الجغرافية الميدانية مطلوبة - بكل الالحاح من أجل التعلم وتدريب الطلاب ، فى مرحلة الدراسة الجامعية المتخصصة Feild Training ، أو كانت مطلوبة بكل الضرورة - من أجل انجاز البحث الجغرافى العلمى ، فإنها تلبى الطلب الذى توجهت من أجله إلى الميدان . ويمكن أن ندرك كيف أن علم الجغرافية قد أحس بجدوى هذا الاتجاه التجريبى البحت ، الذى جاوب ارادته فى شأن الدراسة العميقة ، والبحث المتفتح ، والاضافات الجيدة .

ويخطئ كثيراً من يتصور أن اهتمام الجغرافية بالدراسة الميدانية ، كان من قبيل التأثر بالچيولوچيا ، وتوجهها إلى الاتجاه التجريبى . بمعنى أن هذا الخطأ خطيئة ، لأنه محض افتراء . وما من شك فى أن توجه الجغرافية إلى العمل التجريبى ، هو التوجه الصحيح الذى ينبع من ذاتها العلمية واستشعار المتخصص فيها ، بجدوى معاينة الرؤية الجغرافية وتمحيصها (١) . بل أن الاهتمام بالرحلة الجغرافية أصلاً ، كان لأنها العين التى يبصر بها الاجتهاد الجغرافى أبعاد الصورة الجغرافية ، على صعيد المساحة المعنية .

---

(١) كان الأستاذ كون G.J Cons رئيس قسم الجغرافية فى كلية جولد سميث الجامعية يردد على طلابه العبارة التالية :

Direct Observation is the only gateway to reality

(الملاحظة المباشرة هى الطريق إلى الحقيقة) .

ولكى ندرك بالفعل كيف كان ، وكيف تطور هذا التوجه الجغرافى ، للعمل التجريبى فى الميدان ، يكفى أن نشير إلى دعوة كارل ريتر الصريحة إلى الرحلة الجغرافية ، وهل ننكر أنه قد قال « ينبغى أن نسأل الأرض ... ؟ (١) وكيف نسأل ، وكيف تجاوب الأرض ، من غير أن يخرج الباحث فى الرحلة إلى الميدان ، لكى يكون الحوار بين الباحث الجغرافى ، والمنطق الجغرافى الطبيعى أو البشرى السائد . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضاً قول راتزل المشهور فى شأن الرحلة I Travelled, I shecked, I described . وهل يعنى ذلك غير أن الرحلة الجغرافية ، هى التى هيأت له فرصة الانتقال والسفر وفرصة الاختبار والتمعن ، وفرصة التعبير عن الرؤية الجغرافية ؟

وإذا كان اسكندر همبولت ، وهو واحد من عملاقة الجغرافية ، فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ويحلو للبعض أن ينسب إليه أبوة الرحلة الجغرافية المتخصصة ، هل يمكن أن ننكر أنه لم يكن جغرافيًا فى الأصل ، وأنه خرج فى الرحلة التى غطت مساحات من أمريكا اللاتينية ، ومساحات من شرق أوروبا وسيبريا ، وعاد منها ، لكى يصبح جغرافياً وعلماً مروقاً من أعلامها ؟ (٢) .

ولن نتمادى فى دحض هذا الافتراء ، الذى لوى ذراع الحقيقة وروح لفكرة اقتداء وتأثر الجغرافية بالچيولوچيا فى شأن الدراسة الميدانية ، والاهتمام بالرحلة الجغرافية من أجلها ، إلى أكثر من تسجيل هذه العبارة التى قالها فردريك راتزل (٣) .

---

(١) الشامى صلاح لادين : الفكر الجغرافى ص٣٠٢ .

(٢) ربما كان اهتمام همبولت فى بداية حياته بالچيولوچيا ، هى السبب الذى ارتكز عليه بعض من افترى وصور محاكاة الجغرافية للچيولوچيا . ولكن الذى لا شك فيه أنه كان يحب الرحلة ، وأن الرحلة التى حولته من صفته كعالم نبات إلى جغرافى . وما من شك فى أن الرحلة قد فجرت حسه الجغرافى ، وملأت عليه فكره . راجع تاتهام ، جورج : الجغرافية فى القرن التاسع عشر (ترجمة الجغرافية فى القرن العشرين) ص٦٨ - ٧٠ .

(٣) Archer, J & Dalton, T H Field work in geography London, 1970 .

" Field work is the means of obtaining fist-hand experience of an environment by practical work stimulated by curiosity and discovery "

ومن خلال هذه المؤشرات التى لا تضلل ، ينبغى عندئذ أن ندرك حقيقة اهتمام علم الجغرافية الحديثة ، اعتباراً من النصف الأخير من القرن التاسع عشر بالرحلة الجغرافية . بل أن أواصر الصلة التى دعت الجغرافية الحديثة إلى تبنى الرحلة الجغرافية وتطويعها ، لكى تصل إلى مرتبة التخصص فى التوجه إلى الهدف الجغرافى ، والتخصص فى القيادة والتنفيذ ، لم تزداد قوة إلا بعد أن برهن العمل الجغرافى التجريبى دائماً ، على جدوى الرحلة الجغرافية المتخصصة . وهل حمل لواء الاضافة والتطوير والتجديد فى البحث الجغرافى ، إلا هذا العمل الجغرافى التجريبى الناجح فى الميدان ؟

وفى شأن توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى العملية التعليمية، وتربية الكوادر الجغرافية الجامعية ، نذكر أنها قد اعتمد عليها بعض الأساتذة الجغرافيين ، منذ نهاية القرن التاسع عشر . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ، كيف خرج هربرتستون بهذه الرحلات الجغرافية مع طلابه ، فى كلية هربون وات الجامعية فى أدنبرة[1] . وكم خرجت هذه الرحلة إلى الميدان فى الأعوام الجامعية من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٨٩٩ ، وأفلحت فى تدريب الطلاب على معاينة الرؤية الجغرافية ، أو على معايشة الواقع الجغرافى ، وعلى حسن الاصغاء هذا الواقع ، وهو يتحدث عن نفسه ، عن خواصه أو عن أوضاعه .

هذا ومازلنا – ونحن نعمل فى حقل التعليم الجغرافى – أشد الناس حرصاً على الرحلة الجغرافية الميدانية . بل تكون الدراسة الميدانية مقرراً من مقررات الدراسة فى السنوات النهائية ، من الدراسة الجامعية، فى كل الجامعات العربية . ويتلقى الطلاب التدريب فى هذه الدراسة من

---

(١) عصفور ، محمود ، بدوى ، السعيد : الدراسة الميدانية ص١٧ – القاهرة سنة ١٩٧٦ .

خلال تطبيق عملى وتجريبى فى الميدان . وتخرج الرحلة الميدانية خروجاً منتظماً ، فى يوم من أيام الأسبوع ، لأداء هذه المهمة التدريبية . ويكلف الطلاب باعداد البحث الجغرافى ، من خلال هذا العمل الجغرافى التجريبى فى الميدان .

أما توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى خدمة البحث الجغرافى فهو التوظيف الذى يخدم الاضافة والتجديد فى البحث الجغرافى . بمعنى أن العمل التجريبى فى الميدان ، هو وسيلة الباحث وحيلته المثلى لجمع واستحضار البيانات والمادة الخام ، التى تدخل فى صلب البحث الجغرافى ، وهى التى تكسبه الجدية والتجديد ، أو الجدوى والتجويد . ومن غير نتائج هذا العمل التجريبى ، الذى يحصل عليها الباحث من الميدان فى المساحة المعنية ، يصبح البحث الجغرافى تحصيل حاصل ، ولا يعتد به . بل قد تفتقد فيه الأصالة تماماً ، لأنه يكرر ما سبقه إليه غيره .

***

والخروج فى الرحلة الجغرافية الميدانية لانجاز البحث الجغرافى جزء لا يتجزأ من خطة العمل لهذا الانجاز . ولكى يكون خروج الرحلة الجغرافية إلى ميدان الدراسة المعنية ، خروجاً أو توجهًا إلى المختبر أو المعمل ، وانهماكًا فى العمل التجريبى بالفعل ، يجب أن يتهيأ الباحث لهذا التوجه ، وأن يدرك بالضبط ما يبتغيه بصفة مبدئية من هذه الرحلة . ولا تثريب على الباحث ، لو تأنى وجمع عن المساحة المعنية ، بعض البيانات والمعلومات من المراجع والكتب والتقارير . بل ربما توجب عليه فى معظم الأحوال ، أن يفعل ذلك مسبقًا قبل أن يخرج فى رحلته الجغرافية الميدانية .

وعندما يخرج الباحث – أى باحث – الجغرافى ، كما تستوجب خطة العمل بالفعل ، يجب أن يصطحب فى رحلته الجغرافية الميدانية :

١- فريق العمل الميدانى المدرب على أداء العمل التجريبى ، بكل ما ينطوى عليه هذا العمل من اهتمامات ، ويطلبه من أوجه الفحص والبحث واجراء التجارب وجمع عينات فى شأن البحث الجغرافى

الطبيعى ، أو من أوجه الاستبيان والمعاينة والتعامل ، فى شأن البحث الجغرافى البشرى .

٢- نخبة من الأدوات والأجهزة والمعدات ، التى تصلح للاستخدام السهل المباشر أثناء الرحلة لانجاز العمل التجريبى ، أو التى تجاوب إرادة البحث والفحص والتحرى واجراء التجارب العملية المناسبة فى الميدان .

٣- مجموعة من الخرائط المتنوعة الجيدة سابقة التجهيز للمساحة المعنية ، لكى تبصر العمل والتحرك والدراسة وانجاز التجارب فى الميدان، ومجموعة من الخرائط الصماء ، التى يتعين تسجيل بعض نتائج العمل التجريبى عليها فى الميدان .

ولا يفوت الباحث الجغرافى الذى يخطط لانجاز البحث الجغرافى الجيد ، ويوظف الرحلة الجغرافية الميدانية ، وهو معنى بها لحساب هذا الانجاز ، أن يخطط جيداً لتحركات هذه الرحلة فى المساحة المعنية . وهو لا يخرج فى هذه الرحلة الجغرافية الميدانية ، ولا ينبغى أن يخرج بالفعل ، إلا بعد أن يعرف جيداً كيف يجيب فى خطة عمله على الأسئلة الآتية ، على أقل تقدير :

١- أين تذهب هذه الرحلة الميدانية ؟

٢- لماذا تذهب هذه الرحلة الميدانية إلى المساحة المعنية ؟

٣- كيف تذهب هذه الرحلة المدانية إلى المساحة المعنية ؟

٤- متى تذهب هذه الرحلة الميدانية إلى المساحة المعنية ؟

٥- ماذا تفعل ، وكيف تعايش هذه الرحلة الواقع الجغرافى ، وتتدارسه فى المساحة المعنية ؟

٦- متى ترجع الرحلة الميدانية من المساحة المعنية ؟

ومع ذلك فلا يكاد يلتزم الباحث التزامًا صارمًا بذلك ، أو بما ورد فى خطة عمله . والواجب عليه أن يتحلى بالمرونة الكاملة ، لكى يواجه المواقف غير المتوقعة أثناء الرحلة الميدانية . كما يجب عليه أن يتحلى بالمثابرة والصبر ، الذى لا ينفد ، وهو يجرى مع الفريق العامل فى صحبته العمل التجريبى فى الميدان .

تجهيز الرحلة الجغرافية الميدانية :

من شأن الرحلة الجغرافية الميدانية – على كل حال – أن تعرف الهدف الجغرافى الذى تخرج من أجله ، وأن تعرف العمل الجغرافى الميدانى التجريبى ، الذى يجاوب إرادة هذا الهدف بالضبط . ومن أجل ذلك ، ينبغى أن تكون لها القيادة التى تمتلك الخبرة ، حتى تكون مسئولة عن تحرك وأداء العمل التجريبى فى المساحة المعنية ، وعن تقويم جدوى الانجاز الذى تظفر به الرحلة الميدانية ، والكيفية التى توظفه فى صياغة واستكمال البحث الجغرافى .

ومن شأن هذه القيادة ، التى تتولى أمر ذلك كله ، أن تعرف كيف تعد الاعداد الأنسب للرحلة الجغرافية الميدانية ، وأن تعرف كيف تجمع أفراد الفريق الميدانى ، وما تصطحبه الرحلة معها إلى الميدان فى المساحة المعنية . كما ينبغى أن تتولى هذه القيادة أعلام الفريق الميدانى بأوجه العمل ، وتوجهاته وأساليبه فى الميدان . وهذه القيادة بعد ذلك كله ، هى التى تحدد ساعة تحرك الرحلة ، فى الذهاب والاياب ، وأثناء العمل فى الميدان . ولا ينبغى أن يفلت منها الزمام ، وهى تؤدى هذا الدور القيادى .

ولكن هل من الضرورى أن تضم الرحلة الجغرافية الميدانية فريقاً بالفعل ؟ وهل يتعذر على الفرد صاحب المصلحة الحقيقية فى الرحلة الجغرافية الميدانية الخروج متفرداً ؟ ولكى نجيب على هذين السؤالين ، يجب أن نذكر فى البداية أن الخروج فى الرحلة الجغرافية الميدانية ، يكون خروجًا هادفاً من أجل العمل التجريبى الميدانى ، وليس من أجل الزيارة والطواف فى أنحاء المساحة المعنية . ومن ثم ندرك بالفعل أنه فى رحلة العمل التجريبى ، تكون فرص الفرد الواحد مهما كانت خبراته ، تكون محدودة فى أداء العمل الجغرافى التجريبى . بل أن تفرد الجغرافى المتخصص ، وهو صاحب المصلحة الحقيقة لا يسعفه أبداً ، ولا يطلق يديه اطلاقاً كاملاً ومتحرراً فى أداء العمل التجريبى .

وهكذا يمكن أن ندرك – بكل اليقين – مبلغ استشعار الجغرافى

المتخصص حاجته الملحة إلى رفاق ، ومعاونين فى الرحلة الجغرافية الميدانية . بل ندرك إلى أى حد يتعذر عليه انجاز العمل التجريبى الميدانى ، من غير اشتراك الرفاق المعاونين معه . وهؤلاء الرفاق المعاونون الذى يتوجب عليه اصطحابهم فى الرحلة الجغرافية الميدانية ، هم فرق عمل . وهم بالفعل شركاء يتعاونون فى أداء العمل التجريبى ، لحساب البحث الجغرافى فى الميدان .

وتقضى حاجة العمل التجريبى فى الميدان – على كل حال – بأن كل بعثة تخرج فى رحلة عمل جغرافى ، يجب أن تتألف من فريق متعاون . ولا يقل عدد هذا الفريق عن زميلين ، ولكن يمكن أن يضم أعداد أكثر من ذلك ، حسب حاجة العمل وظروفه ، وتقدير الباحث الجغرافى لحجم العمل التجريبى فى اطار خطة الرحلة الجغرافية الميدانية . وليس أهم ولا أجدى من حسن اختيار أفراد هذا الفريق المتعاون ، فى ركب الرحلة الجغرافية إلى الميدان .

ومن الضرورى أن يقع الاختيار على الفنى المدرب ، تدريبًا جيداً على أداء العمل الجغرافى التجريبى فى الميدان . كما يجب أن يشمل هذا الاختيار الباحث المساعد ، الذى يمتلك خبرات ومهارات فى تخصص علمى يمكن الاستفادة به ، فى شأن بعض تفاصيل العمل التجريبى . ولكن ذلك كله لا ينبغى أن يعفى الجغرافى الباحث ، الذى يقود الرحلة الجغرافية الميدانية ، ويوظفها لحساب بحثه الجغرافى ، من اكتساب خبرات ومهارات العمل التجريبى الميدانى ، فى علم واحد فقط على الأقل من العلوم الطبيعية . هذا بالاضافة إلى مكتسباته ومهاراته الوظيفية العملية التى يحصل عليها من خلال تدريباته وخبراته الجغرافية العملية (١) .

وعضو واحد من أعضاء هذا الفريق ، لا ينبغى أن يخرج من

---

(١) بتنام ، د. ى : الجغرافية علم عملى (الجغرافية فى القرن العشرين) الترجمة العربية جـ٢ ص٧٤ .

الرحلة من غير أن يشترك فى العمل . ولا مكان لمن لا عمل له ، أو لمن لا يحتاج إليه العمل فى الميدان . وصحيح أنه ليس هناك معايير ثابتة أو متفق عليها ، ينبغى الالتزام بها فى شأن اختيار الأعضاء . ولكن الصحيح أيضاً أن هناك حد أدنى يلتزم به هذا الاختيار ، وهو ضمان روح التعاون ، أو روح الفريق ، وأداء العمل المشترك ، فى أكبر قدر من التجرد والموضوعية والتفتح .

ومن شأن تشكيل الفريق المتعاون المنتخب (١) ، الذى تجمع شمله الرحلة الجغرافية الميدانية ، ويستهويه الاسهام فى انجاز العمل الجغرافى الميدانى التجريبى فى المساحة المعنية ، أن يتألف من :

١- الباحث الجغرافى صاحب الاهتمام بانجاز البحث ، الذى يعتمد أصلاً على نتائج ومحصلة العمل الجغرافى الميدانى . وتكون له قيادة الفريق ، ومسئولية التخطيط للرحلة ، وتوجيه العمل والاشتراك الفعلى فيه ، ومتابعة تنفيذه المرحلى فى الميدان .

٢- نخبة من باحثين متخصصين فى علوم طبيعية مثل الچيولوچيا والتربة والنبات والمناخ ، وفى علوم انسانية مثل الاجتماع والآثار والديموجرافيا والاقتصاد . ويكون عليهم الالتزام بخطة العمل الميدانى ، واشتراك كل فيما يخصه ، ويتفرغ لأدائه واخضاعه للتجربة الميدانية .

٣- نخبة من المعاونين الفنيين المدربين ، على استخدام وتشغيل الأدوات والمعدات ، فى تجارب وفحوص وعمليات العمل الميدانى . ونذكر منهم المساح والرسام والمصور ومحلل العينات ، وغيرهم ممن يشترك فى العمل التجريبى الميدانى .

٤- نخبة من العمال المدربين على خدمة الرحلة الجغرافية الميدانية،

---

(١) هذا تشكيل أمثل ومع ذلك ينبغى أن يتسم التشكيل بالمرونة حسب توجيهات البحث الجغرافى ، ومدى تفرغه لانجاز بحث فى الجغرافية الطبيعية ، أو فى الجغرافية البشرية . بمعنى أن يلتزم التشكيل بحاجة العمل فى كل بحث جغرافى فى الميدان .

أثناء وجودها فى الميدان ، وتحركها فى أنحاء المساحة المعنية . ونذكر منهم السائق والطاهى والقياس والحارس والدليل .

* * *

هذا ، ولأن الدراسة الميدانية - فى مجملها العام - تجرى على سطح الأرض فى اطار مساحة معنية ، وتقتضى التحرك والانتقال ، وتطلب المعاينة والفحص ، وتستوجب التفسير والربط والاستنتاج ، فإن الحاجة إلى تنسيق عمل الفريق كل فيما يخصه ، مسألة فى غاية الأهمية (١) . وعندئذ تكون الحاجة ملحة إلى خبرة ومهارة الباحث الجغرافى على رأس الفريق . وهذا معناه أن المسئولية هى مسئولية عمل ، وتنسيق عمل فى وقت واحد . والقيادة - على كل حال - هى قيادة عمل ميدانى تجريبى أكثر من أى شئ أخر ، وهى قيادة تنسيق وسياق رتيب يخدم انجاز هذا العمل . وهى قيادة قدرة وخبرة ، لا يفلت منها زمام حسن تنفيذ مراحل العمل الجغرافى التجريبى فى الميدان .

وصحيح أن الباحث صاحب الخبرة والتخصص الجغرافى ، يجيد العمل الميدانى ، وهو جزء من صلب اجتهاد ومهارات هذه الخبرة . وصحيح أيضًا أن الباحث على رأس العمل يمتلك القدرة على استخلاص النتائج وتحليل الرؤية الجغرافية ، وجنى المكتسبات التى يسفر عنها العمل فى الميدان . ولكن المؤكد أن تعاون أعضاء الفريق ، والتزامهم فى الاطار العالم للعمل ، وفى اجراء البحث التجريبى والتطبيق فى المساحة المعنية ، يعطى للدراسة الميدانية شكلها الفعلى الفعال . وهل نشك فى أن حسن الأداء يكفل انجازاً مناسباً ، تحت قيادة الخبرة الجغرافية الرشيدة ؟

وعن الخطة التى يجب أن توضع لكى ترشد وتحدد خطوات العمل الميدانى فى المساحة المعنية ، نذكر أنها ضرورة ملحة لكيلا يضل العمل . وينبغى أن يضع الباحث الجغرافى ، الذى يتولى القيادة فى

---

(١) بتنام ، د. ى : المرجع السابق .

الرحلة الجغرافية الميدانية فى اعتباره ، مسألة وضع خطة العمل الميدانى. وهو - فى الغالب - لا يعرض هذه الخطة بالفعل إلا فى ضوء:

١- الاحاطة بالمساحة المعنية ، وحاجة البحث من العمل الميدانى فيها . وقد تدعه الحاجة إلى زيارة تفقدية خاصة إلى المساحة المعنية ، لكى يمتلك زمام هذه الاحاطة الأولية .

٢- اختيار أسلوب العمل الميدانى ، وكيفية تنفيذه ، ومدى حاجة البحث إلى نتائجه . وقد يقضى الاختيار الأخذ بوسائل العمل الميدانى الأنسب ، لكى يمتلك زمام التنفيذ العملى .

وسواء كان الأمر فى شأن وضع خطة العمل الميدانى ، أمر احاطة والمام بطبيعة وضوابط العمل ، أو أمر اختيار أسلوب ووسيلة تنفيذ هذا العمل ، فإن التخطيط لعمل الفريق ، لا ينبغى أن تفلت منه أهداف هذا العمل ، ومدى الالحاح على التفاصيل التى يحتوى عليها . والباحث الجغرافى مسئول - بكل تأكيد - لدى صياغة هذه الخطة ، وضمان الحبكة والسياق ، فى شأن تنسيق التنفيذ العملى ، فى كل مرحلة من مراحل تنفيذ ، واجراء العمل الميدانى التجريبى أو التطبيقى .

ولا شئ يسعف العمل وتنفيذ الخطة التى تنسق الأداء ، ويكفل الانجاز الأفضل فى نهاية الأمر ، أكثر من قيادة مرنة ومتفتحة ، وخطة عمل أكثر مرونة انفتاحاً . ومن الجائز أن يوجه الباحث الجغرافى العمل إلى ما يريد الباحث انجازه فى الميدان ، ولكن لا ينبغى أن يتعمد العمل لوى عنق الحقائق ، حتى تبدو على النحو الذى يريده . بمعنى أن يدع الباحث فى العمل الميدانى يتعامل مع الواقع ، وأن يترك للحقائق الجغرافية حق التعبير عن نفسها . وليس على الباحث الذى يعاونه الفريق ، غير جمع واستخلاص النتائج ، التى وصل إليها ، أو يسفر عنها العمل الميدانى .

وليس غريباً أو مرفوضاً ، أن تدعو مسألة وضع خطة العمل فى الميدان ، الباحث الجغرافى ، إلى قبول مشورة بعض المتخصصين ، أو بعض الرفاق ، من أعضاء الرحلة ، أو من غير أعضاء الرحلة . وليس غريباً أو مرفوضاً أن يجرى الباحث الجغرافى تعديلاً ، أو تغييراً ، أو

اضافة ، إلى خطة العمل الميدانى . ولكن المؤكد أن المعاينة والتعارف على الواقع الجغرافى فى المساحة المعاينة ، قد يفجر بعض التساؤلات ، التى تدعو إلى اجراء التعديلات فى خطة العمل ، بحثاً عن اجابات عنها .

والتعارف على الواقع الجغرافى فى المساحة المعنية ، هو الذى يدعو الباحث الجغرافى ، إلى ما يمكن أن نسميها زيارة جغرافية أولية . ويكون الباحث الجغرافى متفرداً فى هذه المرحلة ، لأنها رحلة زيارة تفقدية ، وليست رحلة عمل . وما من شك فى أن محصلة هذه الزيارة تبصره كثيراً ، وهو يجمع ويختار اعضاء الفريق المتعاون ، أو وهو يجمع ويختار الأدوات والأجهزة ، وهو يضع خطة العمل الميدانى ، ويضمنها برامج العمل التجريبى ، وتقصى الحقائق والتعامل على مستوى المساحة المعنية .

وهذا معناه أن رحلة الزيارة الجغرافية التفقدية إلى المساحة المعنية ، هى مجرد زيارة تجهيز واعداد للرحلة الجغرافية الميدانية . ويكون من شأن هذه الزيارة التفقدية ، التى يقوم بها الجغرافى متفرداً ، والتى يعاين أثنائها الواقع الجغرافى .

١- تحديد أبعاد المساحة المعنية ، التى ينبغى أن تغطيها الدراسة الميدانية بالضبط .

٢- التطلع على هذه المساحة المعنية عن كثب ، وتهيئة حسه الجغرافى ومهاراته لاستشعار فحوى المهمة التى تتصدى لها الدراسة الميدانية .

٣- ترشيد مضمون خطة العمل ، وخطواته التنفيذية لانجاز الدراسة الميدانية الأفضل .

ومهما يكن من أمر هذا الاجتهاد ، الذى يكرسه الباحث الجغرافى لوضع خطة العمل فى الميدان ، والذى يوظفه بحثًا عن الضمانات لأحكام هذه الخطة ، فإن ذلك كله لا يعفى الجغرافى من التحلى بالمرونة والقبول ، بالتعديل الوقتى فى برامج العمل الميدانى . كما لا يعفيه أيضاً من التحلى بالصبر والمثابرة ، والقدرة على تحمل المشقة فى انجاز برامج العمل الميدانى .

والباحث الجغرافى فى الميدان لا يهدأ . بل عليه أن يتابع العمل أحياناً ، وأن يراجع مع معاونيه مدى تقدم العمل ، من حين إلى حين آخر أحياناً أخرى . وعليه بالضرورة أن يوالى فى اطار من المشورة والتفتح ، ترشيد كل خطوات العلم فى الميدان . ولا ينبغى أن يتم أى انجاز فى غيبته ، أو فى غيبة خبرته وقدرته على تفهم العلاقة ، بين هذا الانجاز وجداوه من ناحية ، وكنه التوليفة والتركيب الجغرافى ، وكنه التفصيل والتحليل الجغرافى أحياناً أخرى ، فى وقت واحد .

وعن الأدوات والمعدات ، التى يختارها ويصطحبها فريق العمل معه فى الرحلة الجغرافية إلى الميدان ، نذكر أنها ضرورية . ووجه الضرورة فى هذه التجهيزات ، أنها أدوات التنفيذ ، واجراء التجارب العملية والعمل الميدانى . وهذه الأدوات شديدة التنوع ، ومع ذلك فإنها تسعف العمل الميدانى وهو لا يستغنى عنها .

هذا ، من أن هذه الأدوات المتنوعة ، فى صحبة أى رحلة جغرافية ميدانية إلى المساحة المعنية ، أن :

١- تسعف المشاهدة على الطبيعة ، وتخدم وضوح الرؤية والمعاينة .

٢- تخدم التحرك والانتقال فى الميدان ، وتكفل المرونة فى الاحاطة.

٣- تنجز بعض التجارب الميدانية ، وتعطى المؤشرات أو النتائج الأولية .

٤- تخدم التسجيل والتدوين ، وجمع البيانات والنتائج ، وتكفل تصنيفها .

٥- تكفل الاقامة وحياة الفريق ، أثناء فترة العمل فى الميدان ، وتحقق الاتصال بينه وبين حركة الحياة فيما وراء المساحة المعنية .

وقد تتنوع هذه الأدوات والأجهزة والمعدات ، فى صحبة كل فريق عمل ، من رحلة جغرافية ميدانية ، إلى رحلة جغرافية ميدانية ، إلى المساحة المعنية . والتنوع الذى نعنيه بالضبط ، لا يأتى تأسيساً على التباين الحقيقى بين ميدان عمل ، وميدان عمل آخر . بل هو التنوع الذى يمليه ويدعو إليه ، التباين الحقيقى بين أهداف دراسة ميدانية ،

وأهداف دراسة ميدانية أخرى . وهذا معناه أن موضوع البحث الجغرافى المتخصص ، وما يبتغيه من دراسة ميدانية وعمل تجريبى أو تطبيقى ، هو وحده الذى يدعو - بكل تأكيد - إلى اختيار الأدوات والأجهزة الأنسب ، لانجاز هذه الدراسة الميدانية .

ومع ذلك ، هناك أدوات ومعدات وأجهزة ، تستخدم فى العمل الميدانى أثناء أى رحلة جغرافية ميدانية . وهذه الأدوات والأجهزة لا ينبغى التفرط فيها. بمعنى أنها أدوات وتجهيزات الحد المشترك الأنسب، بين كل الرحلات الجغرافية الميدانية . ولا تستغنى عنها أى رحلة جغرافية ، عندما تخرج إلى دراسة ميدانية ، فى أى موضوع ، وفى أى ميدان ، وفى أى مساحة معنية . وفى رأى أى باحث جغرافى عمل فى الدراسة الميداينة ، أن هذه الأدوات - أدوات الحد المشترك - هى أدوات الحد الأدنى لانجاز العمل الميدانى . وتحسن مستوى الأداء وانجاز العمل التجريبى أو التطبيقى فى الميدان ، قد تكفيه أو تكفله أدوات الحد الأدنى، ولكنها لا تكفل - بالقطع - انجاز العمل الميدانى الأفضل والأحسن .

ومن ثم ينبغى أن يمتلك الجغرافى الخبرة والمهارة ، وأن يستخدمهما معًا ، لكى يحسن اعداد قائمة الأدوات والأجهزة والمعدات ، فى صحبة الرحلة الجغرافية الميدانية (١). بل يجب أن يعرف جيداً ، كيف يختار الأدوات الأفضل المطلوبة ، فى أى رحلة جغرافية لحساب العمل الميدانى . ويمثل هذا الاختيار بلا شك السبيل ، لكى تصحب الرحلة الجغرافية الميدانية أدوات الحد الأمثل . وحسن الاختيار لدى اعداد قائمة الأدوات والأجهزة ، يسعف العمل الميدانى ، ويؤمنه لكيلا تواجه الدراسة، واجراء التجارب الميدانية ، الحرج فى مواجهة بعض المواقف الصعبة ، أو المفاجئة وغير المتوقعة .

ولا تثريب على قيادة الرحلة وهى تطلب المشورة من غيره لتجهيز قائمة الأدوات . بل قل يجب أن تحصل على مشورة بعض أعضاء الفريق المتعاون فى العمل الميدانى ، أو على مشورة بعض أصحاب

---

(١) ينبغى ان يشترك اعضاء الفريق ، كل فيما يخصه فى حصر الأدوات والأجهزة ، التى يتطلبها إنجاز العمل الميدانى .

الخبرة ، فى شأن اعداد قائمة التجهيزات ، التى تلبى حاجة الحد الأمثل لانجاز هذا العمل فى الميدان . وقد تكلف قيادة الرحلة الجغرافية الميدانية الفنى المدرب ، على تشغيل هذه التجهيزات ، واستخدامها واختبار مبلغ صلاحية الأجهزة والمعدات ، والتأكد من سلامتها وكفاءتها ، وجدوى تشغيلها فى العمل الميدانى . وتتكفل هذه الخبرة الفنية فى العادة ، بتصنيف هذه التجهيزات فى عهدته التصنيف الأحسن ، لكى تكون فى متناول العمل الميدانى ، وتسعف انجازه .

وفضلاً عن هذه التجهيزات والمعدات المتنوعة ، يجب أن تعطى الرحلة الجغرافية الميدانية ، وسيلة أو وسائل الانتقال فى صحبتها . وهذه الوسيلة مطلوبة – على الأقل – لنقل الأفراد والأدوات ، إلى مواقع العمل الميدانى فى المساحة المعنية . وصحيح أن معظم العمل والفحوص والتجارب وجمع البيانات فى الميدان ، يتعين انجازها سيراً على الأقدام ، وطوافاً فى مسيرة متأنية ، وتحرك هادف ، فى أنحاء المساحة المعنية . ولكن الصحيح أيضًا أن حيازة السيارة القوية ، التى تناسب حاجة وطبيعة الواقع الجغرافى فى الميدان ، يمكن أن تخدم مسيرة العمل ، وأن تسعف التحرك المرن ، فى الميدان (١) . وهناك نماذج ممتازة من سيارات قد صممت ، لكى تكون الأفضل فى خدمة الرحلة البحثية إلى الميدان . وقد نتحقق من امتيازها لأنها تتحمل مشقة التحرك بكل الصلابة فى أنحاء الميدان ، أو لأنها تخدم الاقامة لبعض الوقت اللازم ، لانجاز العمل فى الميدان .

وانجاز العمل الميدانى ، كما تخطط الخطة الموضوعة للرحلة الجغرافية الميدانية ، يدعو بالضرورة إلى الاقامة المستمرة لبعض الوقت فى الميدان . وتدعو هذه الحاجة إلى اصطحاب أدوات المعسكر ، الذى يخدم هذه الاقامة المؤقتة فى الميدان . كما تدعو هذه الحاجة أيضًا إلى

---

(١) تستعين الرحلة الجغرافية الميدانية فى بعض الأحوال بالطائرة العمودية التى تكفل التحليق من أجل رؤية جغرافية كلية تطل على المساحة المعنية من الارتفاع الأنسب ، أو من أجل التحرك فى بعض الأجزاء الوعرة التى يتعذر الوصول إليها بغير هذه الوسيلة .

اختيار الموقع ، أو المواقع الأنسب لاقامة هذا المعسكر ، وتجهيزه فى المساحة المعنية . ويمكن أن يقع هذا الاختيار أثناء الزيارة الأولية ، التى تكفل الاحاطة بالمساحة المعنية ، قبل وضع خطة الرحلة الجغرافية الميدانية ، والخروج إلى العمل الميدانى فيها ، أو أثناء تحرك الرحلة الجغرافية وخروجها إلى العمل الميدانى بالفعل .

وفضلاً عن اعداد المعسكر لايواء واسكان الفريق ، فى غير وقت العمل الميدانى . يجب أن يضم هذا المعسكر المكان المناسب لاجتماع الفريق ، ومراجعة مدى تقدم مراحل العمل ، والتمعن فى انجازات هذه المراحل ، والمؤشرات التى تنبئ بها ، من حين إلى حين أخر . وقد يستخدم هذا المكان أيضًا لرسم الخرائط ، وتوقيع البيانات على رسومها الصماء . وتجهيز المعكسر للاقامة المؤقتة واحتواء الفريق ، لا يدعو إلى أقل من اصطحاب أدوات المعيشة المناسبة ، لعدد أفراد الفريق وحاجته الفعلية ، من مؤن وغداء ، واسعاف سريع ، وبعض وسائل الترفيه والترويح .

وعندما تتوجه الرحلة الجغرافية الميدانية ، إلى ميدان العمل الجغرافى فى مساحة معنية ، وتصبح بعيدة عن حركة الحياة ونبضها العادى ، وتقيم فى معسكر خاص لبعض الوقت المناسب ، لانجاز العمل الميدانى ، قد تتخوف من أن تضل على الطريق أثناء العمل ، وانتشارها فى أنحاء الميدان ، أو من أن تنقطع بها السبل أثناء العودة إلى المعسكر ، أو من أن تتعرض للخطر المفاجئ أثناء الاقامة فى المعسكر ، ومن ثم يجب أن تضم الرحلة الجغرافية الميدانية إلى صحبتها الدليل ، الذى يرشد التحرك ، والحارس الذى يؤمن الاقامة فى المعسكر . كما ينبغى أن تحمل معها الرحلة ضمن الأجهزة والمعدات – على سبيل الاحتياط – جهاز الارسال للاتصال المباشر السريع ، بمن يهمه الأمر فى طلب العون أو النجدة ، فى بعض المواقف الخطرة ، أو الحرجة ، أو غير الاعتيادية .

وفى اطار التجهيز واصطحاب التجهيزات ، مع الرحلة الجغرافية

الميدانية ، قد تدعو حاجة العمل ، وهو يتوجه إلى تقصى حقيقة الواقع الجغرافى البشرى ، أو الاقتصادى ، فى المساحة المعنية ، إلى تجهيز الاستبيان قبل الخروج إلى الميدان (١) . والاستبيان استمارة تتضمن عدداً كبيراً من الأسئلة ، التى تطلب الدراسة الميدانية الاجابة عليها ، من أكبر عدد ممكن من القادرين على اعطاء الاجابة . وليس هناك نموذج أمثل لهذا الاستبيان ، ولكن تحدد الأسئلة فيه حاجة البحث ، والتطلع إلى رصيد من الاجابات عن هذه الأسئلة . وقد يدعو اعداد الاستبيان الأفضل ، إلى ترك تحديد بعض الأسئلة ، إلى حسن استخدام المقابلة الشخصية ، بين من يتولى طرح الأسئلة ، ومن يتولى الاجابة عليها . وهذا لا يعنى سوى أكبر قدر من المرونة والانفتاح ، فى عملية جمع الاجابات ، وما تنطوى عليه من مؤشرات هامة ، بشأن الظاهرة الجغرافية البشرية المعنية .

وهناك اتجاه فى اعداد الاستبيان ، ووضع صيغ الأسئلة يجعل الاجابة اختيارية . وهذا هو الاستبيان المفتوح ، الذى لا يقيد المجيب ، ويحدد له كيف يجيب . وهناك اتجاه آخر فى اعداد الاستبيان ، ووضع صيغ الأسئلة ووضع صيغ الاجابة عليها . وهذا هو الاستبيان المغلق ، الذى يقيد المجيب ، ويحدد له كيف يجيب . وهناك أكثر من ضابط ، يلتزم به الباحث ، لدى اختيار واعداد الاستبيان المفتوح ، أو الاستبيان المغلق . وبعض هذه الضوابط يستوجبها البحث نفسه فى شأن الظاهرة الجغرافية المعنية ، وبعض الضوابط الأخرى تمليها أوضاع وقدرات ومستويات أفراد العينة ، أو الأشخاص الذين يطلب منهم الاجابة على أسئلة الاستبيان .

وفى اعتقاد أى باحث جغرافى ، أن مسألة اعداد الاستبيان مسألة صعبة ، ومع ذلك يجب أن يتوفر فيها ولها :

١- وضوح صيغة السؤال ، بالشكل الذى يناسب المجيب ، ولا

---

(١) خطاب عادل عبد الله : المرجع السابق ص٢٦٣ - ٢٦٥ .

يوقعه فى الحرج ، أو فى الاحتمالات أو فى التردد .

٢- حسن صياغة السؤال ، بالأسلوب الذى يطمئن إليه المجيب ولا يوقعه فى التخوف ، أو يدعوه إلى التضليل والتكتم والكذب .

٣- تجنب صياغة السؤال بالطريقة التى تقيد المجيب ، وكأنه تطلب منه اجابة معينة .

٤- عرض صيغة السؤال ، بالمنطق الذى يقنع المجيب بجدواه ، ولا يفقده الثقة فى قيمة الاجابة .

ولأن الباحث الجغرافى ، هو الذى يعرف ماذا يريد بالضبط من الاستبيان ، فينبغى أن يعرف أيضاً كيف يعد الاستبيان ، الذى يحقق له الحصول على ما يريد بالفعل . وفى أثناء رحلة الزيارة الخاطفة التفقدية، التى يقوم بها متفرداً ، قبل الاعداد والتجهيز للرحلة الجغرافية الميدانية ، هناك فرصة لكى يجد ما يرشده فى أمر حسن اعداد هذا الاستبيان وتجهيزه ، واصطحابه معه لدى الخروج فى الرحلة البحثية إلى الميدان . بل يجب أن يحسن اختيار الأفراد ، الذين يتولى الواحد منهم مهمة توزيع وجمع الاستبيان ، أو مهمة تسجيل الاجابات عن الأسئلة فى استمارة الاستبيان . ومن الطبيعى أن يكون الفرد ملماً بقيمة وجدوى الاستبيان ، لكى يتوخى الأداء الأفضل . ولكن الأهم من ذلك كله ، هو أن يكون هذا الفرد قادراً على كسب ثقة وود ، من يطلب منه الاجابة لكيلا يتخوف المسئول من السائل ، أو لكيلا يتهرب المسئول من السائل ، أو لكيلا يضلل المسئول السائل .

ولأن الباحث الجغرافى ، هو الذى يعد الاستبيان ، فى اطار حاجة البحث وجمع المادة العلمية ، فينبغى أن يختار الوسيلة أو الأسلوب ، الذى يعتمد عليه فى انجاز هذا الاستبيان فى الميدان . وهو بالقطع يفاضل أو يوازن بين أسلوبين ، هما أسلوب الاستبيان الشامل العشوائى أو أسلوب الاستبيان بالعينة .

وفى **الاستبيان العشوائى الشامل** ، يجب أن تغطى عملية توزيع الاستبيان أكبر عدد من الناس ، أو أكبر عدد من الهيئات والمؤسسات

والمرافق ، لكى يكفل الشمول والتنوع والتعدد ، فى اطار هذا الشمول وتوقع الاجابات .

أما فى **الاستبيان بالعينة** ، فيجب أن تغطى عملية توزيع الاستبيان كل العينة ، المنتخبة انتخاباً عشوائيًا فى بعض الأحيان ، أو المنتخبة انتخاباً غير عشوائى ، فى بعض الأحيان الأخرى .

هذا ، وإذا كانت مرحلة ما قبل الخروج إلى الرحلة الجغرافية الميدانية ، تشهد هذا الاهتمام ، يتفرغ فيه الباحث لاعداد قائمة التجهيزات ، وصياغة الاستبيان ، ووضع خطة العمل فى الميدان ، فهذا معناه أن هذه المرحلة جزء لا يتجزأ من الدراسة المكتبية Arm Chair Work . وتتضمن هذه الدراسة فى المرحلة السابقة للرحلة الميدانية الاطلاع على المراجع والمصادر والكتب والمقاولات ، وكل ما سبق تسجيله عن المساحة المعنية . ومثل هذا الاطلاع لا يعنى أقل من تعرف الباحث على مدى ما وصل إليه البحث فى شأن المساحة المعنية ، وكيف يضيف من عنده شيئاً جديداً ، وهو يعد بحثه الجغرافى عنها .

وعن مجموعات الخرائط المتنوعة، التى يجب أن تحملها الرحلة الجغرافية عند المغادرة إلى حقل العمل فى الميدان ، نذكر أنها منتخبة بعناية ، لكى تبصر التحرك والانتقال فى الميدان ، ولكى ترشد العمل الميدانى فى وقت واحد . والرحلة الجغرافية الميدانية ، لا ينبغى أن تفرط فى اصطحاب هذه الخرائط أبداً ، حتى لو قبلت بالتفريط فى أى شئ آخر .

وتتألف هذه الخرائط المتنوعة – فى جملتها – من نوعين رئيسيين هما على وجه التحديد :

١– مجموعة من الخرائط سابقة التجهيز ، التى تغطى المساحة المعنية ، وتبصر التحرك والرصد والانتشار على صعيد المساحة المعنية فى الميدان .

٢– مجموعة من الخرائط الصماء ، التى تغطى أيضًا المساحة المعنية ، وهى التى تعد لتسجيل البيانات عليها ، لحساب البحث .

والخرائط سابقة التجهيز فى جملتها قد أعدت من قبل هيئة ، أو هيئات متخصصة فى انتاج الخرائط . وتتولى الهيئة فى العادة ، تجهيز هذه الخرائط والعناية بتسجيل البيانات عليها التسجيل ، الذى يجسد صورة عن الواقع الجغرافى . وهناك أنواع كثيرة من هذه الخرائط الجغرافية ، والخرائط الطبوغرافية ، والخرائط الجيولوجية . ومن شأن الباحث أن ينتخب من هذه الخرائط ، من الأنواع التى تخدم أغراض الرحلة ، أو تسعف العمل الميدانى فى المساحة المعنية .

أما الخرائط الصماء ، فهى من اعداد الفنى المكلف ، قبل الخروج فى الرحلة الميدانية . ومن الضرورى أن يلتزم الفنى الذى يجهز هذه الخرائط ، بمقياس الرسم المناسب للعمل فى الميدان . كما ينبغى أن يعد من هذه الخرائط اعداداً مناسباً لحاجة العمل ، والاستخدام المتوقع فى الميدان . وهذه الخرائط الصماء لا تعنى أقل من استعداد الباحث لتسجيل أى اضافات ، أو أى بيانات ومعلومات ، تهم العمل الجغرافى التجريبى فى الميدان . ولا يكتفى فى هذه الخرائط بتسجيل مقياس الرسم فقط ، بل يجب أيضاً تسجيل تاريخ اليوم ، الذى سجلت فيه ، ونتائج العمل الميدانى عليها .

ويضاف إلى هذين النوعين من الخرائط ، التى تغطى المساحة المعنية ، بعض أدوات الرسم واللوحات ، التى يمكن أن تستخدم بأكبر قدر من المرونة فى أثناء العمل الميدانى . ويتولى المساح والرسام معاً ، مسئولية انجاز الرسوم البيانية ، وعمل القطاعات ، التى تعبر عن الرؤية المباشرة فى ميدان العمل ، تحت اشراف الخبرة الجغرافية المتخصصة . كما يتولى هذا الرجلان معاً ، مسئولية تسجيل أى اضافة مفيدة ، أو أى تعديل يصحح الخطأ ، فى خريطة من الخرائط . والتعديل الذى يصحح الخطأ أو الاضافة ، التى تضاف إلى الخريطة ، لا يمكن بل قل لا ينبغى أن تقلل من قيمة وأهمية الخرائط المجهزة ، التى ترشد العمل فى الميدان .

ويقع اختيار الباحث وبعض معاونيه ، قبل أن تغادر الرحلة

الجغرافية إلى الميدان عادة ، على مجموعة الخرائط الجاهزة ، التى تبين المساحة المعنية . وقد يستخدمها بالفعل فى اطار مرحلة اطلاعه ودراسته المكتبية . ويراعى عند الاختيار بالضرورة الحصول على أفضل مجموعة متاحة من الخرائط المتنوعة ، من حيث الدلالة ، أو حسن التعبير ، ومن حيث مقياس الرسم . والمهم أن تلبى كل خريطة حاجة العمل الميدانى ، وأن تناسب الغرض ، أو الغاية المطلوبة من اجراء الدراسة الميدانية .

وتدعو هذه الحاجة – فى الغالب – إلى الانتفاع ببعض خرائط بمقياس رسم كبير أثناء الرحلة الميدانية . وتكون هذه الخرائط – فى العادة – فى مجموعة من اللوحات ، التى تغطى ، وهى متفرقة أجزاء من المساحة المعنية ، وتغطى مجتمعة فى الترتيب الصحيح المساحة المعنية كلها . والخريطة الطبوغرافية فى معظم الأحوال واحدة ، من أهم وأفيد الخرائط ، التى لا ينبغى التفريط فى حملها أثناء الرحلة ، ولا فيما تنبئ به عن الظاهرات الجغرافية المعنية أثناء العمل .

ويضاف إلى هذا التنوع فى الخرائط الجاهزة ، التى تحملها الرحلة الجغرافية الميدانية ، مجموعة من الصور الجوية للمساحة المعنية . ومن شأن هذه الصور الجوية ، أن تعين العمل فى دراسة التضاريس والاستيطان البشرى واستخدامات الأرض (١) : ومع ذلك فإنها لا تغنيه عن استخدام الخرائط العادية . وإذا كانت هذه الصور الجوية واستخداماتها فى اطار العمل الجغرافى الميدانى ، لم يتأت إلا بعد الخمسينات من هذا القرن ، فإن هذا الاستخدام قد واكب تحول الرحلة الجغرافية الميدانية ، من خدمة البحوث الجغرافية ، كما أرادت الجغرافية الحديثة لها أن تكون ، إلى خدمة البحوث الجغرافية ، كما تريده الجغرافية المعاصرة فى الوقت الحاضر (٢) .

---

(١) خطاب عادل عبد الله : المرجع السابق ص٢٤٦ – ٢٥٤ .

(٢) الشامى صلاح الدين : الفكر الجغرافى ص٤٠٤ .

أما الخرائط الصماء ، التى يكلف الرسام بانجازها فى اطار التجهيز لقيام الرحلة الجغرافية الميدانية ، فهى وسيلة عمل ضرورى فى الميدان . ولا ينبغى أن يفرط فيها الباحث أثناء التحرك ، والعمل فى أنحاء الميدان . ومن شأن الباحث أن يسجل عليها أهم ما يسترعى انتباهه ، ويستحق أن يضاف أو يعد فى اطار الرؤية الجغرافية ، ومعاينة الواقع الجغرافى موضع البحث . وسواء كانت هذه الخريطة على لوحة أو عدد من اللوحات ، فهى وسيلة من أهم وسائل تثبيت الرؤية الجغرافية فى الميدان تثبيتاً مباشراً .

وهذا معناه – على كل حال – أن هذه الخرائط الصماء ، هى التى يتولى العمل فى الميدان مسئولية ، صياغة وتسجيل التعبير ، الذى يدلل على نتائج معينة ، انتهى إليها البحث العلمى . بل هى أساس حقيقى ، يبدأ به التجهيز الجيد ، لكل الخرائط التى تجسد اضافات البحث الجغرافى كله ، بعد أن يفرغ الفريق تماماً من انجاز وأداء كل مراحل العمل ، والدراسة الميدانية العملية فى الميدان . وتعطى هذه الخرائط لدى تجهيزها ، بياناً عملياً يحكى أو يجسد :

١– مبلغ ما وصل إليه اجتهاد الفريق فى العمل الميدانى ، والمهام التى خرجت من أجلها الرحلة الجغرافية الميدانية .

٢– مبلغ نجاح الفريق وتدقيقه فى انجاز أهداف وتطلعات الاضافة ، التى ينبغى أن تسفر عنها الدراسة الميدانية .

٣– مبلغ التمكن من وضوح وبلاغة وصدق التعبير ، فى تسجيل البيانات التى تضيفها الدراسة الميدانية .

***

وبعد ، هكذا يكون التجهيز للرحلة الجغرافية الميدانية ، قبل أن تغادر إلى المساحة المعنية . وهو تجهيز مستمر يسير جنباً إلى جنب مع تفرغ الباحث للدراسة المكتبية ، والاطلاع على الاجتهاد الجغرافى السابق، الذى تولى الدراسة فى المساحة المعنية ، أو تولى العمل فيها وسجل شيئاً مفيداً عنها .

وما من شك فى أن علم الجغرافية الحديثة ، فى اطار مفاهيم ومنطق وفلسفة التفكير الذى رسخ قواعده ، قد أراد وطلب من كل باحث جغرافى ، وهو يتفرغ لاعداد البحث الجغرافى الجيد ، أن يوظف الرحلة الجغرافية فى العمل الميدانى . ولقد جاوب الباحثون بالفعل هذه الارادة ، وانتفعوا بها وأنجزوا أبحاثاً جغرافية جيدة . ومن ثم ينبغى أن نمعن النظر فى مكانة الدراسة الجغرافية الميدانية ، وأن نتدارس ونقوم جدوى الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى شأن انجاز البحث الجغرافى الجيد .

***

مكانة الدراسة الميدانية فى البحث الجغرافى :

تحت مظلة الاجتهاد الأكاديمى الجامعى ، وفى ضوء مفاهيم وضوابط وقواعد وأسس علم الجغرافية الحديثة ، تبين مدى الاهتمام بانجاز البحوث الجغرافية العلمية المتخصصة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولقد تولى طلاب الدراسات العليا ، مهمة هذا الانجاز الجاد ، الذى تلمس الاضافة المجددة ، أو التعميق الموضوعى ، أو الاقتراب الجيد فى مجال اعداد البحث . ولم يجد هؤلاء الطلاب أفضل من توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية المتجردة من كل غرض ، لحساب العمل الميدانى . وما من شك فى أن حسن استخدام نتائج العمل الميدانى ، قد وجههم فى الاتجاه الصحيح ، لانجاز البحوث الجغرافية العلمية الجيدة .

وتأسيساً على هذا التوجه الحميد ، تعلم طلاب الجغرافية فى مرحلة الدراسة الجامعية ، كيف يخرج فى الرحلة الجغرافية الميدانية (١). بل ولقد تخصص بعض الأساتذة المعلمين ، فى تدريب الطلاب على حسن استثمار هذه الرحلة الجغرافية الميدانية . وتمادى هذا التدريب

---

(١) من رواد الرحلة الجغرافية الميدانية التعليمية ، الأستاذ وولدردج والأستاذ كونز رئيس قسم الجغرافية فى كلية جولد سميث الجامعية .

إلى حد تكليف الطلاب باعداد بحوث ، فى شكل تقارير تجسد مبلغ استيعاب العمل الميدانى ، والقدرة على انجازه . وعندئذ تكشفت قدرات الطلاب ، وكيف أسهمت الرؤية الجغرافية فى استيعاب الخبرة والمعرفة الجغرافية .

وتأسيساً على هذا التوجه الحميد أيضًا ، التزم الباحث الجغرافى المتخصص ، بهذه الرحلة الجغرافية الميدانية ، وهو يحملها أمانة ومسئولية الانجاز البحثى الجيد . وصحيح أن الباحث الجغرافى المتخصص ، قد أخذ على عاتقه حسن تنظيم الرحلة الجغرافية الميدانية ، وحسن توظيفها فى العمل الميدانى العلمى العملى والتطبيقى ، وحسن جمع وتصنيف البيانات والمعلومات والنتائج التى أسفرت عنها . ولكن الصحيح أيضًا أنه التزم وأخذ على عاتقه ، وضع انجازات هذه الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى مكانها الصحيح ، ومكانتها المرموقة ، فى صلب بناء البحث الجغرافى وتركيبه الهيكلى . ومن ثم أصبح ذلك التوجه فى حد ذاته ، مصدر الاضافة ، وكل اضافة تستحق الاطراء ، أو مصدر اثراء البحث الجغرافى ، وترسيخه ودعمه .

ومن الطبيعى أن نتبين فى كثير من البحوث الجغرافية العلمية ، التى نالت الحظوة الأكاديمية والاطراء العلمى ، مبلغ هذا الالتزام بالعمل الميدانى ، وجدواه فى شأن تجويد البحث . كما يمكن أن ندرك أيضًا مدى ما أسفر عنه هذا التوجه الملتزم ، من حيث ترسيخ مكانة الدراسة الميدانية فى أى مساحة معنية ، والتى تخصص من أجلها ، أو توظف الرحلة الجغرافية الميدانية . ومن ثم نالت الرحلة الجغرافية الميدانية ، بموجب ذلك التوجه الملتزم ، كل الأهمية والعناية والتقدير العلمى الأكاديمى .

وتحت مظلة الاجتهاد الجغرافى الأكاديمى العلمى ، وفى ضوء مفاهيم وضوابط وقواعد وأسس علم الجغرافية ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، كان من شأن الباحث الجغرافى فى الدراسات العليا ، أن يحدد فى البداية مقصد وأغراض وتطلعات البحث الجغرافى . وكان

توجه هذا المقصد – فى الغالب – توجهاً مباشراً فى ثلاثة سبل ، لكى يختار الموضوع المتخصص . ولقد تمثلت هذه السبل لاختيار الموضوع فى :

١– أن يكون المقصد انجاز البحث الجغرافى الطبيعى ، الذى ينكب على دراسة ظاهرة جغرافية طبيعية معنية ، دراسة تركيبية تحليلة فى مساحة معينة .

٢– أن يكون المقصد انجاز البحث الجغرافى البشرى ، الذى ينكب على دراسة ظاهرة جغرافية بشرية معنية ، دراسة تركيبية تحليلية فى مساحة معينة .

٣– أن يكون المقصد انجاز البحث الجغرافى الاقتصادى ، الذى ينكب على دراسة ظاهرة جغرافية اقتصادية معنية ، دراسة تحليلية تركيبية فى مساحة معينة .

وفى كل حالة من هذه الحالات ، كان من شأن الباحث الجغرافى ، أن يعرف بالضبط ، كيف يوظف الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى العمل الميدانى العملى التجريبى أو التطبيق ، وكيف يوجه هذا العمل الميدانى العملى ، لحساب هدف ومقصد وغايات وتطلعات الهدف الجغرافى . بل كان من الضرورى أن يعرف بالضبط كيف يجيد استثمار هذا العمل الميدانى ، وكيف يتخذ من نتائجه أساسًا أصيلاً ، ومادة أولية خام علمية، لانجاز البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع أو البحث .

وتحت مظلة الاجتهاد الجغرافى الأكاديمى العلمى ، وفى ضوء مفاهيم وضوابط وقواعد وأسس علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، كان من شأن الباحث الجغرافى فى الدراسات العليا ، أن يحدد فى الخطوة الثانية المساحة المعنية ، التى تحتوى أو يتحيز فيها البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع . وكان توجه هذا التحديد – فى الغالب – توجهاً مباشراً فى ثلاثة سبل ، لكى يختار المساحة المعنية . ولقد تمثلت هذه السبل لاختيار المساحة المعنية الأنسب فى :

١- أن يوضع البحث الجغرافى المتخصص فى موضوع طبيعى ، أو فى موضوع بشرى ، أو فى موضوع اقتصادى ، فى اطار محلى محدود ومتميز ، تتميز فيه المساحة المعنية ، على صعيد محلى .

٢- أن يوضع البحث الجغرافى المتخصص فى موضوع طبيعى ، أو فى موضوع بشرى ، أو فى موضوع اقتصادى ، فى اطار اقليمى محدد ومتميز ، تتميز فيه المساحة المعنية على صعيد الاقليم .

٣- أن يوضع البحث الجغرافى المتخصص فى موضوع طبيعى ، أو فى موضوع بشرى ، أو فى موضوع اقتصادى ، فى اطار شامل فضفاض ، تنتشر فيه المساحة المعنية على صعيد العالم كله .

وفى كل وضع من هذه الأوضاع ، كان من شأن الباحث الجغرافى أن يعرف بالضبط ، كيف يحدد هدف ومقصد وتطلعات البحث الجغرافى ، من حيث التخصص فى الموضوع ، وأن يقتنع بالضبط بأبعاد المكان ، وكيف تتميز فيه المساحة المعنية . ومن ثم كان عليه بالضرورة، أن يعرف كيف يوظف الرحلة الجغرافية الميدانية التوظيف الأنسب ، وكيف يحدد مدى انتفاعه بها فى العمل الميدانى العملى ، أو التطبيقى لحساب البحث . بل لقد عرف كل باحث جغرافى بالضبط ، كيف يجيد تطويع واستثمار هذا العمل الميدانى ونتائجه ، وكيف يتخذ من ذلك كله أساساً أصيلاً ومادة أولية عملية ، لانجاز البحث الجغرافى ، المتخصص فى الموضوع والمتحيز فى المكان .

وتحت مظلة الاجتهاد الجغرافى الأكاديمى العلمى ، وفى ضوء مفاهيم وضوابط وقواعد وأسس علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، كان من شأن الباحث الجغرافى فى الدراسات العليا ، أن يحدد فى الخطوة الثالثة المدى الزمنى ، الذى يتابع فيه البحث الجغرافى ، المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان ، وفى الاطار الزمنى المتطور ، بين بداية معينة ونهاية معنية ، توجهًا مباشراً فى أربعة سبل ، لكى يختار حدود الزمان المعنى . ولقد تمثلت هذه السبل لاختيار حدود الزمان الأنسب فى :

١- أن يحصر معالجة وسياق وحبكة البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان ، فى الاطار الزمنى الحاضر ، الذى لا يهتم بعلاقة الحاضر بالماضى ، ولا بعلاقة الحاضر بالمستقبل .

٢- أن يحصر معالجة وسياق وحبكة البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع والمتحيز فى المكان ، فى الاطار الزمنى المتطور ، بين بداية معينة ، ونهاية معنية لا تتجاوز الحاضر .

٣- أن يحصر معالجة وسياق وحبكة البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان من عامل الزمان وتحديد مداه ، حتى يتحرر فى العودة إلى الماضى ، أو فى التطلع إلى المستقبل التحرر الكافى الذى يخدم البحث .

٤- أن يعالج سياق وحبكة البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان ، وهو يتدارس صورة جغرافية كانت فى الماضى القريب ، أو فى الماضى البعيد ، أو فى الماضى الچيولوچى .

وفى كل سياق من هذه السياقات ، كان من شأن الباحث الجغرافى، أن يعرف بالضبط ، كيف يحدد هدف ومقصد وتطلعات البحث الجغرافى ، من حيث التخصص فى الموضوع ، ومن حيث التحيز فى المكان ، وأن يقتنع بالضبط بمدى الزمان ، وكيف يتأتى فيه السياق المعنى . ومن ثم كان عليه بالضرورة أن يعرف كيف يوظف الرحلة الجغرافية الميدانية ، التوظيف الأنسب ، وكيف يحدد مدى انتفاعه بها فى العمل الميدانى العملى أو التطبيقى ، لحساب البحث . بل لقد عرف كل باحث جغرافى بالضبط ، كيف يجيد تطويع واستثمار هذا العمل الميدانى ونتائجه ، وكيف يتخذ من ذلك كله أساسًا أصيلاً ، ومادة خام أولية عملية ، لانجاز البحث الجغرافى ، المتخصص فى **الموضوع** والمتحيز فى **المكان** . والمحدد فى **الزمان** .

وتحت مظلة الاجتهاد الجغرافى الأكاديمى الجامعى ، وفى ضوء مفاهيم وضوابط وقواعد وأسس علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، كان من شأن الباحث الجغرافى فى

الدراسات العليا ، أن يعرف بعد ذلك كله ، تحديد مقصد البحث الجغرافى المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان والمحدد فى الزمان ، حتى يكون فى وسعه أن يتخير المنهج الأنسب لانجاز هذا البحث . وكان توجه هذا الاختيار فى أربعة سبل ، لكى يختار هذا المنهج الأنسب . ولقد تمثلت هذه السبل لاختيار المنهج الأنسب فى :

١- أن يقع الاختيار على المنهج التحليلى ، ويعرف بالضبط سبل انجاز البحث الجغرافى ، وفق سياق وحبكة واهتمامات هذا المنهج ، وهو يعالج أو يتدارس الصورة الجغرافية فى الوقت الراهن .

٢- أن يقع الاختيار على المنهج الاستقرائى ، ويعرف بالضبط سبل انجاز البحث الجغرافى وفق سياق وحبكة ومنطق واهتمامات هذا المنهج، وهو يتدارس صورة جغرافية تأتت فى الماضى ، أو مرتقبة فى المستقبل .

٣- أن يقع الاختيار على المنهج الأصولى ، ويعرف بالضبط سبل انجاز البحث الجغرافى ، وفق سياق وحبكة ومنطق واهتمامات هذا المنهج .

٤- أن يقع الاختيار على المنهج التاريخى ، ويعرف بالضبط سبل انجاز البحث الجغرافى وفق سياق وحبكة ومنطق واهتمامات هذا المنهج . وهو يتدارس صورة جغرافية ، بداية من الماضى وصولاً إلى الحاضر .

وفى كل اختيار من هذه الاختيارات ، كان من شأن الباحث الجغرافى ، أن يعرف بالضبط هدف ومقصد وتطلعات هذا البحث الجغرافى ؛ المتخصص فى الموضوع ، والمتحيز فى المكان ، والمحدد فى الزمان ، وأن يعرف كيف ينجزه فى اطار المنهج الأنسب . ومن ثم يعرف بالضرورة كيف يوظف الرحلة الجغرافية الميدانية التوظيف الأنسب للمنهج ، الذى يجسد البحث ، وما يطلبه من عمل ميدانى علمى. بل لقد عرف كل باحث جغرافى متخصص دائمًا ، كيف يحسن استثمار هذا العمل الميدانى ، لكى يجاوب المنهج المتبع لانجاز البحث

الجيد من غير خروج ، أو تمرد على طبيعة وأصول وخطة كل منهج ، من هذه المناهج .

هذا ، ومن بعد هذا التحديد الأولى ، الذى يعتمد الباحث الجغرافى من أجله ، على أربعة أبعاد أساسية ، يعرف هذ الباحث بالضبط ، ماذا يريد من هذا البحث الذى يتصدى لانجازه . وهل نشك فى جدوى هذا التحديد الأولى ، وكيف يصطنع من هذه الأبعاد الأربعة ، الاطار الجيد الذى يحتوى البحث ، ويكسبه حبكة الموضوع فى الزمان والمكان والمنهج ؟

ومن شأن هذه الأبعاد الأساسية – على كل حال – أن تحدد بالضبط :

١- الموضوع الذى يجسد اختصاص البحث الجغرافى .

٢- المكان الذى يجسد مستواه المكانى ومساحته المعنية .

٣- الزمان الذى يجسد المدى الحقيقى لمتابعة البحث وسياقه الرتيب .

٤- المنهج الذى يجسد حبكة وحسن تعبير دلالة الانجاز .

وعندما يفرغ الباحث الجغرافى تماماً من خطوات واختيارات تنهى هذا التحديد الأولى للبحث ، وعندما يتصور شكل الاطار العام الذى يحتويه ، يستطيع أن يتوجه بكل العناية ، لوضع خطط انجاز البحث بالفعل . ومعنى هذا التوجه أن يجدد فى اطار الخطة ما يلزم هذا البحث الجغرافى أو ما يستحقه فعلاً من :

١- دراسة مكتبية Arm Chair Work واطلاع على المراجع والوثائق والمدونات والكتب ذات العلاقة من قريب أو من بعيد .

٢- دراسة ميدانية Field Work وانجاز التجربة الميدانية العملية ، أو تقصى الحقائق والبحث عن اجابات ، ترد على تساؤلات الاستبيان فى الميدان .

وعندئذ ، يجب أن يكون الباحث الجغرافى على بينة كاملة من

حيث الوضع والاستعداد الذى يعرف فيه بالضبط ، كيف يجدول استحقاق كل دراسة من هاتين الدراستين المتكاملتين ، جدولة زمنية مناسبة . بمعنى أن يدرك الباحث فى اطار الخطة ، متى وكيف وأين ولماذا ينجز الدراسة المكتبية لحساب هذا البحث . كما ينبغى أن يدرك الباحث فى اطار الخطة أيضاً ، متى وكيف ، وأين ، ولماذا ، ينجز العمل الميدانى التجريبى ، أو التطبيقى لحساب البحث نفسه . والأهم من ذلك كله أن يعرف الباحث الجغرافى ويجيد ، كيف يمضى فى شأن صياغة التكامل والتداخل والتوازن ، بين انجازات الدراسة المكتبية من ناحية ، وانجازات الدراسة الميدانية من ناحية أخرى ، لحساب البحث الجغرافى الجيد ، وبنيته العلمية السوية .

خطة الدراسة المكتبية وجدواها :

ومن الجائز ، أن يجد الباحث الجغرافية فى اطار الدراسة المكتبية ، والاطلاع الواسع على المراجع ، والكتابات الجغرافية وغير الجغرافية ، رصيداً هائلاً من البيانات ، وفرصاً جيدة ومفيدة ، تخدم بحثه من قريب أو من بعيد . ومن شأن هذه الفرص ، وما يطلع عليه من رصيد علمى جيد ، أن يسعفه ويحيطه علماً ومعرفة بمسيرة وتوجهات الاهتمام الجغرافى بموضوع البحث . ومن شأنها أيضاً أن تطلعه على جدوى ما حققته الاجتهادات الجغرافية السابقة ، ورصيدها الجيد المتاح عن موضوع البحث . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن يتخذ الباحث من معرفة هذا الرصيد ، والتيقين من فحواه وجدواه سبيلاً ، لكى يعرف بالضبط من أين يبدأ ؟ وكيف يبدأ ؟

وهذا معناه أن يعرف فعلاً مسيرة الاهتمام بهذا البحث ، وإلى أين انتهت ، وأن يعرف جيداً كيف يبدأ بحثه ، من حيث انتهت هذه المسيرة. وهذا يكل تأكيد الأسلوب الأنسب ، لكى يتبين الباحث بالفعل ، كيف يضيف ، وكيف تسجل اضافة بحثه خطوات تقدم وتطوير وتجديد ، على الطريق الصحيح . بمعنى أنه عندما يلتزم الباحث بالاضافة فى بحثه ، لا يضيف إلا إلى ما كان قد انتهى إليه كل من سبقه ، فى هذا

البحث . ومعناه أيضاً أنه عندما يسجل هذه الاضافة فى صلب البحث ، يكون على يقين من أنها اضافة تجدد ، وتضيف شيئًا مهمًا ، إلى بنية هذا البحث وتكوينه الموضوعى .

ومن الجائز أو قل من الطبيعى أن يجد الباحث الجغرافى فى اطار هذا الالتزام الحميد ، الذى تقتضيه الدراسة المكتبية والاطلاع الواسع على الرصيد المعنى ببحثه ، ضرورة ملحة تدعوه وتحفزه وتستوجب عليه ، أن يعرف بالفعل كيف ينسق تنسيقاً موضوعياً بين :

١- حصاد ومحصلة ونتائج قيمة ، قد تحققت وأعلنت عن كنهها ومغزاها ومرماها ، فى بحوث وكتابات جغرافية ودراسات موضوعية ، ينبغى عدم التفريط فى جدواها .

٢- حصاد ومحصلة ونتائج قيمة ، يتطلع إلى الحصول عليها كاضافة مجددة أو مكملة أو مجودة ، ينبغى ألا يكف أو يتحلل اجتهاده الدراسى من البحث عنها ، والتيقن من جدواها .

ومع ذلك ، يبقى الباحث الجغرافى فى حاجة ملحة ، إلى مهارة فى الأسلوب والنهج والكيفية ، التى حصل بها على هذه النتائج . كما يكون فى حاجة أشد الحاحًا ، لكى يبرهن على أن هذا الانجاز ، هو الاضافة الحقيقية التى يرنو إليها . وعندها يطمئن ويهدأ ، وبهذه الاضافة وحدها يزداد البحث الجغرافى عمقًا وتأصيلاً وتقدماً فى الاتجاه الصحيح ، الذى تعنيه الاضافة من وجهة النظر الجغرافية العلمية الأكاديمية .

ولكن كيف تتأتى للباحث هذه الاضافة ؟ وكيف يتيقن من جوهرها النقى ، وجدواها العلمية الجغرافية ؟ وهنا يمكن أن نقول أن هذه الاضافة اجابة بالفعل ، على تساؤل يتفجر من صميم البحث . ونقول أيضًا ونؤكد على أن لا شئ يفجر هذا التساؤل ، ويجسده ويعلن عن الحاحه ، غير الدراسة المكتبية والاطلاع على الرصيد الجغرافى عن موضوع البحث . ولكن المؤكد أيضاً أن هذه الاجابة التى تجسد الاضافة ، لا يجنيها الباحث من مجرد الاطلاع والقراءة ولا يجدها فى الرصيد الجغرافى .

ولا تغيب عن مهارة الباحث الجغرافى ، أين يجد هذه الاضافة ، وكيف يحصل عليها ؟ . وما لا شك فيه أن يعرف جيداً مصدرها الحقيقى ، وأن الدراسة الميدانية وحدها ، هى التى تقدم له هذه الاجابة ، بشرط أن يعرف كيف يسأل جيداً المنظور الجغرافى فى المكان والزمان ، وهو يباشر الدراسة الميدانية ، وكيف يحسن توظيف أساليب البحث فى الميدان عن الاجابة . وعندئذ تتجلى قيمة وجدوى الرحلة الجغرافية الميدانية ، ويستوجب البحث عن الاجابة خروجها إلى الميدان .

* * *

وهكذا ندرك كيف أنه عندما يفرغ الباحث الجغرافى من هذه المرحلة من مراحل الدراسة المكتبية ، وتواجهه كل التساؤلات ، التى تعلن عن مشكلات بحثية ، ويتصدى للبحث عن اجابات تحل عقدة هذه المشكلات ، لا يملك وسيلة إلا أن يتوجه بالرحلة الجغرافية الميدانية. والتوجه فى هذه الرحلة إلى الميدان فى المساحة المعنية معناه ، أن الباحث الجغرافى يعرف بالضرورة ، ماذا يطلب من الدراسات الميدانية . بل ينبغى أن يعرف كيف يطلب الاجابات على التساؤلات البحثية ، من العمل الميدانى التجريبى ، أو العمل الميدانى التطبيقى فى الميدان .

هذا ، ولكى يجنى الباحث الجغرافى أحسن ثمرات الرحلة ، ويحقق أهداف العمل الميدانى ، ويجد الاجابة عن تساؤلات كثيرة ، يجب عليه أن يحسن الاعداد للرحلة ، وأن يجيد توظيفها ، على النحو الذى أوردناه من قبل . بل يجب أن يعمل الباحث بنفسه مع الفريق المعاون ، على تنفيذ برامج العمل الميدانى . ومن خلال تقصى الحقائق فى الميدان ، واجراء التجارب العملية الميدانية ، أو جمع الاجابات عن أسئلة الاستبيان، والتمعن فى الواقع الجغرافى ، واجراء الحوار الصامت مع المنظور الجغرافى الطبيعى ، أو اجراء الحوار الناطق مع المنظور الجغرافى البشرى . ويجمع الباحث الجغرافى أوصال ما يريد من اجابات. وهل هذه الاجابات التى تعلن عنها نتائج هذا العمل ، غير

الاضافة التى يبحث عنها ، ويعرف مكانها الصحيح ، ومكانتها الحقيقية، فى البحث الجغرافى ؟

***

خطة الدراسة الميدانية ، أسلوبها وجدواها :

الدراسة الميدانية – كما ذكرنا – أمانة غالية فى عنق الرحلة الجغرافية ، التى تتوجه فى الوقت المناسب ، والتجهيز المناسب ، إلى المساحة المعنية . ويكون المطلوب من الدراسة الميدانية العمل ، واجراء التجارب الميدانية العملية ، وجمع المادة العلمية الخام ، التى تهم البحث الجغرافى . ويكون المطلوب منها أيضًا ، تغطية المساحة المعنية ، التى يهتم بها البحث الجغرافى ، تغطية عملية وتفصيلة مناسبة ، تجاوب إرادة البحث .

هذا وأهم ما تعنيه التغطية المناسبة فى نظر الباحث الجغرافى فى الميدان ، هو البحث وتقصى الحقائق ، عن كل ما من شأنه أن يجيب على التساؤلات ، التى يثيرها البحث ويطرحها ، ويطلب الاجابة عليها . ولا شئ يثرى البحث الجغرافى ، ويؤكد جدواه ، قدر العثور على الاجابة على هذه التساؤلات ، وانتزاعها من تعبير ودلالة الواقع الجغرافى ، التى لا تضل ولا تضلل .

ومن الجائز أن تخرج الرحلة الجغرافية الميدانية فى زيادة المساحة المعنية ، وأن يتجول الباحث الجغرافى فى أنحائها جولات أولية ، وأن تعد هذه الرحلة بعد أن يفرغ الباحث من مهمة الاستطلاع والرؤية والمعاينة ، أثناء هذه الجولات . ولكن المؤكد أن هذا التعارف ، لا يكفى ، ولا يشبع ، أو لا يلبى حاجة البحث الحقيقية ، أو لا يجيب على التساؤلات التى ترد وتتزاحم فى فكره . ومع ذلك فهى – من غير شك– تضع الباحث فى وضع الانفتاح ، وحسن الاستعداد للتعامل مع الواقع الجغرافى ، الذى يعنيه بالضبط فى المساحة المعنية .

وصحيح أن هذا التعامل يبدأ عندما يضع الباحث خطة وأسلوب

العمل الميدانى بعد هذه الزيارة . ولكن الصحيح أيضًا أن التعامل الفعال، هو الذى يتأتى عندما تتكرر جولات الرحلة الجغرافية الميدانية ، وهى تعمل فى اطار خطة وأسلوب العمل الميدانى .

وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية الميدانية ، وهى تخرج من أجل البحث :

١- تسجل فى كل جولة من جولاتها فى المساحة المعنية انجازًا عمليًا ، أو تجربة ميدانية ، أو تحصل على اجابة معنية .

٢- لا تكف أو تتوقف هذه الجولات ، إلا بعد أن يفرغ الباحث تمامًا من انجاز كل العمل الميدانى ، وجمع كل المادة العلمية والعملية ، التى تثرى البحث الجغرافى وتغطى أهدافه .

* * *

ويفضل فريق البحث الجغرافى فى مرحلة معينة ، خروج الرحلة ، الجغرافية الميدانية ، لكى تعسكر أو تقيم فى المساحة المعنية ، فترة زمنية محددة . ولا يتخذ القرار بشأن هذه الاقامة فعلاً لبعض الوقت ، إلا فى الوقت الأنسب الذى يستوجب التعايش ، بين فريق العمل الجغرافى ، والواقع الجغرافى المعنى ، فى المساحة المعنية . ولا تكون هذه الاقامة المؤقتة ذات قيمة، إلا إذا عكف الفريق على الدراسة، وتقصى الحقائق الجغرافية ، وعلى اجراء التجارب العملية الميدانية الأنسب .

وهذا معناه أنه فى اطار برنامج العمل الميدانى الزمنى ، الذى يحتل مكانًا معلومًا ومهمًا فى خطة انجاز البحث، يتولى الباحث بنفسه أحيانًا ، ومن خلال المعاونين له فى الفريق ، انجاز العمل الميدانى ، تنفيذه تنفيذًا مرحليًا ، فى المكان المعين ، وفى السياق الزمنى المحدد أحيانًا أخرى . ولكن انجاز العمل من خلال المعاونين ، لا يبرر تغيب الباحث الجغرافى. وهل يمكن أن يتم الانجاز فى غيبته ؟ وهو صاحب المصلحة الحقيقية فى هذا الانجاز . ولا تغادر الرحلة الجغرافية الميدانية المعسكر ، وتعود من حيث أتت ، قبل أن يفرغ فريق البحث والعمل

الجغرافى من أداء مهمته ، وجمع كل البيانات والنتائج التى كانت قد خرجت من أجلها .

وسواء تكررت الرحلة الجغرافية الميدانية ، وتعدد الجولات فى المساحة المعنية ذهاباً وإياباً أحياناً ، أو أقامت الرحلة الجغرافية الميدانية فى معسكر مؤقت ، وتوالت الجولات من يوم لآخر أحياناً أخرى ، فينبغى تغطية العمل الميدانى على مراحل متوالية ومتكاملة . ولا ينبغى أن يكف فريق العمل الميدانى عن العمل فى الميدان ، إلا بعد أن يفرغ تماماً من انجاز المهمة المنوطة به . وهو لا يفرغ بالفعل إلا بعد أن يجد الاجابات عن كل التساؤلات ، وأن يجمع الرصيد العملى والتطبيقى ، الذى يتداخل فى صلب بناء البحث الجغرافى المتخصص ، عن المساحة المعنية .

وهذا معناه بالضبط أن الأداء الوظيفى المطلوب من الرحلة الجغرافية الميدانية ، والانجاز الذى يتكفل به فريق العمل فى هذه الرحلة، وهو يعمل لحساب الدراسة العملية فى المساحة المعنية ، لا يتأتى ولا ينضبط من غير خطة موضوعة بعناية . وسواء وضع هذه الخطة الباحث الجغرافى على رأس الرحلة ، أو وضعها الاجتهاد والتعاون فى الفريق ، فإنها تنظم العمل الميدانى وتجدول اجراء التجارب ، وجمع الاجابات عن أسئلة الاستبيان . ولا يفوت هذه الخطة حبكة مرحلية الانجاز ، لتغطية أهداف البحث ، وتطلعات العمل الجغرافى الميدانى ، تغطية شاملة أحياناً ، وتغطية بالعينة أحياناً أخرى .

وأى خطة عمل جغرافى ميدانى ، توظف الرحلة الجغرافية التوظيف الأنسب ، يجب عليها أن تجدول ، أو تبرمج هذا العمل الميدانى . والبرمجة الأفضل ، التى تنطوى عليها خطة العمل الجغرافى الميدانى ، تتمثل فى ثلاثة مراحل . وتتكفل الرحلة الجغرافية الميدانية بمهمة معينة ، فى كل مرحلة من هذه المراحل ، التى تخرج فيها إلى المساحة المعنية .

وتتمثل هذه المراحل التى تحتويها خطة العمل الجغرافى الميدانى ، وتتحمل الرحلة الجغرافية أعبائها فى المساحة المعنية ، فى :

١- مرحلة أولية وهى مرحلة الزيارة التفقدية ، والاحاطة والتعارف على الواقع الجغرافى على صعيد المساحة المعنية .

٢- مرحلة دراسة أساسية ، وهى مرحلة انجاز العمل الجغرافى الميدانى العملى والتطبيقى فى المساحة المعنية .

٣- مرحلة تكميلية ، وهى مرحلة تدارك بعض النقص فى العمل الجغرافى الميدانى ، أو استكمال بعض ما يطلبه انجاز البحث الجغرافى، من عمل اضافى فى المساحة المعنية .

وصحيح أن التنسيق بين هذه المراحل وتوظيف الرحلة الجغرافية ، لانجاز هذا العمل الجغرافى ، أمر مطلوب بالفعل . ولكن الصحيح أيضاً أن مراعاة الفريق الجغرافى لموجبات هذا التنسيق ، هو الأمر الذى لا ينبغى التفريط فيه . ومع ذلك ، فينبغى أن يدرك الفريق الجغرافى مدى وجدوى الجمع فى بعض الأحيان ، بين العمل الجغرافى الميدانى فى المرحلتين الأولى والثانية ، وهو احتمال قد تحبذه طبيعة العمل وظروف الرحلة . أما العمل فى المرحلة الثالثة فهو الذى لا يجب أن يتأتى إلا بعد أن تتكشف حاجة البحث الجغرافى لبعض العمل الميدانى لتدارك النقص ، ساعة اعداده بالفعل .

* * *

الرحلة الأولية وانجازات الزيارة الجغرافية التفقدية :

فى هذه المرحلة الأولية ، لا تراود الباحث غير لهفة وحب استطلاع تدعوه إلى التوجه إلى المساحة المعنية . وتبدأ الرحلة الجغرافية الاستطلاعية التفقدية استجابة لهذه الدعوة والحاحها . ومع ذلك فإن الباحث الجغرافى يستشعر قيمة هذه الرحلة الجغرافية ، وهى رحلة زيارة ، وتفقد ، وتعارف ، لأنها تفتح أمامه الآفاق وتمهد ، وتعده نفسياً وعقلياً ، لكى يجهز ويخطط للعمل الجغرافى الميدانى فى هذه المساحة المعنية . ويمكن أن تقول أنها زيارة تفقدية ، تطل على المساحة المعنية ، اطلالة التجهيز والاعداد للعمل الميدانى .

ومن الجائز أن تفضى هذه الزيارة إلى تيقظ وشحذ حسه

الجغرافى ، وإلى استنفار تفكيره ، واهتمامه بالواقع الجغرافى موضوع البحث . ومن الجائز أن تلهم هذه الزيارة الباحث الجغرافى ، وترشد وتبصر برمجة وتوجهات خطة العمل الجغرافى الميدانى . ولكن المؤكد أن الرحلة الجغرافية فى هذه الزيارة الميدانية التفقدية ، تكون مفيدة ومثمرة إلى أبعد الحدود ، لأنها هى التى تضع الباحث الجغرافى ومن جاء فى صحبته من الفريق ، فى وضع الاستعداد الفعلى لانجاز العمل الجغرافى الميدانى ، أو فى وضع التيقن والاقتناع بجدوى هذا الانجاز ، لحساب البحث الجغرافى .

ويتأتى هذا الاستعداد ، وهذا الاقتناع والتحمس الايجابى له ، من خلال الجولة أو الطواف ، الذى يغطى معظم أو كل انحاء المساحة المعنية. ومن الطبيعى أن يتسم هذا الطواف ، بلهفة الاطلاع على الواقع الجغرافى ومعاينته . ولكن المهم هو أن يسفر هذا الطواف ، أو ذلك التحرك فى الاتجاهات المنتخبة ، عن قدر معلوم من الاحاطة والالمام بالظروف ، التى يؤدى الباحث فيه العمل الميدانى ، والتأمل فى الرؤية الجغرافية الكلية فى المساحة المعنية .

وهكذا تكون هذه المرحلة محل اهتمام وعناية برحلة الزيارة الجغرافية . وتكون هذه الزيارة الجغرافية التفقدية ، وهى خاطفة سريعة ، كأنها زيارة تعارف وانفتاح وألفة يتلمسها الباحث الجغرافى . وما من شك فى أنه يقدر جدوى هذه الزيارة ، والانفتاح على المساحة المعنية ، قبل أن يتولى العمل الجغرافى الميدانى مسئولياته ، حيث يوجه الأسئلة إليها ، ويطلب منها أن تجاوبه الاجابة الصحيحة أو المقنعة عنها . وهل لا يكفى أن تسقط رحلة الزيارة الجغرافية حاجز الغربة ، بين الباحث الجغرافى والواقع الجغرافى عن الموضوع المعنى فى المساحة المعنية ؟ وهل يعنى اسقاط حاجز الغربة شيئاً ، أهم من الانفتاح ، الذى ينعش التفتح الجغرافى على المساحة المعنية ؟

وفى أثناء زيارة التعارف والانفتاح على المساحة المعنية ، ينبغى أن يشحذ الباحث الجغرافى يقظة حسه الجغرافى ، وهو يواجه الواقع

الجغرافى ويعاينه ، ويستشعر فحواه عن كثب . كما ينبغى أن تجاوب شمولية الاحاطة ، التى تفضى إليها رحلة الزيارة الجغرافية التفقدية ، إرادة الاستيعاب التركيبى للرؤية الجغرافية . بمعنى أن يدرك الباحث أبعاد هذه الرؤية الجغرافية ، وهى مجسدة فى صلب الواقع الجغرافى السائد، فى اطار المساحة المعنية .

وصحيح أن اطلالة أو نظرة هذا الطواف ، أو تلك الزيارة الجغرافية التفقدية ، تكون نظرة كلية بحتة ، لأنها لا تتسلل إلى عمق فى تفاصيل الرؤية الجغرافية الشاملة . بل قل وهى لا تتقصى تداخل التوليفة ، التى تؤلف بين التفاصيل المتداخلة فى الرؤية الجغرافية الكلية . وصحيح أيضًا أن هذا الطواف لا يسعف فى شأن انجاز تجربة ميدانية ، أو دراسة فى الميدان . ولكن الصحيح أيضًا أن التأنى فى هذا الطواف والتأمل فى الرؤية الجغرافية ، يكون مطلوباً بكل الالحاح لحساب التعارب الحقيقى، قبل طلب المعرفة . وهل تتحقق معرفة بالفعل ، من غير تعارف ، واسقاط حاجز الغربة ؟

وحاجة الطواف أو الزيارة أو الجولة الميدانية التفقدية إلى التأنى والتأمل ، حاجة حقيقية ومنطقية . والتأنى والتأمل هو طلب من يعد ويجهز لمعرفة الميدان ، ويتفقد هذا الميدان . وكأن التأنى والتأمل فى هذه الجولة الميدانية التفقدية مطلوب بكل الالحاح ، لكيلا يشوه التعجل الانطباع العام ، الذى ينبغى أن تسفر عنه الزيارة ، أو لكيلا يوقع التعجل الانطباع العام عن الرؤية الجغرافية الكلية ، فى خطايا ومزالق الغموض والابهام . وهذا معناه أن التأنى والتأمل وحدها هما ، اللذان يجنيان الانطباع العام عن هذه الزيارة التفقدية ، سوءات الخلط وعدم الوضوح . وهل ينفع التعارف الذى يتردى فى الخلط وعدم الانفتاح لحساب المعرفة ؟

والتعجل والاسراع فى هذه الزيارة الميدانية الأولية ، أو فى هذه الجولة التفقدية ، سواء ضلل الانطباع العام أو شوهه ، يضع إرادة الاستيعاب التركيبى للرؤية الجغرافية الكلية ، على صعيد المساحة

المعنية ، فى مواجهات صعبة فى كثير من الأحيان . بل ربما تسببت هذه المواجهات الصعبة ، فى اخفاق هذا الاستيعاب اخفاقاً شديداً ، أو فى احباط همة واجتهاد الباحث الجغرافى . ومن ثم يتضرر التمهيد والتجهيز للعمل الميدانى ، فى المساحة المعنية ، بموجب هذا الاخفاق أو ذلك الاحباط . كما يتضرر وضع وصياغة وجدولة خطة العمل الميدانى الجغرافى .

وهذا معناه أن تحريك رحلة الزيارة الميدانية التفقدية ، تحريكاً متأنياً وهادفاً ، هو السبيل الأمثل لانجاز الغرض الجغرافى منها . ومن غير هذا التحريك الهادى ، والهادف على صعيد المساحة المعنية ، لا تتحقق الرؤية الجغرافية الكلية ، ولا يتحقق الغرض من التأمل فيها واستيعاب توليفتها المتكاملة . وهل يستنفر الحس الجغرافى ويشحذه، وهل يثير التساؤلات الحية ، التى تبحث عن اجابات صحيحية ، شيئاً أهم من هذا الاستيعاب الواعى ؟

هذا ، ولا يجب أن تفلت من الباحث الجغرافى ، ومن يصحبه فى هذه الرحلة الجغرافية التفقدية ، مسألة استيعاب الشكل ، أو الوضع ، أو الصيغة ، التى تجسد التوليفة الجغرافية . كما لا ينبغى التفريط فى تلمس الكيفية التى تتجمع بموجبها أوصال الرؤية الجغرافية ، فى المساحة المعنية . ومحصلة هذا الاستيعاب فى اطار طلب التعارف الجغرافى قبل المعرفة الجغرافية ، لا تقل أهمية وجدوى ، عن جدوى ادراك مبلغ الوضوح فى شأن احتواء الكل للأجزاء ، ومدى تجانس هذه الأجزاء فى المحتوى الكلى ، للواقع الجغرافى فى المساحة المعنية .

ويحق للباحث الجغرافى الذى يخرج فى رحلة الزيارة التفقدية الجغرافية ، لكى يتصدى للعمل الجغرافى الميدانى فى مرحلة تالية ، أن يمتلك القدرة والمهارة والخبرة فى سبيل استثمار هذا الاستيعاب ، والانتفاع به ، وتوظيفه فى العمل الميدانى بالفعل . ومن غير هذه القدرة على الاستيعاب الشمولى للواقع الجغرافى فى المساحة المعنية ، يفقد الباحث ومن معه ، فى رحلة العمل الجغرافى التفقدية امكانيات :

١ – استشعار العلاقة أو العلاقات وعوامل الربط ، التى تشد وتجمع وتؤلف وتنسق بين أوصال التفاصيل والأجزاء ، فى الاطار الكلى الجامع للرؤية الجغرافية الكلية فى المساحة المعنية .

٢ – الانتقال المرحلى المنطقى من معاينة الرؤية الجغرافية الكلية ، والتعرف عليها تعارفاً شاملاً ، إلى معرفة وتقصى التفاصيل والأجزاء ، التى تتألف منها ، أو إلى تحليلها تحليلاً واقعياً فى اطار العمل والتجربة الميدانية .

وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية التفقدية إلى المساحة المعنية ، وهى رحلة زيارة وتعارف وانفتاح ، تضع الباحث الجغرافى ومن معه ، فى مواجهة صحيحة وصريحة مع الرؤية الجغرافية ، فى الواقع الجغرافى الكلى الشامل .

ومعناه أيضًا ان التأتى والتأمل فى هذه الجولة التفقدية ، يضع الرحلة الجغرافية الميدانية فى المرحلة التالية ، فى وضع الاستعداد الفعلى ، والقدرة الحقيقية ، على جمع أطراف خيوط العمل الجغرافى الميدانى ، وانجازه بالأسلوب الذى يطلبه البحث ، فى الاطار التركيبى التحليلى للمفهوم الجغرافى .

وعندما تفرغ رحلة الزيارة الميدانية فى هذه الجولة التفقدية الأولية، من انجاز المهمة المنوطة بها ، لا يعنى ذلك انتهاء مهمة الرحلة ، أو أن الرحلة الجغرافية قد استنفدت أغراضها . ولكن المؤكد أن الرحلة الجغرافية الميدانية ينبغى أن تتوقف لبعض الوقت . ويكون هذا التوقف المؤقت مقصوداً ، بل ويكون بالضرورة هادفًا . وهى – فى نفس الوقت – علامة تبشر بانهاء المرحلة الأولية ، بعد أن تكون الرحلة التفقدية قد أنجزت الغرض الحقيقى المرحلى منها .

ويقصد من هذا التوقف المتعمد بعد انتهاء الجولة الجغرافية التفقدية ، ليس التقاط الأنفاس والراحة فقط ، بل يقصد منه التأهب والاستعداد استعداداً حقيقياً ، لاستئناف الرحلة الجغرافية الميدانية ، فى جولة العمل الميدانى فى الوقت المناسب . ويكون التوقف مطلوباً ، لكى

يتفرغ الباحث لوضع قوائم ، ١- فريق العمل . ٢- قائمة الأدوات والأجهزة . ٣- خطة العمل وتكليفاته . ومن شأن الباحث الجغرافى عندئذ أن يتفرغ لانجاز خطة العمل الميدانى العملى والتطبيقى ، وتدارسها مع أعضاء الفريق الذى ينبغى أن يصحبه بالكامل إلى الميدان، لدى استئناف الرحلة الجغرافية الميدانية .

والاستئناف الذى يعد له الاعداد الجيد ، وخروج الرحلة الجغرافية الميدانية فى الوقت المناسب ، لا يعنى - فى اطار خطة العمل والبرنامج الزمنى - غير الانتقال من جولة الزيارة والتعارف والاستيعاب ، إلى جولة العمل الميدانى الحقيقى ، والتجربة العملية واستخلاص النتائج ، وتلقى الاجابات عن كل التساؤلات من الميدان . وهذا معناه بداية المرحلة الأساسية بالفعل فى الدراسة الجغرافية الميدانية .

***

الرحلة الدراسية وانجاز العمل الجغرافى الميدانى :

الرحلة الجغرافية الميدانية فى هذه المرحلة ، هى رحلة طلب المعرفة الجغرافية ، وجمع المادة العلمية الخام ، من الميدان فى المساحة المعنية . وهى أيضاً جولة التعامل مع الواقع الجغرافى ومواجهته ، بكل الحس والادراك والفكر الجغرافى المتيقظ أو المتفتح . بل قل أنها الرحلة الجغرافية ، التى تتولى مهمة العمل الميدانى الجغرافى ، لحساب البحث الجغرافى الطبيعى ، أو البشرى ، فى الميدان على صعيد المساحة المعنية .

ومن شأن هذه الرحلة الجغرافية الميدانية ، أن تعرف متى وكيف تبدأ . وهى لا تبدأ بالضرورة إلا عندما يدرك الفريق المتعاون ، أو الوقت المناسب قد حان ، لكى تتوجه الرحلة إلى الميدان . ومن شأنها أيضاً أن تعرف متى ، وكيف تعود . وهى لا تعود بالفعل ، إلا عندما يفرغ الفريق المتعاون ، من انجاز العمل الميدانى .

والعمل الميدانى فى هذه المرحلة الأساسية ، التى يجسد معنى

التعامل مع الواقع الجغرافى ، الذى يجسد موضوع البحث أو الدراسة ، فى المساحة المعنية ، وينبغى التفرغ له ، يستحق :

١- فى بعض الأحيان أن تكون اقامة فريق العمل فى المعكسر ، الذى يقام فى موقع ، أو فى مواقع منتخبة فى الميدان . ومن هذا المعكسر يباشر أعضاء الفريق العمل فى الميدان . والاقامة فى المعكسر تكون دائمة ، حيث يفتقد الفريق فى المساحة المعنية فرص الاقامة ، فى مستوطنة من المستوطنات المناسبة .

٢- فى بعض الأحيان الأخرى ، أن تكون اقامة فريق العمل فى مستوطنة من المستوطنات البشرية المناسبة فى الميدان . ومن هذه المستوطنة يباشر أعضاء الفريق العمل فى الميدان . ومن محل الاقامة تخرج رحلة العمل صباح كل يوم ، وتتحرك إلى مواقع العمل الميدانى فى المساحة المعنية .

ومن غير تمييز بين شكل الحضور فى الميدان ، والتفرغ للعمل الميدانى من يوم إلى يوم آخر ، ينبغى أن تطاوع الرحلة الجغرافية الميدانية ، إرادة الانتقال والتحرك والبحث من أجل تغطية العمل المطلوب. بل يجب أن تسعف الحركة أعضاء الفريق ، وهم يتفرقون فى الميدان ، ويعكفون على انجاز العمل الميدانى اليومى ، ويتفرغون لاجراء التجربة الميدانية العملية ، أو لاجراء الاستبيان فى أنحاء الميدان . وكيف لا تسعف الرحلة الباحث وتطاوعه ؟ وهو يسأل الأرض والناس ، ويستفسر عن الواقع الجغرافى الذى ينبض بالعلاقة الحيوية بينهما ، عن السنن والقوانين والضوابط التى تحكم هذه العلاقة ، أو وهو يفند الرؤية الجغرافية ، ويتحسس ويستفسر عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، وعن مكانها ومكانتها ، فى هذا الواقع الجغرافى ، فى المكان والزمان .

ووفق خطة العمل وحاجته فى الميدان ، يفترق أعضاء الفريق ، ويجتمع فى أنحاء الميدان من يوم إلى يوم آخر . وسواء اجتمع أعضاء الفريق ، أو تفرق فى أنحاء الميدان لانجاز العمل الميدانى ، وتقصى الحقائق كل فيما يخصه ، أو كل فيما هو مكلف به ، فإن هذا الانجاز أو

هذا الأداء ، يستوجب جولات عمل منسقة . ولا يكاد ينسق هذه الجولات العملية ، غير متابعة قائد الفريق المشترك فى العمل ، اشتراكاً حقيقياً .

وقد تدعو حاجة العمل إلى التأنى فى اجراء التجربة الميدانية ، وتكرارها فى مواضع متعددة . وتدعو هذه الحاجة أحياناً إلى وقفات وتريث حقيقى ، من أجل التمعن والتدبر ، فى أمر من أمور العمل الميدانى . ولكن المهم فعلاً أن يخضع التحرك والتوقف لخط سير معين، ومتفق عليه ، من أجل الانجاز الهادف . ومع ذلك يظل زمام الأمر كله فى يد قائد الفريق ، وهو المسئول عن حسن التنفيذ . ولا تثريب عليه لو أنه غير وجهة العمل الميدانى ، أو انعطف عن خط سير العمل ، كلما اقتضى ذلك الانجاز الأنسب أو الأفضل .

ومن شأن اجتماع أعضاء الفريق أحياناً ، فى جولة ميدانية ما ، أن يكفل العمل الجماعى المنسق إلى حد كبير . ولكن عندما يتفرق هذا الجمع فى أنحاء المساحة المعنية لبعض الوقت ، ينبغى أن يتكفل كل عضو من غير خروج عن النسق – بأداء حصته من العمل الميدانى المعين . عندئذ يستوجب حسن سير العمل الميدانى وتنسيق الانجاز ، ما يلى :

١– ألا ينفرد عضو واحد بالعمل فى الميدان لانجاز العمل . وعضوان يعملان معًا – على الأقل – يمثلان الحد الأدنى لأى عمل ميدانى مثمر . ولا يمكن أن نتصور عملاً ميدانياً تجريبياً ، يقوم به أو ينجزه عضواً واحداً متفرداً ، من غير أن يتلمس ، أو يطلب معاونة المرافق له ، من الفنيين والمساعدين العلمين .

٢– ألا يطول افتراق أعضاء الفريق فى الميدان . واجتماع أعضاء الفريق الذين تفرقوا بعد أن يفرع كل واحد منهم من عمله الميدانى اليومى ، يكون اجتماعًا مفيداً ، يكفل المراجعة ومتابعة مبلغ التنسيق بينهم . وقد يتسع هذا الاجتماع من حين لآخر ، لتقويم معدلات الانجاز ، أو تقويم العمل الميدانى ، أو لتوزيع أعباء العمل الميدانى الاضافية فى أيام تالية .

وغاية ما يرجوه الباحث الجغرافى ، ويتطلع إليه الفريق المعاون فى صحبته ، هو أن تسعفه هذه الجولات المتعددة ، وأن تبصره الوقفات المتكررة ، عندما يجرى العمل الميدانى على قدم وساق . والتأنى وحسن التنفيذ فى أثناء جولات العمل ، والتأمل والتقويم فى أثناء الوقفات ، هو التوجه الحميد ، الذى لا يخذل الباحث الجغرافى ولا يضلله ، فى شأن تجويد العمل الميدانى ، أو فى شأن جمع الرصيد من المادة الخام ، لحساب البحث الجغرافى .

ومن خلال هذا العمل الميدانى المنظم ، يتلمس الفريق التفاصيل ، وهو يعاين الرؤية الجغرافية الجزئية ويعاشها ، ويجرى التجارب الميدانية بشأنها . كما يحدد أيضًا مكانها ومكانتها فى اطار التوليفة المركبة ، التى تحتوى أو تضم الرؤية الجغرافية الكلية فى المساحة المعنية .

هذا ، وتحديد مكان ومكانة الرؤية الجغرافية الجزئية ، وما تنطوى عليه من تفاصيل ، فى الاطار الجامع لكل الرؤية الجغرافية فى المساحة المعنية ، معناه توغل البحث الميدانى بالتجربة العملية أو الاستبيان فى :

١- كنة وطبيعة التوليفة الجغرافية المركبة ، ومدى التجانس أو عدم التجانس فيها .

٢- كيف وفاعلية وجدوى العوامل ، التى تتجمع بموجبها هذه التفاصيل ، فى توليفة الرؤية الجغرافية الكلية .

٣- كنة وطبيعة التفاصيل أو الجزئيات الجغرافية ، فى هذه التوليفة المركبة ، ومدى التنوع أو عدم التنوع فيها .

٤- كيف وفاعلية وجدوى العوامل ، التى تحلل بموجبها التوليفة الجغرافية المركبة ، إلى تفاصيل وجزئيات جغرافية .

ولأن هذا التوغل يعنى التساؤل والبحث عن اجابة ، فينبغى اعداد هذه التساؤلات اعداداً جيداً ، وتلقى الاجابات والردود بكل الفطنة . وتختلف طبيعة هذا الاعداد ووسيلة تنفيذه ، عندما يطرح التساؤل ، ويكون البحث عن الاجابة ، فى شأن ظاهرة طبيعية ، تتداخل فى توليفة

الواقع الطبيعى ، أو فى شأن ظاهرة بشرية ، تتداخل فى توليفة الواقع البشرى .

ومن أجل انجاز هذه المهمة فى الميدان ، يطرح الباحث التساؤل على الواقع الجغرافى الطبيعى . ثم هو يتلمس الاجابة والتعبير الواضح والبيان المقنع ، من خلال استخدام الأجهزة واجراء التجربة العملية الميدانية فى أكثر من موقع أو مكان ، على صعيد المساحة المعنية . عندئذ يكفل حسن الأداء العملى التجربى الميدانى الرد ، ويستحضر الاجابة على التساؤل المعلن ، لحساب البحث الجغرافى الطبيعى .

ومن أجل انجاز هذه المهمة فى الميدان ، يطرح التساؤل أيضًا على الواقع الجغرافى البشرى . ثم هو يتلمس الاجابة فى التعبير الواضح والبيان المقنع ، من خلال الاستبيان المناسب ، وجمع البيانات الأصلية من مصادرها الموثوق بها ، فى أكثر من موقع ، أو مكان على صعيد المساحة المعنية . وعندئذ يكفل حسن استخدام الاستبيان وتجميع البيانات الرد ، ويستحضر الاجابة على التساؤل المعلن لحساب البحث الجغرافى البشرى .

وفى كل حالة من هاتين الحالتين ، على صعيد المساحة المعنية هناك سؤال وأسئلة كثيرة ، ترد عليها أو تجاوب عليها التجربة الميدانية، واستخدام الأجهزة ، وتتوالى النتائج الكاشفة إلى رصيد العمل الجغرافى الطبيعى . وترد على هذه الأسئلة أيضًا ويجاوب عنها الممارسة الحياتية والتعايش مع الناس ، وتتوالى النتائج الكاشفة ، وتضاف إلى رصيد العمل الجغرافى البشرى ، أو الاقتصادى . وهل يبحث العمل الجغرافى فى الميدان، عن أهم من هذا الرصيد الجغرافى ؟.

وهكذا كانت الرحلة الجغرافية الميدانية فى هذه المرحلة ، وهى رحلة الفريق كله ، رحلة عمل ، وتقصى حقائق ، وتمحيص رؤية ، وتجميع نتائج وخبرات وبيانات ، يطلبها البحث الجغرافى لأنه لا يصلح إلا بها . وكانت جولات وطواف وتحرك هذه الرحلة ، تحركًا محسوبًا فى أنحاء الميدان . وكل خطوة كانت من أجل بحث ، أو استبيان ، أو دراسة عملية،

أو تجربة ميدانية ، تبحث بكل الواقعية فى شأن التحليل ، والدراسة التحليلية الجغرافية .

وكل التمعن والتدبر والعمل الميدانى يقتفى إثر الصدق والجدية والجدوى فى النتائج ، التى يتعاون أعضاء الفريق فى جمعها . ومع ذلك لا يهدأ الفريق ، ولا يتوقف العمل ، ولا تعود الرحلة ، إلا بعد أن يمسك الفريق المتعاون ، بأطراف كل الخيوط المتداخلة ، فى نسيج الواقع الجغرافى ، الذى يتغلغل البحث الجغرافى فيه . وهل يمكن للفريق أن يمسك بهذه الخيوط ، من غير أن يجنى ثمرات العمل الميدانى التجريبى أحياناً ، وثمرات البحث عن الاجابة العملية فى الميدان ؟ بل وهل يمكن أن يضيف الباحث الجغرافى شيئاً مهماً جديداً أو مجدداً ، إلى البحث الجغرافى ، من غير أن يحسن توظيف العمل الميدانى ويحسن استثماره ؟ .

والتدبر والتمعن فى كل خطوة ، أو فى كل جولة ، وهو الذى نعنيه، ويجب أن يلتزم به الفرق فى الميدان ، هو - بكل تأكيد - :

١- أساس ومصدر القراءة الذكية الواعية ، لنتائج العمل التجريبى والعمل التطبيقى فى الميدان .

٢- التوظيف الجيد للحس الجغرافى المتيقظ ، فى أثناء كل خطوة ، وكل تجربة ، وكل عمل ، وكل استبيان فى الميدان .

٣- التفهم الجغرافى اليقظ ، للحوار الماهر بين تساؤلات مطروحة وردود واجابات واقعية، حتى تتكشف حقائق الواقع الجغرافى الطبيعى ، أو الواقع الجغرافى البشرى ، أو هما معاً فى الميدان .

٤- الالحاح الجغرافى المثابر النشيط ، الذى يواصل العمل الميدانى، حتى لا يبقى أى زيادة لمستزيد فى الميدان .

ومن شأن هذا التدبر والتمعن - على كل حال - أن يقود العمل والبحث الجغرافى فى الميدان قيادة حصيفة وواعية ، وأن يرشد الانجاز ويوجهه فى الاتجاهات الصحيحة . بل هو - بلا شك - أفضل ما يجنب العمل والبحث وتقصى الحقائق أو ينتشله ، من مزالق العجلة

والاخفاق، فى حسن استيعاب العناصر وكيفية تداخلها ، فى صياغة أو فى نسيج الواقع الجغرافى المعنى فى الميدان .

هذا ، ولا يجب أن تفلت من الفريق المتعاون فى الرحلة الجغرافية الميدانية فى هذه المرحلة ، التى تجعل الاقامة في الميدان ، جولات عمل تجريبى ، وطواف استبيان ، وحلقات تمعن ، مسألة ادراك وتقصى العناصر التى تداخل فى بنية وتركيب الرؤية الجغرافية الجزئية فى كل موقع عمل ، أو استبيان ، أو تمعن في الميدان . ومحصلة هذا الادراك لا تقل أهمية أو جدوى ، عن ادراك مبلغ تداخل هذه الرؤية الجغرافية الجزئية ، ومدى تجانسها أو عدم تجانسها ، فى بنية وتركيب الرؤية الجغرافية الكلية فى المساحة المعنية .

ومن شأن الباحث الجغرافى المتخصص فى الفريق ، بل قل من شأن أعضاء هذا الفريق المتعاون ، أن يمتلك الحس الجغرافى اليقظ ، وهو يجرى التجربة الميدانية ، أو وهو ينجز الاستبيان ، أو وهو يتمعن فى الحقيقة الجغرافية . وما من شك فى أن انجاز هذا العمل الميدانى ، لا يستغنى عن هذه القدرات والخبرات المدربة ، لكى يجسد هذا العمل محصلة هذا الادراك .

ومن غير هذا الحس الجغرافى اليقظ ، ومن غير هذا الادراك المتفتح، يفتقد الفريق المتعاون ، فى رحلة العمل الجغرافى الميدانى ، القدرة على حسن :

١- استشعار وتقصى عوامل الربط بين العناصر ، وكيفية التداخل المتجانس ، أو غير المتجانس فيما بينها ، لكى تكون الصياغة أو التوليفة المتحيزة فى الرؤية الجغرافية الجزئية .

٢- الانتقال المنطقى من معاينة ومشاهدة الرؤية الجغرافية الجزئية وما تنبئ به ، إلى فحص وتقصى وتدبر التفاصيل التى تتألف منها ، وتحليلها تحليلاً عملياً ، فى اطار العمل الجغرافى العملى ، والتجربة الميدانية .

٣- التمادى فى متابعة اسباب وكنة ومغزى الربط أو العلاقة ، التى

تشد وتجمع أوصال الرؤية الجغرافية ، لكى تتكامل فى اطار التوليفة المتميزة والمتحيزة ، فى الرؤية الجغرافية الكلية .

هذا معناه أن اقامة الفرق المتعاون فى الرحلة الجغرافية الميدانية فى الميدان ، تضعه فى مواجهة صحيحة وصريحة مع الواقع الجغرافى . بل هى تضع كل حسه الجغرافى ، وتجربته وخبراته فى وضع الاستنفار ، حتى تتكشف له حقيقة العلاقة ، بين الجزء والكل الجغرافى ، فى المساحة المعنية . ولا يخرج الفريق المتعاون من هذه المواجهة ، وقد تحققت أهدافه العلمية الجغرافية ، إلا من خلال انجاز العمل الميدانى ، الذى يجيب على كل التساؤلات ولا يخفى عليه الواقع الجغرافى شيئاً .

ومعناه أيضاً أن حسن أداء العمل الميدانى ، أو اجراء التجارب الميدانية ، هو السبيل السوى الأفضل ، الذى يضع الباحث الجغرافية فى وضع الانفتاح على الواقع الجغرافى ، حتى لا يكاد يخفى عنه شيئاً . ولا يسفر هذا الانفتاح على حقائق الواقع الجغرافى ، وكنهه فى المساحة المعنية ، عن شئ أقل من التفتح . وعندئذ يمضى العمل أو يتجه فى سبيل البحث عن الاضافة المجددة ، أو الفكرة المجددة ، للبحث الجغرافى. وما من شك فى أن نتائج هذه الدراسة الميدانية المتفتحة ، هى التى تصطنع كل لبنة سوية من اللبنات ، فى بنية هذه الاضافة ، أو فى تلك الفكرة .

وعندما يفرغ الفريق المتعاون من بلوغ هذه الغاية من الدراسة الميدانية ، تعود الرحلة الجغرافية من الميدان عودة مظفرة . وصحيح أن الفريق العائد يكون قد أنجز رحلة طلب المعرفة فى المساحة المعنية . وصحيح أنه يكون قد تعرف بالفعل على الواقع الجغرافى ونسيجه الطبيعى ، أو البشرى . ولكن الصحيح أيضاً أن هذه العودة المظفرة ، التى أنهت الدراسة الميدانية ، لا تعنى نهاية مطلقة ، تتوقف عندها الرحلة الجغرافية الميدانية ، أو لا تعنى أبداً أن الرحلة الجغرافية قد استنفدت كل أغراضها .

وكما انتهت رحلة الزيارة الميدانية ، وطلب التعارف والانفتاح على

الواقع الجغرافى ، ولم تستنفد الرحلة الجغرافية أغراضها ، تنتهى أيضاً رحلة تقصى الحقائق الميدانية، وطلب التفتح والمعرفة بالواقع الجغرافى ، من غير أن تستنفد الرحلة كل أغراضها . وهذا معناه أن حاجة البحث الجغرافى من الدراسة الميدانية لم تكتمل ، وأن دور الرحلة الجغرافية الميدانية فى طلب هذه الحاجة له بقية . وكيف لا تكون هذه البقية ، والبحث الجغرافى لم يفرغ بعد من حاجته إلى الدراسة الميدانية ؟ بل وكيف تنتهى الرحلة الجغرافية عند هذا الحد ؟ وكيف تعفى نفسها من العودة إلى الميدان مرة أخرى ، والباحث الجغرافى لم يفرغ تماماً ، من تحصيل كل ما يصبو إليه البحث الجغرافى من العمل فى الميدان ؟

وعودة الرحلة الجغرافية الميدانية هذه المرة ، من رحلة تقصى الحقائق وطلب المعرفة وجمع المادة الخام ، عودة مظفرة وموفقه ، لا تعنى أكثر من انتهاء أهم شوط ، أو أهم مرحلة من مراحل انجاز العمل الميدانى . وتعطى هذه العودة الباحث الجغرافى الفرصة الكاملة ، لكى يراجع محصلة العمل الميدانى ، ويصنف الرصيد الجغرافى ، ويقوم البيانات ، التى يتبنى بها الاضافة المجددة . بمعنى أنه يتعين على الباحث الجغرافى ، أن يتبين جدوى العمل الميدانى كله ، فى صياغة وانجاز البحث الجغرافى .

وهذا معناه أن عودة الرحلة الجغرافية الميدانية من الميدان ، لا تعدو أن تكون عودة مؤقتة . ولا يستبعد الباحث الجغرافى ومعه الفريق ، احتمال الرجوع فى رحلة ميدانية أخرى ، إلى المساحة المعنية . ولكن المؤكد أن القول بصدق هذا الاحتمال وجديته ، لكى ترجع الرحلة الجغرافية إلى الميدان يبقى فى حاجة إلى قرار جديد . ومن شأن هذا القرار ألا يصدر إلا بعد أن يعرف الباحث الجغرافى بالضبط ، لماذا ترجع الرحلة الجغرافية مرة أخرى إلى الميدان ؟ .

وفى الفترة التالية لعودة الرحلة المؤقتة ، يلتقط الفريق أنفاسه ، ويحصر الباحث الجغرافى معطيات العمل الميدانى ، ويصنفه ويتبين جدواه . ومن خلال هذا الحصر والتصنيف والتقويم ، يدرك الباحث

مبلغ التقدم والانجاز من ناحية ، مبلغ الحاجة إلى القرار الجديد من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن تتكشف له بعض الفجوات والثغرات وأوجه النقص ، وأن يعرف عندئذ ، مبلغ الحاجة لمعاودة الرحلة الجغرافية من جديد إلى الميدان . وعندئذ فقط يتصدى الباحث الجغرافى لاصدار القرار بالعودة مرة أخرى إلى الميدان .

الرحلة التكميلية واستكمال العمل الميدانى :

من شأن الرحلة الجغرافية الميدانية ، التى تعود من جديد إلى الميدان ، أن تتمم النقص ، أو أن تعالج التقصير ، الذى وقعت فيه الدراسة الميدانية فى المرحلة السابقة . والنقص أو التقصير ليس وليد التعجل ، أو الخطأ فى معظم الأحيان ، ولكنه وليد حاجة البحث نفسه ، أو تطلعاته التى يعلن عنها ، ولا يملك الباحث إلا أن يطاوعها .

بمعنى أن عودة الفريق من الرحلة الجغرافية الميدانية ، تعيد الباحث الجغرافى إلى الدراسة المكتبية . والعودة إلى الدراسة المكتبية ، تدعو الباحث إلى مراجعة رصيده الجغرافى ، الذى يدخل فى صلب البحث الجغرافى . ومن الطبيعى أن يعرف الباحث الجغرافى بالضبط ، كيف يجسد هذا الصلب ، تأسيسًا على التنسيق ، بين الرصيد والمادة العلمية التى أسفرت عنها الدراسة المكتبية ، والرصيد والمادة العملية والعلمية الخام التى جمعت أوصالها الدراسة الميدانية .

ومن خلال هذا التوجه ، والبحث فى أمر هذا التنسيق ، تتكشف للباحث الحاجة ، إلى ما يتمم بعض النقص فى العمل الميدانى ، أو تتفتح له أوجه التقصير فى محصلة ونتائج العمل الميدانى . بل قد يستشعر الباحث الحاجة إلى البحث عن اجابة تجاوب على استفسار أو تساؤل جديد يعلن عنه البحث . ومن ثم تبدو الحاجة من جديد إلى استئناف الرحلة الجغرافية والعودة الهادفة إلى الميدان مرة أخرى .

ومن شأن الرحلة الجغرافية الميدانية فى هذه المرة ، أن تعود عودة من يريد أن يتدارك بعض ما فات الفريق ، من نتائج العمل فى الميدان .

ولكن لا يجب أن تعود هذه الرحلة الجغرافية إلى الميدان من غير أن يتشاور الباحث مع أعضاء الفريق فى أمر :

١- من الذى ينبغى أن يخرج فى صحبة الرحلة ، ويعاود العمل واجراء التجارب الميدانية من جديد فى الميدان ؟

٢- ما هو العمل الميدانى الذى ينبغى أن يلتزم به بعض أو كل الفريق العائد ، فى الرحلة الجغرافية مرة أخرى إلى الميدان ؟

٣- ما هو الأسلوب الأنسب ، الذى يجاوب أو يلبى إرادة التوجه من جديد إلى الميدان ؟

٤- كيف ينبغى أن يجرى العمل والدراسة الميدانية لتدارك أو لاستكمال حاجة البحث فى الميدان ؟

وهذا معناه أن الخروج فى هذه الرحلة الجغرافية التكميلية ، لا ينبغى أن يلتزم به من الفريق ، إلا من تقتضى حاجة العمل الميدانى التحاقه بها فعلاً . ولكن المؤكد أن شرط الصحبة ينبغى الالتزام به ، فلا يسمح بخروج متفرد فى هذه الرحلة . بمعنى أن الحد الأدنى للصحبة فى هذه الرحلة الجغرافية التكميلية يتمثل فى زميلين . ذلك أن الخروج المتفرد والعمل الميدانى المتفرد ، أو الانفرادى غير ممكن . بل ربما يكون هذا العمل الميدانى المتفرد فى حد ذاته غير مجد .

ومعناه أيضًا ، أنه يتعين على كل من يشترك هذه المرة فى الرحلة الجغرافية الميدانية التكميلية ، أن يعرف بالضبط حدود عمله الميدانى ومداه . كما يجب أن يدرك بالضرورة مواقع انجاز هذا العمل التكميلى فى الميدان . بل قد يتحدد قبل خروج هذه الرحلة إلى الميدان مرة أخرى ، المدى الزمنى الأنسب لانجاز هذا العمل الميدانى .

وفى هذه المرة التى تشهد انجاز العمل الميدانى التكميلى ، قد تخرج أكثر من رحلة جغرافية ميدانية ، إلى أكثر من موقع عمل تكلف به كل رحلة فى أنحاء متفرقة من المساحة المعنية . وليس ثمة ما يدعو إلى ضرورة تزامن هذه الرحلات المتوجهة ، إلى مواقع العمل المتفرقة . ولكن المؤكد أن تتوجه كل رحلة فى الوجهة المعنية ، لبلوغ الغاية من

الدراسة الميدانية التكميلية ، فى كل موقع عمل مناسب ، فى المساحة المعنية .

ومن شأن الزمالة فى هذه الرحالة الجغرافية التكميلية ، أن تعرف بالضبط وجهتها . وهناك فى موقع العمل ، يجب أن يتعاون الاجتهاد العملى مع الاجتهاد العلمى ، فى انجاز العمل الذى توجهت أو خرجت من أجله هذه الرحلة إلى الميدان . ولا يجب أن يهبط مستوى الأداء ، والتدقيق عن المستوى فى الرحلة الجغرافية الميدانية الأساسية . وهذا الالتزام بالمستوى الأفضل ، مطلوب ممن يعمل ويعكف على اجراء أو تنفيذ تجربة عملية فى الميدان ، والقاء السؤال أو الأسئلة ، التى تستكمل به اجابات يفصح عنها الواقع الجغرافى الطبيعى ، ومطلوب أيضاً ممن يعمل ويطرح الأسئلة ، ويتلقى الاجابات والبيانات ومحصلة الحوار ، الذى يستكمل به الاستبيان حاجته عن الواقع الجغرافى البشرى أو عن الواقع الجغرافى الطبيعى .

ومن الجائز أن تخرج هذه الرحلة الجغرافية التكميلية ، أو تلك الرحلات إلى المواقع المعنية ، فى أنحاء المساحة المعينة دفعة واحدة . وتطلب كل رحلة استكمال كل ما تكشف للباحث نقصانه ، وتجلت حاجة البحث الجغرافى إليه . ولا تعود الرحلة إلا بعد أن تفرغ من انجاز المهمة ، التى تكفلت بانجازها فى الميدان .

ومن الجائز أيضاً أن يتكرر خروج هذه الرحلة الجغرافى التكميلية، وفيها نفس الصحبة ، كلما استشعر الباحث حاجة ملحة أو طلب انجاز البحث منه اجابة عن استفسار ، من الاستفسارات المفاجئة أو غير المتوقعة . ولكن المؤكد أنه لا يجب أن يتبرم الباحث أو الفريق من هذا الخروج المتكرر ، ولا ينبغى أن تفتر همته ويضيق به صدره . وكيف يتبرم أو يضيق صدر الباحث ، وليس فى الأمر أو فى التكرار شروداً ؟ بل وكيف يكف الباحث عن الخروج إلى الميدان ، والبحث فى حاجة إلى ما يدعمه ويحقق أغراضه ، ويكفل تماسك بنيته العلمية ، وتكامل أوصاله ؟

وهذا معناه أنه يجب على الباحث أن يتحلى بالمثابرة . بل قل لا ينبغى أن يفرط ، أو أن يقصر فى شأن استيفاء الدراسة الميدانية ، وجمع النتائج العملية ، والمادة العلمية الخام . وكيف يفرط أو يقصر فى أمر الخروج إلى الميدان مرة أو مرات ، لاستكمال أو لاستيفاء بنية بحثه ؟ وهو يعلم علم اليقين أن الدراسة الميدانية وحدها ، هى التى تملك أفضل البيان الكاشف عما يسفر عنه البحث ، وتقدم خطوات الانجاز فيه من تساؤلات مثيرة واستفسارات مفاجئة . وهناك فى الميدان ، ومن خلال العمل الميدانى ، فى كل موقع عمل معنى ، يجد الباحث فى الاجابة مطلبه الضرورى .

* * *

الرحلة الجغرافية الميدانية والتحول الجغرافى المعاصر :

ومهما يكن من أمر ، فإن البحث الجغرافى الذى وجه الرحلة الجغرافية الميدانية ، وأحسن توظيفها فى العمل الميدانى ، واعتمد على محصلة الدراسة الميدانية ، قد برهن على أن علم الجغرافية الحديثة علم عملى . وما من شك فى أن الاهتمام الأكاديمى ، قد نمى ورشد واعتنى بهذا التوجه ، لأنه قد استشعر وتيقن من جدواه .

بل لقد برهنت العناية الأكاديمية بالرحلة الجغرافية الميدانية ، على أنها قد رشدت وشدت أزر البحث الجغرافى الأفضل ، الذى ينطوى على الاضافة المجددة ، أو الفكرة المتفتحة . وما من شك فى أن منطق وفلسفة وغايات الفكر الجغرافى الحديث ، قد ألزمت الباحث الجغرافى بموجبات هذا التوجه العملى التجريبى ، بالرحلة الجغرافية الميدانية . بل لقد فرضت عليه توظيفها فى العمل الميدانى وجنى ثمراتها ، من أجل صياغة وتجسيد هذه الاضافات .

وفى المقابل ، يجب أن نتبين كيف التزم الباحث الجغرافى الالتزام الواعى ، بالعمل والتجربة والاستبيان فى الميدان . بل ينبغى أن نطرى الخبرة التى أحسنت استخدام الوسيلة العملية والتجريبية فى الميدان ، على أوسع مدى لحساب البحث الجغرافى . ولقد هيأ هذا الالتزام وهذه

الخبرة للبحث الجغرافى ، أهم الرصيد الجيد من المادة العلمية الخام ، وأهم النتائج العملية المجدية . وعليهما بنى الباحث الجغرافى صلب وجوهر بحثه الجغرافى الجيد ، الذى لم يفرط فى كل أسباب التجديد والتجويد .

ومن غير هذا الرصيد الجيد من المادة العلمية والمادة العملية ، الذى جمعت أوصاله الدراسة الميدانية ، يفتقد البحث الجغرافى أهم روافد التجديد والأصالة . بل يصبح هذا البحث الجغرافى من غير هذا الرصيد ، محدود القيمة ، لأنه لا يضيف شيئًا مهمًا ، تكترث به الجغرافية الحديثة . وهل نشك فى أن أى بحث جغرافى جمع الباحث أوصاله ومادته العلمية من المراجع والمصادر وحدها ، يكون أبعد ما يكون عن تسجيل الاضافة والتجديد المرتقب ؟

وهذا معناه أنه عندما يرجع الباحث الجغرافى من خلال الدراسة المكتبية إلى المصادر والمراجع ، إنما يريد أن يعرف بالضبط إلى أين وصلت مسيرة البحث فى موضوع ما ، قبل أن يهم أو يهتم بالاضافة إليه . ولكنه عندما يرجع الباحث الجغرافى من خلال الدراسة الميدانية إلى العمل والتجربة والاختبار والاستبيان فى الميدان ، إنما هو يجمع الرصيد الخام . ومن هذا الرصيد فقط يصطنع الباحث الجغرافى الاضافة . وبهذه الاضافة الجيدة وحدها تخطو مسيرة البحث الجغرافى خطواتها الراسخة ، فى الاتجاه الصحيح ، إلى ما هو أعمق وأفضل علمياً .

هذا ، ولأن الدراسة الميدانية ، قد رشدت البحث الجغرافى الأكاديمى الجيد ، وشد أزر الباحث الجغرافى المجدد ، فلقد تصاعد اهتمام علم الجغرافية الحديثة بالرحلة الجغرافية الميدانية ، تصاعداً مثيراً فى النصف الأول من القرن العشرين . وتولت الاجتهادات الأكاديمية تدريب الطلاب وتعليمهم أساليب العمل الميدانى ، وتوجيهاته المجدية ، والكيفية التى ينتفعون به فى انجاز البحث الجغرافى ، بعد العودة من الرحلة الجغرافية الميدانية التعليمية .

وفى اطار هذا التلاحم بين البحث الجغرافى والرحلة الجغرافية ، توالى الانجاز الجيد . وتفتحت آفاق الكتابات الجغرافية المجددة ، التى جاوبت منطق وفلسفة وغايات الفكر الجغرافى الحديث . وما أكثر عدد البحوث الجغرافية الجيدة ، وما أروع أنواع البحوث الجغرافية المجددة ، التى أعلنت عن جدوى الرحلة الجغرافية الميدانية ، والتى أظهرت جدوى الدراسات الميدانية ، فى انجاز البحث الجغرافى الجيد .

هذا ، ويجب أن نؤكد على أن الرحلة الجغرافية الميدانية ، التى خدمت مسيرة التفتح الجغرافى ، قد جهزت كل الأوضاع التى اصطنعت التحول العظيم فى علم الجغرافية . وكانت انطلاقة التجديد والتجويد التى أسفرت عنها الرحلة الجغرافية الميدانية عنصر من أهم عناصر التحول ، من منطق وفلسفة وغايات الفكر الجغرافى الحديث ، وهو يظاهر علم الجغرافية الحديثة ، إلى منطق وفلسفة وغايات الفكر الجغرافى المعاصر ، وهو يظاهر علم الجغرافية المعاصرة .

وصحيح أن علم الجغرافية قد استخدم الرحلة الجغرافية الميدانية ، حتى برهنت على أنه علم عملى . ولكن الصحيح أيضاً أن علم الجغرافية المعاصرة قد استخدم الرحلة الجغرافية الميدانية استخداماً برهنت فيه ، على أنه علم عملى تطبيقى . وأصبحت غاية توجهاته التطبيقية ، أن ينفع الناس ، ويكون فى عونهم ، فى اطار العلاقة بين الأنسان والأرض طلباً للانتفاع بمعطياتها .

ومن أجل ترسيخ هذا التحول العظيم ، أصبحت عناية واهتمام علم الجغرافية المعاصرة ، بالرحلة الجغرافية الميدانية أعظم . وهذا معناه التمادى فى انجاز العمل الميدانى ، لحساب البحث الجغرافى وتطلعاته المتجددة . ومنعاه أيضاً أن التحول العظيم ، الذى أخرج الجغرافية العلمية الأكاديمية من جمود النظرية ، إلى مرونة التطبيق وتفتحه ، قد أسفرت عنه انتصارات الدراسة الميدانية (١) ، لحساب البحث الجغرافى ، وأن أعباء الرحلة الجغرافية الميدانية ، يجب أن تجاوب إرادة وتطلعات هذا التحول إلى العمل الجغرافى التطبيقى .

---

(١) الشامى : الفكر الجغرافى ص٣٧٥ – ٣٩٤ .

الرحلة الجغرافية والدراسة الميدانية المعاصرة :

لأن الاجتهاد الجغرافي التطبيقي الذي ترسخه وتدعمه وتتبناه الجغرافية المعاصرة ، هو جزء حيوي وفعال من صلب هذا التحول العظيم ، الذي أسفرت عنه الدراسة الميدانية . فلقد تصاعد اهتمام الفكر الجغرافي المعاصر ، روحًا وغاية ومنطقًا وفلسفة ، بالرحلة الجغرافية الميدانية . وتولى هذا الاهتمام تطويع وتطوير العمل الميداني ، لكي يجاوب إرادة الفكر الجغرافي المعاصر .

ومن ثم أخذ علم الجغرافية المعاصرة - بصرف النظر عن الحيرة التي تردى فيها بعض الجغرافيين - يواجه مسئولياته قبل العمل الميداني ، وتطلعات الفكر الجغرافي المعاصر . ولقد أمسك علم الجغرافية المعاصرة ، وهو أشد ايماناً بأنه علم عملي ، يخدم مصلحة الحياة على الأرض في المجال التطبيقي الفسيح ، بزمام الرحلة الجغرافية الميدانية . ولقد أبدع الاجتهاد الجغرافي المعاصر ، في الكيفية التي ينبغي أن يوظف بها الرحلة الجغرافية الميدانية في خدمة العمل ، والدراسة الميدانية ، التي تشد أزره وتقوى ساعده في التوجه العملي العلمي التطبيقي .

ولأن التحول العظيم الذي أسفر عن علم الجغرافية المعاصرة ، وزج بها في العمل العلمي والعملي التطبيقي ، كان تحولاً متحمساً ورشيداً ومتعقلاً (١) ، فإن الاجتهاد الجغرافي المعاصر كرس اهتمامًا كبيراً ، لتطويع الرحلة الجغرافية الميدانية . وانطلقت هذه الرحلة ، وطاوعت هذا الاجتهاد الجغرافي ، سواء تأتي في الأحضان الأكاديمية ، أو تأتي على صعيد الخدمة العامة في مجالات العمل الجغرافي التطبيقي .

ومع ذلك فينبغي أن ندرك كيف تسبب هذا التطويع ، في تغيير حقيقي. ولكن من غير أن يفجر ثورة عارمة تقلب أمر الدراسة الميدانية،

---

(١) الشرنوبي محمد عبد الرحمن : الجغرافية بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية ص١٩ - ٢١ - الكويت سنة ١٩٨١ .

وتوجهاتها المثمرة ، رأساً على عقب . بمعنى أن هذا التطويع قد اصطنع هذا التغيير ، والتجديد وزيادة الأعباء فى شئ كبير من الهدوء . بل لم يتنكر هذا التطويع ، وهو يجدد ويطور ويغير التوجهات لكل الخبرات والدروس استفادة من الرحلة الجغرافية الميدانية ، وأدائها السابق الذى طاوع إرادة وتطلعات علم الجغرافية الحديثة .

وهكذا ، يمكن القول أن الجغرافية المعاصرة ، قد ترفقت بالرحلة الجغرافية الميدانية فى شأن التغيير . ومع ذلك فهى لم تترفق بها أبداً فى شأن التكليف والتوظيف والأداء . بمعنى أنها قد تركت أمر الرحلة الجغرافية الميدانية ، من غير أن تستحدث تعديلات مهمة فيها من حيث الشكل ، ولكنها استحدثت التغيير الحقيقى ، من حيث المضمون والهدف والغاية ، والتمادى فى تكثيف إجراء الدراسة الميدانية ، وانجاز المهام المنوطة بها فى المجال الجغرافى التطبيقى .

هذا ، ولقد توجه هذا التغيير الجوهرى فى شأن تطوير وتطويع الرحلة الجغرافية ، وفى شأن توظيفها فى الدراسة الميدانية لحساب العمل الجغرافى التطبيقى ، فى وجهتين ، أو فى اتجاهين . وهما معاً يكشفان بكل الوضوح عن أبعاد هذا التغيير ، ويجسدان مدى التطور فى أعباء الدراسة الجغرافية الميدانية المعاصرة .

وفى الاتجاه الأول ، شجبت الجغرافية المعاصرة الرحلة الجغرافية الميدانية ، التى يقوم بها الجغرافى منفرداً فى بعض الأحيان إلى الميدان . واعترضت على ما يمكن أن ينجزه من دراسات ميدانية ، وتشككت فى جدوى نتائجها . ورأى الجغرافية المعاصرة فى هذا الاعتراض المبدئى ، أن الفرد الجغرافى مهمًا أوتى من مهارات وقدرات وخبرات ، لا يمكن أن يتصدى للعمل الميدانى منفرداً . بل هو لا يستطيع أن ينجز العمل الميدانى وحده ، على الوجه الأفضل فى الميدان ، لأنه لا يملك كل أسباب التفتح التى يقتضيها هذا العمل .

وفحوى وجدية هذا الاعتراض ، لم تكن – فى الحقيقة – مفاجئة أو جديدة . وما من شك فى أن الجغرافية الحديثة قد أثارت هذا الاعتراض ،

فى شكل تحذير من قبل . وكانت قد فضلت دائمًا رحلة الفريق الجغرافى ، على رحلة الفرد الجغرافى إلى الميدان . بل كانت تحذر من عجز الفرد من حيث القدرة ، على الأداء فى انجاز العمل الميدانى .

أما الاعتراض الجوهرى بالفعل ، فهو الاعتراض الذى شجبت الجغرافية المعاصرة فيه ، تشكيل الفريق التعاون وجدوى اشتراكه فى الرحلة الجغرافية الجماعية إلى الميدان . ورأى الجغرافية المعاصرة ، يطعن فى قدرة هذا التشكيل على أداء المهمة ، كما ينبغى أن يكون الأداء. بمعنى أن الفريق الجغرافى يستطيع أن يتعاون بالفعل ، فى انجاز العمل الميدانى ، ولكن إلى حد محدود فقط . ذلك أنه يفتقد خبرات بعض المتخصصين فى تخصصات كثيرة ، طالما اعتمد عليها الجغرافيون ، فى بحوثهم الجغرافية .

وفحوى وجدية هذا الاعتراض ، كانت مفاجئة جديدة . وما من شك فى أنها لم تطعن فى جدية العمل الميدانى ، ولكن حبذت انضمام بعض المتخصصين فى علوم أخرى ، تطلعًا إلى خبراتهم ونتائج رؤيتهم المتخصصة ، والكيفية التى تدخل بها فى توليفة البحث الجغرافى . وتمادى اهتمامها إلى طبيعة تشكيل الفريق ، واختيار المتخصصين ، الذين يشتركون فيه ، وإلى طبيعة التعاون فى أداء هذا العمل الجماعى ، بكل التنسيق لحساب الدراسة الجغرافية الميدانية الأجدى .

وهكذا اهتمت الجغرافية المعاصرة اهتمامًا مكثفًا ، بأمر توسيع قاعدة الفرق المتعاون ، فى الرحلة الجغرافية الميدانية . ولقد جسدت معنى هذا التوسيع الحقيقى فى قاعدة الفريق ، فى انضمام زمرة منتقاة من المتخصصين فى تخصصات علمية متنوعة إلى الفريق . كما وجهت مغزى هذا الانضمام إلى تعاون حقيقى وفعال ، فى انجاز العمل الميدانى الأنجح والأجدى . ولا تشك الجغرافية المعاصرة فى أن الأيدى والعيون والعقول المتخصصة ، تكون الأفضل فى انجاز العمل الجغرافى الميدانى .

وهذا معناه أن الجغرافية المعاصرة ، قد آثرت أن يضم الفريق

بعض الخبرات العلمية ، ، من غير الجغرافيين . بل لقد فضلت أن يكون الاختيار ، لكى يشمل زمرة من المتخصصين فى العلوم الطبيعية، وزمرة من المتخصصين فى العلوم الانسانية . وفى رأى الجغرافية المعاصرة ، أن هذا التشكيل الموسع والمتنوع ، هو الأنسب لدراسة الجغرافية الميدانية ، التى تعكف على التعامل مع ، الواقع الجغرافى الطبيعى ، أو الواقع الجغرافى البشرى فى الميدان .

وما من شك فى أن الجغرافية المعاصرة ، تعلق آمالاً لا حدود لها ، فى شأن ما ينبغى أن يسفر عليه هذا الانفتاح فى تشكيل الفريق المتعاون ، فى انجاز العمل الميدانى . ومع ذلك تدرك الجغرافية المعاصرة تمامًا أن نجاح هذا الفريق يظل رهنًا ومعلقًا على شرط حيوى ، وهو تفتح قنوات الاتصال بين أعضاء الفريق تفتحاً ذكيًا ، يكفل التعاون الحقيقى فى انجاز العمل الميدانى الأجدى .

ونود أن نلفت الانتباه إلى أن توجه الجغرافية المعاصرة إلى توسيع قاعدة تشكيل الفريق ، قد تركز على احلال زمرة من الباحثين غير الجغرافيين فى صحبة الباحث الجغرافى . وفى نفس الوقت لم تعترض على الأعضاء الآخرين ، من الفنيين المدربين والمساعدين والعمال وغيرهم ، ممن اعتادت الرحلة الجغرافية الميدانية ، على اصطحابهم معها إلى الميدان . بمعنى أنها أبقت على وجودهم فى تشكيل الفريق المتعاون ، لأنها تدرك مدى حاجة تنفيذ العمل الميدانى إليهم .

هذا ، وفى اطار هذا الاهتمام بالرحلة الجغرافية الميدانية ، والاهتمام بتشكيل الفريق المتعاون ، تهتم الجغرافية المعاصرة اهتمامًا كبيراً ، بوضع واعداد خطة مناسبة بشئ كثير من التفتح ، لكى تحتوى برامج العمل التجريبى والتطبيقى فى الميدان . وتطلب الجغرافية المعاصرة من هذه الخطة حسن وكفاءة التنسيق ، بين أعضاء الفريق المتعاون أثناء العمل الميدانى ، أكثر من أى شئ آخر . كما تطلب من هذه الخطة تغطية الدراسة الميدانية فى المساحة المعنية ، تغطية شاملة تجاوب وتخدم حاجة البحث الجغرافى التطبيقى .

والاعتقاد الصحيح الراسخ فى الجغرافية المعاصرة ، أن حسن أداء المهمة ، كما ينبغى أن يتولى أمرها الفريق ، وحسن انجاز الدراسة الميدانية الجيدة ، كما يتطلع إليها البحث الجغرافى ، ينبى على أمرين هما :

١- الاعداد والتجهيز الجيد للرحلة الجغرافية الميدانية ، سواء تمثل فى شأن تشكيل الفريق المتعاون ، أو تمثل فى شأن الأدوات والمعدات فى صحبة الفريق ، أو تمثل فى شأن وضع خطة عمل وانجازات الفريق .

٢- الالتزام المتفتح الجماعى بروح الفريق ، ومتابعة العمل الميدانى وتنفيذه ، وفقاً لمقررات وسياق البرنامج ، التزاماً يشد أزر التحرك فى أنحاء الميدان ، ويوجهه للانجاز فى الوجهة السليمة .

ولأن العمل الجغرافى الجماعى فى الميدان ، هو انجاز مطلوب لحساب الجغرافية المعاصرة ، بكل ما تصبو إليه من البحث الجغرافى الأجود والأنسب ، فإن الرحلة الجغرافية وتوظيفها يجاوب إرادة هذا البحث من ناحية ، وأن اسناد العمل الميدانى إلى خبرة المتخصصين يكفل انجاز البحث الجغرافى الأجود والأنسب من ناحية أخرى . وتوجه الجغرافية المعاصرة فى هذا الشأن ، لا يعنى أكثر من طلب الامعان فى التخصص ، وتجويد العمل الجغرافى الميدانى ، الذى تنجزه الأيدى والعقول والخبرات المتخصصة .

ولأن العمل الجغرافى الجماعى فى الميدان ، هو انجاز مطلوب لحساب علم الجغرافية المعاصرة ، بكل ما تصبو إليه من البحث الجغرافى الأجود والأنسب ، فإن تنفيذه هذا العمل يطلب قيادة مسئولة ، ترعى وتتابع مراحل الأداء الواردة فى خطة العمل الميدانى . وتحمل الجغرافية المعاصرة الخبرة الجغرافية المتخصصة ، أمانة وأعباء قيادة فريق العمل الجماعى . وتعليق هذا الأمانة فى عنق الخبرة الجغرافية ، لا يعنى أكثر من أنها مسئولة ، وتعرف المطلوب من العمل الميدانى بالضبط ، لحساب البحث الجغرافى التطبيقى .

وينبغى أن نذكر أن هذه القيادة ليست أمارة من امارات الاستعلاء ،

أو التشريف للخبرة الجغرافية . بل هى - بكل تأكيد - قيادة عمل وتكليف ، يضع الخبرة الجغرافية فى مواجهة المسئولية ، وما تنطوى عليه من أعباء . وترى الجغرافية المعاصرة أن تسليم زمام الرحلة الجغرافية، والعمل الجغرافى الميدانى إلى الخبرة الجغرافية المتخصصة ، لا يتأتى إلا على أساس ما تمتلكه من قدرة وخبرة فى شأن :

١- تنسيق العمل الجماعى فى الميدان ، ومتابعة سياق ومراحل تنفيذ خطة وبرامج العمل الميدانى ، فى المساحة المعنية .

٢- حساب جدوى هذا العمل الجماعى الميدانى ، وتقويم انجازات التقدم العملى التجريبى والتطبيقى فى الميدان .

وترى الجغرافية المعاصرة أيضاً استمرار الخبرة العلمية الجغرافية، فى تحمل أمانة القيادة والعمل الاشرافى المباشر ، بعد عودة الرحلة الجغرافية من الميدان . وهذا معناه أن القيادة الجغرافية ليست قيادة رحلة ، ومتابعة تنفيذ عمل ميدانى فى المساحة المعنية فقط ، بل هى قيادة اشراف وتوظيف القدرة الجغرافية على الجمع بين التركيب والتحليل فى وقت واحد ، فى خدمة الانجاز العلمى الجغرافى التطبيقى .

وبناء على ذلك ، تتولى الخبرة الجغرافية العلمية أمر الاخراج العلمى المنسق ، الذى يعرف كيف ينجز البحث الجغرافى فى التوليفة الجيدة ، التى تجسد العمل الجغرافى العملى التطبيقى وتستخلص منه الاضافة . وما من شك فى أن المهارة فى الحبكة ، والانسياب فى السياق ، والجودة فى الصياغة ، كلها أمور لا تخدمها غير الخبرة الجغرافية فى التركيب . حتى لو استحقت هذه الخبرة الثناء على ذلك الانجاز ، فهو لا يخفى استحقاق كل الشركاء الذين عملوا فى حقل الدراسة الميدانية ، مشاركتها فى هذا الثناء .

وفى الاتجاه الثانى ، كان التغيير الذى فرضته الجغرافية المعاصرة ، على العمل الميدانى ، تغييراً جذرياً هادفاً . وصحيح أن هذا التغيير قد طوع الرحلة الجغرافية الميدانية ، لكى تعمل وتطاوع إرادة

وجوهـر هذا التغيير الهادف . ولكن الصحيح أيضًا أنها لم تحمل هذه الرحلة أعباء وتبعات كثيرة ، اصطنعها هذا التغيير .

وهذا معناه أن نصيب الرحلة الجغرافية الميدانية الحقيقى ، من هذا التغيير قد أنصب كله على تنفيذ العمل الميدانى ، واجراء التجارب الميدانية ، وجمع البيانات وصياغة الاستبيانات ، أكثر من أى شئ آخر . وما من شك فى أن العمل بموجب هذا التغيير فى الميدان ، لا يعنى سوى انصياع الرحلة الجغرافية الميدانية التطبيقية ، لفلسفة ومنطق مغزى ومرمى الجغرافية المعاصرة . وهذا معناه أن هذا الانصياع لا يعنى أقل ولا أكثر من مجاراة التجديد ، والتحول الذى أخذ به علم الجغرافية المعاصرة ، لكى يباشر العمل الميدانى التطبيقى .

ومعروف أن البحوث الجغرافية ، كما أراد لها علم الجغرافية الحديثة أن تكون ، قد حققت أهدافا ، وبنت انجازاتها وسجلت اضافاتها دائمًا ، على ثلاثة ركائز أساسية . وتمثلت هذه الركائز فى التوزيع والتعليل والربط . وكان أقصى ما يصبو إليه البحث الجغرافى الجيد فى شأن الظاهرة الجغرافية المعنية ، هو استخلاص النتائج وتسجيل الاضافة ، بناء على الاجادة فى توزيع هذه الظاهرة ، وفى تعليل هذا التوزيع ، وفى تلمس الربط الذى يجسد تداخلها فى توليفة الواقع الجغرافى الطبيعى أو البشرى . وكانت الدراسة الميدانية آنذاك ، لا تخذل الباحث فى شأن هذا التوجه الهادف .

ومعروف أن فلسفة ومنطق الجغرافية المعاصرة قد تطورت ، وعرفت كيف ترفض توقف الاجتهاد الجغرافى عند هذا الهدف . ولقد بررت هذا الرفض ، أو الاعتراض ، على أن التوقف لا يعنى أقل من افتقاد الجدوى فى نتائج البحث . وافتقاد الجدوى فى نتائج أى بحث ، معناه افتقاد جدوى الانتفاع به انتفاعاً حقيقياً ، لحساب حركة الحياة ، التى تتعايش فى أحضان الواقع الجغرافى .

ولكى يتجاوز الاجتهاد الجغرافى هذا الهدف ، ولا يقف البحث الجغرافى وقد افتقد جدواه ، أضافت الجغرافية المعاصرة ، ركيزة جديدة

إلى الركائز الثلاثة السابقة . وتمثلت هذه الاضافة فى **التقويم** ، حتى يتمادى البحث الجغرافى فى تحرى جدوى الظاهرة المعنية لحساب الأنسان . ولا يتأتى هذا التقويم إلا تأسيسًا على معايير وحسابات كثيرة تقدر مصلحة الانسان بصفة خاصة ، وهو فى علاقة حتمية مع الأرض ، ومصلحة حركة الحياة ، وهى تنتفع بالأرض .

وهذا التوجه المجدد لحيوية وجدوى الاجتهاد الجغرافى ، الذى أخذت به البحوث الجغرافية ، واستجابت فيه لإرادة الفكر الجغرافى المعاصر ، قد حمل العمل الميدانى تبعات جديدة . وتمثلت هذه التبعات والأعباء فى اجراء أو تنفيذ العمل الميدانى تنفيذاً ، يسعف اهتمام البحوث الجغرافية ، بتقويم الظاهرة الجغرافية المعنية لحساب الأنسان.

وصحيح أن هذا التوجه قد فتح آفاقاً رحبة للاجتهاد الجغرافى ، وهو ينجز البحوث الجغرافية التطبيقية ، التى تنتفع بها حركة الحياة . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا التوجه ، قد تمادى إلى الحد الذى حمل الاجتهاد الجغرافى أعباء المسح الجغرافى الميدانى الشامل . وهذا التمادى لا يعنى اقلاع البحث الجغرافى عن دراسة الظاهرة الجغرافية المعنية ، ولكنه يعنى انجازاً جغرافيًا من نوع جديد ، يهتم بدراسة الواقع الجغرافى بشقيه الطبيعى والبشرى دراسة تطبيقية فى المساحة المعنية، لكى يبصر أو وينصر حركة الحياة ، وتطلعها إلى ما هو أفضل فيه .

ومن غير أن تتردى الجغرافية المعاصرة فى الحيرة ، التى يتردى فيها بعض الجغرافيين ، أضافت فى اطار صياغة فلسفتها المجددة اضافة هامة ومثيرة . ولقد حولت هذه الاضافة علم الجغرافية وتوجهاته الفعالة ، من علم عملى يبصر الحياة بالواقع الجغرافى الذى يحتويها ، وهى تطلب التعايش أو التعامل مع خواص الواقع الجغرافى ، إلى علم عملى تطبيقى ، يبصر هذا التعايش أو التعامل مع الواقع الجغرافى ويطور انتصاراته ، وهو يطلب التعايش أو التعامل الأفضل .

ومن غير خروج أو تمرد على الاطار ، الذى يصطنع ويرسخ توجهات الجغرافية العلمية العملية ، وضعت الجغرافية المعاصرة

المتفتحة خبرات الجغرافية المتخصصة فى وضع مفعم بالتفتح ، والاستعداد للعمل العلمى العملى التطبيقى . ومن ثم ألزم هذا التفتح العمل الجغرافى الميدانى ، بالانفتاح انفتاحاً بصيراً ورشيداً ، يكفل ما يبتغيه التقويم الجغرافى للظاهرة الجغرافية المعنية أحياناً ، أو ما يبتغيه التقويم الجغرافى للواقع الجغرافى كله فى المساحة المعنية . وهل تصبح الجغرافية المعاصرة علماً عمليّا تطبيقيّا ، ينصر مصلحة الانسان فى أحضان الواقع الجغرافى ، من غير هذا الانفتاح المتفتح الرشيد ؟ وهل يتأتى الانفتاح المتفتح الرشيد ، من غير ممارسة التقويم الجغرافى لأى ظاهرة معينة لحساب الإنسان وتعامله مع الأرض ، فى المكان والزمان ؟

ومن غير تردد ، أو تشكك فى جدوى هذا التوجه الجيد ، طورت الخبرة الجغرافية العمل الجغرافى العملى فى الميدان ، لكى يكفل وييسر ممارسة التقويم الجغرافى . كما تولت أيضاً أمر توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية ، التى تطاوع هذا التوجه ، وتكفل الانتفاع به . وهذا معناه أن الرحلة الجغرافية الميدانية ، المتخصصة ، قد انتقلت من أيدى الفريق الجغرافى المتخصص ، إلى أيدى الفريق الجغرافى – العلمى المشترك . وما من شك فى أن هذا التحول ، قد جاوب إراة الفكر الجغرافى المعاصر ، لأنه وجه الرحلة ووظفها توظيفاً أكثر تفتحاً ، فى خدمة المجال العملى التطبيقى .

ولقد أسفر هذا التوظيف الأكثر تفتحًا ، الذى وضع الرحلة الجغرافية وعملها الميدانى ، أمانة فى عنق الفريق العلمى المشترك . وقد ترك قيادتها للخبرة الجغرافية التى تتحرى توسيع وتجديد اهتمامات الجغرافية المعاصرة بالبحوث الجغرافية التطبيقة . ومن البحوث الجغرافية التطبيقية ، التى انتفعت بهذا التوظيف الأكثر تفتحًا ، الدراسات الجغرافية التطبيقية فى استخدام الأرض ، والانتفاع بها لحساب الانتاج ، أو لحساب السكن ، أو لحساب التوزيع الجغرافى الأفضل للخدمات . ولقد استطاعت الخبرة الجغرافية وفى صحبتها الفريق العلمى المتعاون ، أن توجه العمل الميدانى توجيهًا متفتحاً ، من

خلال كل الخبرات المتاحة ، لتقويم أوجه الاستخدام تقويماً كاشفًا للجدوى الاقتصادية من ناحية ، وللقدرات البشرية التى تكفل هذا الاستخدام ، وتمارس الاستخدام الأنسب من ناحية أخرى .

وفى اطار الاهتمام الجغرافى المعاصر - على سبيل المثال - باستخدام الأرض ، وتوظيف العمل الجغرافى الميدانى فى تقويم التفاعل الحيوى ، بين الانسان والأرض ، الذى يسفر عن مستوى من مستويات الاستخدام ، كان الاهتمام بوضع خطة العمل الميدانى ، وتوجيهه نحو هذا الهدف . ويصبح من شأن مثل هذه الخطة ، التى توجه تنفيذ العمل الجغرافى الميدانى ، نحو هذا الهدف أن تبصر بمستوى هذا الاستخدام ، وأن تكشف عن جدواه فى المساحة المعنية .

هذا ، والاعتقاد الصحيح فى هذا المثل ، أن التقويم الجغرافى قد فتح باب الاجتهاد الجغرافى المعاصر على مصراعيه ، لكى تدرك الخبرة الجغرافية المنفتحة من خلال العمل الميدانى أمرين جوهرين هما :

١- أن مسألة الكشف أو البيان عن مستوى الاستخدام ، فى أى مساحة معنية، وهل هو استخدام جائز يستنزف ، أو هو استخدام تقليدى جامد لا يتغير ، أو هو استخدام اقتصادى يتطور ، يضع عمليات التنمية والتغيير إلى ما هو أفضل ، فى وضع ترى فيه الدراسة الجغرافية بكل الصدق والوضوح والجدية ، ما ينبغى أن يكون ، لكى يتأتى التحول والتغيير فى نمط الاستخدام ، وتحسين مستواه وجدواه، لحساب الانسان .

٢- أن مسألة البيان الكاشف عن مستوى الاستخدام . وجدواه ، لحساب الانسان وحياته الأفضل ، يفتح للعمل الجغرافى الميدانى مجالاً أو مجالات رحبة ، لكى يلعب الاجتهاد الجغرافى المعاصر دوراً مباشراً ومجدياً ، من أجل ترشيد وحسن توجيه البرامج التنموية فى المساحة المعنية . ويكون من شأن الفريق العلمى المتخصص ، تحت القيادة الجغرافية المكلفة ، أن يعرف جيداً كيف يتعامل مع الواقع الجغرافى ، وكيف يوظف العمل الميدانى فى المسح الجغرافى الميدانى ، وكيف يضع

هذا المسح الجغرافى الميدانى فى خدمة عمليات التنمية ، وتحسين مستويات الاستخدام للأرض ، على كل المحاور فى المكان والزمان .

* * *

المسح الجغرافى الميدانى وخدمة التنمية :

عندما يحمل علم الجغرافية المعاصرة على كاهلة مسئولية ، توظيف الدراسة الميدانية فى خدمة عمليات التنمية ، تصبح هذه المهمة الحيوية أمانة غالية ، فى عنق الاجتهاد الجغرافى . ولقد أعطى علم الجغرافية حق تطويع الرحلة الجغرافية الميدانية وحسن توظيفها لكى تنهض بهذه المهمة . وبناء على منطق وروح وفلسفة الفكر الجغرافى المعاصر ، الذى يشد أزره ، أفلحت الخبرة الجغرافية فى صياغة هذا التطويع ، وفى توجيه العمل الجغرافى الميدانى توجيهاً صحيحاً ، يكفل الدعم واصطناع القاعدة الراسخة للتحول التطبيقى .

ولأن الفكر الجغرافى المعاصر ، قدر هذا التحول التطبيقى حق قدرة ، وهو يضع مصلحة الانسان فى بؤرة اهتمامه ، تلمس حاجة عملية التنمية بالفعل من الدعم والخبرة التى تبصرها . ولقد بحث الاجتهاد الجغرافى فى الكيفية ، التى يجاوب بها علم الجغرافية على هذه الحاجة اجابة مجدية . بل تلمس صيغة هذه الاجابة ، والكيفية التى تصبح بها دعمًا وخبرة ، تبصر وترشد عملية التنمية الأفضل والأجدى ، فى المكان والزمان .

ولقد أسفر التفكير الجغرافى المتفتح ، عن ادراك مدى تطلع عملية التنمية وبرامجها ، لأن تحتويها خطة مناسبة ومحبوكة . كما أسفر أيضًا عن ادراك مدى ما ينبغى أن يفعله العمل الجغرافى ، لكى يسهم فى صياغة هذه الحبكة ، والكيفية التى تسعف بها التنفيذ العملى للبرامج التنموية ، فى المكان والزمان .

هذا ، وفى اعتقاد الاجتهاد الجغرافى المعاصر ، الذى تحمس لهذه المسئولية ، أن صياغة الخطة ووضع برامج التنمية ، وانضباطها فى

السياق الرتيب وفى الحبكة الأفضل ، مسألة حيوية يبدأ بها الترشيد الجغرافى . ومن ثم أدرك الاجتهاد الجغرافى الكيفية التى ينبغى أن يتهيأ بها هذا الترشيد الجغرافى لخطة التنمية . بل لقد تبين لهذا الاجتهاد الجغرافى ، أن الخطة التنموية الأفضل ، هى التى تتجنب التحيز التنموى . ولا ينبغى أن توضع هذه الخطة فى صيغتها الأفضل ، إلا فى اطار :

١- الاقليم التخطيطى ، الذى يمثل الوعاء الأمثل للخطة ، وما تنطوى عليه هذه الخطة من برامج تنموية .

٢- الالتزام بالنمو الشامل فى كل القطاعات ، التى تستوعب حاجات الناس ، التزامًا يكفل **التوازى** ، **والتوازن** ، **والتزامن** ، بين كل برامج الخطة التنموية .

٣- الربط فى أقصى حد من المرونة ، بين برامج التنمية فى الأقاليم التخطيطية ، حتى يتوازى ، ويتوازن ، ويتزامن ، النمو الشامل ، على مستوى الدولة .

ومن غير اسراف فى تجسيد دور الخبرة الجغرافية ، التى تصدت لهذا التكليف الحيوى ، يجب أن نذكر كيف أفلحت فى تحديد المساحة المعنية ، الأمل التى ينبغى أن يتهيأ فى اطارها حبكة الخطة التنموية . وأصبح الاقليم الجغرافى المميز طبيعيًا وبشرياً ، عن سائر الأقاليم الأخرى ، هو بالكاد **الاقليم التخطيطى**(١) . كما ينبغى أن نمتدح توجيه عملية التنمية توجيهاً يغطى كل قطاعات الحياة ، لكيلا يتردى النمو فى سوءات عدم التوازن ، أو لكيلا يعرقل التأخر وعدم النمو فى قطاع ، أو فى اقليم ، النمو والتقدم فى قطاع ، أو فى اقليم آخر .

وكان أقصى ما وصلت إليه الخبرة الجغرافية ، من مهارة وحنكة فى دعم عملية التنمية ، هو النجاح فى صياغة قنوات الاتصال ، التى تكفل الربط وتوثيق العلاقات بين عمليات التنمية فى الأقاليم

---

(١) يتفرد الاقليم التخطيطى بالخصوصية فى خواصه ومواصفاته الطبيعية والبشرية .

التخطيطية . وما من شك فى أنها قد بصرت الاجتهاد الذى عكف على صياغة الخطة القومية الشاملة على مستوى الدولة ، وهى تتألف من مجموعة الخطط فى الأقاليم التخطيطية ، فى هذه الدولة .

ولأن الخبرة الجغرافية المعاصرة ، قد خاضت التجربة بأمانة وتجرد، فى خدمة عملية التنمية ، فلقد عرفت بالضبط كيف تتوجه هذا الاتجاه التطبيقى ، وكيف توظف الدراسة الجغرافية الميدانية ، فى انجاز هذا الغرض الحيوى . ولم تجد أفضل من أن تعكف على تحديد أبعاد الاقليم التخطيطى ، وأن تمارس الدراسة الجغرافية الميدانية ، وصولاً إلى المسح الجغرافى الشامل ، الذى يكشف عن خصوصية مواصفات وخواص الواقع الجغرافى الطبيعى والبشرى فيه .

وأصبح المسح الجغرافى الشامل لهذه الخصوصية ، أو لهذا التفرد فى الاقليم التخطيطى ، هو منحة العمل الجغرافى المعاصر لعمليات التنمية . ولقد بصر هذا المسح الجغرافى الشامل فى الاقليم التخطيطى، فريق المخططين ، وهو يضع الخطة الانمائية . بل لقد رشد هذه الخطة ، وهى تتوجه إلى الشمول التنموى المتوازن ، بكل ما تنطوى عليه من برامج تنموية لحساب النمو المتوازن فى قطاعات الانتاج ، والاستهلاك ، والخدمات ، أو وهى تتوجه إلى التكامل بكل ما نبتغيه من التوازن فى انجاز النمو المتزامن فى الأقاليم التخطيطية على مستوى الدولة (١) .

وهكذا انساقت الدراسة الجغرافية الميدانية ، فى هذا الاتجاه التطبيقى المجدى ، لكى تجاوب حاجة العصر من علم الجغرافية المعاصرة . بل لقد أتقن علم الجغرافية ، وأبدع فى توظيف الخبرة الجغرافية التطبيقية ، فى خدمة عمليات التنمية ، وصناعة قواعد التغيير إلى ما هو أفضل . وأصبح فريق العمل المتعاون متمرس فى توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية من أجل :

١- تحديد الأقاليم التخطيطية على مستوى الدولة .

---

(١) الشامى صلاح الدين : الجغرافية دعامة التخطيط ص١٤٢ - ١٤٧ .

٢- اجراء المسح الجغرافى الميدانى ، فى اطار كل اقليم من هذه الأقاليم التخطيطية .

٣- تلمس القنوات التى تكفل الربط بين النمو ومعدلاته وتوازنه وتوازيه ، وتزامنه فى هذه الأقاليم .

هذا ، ولقد أصبح من شأن فريق العمل المتعاون فى الرحلة الجغرافية الميدانية ، أن يعرف بالضبط كيف يحقق هذه الأهداف . كما يعرف بالضرورة ، كيف ترشد هذه الأهداف ، عملية وضع الخطة التى تحتوى البرامج الانمائية فى الاقليم التخطيطى . وتأسيسًا على هذه المعرفة التزم الاجتهاد الجغرافى بوضع الخطة التى تنسق مراحل العمل الميدانى ، وتنجزه الانجاز الذى يحقق هذه الأهداف لحساب الأنسان .

وصحيح أن حاجة الفريق إلى وضع وصياغة الخطة كانت ملحة إلى أبعد الحدود . ولكن الصحيح أيضًا أن خروج الرحلة الجغرافية إلى الزيارة التفقدية فى انحاء الاقليم التخطيطى المعنى ، كانت حاجة لا ينبغى التفريط فيها . وما من شك فى أن محصلة هذه الزيارة التفقدية، قد بصرت لفريق المتعاون مع الخبرة الجغرافية ، فى وضع وصياغة برامج العمل الميدانى ، لحساب المسح الجغرافى الشامل ، فى الاقليم التخطيطى .

ولأن تنفيذ واعداد المسح الميدانى الجغرافى التطبيقى فى الاقليم التخطيطى ، يتطلب دراسة ميدانية طبيعية تنكب على خواص الأرض ، وتكشف عن خصائص الواقع الجغرافى الطبيعى من جانب ، ويتطلب دراسة ميدانية بشرية تنكب على دراسة الناس ، وتكشف من أوضاع الواقع البشرى الجغرافى ، وقدراته وتطلعاته من جانب أخر ، فيتعين قبل خروج الرحلة الجغرافية الميدانية ، تقسيم العمل الجغرافى الميدانى التطبيقى التجريبى ، بين الزمرة المتخصصة من العلماء فى كل جانب من هذين الجانبين . كما ينبغى أن تصطحب كل زمرة من هاتين الزمرتين الأدوات والوسائل ، والأجهزة ، والخرائط ، والصور الجوية ، وغير ذلك من الحاجات التى تسعف العمل الميدانى ، فى توجهاته

وتجاربه ودراساته الطبيعية ، أو فى توجهاته وتجاربه واستبياناته البشرية فى الاقليم التخطيطى المعنى .

ولأن زمرة متخصصة من العلماء فى الفريق المتعاون فى الرحلة الجغرافية الميدانية ، تتفرغ لدراسة الواقع الطبيعى وتقومه تقويماً كاشفًا عن الكيفية التى يحتوى بها ، ويجاوب حركة الحياة من ناحية ، وزمرة متخصصة أخرى ، تتفرغ لدراسة الواقع البشرى وتقومه تقويماً كاشفاً عن الكيفية التى يواجه بها مصيره يحقق تعايشه وتعامله من ناحية أخرى ، فإن الخروج فى الرحلة إلى الميدان ، يحرر كل زمرة متخصصة منهما فى أداء العمل الميدانى ، واجراء التجارب وجمع البيانات ، على مستوى الاقليم . بمعنى أنه لا يجب أن يتقيد أى منهما بالزمرة الأخرى ، وأن المضى فى تنفيذ برامج العمل الميدانى التطبيقى التجريبى ، كل فيما يخصه ، يدعو لأن تتفرق بهما السبل فى أنحاء الميدان فى كل اقليم تخطيطى معنى .

وصحيح أن حاجة العمل الميدانى ، وبرامج تنفيذه المرحلى ، تدعو إلى هذا التحرر والانطلاق فى أنحاء الميدان . ولكن الصحيح أيضًا أن معسكراً واحداً ، أو محل اقامة واحد ، يجب أن يجمع الشمل ، فى نهاية تنفيذ برنامج العمل الميدانى فى كل يوم من الأيام . وهذا معناه أن التحرر فى التحرك والانتقال الأنسب لأداء كل فريق منهما ، لا يعنى أبداً انقطاع الصلة أو التمادى فى انقسام الفريق ، أو أن يستدبر أحدهما الآخر .

وقد تدعو حاجة العمل الميدانى الجغرافى ، إلى اجتماع فريق العمل المنقسم اجتماعًا مشتركًا ، فى جلسة عمل موحدة ، من أجل مراجعة ومتابعة وتقويم معدلات تقدم العمل وانجاز التنفيذ . وهذا معناه أنهما معاً لا يفرطان فى العلاقة بينهما ، ولا يبتعدان عن الاطار ، الذى يجمع بين دراسة الواقع الجغرافى الطبيعى ، والواقع الجغرافى البشرى ، ويصطنع منهما وجهين متلاحمين ومتلازمين لهدف واحد ، هو المسح الجغرافى الميدانى فى الاقليم التخطيطى المعنى . وتأكيداً لهذه العلاقة ، وحرصًا على هذا التعامل ، يصبح هذا الاجتماع ، أو هذه الجلسة

المشتركة دورية ، على مدى فترات زمنية معينة .

وعن أداء الزمرة المتخصصة فى دراسة الواقع الجغرافى الطبيعى ، نذكر كيف أنها توظف العمل الميدانى واجراء التجاب ، وهى تطوف وتتجول من مكان إلى مكان آخر ، فى خدمة حصر وتقصى حقائق عن مواصفات وخواص طبيعية الأرض ، فى الاقليم التخطيطى المعنى . ومن خلال الخبرة فى العمل التحليلى والتركيبى فى وقت واحد ، تنبرى هذه الزمرة لدراسة نسيج هذا الواقع الجغرافى الطبيعى ، وتتلمس العناصر التى تتداخل فى صياغة هذا النسيج ، واكسابه خصائصه المتميزة . ولا يلبث أن يتجاوز اجتهاد الزمرة هذه المرحلة ، لكى يتبين مبلغ انصياع هذا الواقع الجغرافى الطبيعى ، الذى يحتوى حركة الحياة للتغيير ، وقوة فعل المتغيرات السائدة أو المرتقبة .

ومن ثم تحصى هذه الزمرة المتخصصة وتقوم ، ما قد ينطوى عليه هذا الواقع الجغرافى الطبيعى ، من صعوبات وتحديات معلنة ، تواجه إرادة التغير إلى ما هو أفضل ، لحساب الحياة . وينبغى أن تجرى الخبرة المتخصصة فى الميدان ، كل الاختبارات والتجارب ، وكل أنماط العمل الميدانى الجغرافى ، التى تسبر كنه هذه الصعوبات ، وتقوم تلك التحديات تقويماً سليمًا كاشفًا ، عن مدى صمودها أحياناً ، أو استجابتها أحياناً أخرى لعوامل التغيير .

ومن شأن هذا التقويم الجغرافى الذى تكشف عنه الدراسة الميدانية أن يبصر بمبلغ انتصار الانسان فى اطار هذا الواقع الجغرافى فى الاقليم التخطيطى . بل ومن شأنه أيضًا أن يبصر بالحد الأمثل ، من الاجتهاد الفعال ، الذى ينبغى أن يتوفر فى عوامل وقوى التغيير لاحباط ، أو لابطال مفعول ، أو لكبح جماح التحديات المعلنة ، ضد إرادة حركة الحياة فى اطار هذا الواقع الجغرافى فى الاقليم التخطيطى .

وعن الزمرة الأخرى المتخصصة فى دراسة الواقع البشرى الجغرافى ، نذكر كيف أنها توظف العمل الميدانى واجراء الاستبيان ، وهى توظف وتتجول من مكان إلى مكان آخر ، فى خدمة حصر

وتقصى حقائق جغرافية بشرية ، عن وجود الأنسان وأوضاعه الديموجرافية وقدراته ومهاراته ومؤهلاته فى الاقليم التخطيطى المعنى. ومن خلال الخبرة فى العمل التركيبى والتحليلى معًا ، تنبرى هذه الزمرة لدراسة نسيج هذا الواقع الجغرافى البشرى وأوضاعه وأحواله ، وتتلمس العناصر التى تتداخل فى تركيب بنيته ، والعوامل التى تكسبه خصائصه . ولا يلبث أن يتجاوز اجتهاد هذه الزمرة تلك المرحلة ، لكى تتبين مدى قدرات وامكانيات واستعدادات الناس للتغيير ، ومدى الطموحات التى يمكن أن تنمى قدراتهم، وتحفزهم للتغيير إلى ما أفضل.

ومن ثم تحصى هذه الزمرة المتخصصة ، وتقوم ما قد ينطوى عليه هذا الواقع الجغرافى البشرى ، من جمود يقاوم التغيير ، أو من مرونة تطلب التغيير . وينبغى أن تجرى الخبرة المتخصصة فى الميدان الاستبيان ، وكل انماط العمل الجغرافى الميدانى الأخرى ، التى تسبر أبعاد ودواعى هذه المرونة أو هذا الجمود ، وتقوم القدرات الفاعلة على مواجهة التحديات ، تقويماً سليماً كاشفاً ، عن مبلغ نجاحها فى دعم وجود ومصلحة حركة الحياة .

ومن شأن هذا التقويم الجغرافى ، الذى تكشف عنه الدراسة الميدانية ، أن يبصر أولاً بمبلغ انتصار الانسان فى اطار هذا الواقع الجغرافى . بل ومن شأنه أيضاً أن يبصر بالحد الأقصى المرتقب من الاجتهاد المتاح بالفعل ، الذى يمكن أن يتوفر فى عوامل وقوى التغيير ، لاحباط ، أو لابطال مفعول ، أو لكبح جماح التحديات المعلنة ، ولانجاز التغيير الذى تصبو إليه إرادة حركة الحياة ، فى اطار هذا الواقع الجغرافى فى الاقليم التخطيطى لحساب الأنسان .

ومن شأن هذا الاجتهاد العملى الذى يكرسه فريق العمل الميدانى ، لحساب المسح الجغرافى الشامل فى الاقليم التخطيطى المعنى ، أن يحسن ، أو أن يجيد توظيف واستخدام وتصحيح الصور الجوية والخرائط ، لكى تجسد ما انتهى إليه أمر هذا العمل ، وانجازاته العملية ، ورصيده العلمى العملى فى الميدان . ومن شأنه أيضًا أن يعمل لاعداد التقرير الموضوعى ، الذى يبصر عندما يصور ويتحدث عن الواقع

الجغرافى الطبيعى ، والذى يصدق عندما يصور ويتحدث الواقع الجغرافى البشرى، اعداداً جيداً ، يجسد توليفة الواقع الجغرافى الشامل فى الاقليم. ومن ثم يجب أن يفرغ ذلك البيان الحى، عن الواقع الجغرافى الشامل ، أو أن ينتهى إلى بعض توصيات وقرارات واقعية وصريحة ، وهى التى يتقدم العمل الجغرافى التطبيقى بها إلى فريق المخططين ، لكى تبصر إرادة التغيير ، إلى ما هو أفضل بما لها وما عليها .

ومن الطبيعى أن ترشد هذه التوصيات الواقعية الصريحة العمل الجماعى ، الذى يعكف على وضع وصيغة الخطة التنموية فى اطار الأقاليم التخطيطية ، ويعرف كيف يضمنها برامج التنمية الشاملة فى الاقليم التخطيطى ، دون افراط فى التطلع ، أو تفريط فى الواقع المعاش. ولا ينبغى أن يتوقف عطاء الاجتهاد الجغرافى لهذا العمل التخطيطى عند هذا الحد ، الذى يحرم الخطة من انطباعاته عن الاقليم والواقع السائد فيه . وهو – من غير شك – مطالب بالاستمرار فى أداء مهم ، لم يستنفد أغراضه بعد .

ويتعين اشتراك الخبرة الجغرافية ، التى أنجزت المسح الجغرافى الميدانى ، وعايشت الواقع وأصدرت التوصيات ، فى فريق المخططين . وهذا الاشتراك لا يعنى سوى توجه العمل الجغرافى التطبيقى فى الاتجاه الصحيح . وهو – بكل تأكيد – اشتراك اشرافى مفيد ، لأنه يبصر العمل الاجرائى ، فى شأن صياغة الخطة ، وتوليفة البرامج التنموية الأنسب ، التى لا تسبق تطلعاتها إرادة التغيير وقدراته المتاحة ، ولا تتواضع أهدافها عن الحد المستطاع لها ، فى كل أقليم من الاقاليم التخطيطية على صعيد الدولة.

هذا ، ولا يمكن أن تكون الخطة فى المحتوى ، والحبكة ، والسياق ، موفقة أو مجدية ، فى شأن النمو المتوازى ، والمتوازن ، والمتزامن ، بين قطاعات الانتاج ، والاستهلاك ، والخدمات ، والمرافق فى الاقليم التخطيطى المعنى ، من غير أن تنتفع بالمسح الجغرافى الميدانى فيه ، أو من غير أن تمتثل وتقبل وتجيد تنفيذ توصيات فريق العمل الميدانى ، وتستثمر انطباعاته . وهل من غير معرفة واحاطة بالأرض ومواصفاتها

وتفردها ، وما تنطوى عليه من تحديات ، ينبغى احباطها بأساليب أكثر فاعلية وجدوى ، وهل ومن غير معرفة واحاطة بالناس ، وما يتمتعون بها من قدرات ينبغى تقويمها واستشعار مدى أو جدوى تعظيمها وشحذ فاعليتها ، يفلح فريق المخططين فى صياغة الخطة ، فى محتواها ، وفى حبكتها الأنسب ، فى الاقليم التخطيطى المعنى ؟ بل وهل يستغنى هذا الفريق ، عن اسهام الخبرة الجغرافية التطبيقية ، اسهاماً حقيقياً فى هذه المهمة (١) ؟

وهكذا زجت الجغرافية المعاصرة ، فكراً وعلماً وعملاً ، بالرحلة الجغرافية الميدانية فى صورتها الموسعة الهادفة ، فى هذا الميدان العلمى العملى التطبيقى . ولقد أصبح العمل الجغرافى فى الميدان ، والمسح الجغرافى الميدانى ، فى الاقليم التخطيطية الذى يرشد عملية النمو الشامل ، أمانة غالية فى عنق الرحلة الجغرافية ، ومسئولية تقع تبعاتها على الفريق العلمى المتعاون فى هذه الرحلة . كما زجت الجغرافية المعاصرة أيضاً ، بالخبرة الجغرافية التى أنجزت المسح الجغرافى الميدانى والتوصيات الملحقة به ، فى فريق العمل المشترك الذى يتولى وضع وصياغة الخطة الانمائية ، فى الاقليم التخطيطى المعنى .

والاعتقاد الصحيح أن هذا التوجه فى شأن توظيف الرحلة الجغرافية الميدانية ، قد أيد ورسخ تحول علم الجغرافية المعاصرة ، من علم عملى فى اطار النظرية الجامدة البحتة ، إلى علم عملى فى اطار العملية المرنة التطبيقية . والاعتقاد الصحيح أيضاً أن علم الجغرافية المعاصرة ، الذى أصبح علماً عملياً تطبيقياً فى الاطار الأكاديمى أو

---

(١) تخرج الرحلة الجغرافية إلى الميدان ، وفى نية الجغرافى أن يسأل الأرض عن خصائصها وأن يعجم عود التحديات التى تعلنها ضد إرادة الحياة ، وأن نتبين كيف طوعها الانسان ، ولم يطارعها ومدى انتصاره عليها ، وفى نيته أيضاً أو يعجم قدرات الانسان الذى واجه وطوع بها التحديات ، وأن يبين مبلغ استعداده للتغيير . ومن ثم يستطيع أن يعرف بالضبط كيف يرشد المواجهة بين الانسان والأرض ، وكيف ييسر الانتصار الأفضل ، لحساب حركة الحياة الأفضل .

خارجه ، يعرف طريقه جيداً . ولا يكف عن تجويد استخدام خبراته المتجددة ، فى مصلحة العمل التطبيقى ، لحساب الانسان وتطلعاته إلى ما هو أفضل .

وبعد ، هل لنا أن نسجل مبلغ التوازى والتزامن ، فى علاقة صعبة ومغامرة وثيقة لم تنفصم أبداً ، بين تطور التفكير الجغرافى وتفتحه فى شأن العمل الجغرافى من ناحية ، وتطور وظيفة الرحلة الميدانية ، وهى غير جغرافية أو وهى جغرافية متخصصة فى خدمة العمل الجغرافى من ناحية أخرى ؟

ومن غير افراط أو تفريط ، وفى تصوير هذه العلاقة بين تطلعات التفكير الجغرافى ، واستجابة الرحلة لهذه التطلعات ، على المدى الطويل ، يجب أن ندرك قيمة هذه العلاقة بالفعل ، وأن نستشعر جدواها الحقيقية ، وظيفيًا وموضوعياً . كما لا ينبغى أن ننكر أو نتنكر لفضل الرحلة ، فى شأن تحريك مسيرة التفكير الجغرافى ، وانفتاحها على الواقع الجغرافى وتفتحها فى رؤيته والتمعن فيه .

وليس من قبيل الافراط ، الذى يبلغ حد المبالغة والتهويل ، فى جدوى هذه العلاقة ، وليس من قبيل التفريط ، الذى يبلغ حد الاستهانة بها ، أن نؤكد – بكل الصدق والوضوح – على فاعلية وقيمة هذه العلاقة . وعندئذ نتبين كيف كانت الرحلة ، وهى غير جغرافية فى مراحل طويلة ، أو وهى جغرافية متخصصة فى مراحل أخرى ، عين الجغرافية والعمل الجغرافى المبصرة . والجغرافية المعاصرة علماً وفكراً وعملاً ، من غير هذه العين المبصرة ، تكون فى ضلال مبين ، وتعمل فى ظلام دامس .



ملحق رقم (ا)

بيان بالفريق المتعاون فى الرحلة الجغرافية الميدانية

من شأن الرحلة الجغرافية الميدانية ، سواء خرجت بتكليف من الجامعة فى خدمة الغرض الأكاديمى ، أو فى خدمة الغرض الأكاديمى التطبيقى ، أو خرجت بتكليف من الجمعية الجغرافية الوطنية فى خدمة الغرض العلمى التطبيقى ، أن تجد التمويل اللازم لأداء المهمة المنوطة بها . ولأن العصر الذى أعطى التمويل الممول حق فرض ارادته على الرحلة قد ولى ، فإن الرحلة الجغرافية الميدانية لا تلتزم إلا بالأداء الجغرافى الميدانى الأنسب ، الذى يخدم الهدف الجغرافى الصحيح ، ويعرف كيف يوظفه فى العمل التطبيقى لحساب حركة الحياة .

وتضم الرحلة فى العادة فريقًا كبيرًا من المتخصصين . وقلمًا يضم هذا الفريق بعض الهواة . ونذكر من بين هؤلاء المتخصصين الجغرافى المتخصص فى الجغرافية الطبيعية ، أو الجغرافى المتخصص فى الجغرافية البشرية . كما ذكر ايضًا لفيف أخر من المتخصصين العلمين فى العلوم الطبيعية ، مثل الچيولوچى ، وعالم النبات ، وعالم التربة ، والزراعة ، والحيوان ، والهندسة ، ومن المتخصصين العلمين فى العلوم الانسانية ، مثل عالم الآثار ، وعالم الاجتماع ، وعالم الاقتصاد ، وعالم الديموجرافى .

كما تصطحب الرحلة الجغرافية الميدانية معها لفيفاً من المساعدين الفنيين ، وأصحاب الخبرة فى تشغيل وصيانة الأجهزة ، أو فى اجراء التجارب العملية الميدانية . ونذكر من هذا اللفيف ، المصور ، والرسام ، المساح ، والخبير الفنى فى العلوم الطبيعية ، وفى العلوم الانسانية . ويد المتخصصين فى الفريق حرة أو مطلقة فى شأن اختيار المرافقين ، الذين فى وسعهم أداء العمل الميدانى ، أو فى اجراء التجربة العملية الميدانية . وقد يصطحب بعض المتخصصين بعض طلابهم من الدراسات العليا طلباً لشكل مناسب من المنفعة المتبادلة .

وهناك بعد ذلك كله ، جمع من العمال الذين تصطحبهم الرحلة

الجغرافية الميدانية فى ركابها . وهم جميعاً مكلفون بخدمات متنوعة ، لحساب الرحلة والعمل الجغرافى الميدانى ، أو لحساب الاقامة فى المعسكر ، الذى يضم الفريق العامل فى الميدان . ونذكر من هؤلاء العمال السائق ، والمرشد ، أو الدليل ، الذى ينقل أو يبصر تنقلات لأفراد فى أنحاء الميدان(١) . كما نذكر أيضًا الطاهى ، والخفير ، والكاتب والمعاون الادارى، وهم الذين يتولون أمر المعيشة فى المعسكر .

هذا ، وينبغى أن تبقى القيادة دائمًا للخبرة الجغرافية ، التى نتحمل تبعات ومسئوليات توجيه العمل الجغرافى الميدانى إلى الهدف الجغرافى التطبيقى . وأداء هذا الدور القيادى الوظيفى ، لا يعنى أكثر من أن الخبرة الجغرافية ، لا يجب أن تترك لانجاز العمل الميدانى الجغرافى التطبيقى الحبل على الغارب . وكيف يتأتى ذلك ، وهى مسئولة عن نتائج الدراسة البحثية فى نهاية المطاف ؟ .

---

(١) تدعو الحاجة أحياناً للاستعانة بالطيار لاستخدام الطائرة العمودية (هليكوبتر) فى معاينة الاقليم من ارتفاعات طلبًا لرؤية كلية شاملة ، أو فى التقاط الصور الجوية ، التى تيسر أمر الدراسة الميدانية ، وتقصى الحقائق الجغرافية .

ملحق رقم (٣)

بيان بتجهيزات الرحلة الجغرافية الميدانية

من شأن الفريق المتعاون عندما يخرج فى الرحلة الجغرافية الميدانية أن يختار موقعًا للاقامة فيه لبعض الوقت ، حتى ينتهى العمل الجغرافى الميدانى . وهذا معناه أن تكون الاقامة فى الموقع الأنسب ، لحساب العمل الميدانى أكثر من أى شئ آخر . وتفضل معظم الرحلات الجغرافية الميدانية أن تكون الاقامة فى معسكر خاص امعانًا فى التفرغ لأداء العمل الميدانى ، وانجاز المهمة المنوطة بالفريق .

ومن الطبيعى أن يصطحب فريق العمل الميدانى معه الأدوات والمعدات والتجهيزات اللازمة للمعسكر والعمل الميدانى . وتكون هذه التجهيزات على النحو التالى :

أولاً : أدوات معيشة فى المعسكر :

١- خيام اقامة مؤقتة بواقع خيمة واحدة لكل أربعة أفراد .

٢- خيمة مكتب واجتماعات وجلسات عمل .

٣- خيمة خدمات خاصة وحمام .

٤- خيمة مطبخ وأخرى لتقديم وجبات الطعام .

٥- سراير بعدد أفراد الفريق .

٦- عدد مناسب من المقاعد والمناضد والمكاتب وفرش أرضية .

٧- أدوات مطبخ ومائدة .

٨- أدوات اسعاف ورعاية طبية واطفاء حريق وأنوار اضاءة وموتور مولد كهربائى .

٩- جهاز استقبال (راديو - تليفزيون) .

١٠- جهاز ارسال واتصالات لاسلكية .

١١- سيارات بعدد مناسب صغيرة فتيس غرز .

١٢- سيارة ركوب صالون .

١٣- سيارة نقل .

١٤- طائرة عمودية (فى أحوال خاصة) .

ثانيًا : أدوات عمل فى الميدان :

١- تيودوليت مناسب .

٢- ميزان .

٣- بلانشيطة وحامل .

٤- بوصلة منشورية .

٥- بوصلات عادية للأفراد .

٦- اليداد .

٧- مساطر رسم عادية .

٨- ميزان ابنى .

٩- شواخص وشوك وأشرطة قياس أطوال متفاوتة .

١٠- شاكوش عينات .

١١- جاروف وفأس .

١٢- أكياس جمع عينات .

١٣- أحماض تحليل سريع .

١٤- وحدة تحاليل تربة .

١٥- قامات .

١٦- آلة كاتبة .

١٧- كاميرا عادية .

١٨- كاميرا سينما .

١٩- كاميرا تصوير جوى .

٢٠- منظار مكبر .

٢١- ميكروفون .

٢٢- لفات من الحبال (سمك متنوع) .

ثالثا : أدوات رسم خرائط :

١- ورق كلك ، وورق رسم فبريانو ، وورق مربعات .

٢- مساطر تهشير .

٣- مساطر منحنيات ومثلثات .

٤- أقلام رصاص درجات متباينة .

٥- أقلام تحبير .

٦- ستونج رسم كبير .

٧- أقلام ألوان (رصاص - فلوماستر) .

٨- لوحات كبيرة للرسم .

٩- دبابيس تثبيت .

١٠- أدوات أخرى معاونة .

رابعًا : خرائط وصور جوية ورسوم :

١- خرائط تفصيلية (طبوغرافية - تضاريسية - مناخية - حيوية - سكانية - اقتصادية) .

٢- صور جوية (لوحات تغطى المساحة المعينة) .

٣- رسوم بيانية وقطاعات .

٤- خرائط صماء بمقياس رسم مناسب لتفريغ المعلومات .

ملحق رقم (٣)

ما هو الميدان ؟ وما هى أنماط العمل الميدانى ؟

صحيح أن الباحث الجغرافى يطلب المادة العلمية الخام من الميدان ، ويواجه المتاعب فى بلوغ هذه الغاية . وصحيح أنه قد يستخدم بعض المادة العلمية ، التى جمعت لأغراض أخرى غير جغرافية . ولكن الصحيح بعد ذلك كله ، هو أنه لا يستطيع الاعتماد فقط على الدراسة الميدانية وحدها ، إلا إذا كان البحث فى اطار ضيق محدود على صعيد مساحة معينة .

وفى اعتقاد معظم الباحثين ، أنه لا تثريب على باحث جغرافى يعتمد على مادة علمية لم تجمع أوصالها ، أو لم تعرض عرضًا متخصصًا ، لحساب الهدف الجغرافى البحت ، أو مادة علمية خام ، يتولى بنفسه مع رفقاء الفريق المتعاون على جمعها وتبويبها ، لحساب الهدف الجغرافى الذى يتصدى له . بل ربما يتفق معظم الباحثين على جدوى هذا التوجه الحميد ، لأنه يعنى :

١- أن يبدأ الباحث فى بحثه من حيث انتهت الأبحاث السابقة ، حتى يبدو ، وكأنه يضيف اضافة حقيقية ويطور الدراسة فى موضوع معين .

٢- أن يمارس الباحث تجربة استخدام نتائج أبحاث أخرى موثوق بها ، حتى يبدى القدرة على تطويرها وتطويعها فى صياغة نسيج بحثه.

٣- أن يبرهن الباحث على مهارة وحنكة فى حسن توظيف البيانات ، فى تجسيد الفكرة الجغرافية التى يعالجها البحث ، أو الموضوع الجغرافى محل اهتمام البحث .

وهذا التصور لا يمثل تبريراً ، ندافع به على أسلوب العمل لدى انجاز البحث . وتوجه الباحث إلى الجمع ، بين مصادر ومراجع الدراسة المكتبية ، وجمع المادة العلمية من المراجع ، وحتى ولو لم تكن قد وظفت فى العمل الجغرافى المتخصص ، وحصاد الدراسة الميدانية وجمع المادة

العلمية الخام من الميدان تبدو مهمة . بل قل هو اعتراف بالواقع ، الذى يمكن أن يبنى عليه مدى التباين ، بين مستويات وتوجهات وتوظيف العمل الجغرافى الميدانى ، لحساب البحث الجغرافى .

ومن شأن العمل الميدانى الجغرافى أن يتجه فى ثلاثة اتجاهات ، لكى يؤدى المهمة المنوطة به ، أو يجمع ثمرة الاجتهاد الجغرافى ، وهو ينهض بهذا العمل فى الميدان . ومع كل توجه من هذه التوجهات الثلاثة، ينبغى أن نفطن إلى التباين ، بين ما نعنيه بالميدان . بمعنى أن التوجه نحو الهدف الجغرافى إلى الميدان ، هو الذى يحدد بالضبط مواصفات وطبيعة هذا الميدان . وبمعنى أن الميدان ، هو تلك المساحة المعنية ، التى يتولى فيها الباحث الجغرافى العمل الميدانى بكل أساليبه وتوجهاته ، فى شأن دراسة موضوعية جغرافية معينة .

وهكذا ينبغى أن تتفاوت فكرتنا عن الميدان ، وعن العمل الجغرافى الميدانى الأنسب ، فى كل ميدان من الميادين الثلاثة ، التى تشهد نشاط الباحث الجغرافى ، وتشهد خروج الرحلة الجغرافية الميدانية إليه . وتتمثل هذه الميادين الثلاثة ، فى :

١- الميدان الذى يطلب العمل الميدانى الجغرافى فيه انجازاً أصيلاً . بمعنى أن يتفرغ الباحث الجغرافى تفرغًا حقيقيًا ، وبكل الوسائل والامكانيات ، على جمع المادة الخام من الميدان . وما من شك فى أن هذا التوجه الحميد ، يكفل الثقة فى شأن تقصى الحقائق ، ويكفل التقاط البيانات والمعلومات من مصادرها الجغرافية الأصلية ، بالشكل الذى يناسب استشعار الحس الجغرافى الذكى بجدواها ، أو تذوقه لمعناها ، ومغزاها ، والكيفية ، التى ينتفع بها فى بحثه .

٢- الميدان الذى يطلب العمل الميدانى فيه دراسة عينة جغرافية معنية . بمعنى أن يتعقب الباحث الجغرافى تعقبًا مثابراً ، وبكل الوسائل والامكانيات العينة الجغرافية المعنية ، فى الميدان الفضفاض . وما من شك فى أن هذا التوجه يكفل الثقة فى تقصى بعض الحقائق الجغرافية ، عن العينة المعنية . ولكن قل أنه لا يغطى عندئذ كل

الحقائق ، ولا يغطى النمط المتكرر تغطية شاملة . وما من شك أن الجغرافى لا يملك أن يظل يهيم على وجهه طوال الوقت ، لكى يتلمس هذا النمط المتكرر ، ومدى التنوع فى اطار هذا التكرار . وعندئذ لا يملك إلا أن يجمع بعض الحقائق فقط ، وأن تكون دراسته الميدانية دراسة محدودة القيمة ، لأنها لا تسعف البحث الجغرافى . بل قل تدعوه بكل الالحاح إلى استخدام المادة العلمية ، التى يحصل عليها من الكتابات الجغرافية ، أو غير الجغرافية التى وردت فى شأن موضوع البحث .

٣- الميدان الذى يطلب من العمل الميدانى فيه استكمال أو ملء بعض الثغرات ، فى شأن بعض الموضوعات ، التى لم يتم الجغرافى المتخصص ، أو غير الجغرافى بعض جوانبها ، أو بعض الحقائق الجغرافية . بمعنى أن الدراسة الميدانية لا تذهب إلى أبعد من تغطية بعض القصور أو النقص . ولا يكون الهدف الجغرافى عندئذ متحرراً فى العمل ، أو فى الممارسة على مستوى الميدان . بل هو هدف جغرافى غير متحرر ، لأنه يلتزم باتمام عمل معين لم يبدأه بنفسه . ولا تثريب على الجغرافى فى مثل هذه الحالة ، لأنه يجدد حيوية البحث ، ويستكمل له أبعاداً تزداد به جدواه . ومع ذلك فهو لا يملك حرية التحرك فى الميدان ، ولا تحديد أبعاده ، ولا تحرير رؤيته الجغرافية فى أنحائه .

وتأسيساً على ما ندركه من تفاوت ، بين هذه التوجهات ، يجب أن نذكر أن الدراسة الجغرافية الميدانية الحقيقية ، هى الدراسة التى تكون فى الميدان الذى :

١- يحدد الباحث أبعاده ، ويعرف كيف تغطيه الرحلة الجغرافية الميدانية ، تغطية شاملة ومتأنية ، لحساب الهدف الجغرافى .

٢- يحدد الباحث هدف البحث فى المساحة المعنية ، التى يغطيها العمل الجغرافى الميدانى ، لحساب جمع المادة العلمية الخام .

٣- يحدد الباحث فيه مدى أصالة المادة العلمية والعملية ، التى يجمعها من الدراسة الجغرافية الميدانية ، لكى ينجز البحث الجغرافى الأصيل .

وهذا معناه أن الميدان الحقيقى هو المساحة المعنية ، التى تغطى اقليم صغير محدد بكل الوضوح . ومن ثم يستطيع الجغرافى أن يتوجه إليه ، وأن يطوف فيه ، وأن ينكب على الدراسة ، التى لا تخذل ما يطلبه، أو يسعى إليه الهدف الجغرافى . وصحيح أنه كما أفلح الباحث الجغرافى فى جمع المادة العلمية الخام ، وأنجز العمل الميدانى الجغرافى فى هذا الميدان ، كان البحث الجغرافى أكثر أصالة . ولكن الصحيح أيضاً أنه لا ينبغى أن يتمادى الباحث الجغرافى ، إلى حد استدبار ورفض المادة العلمية ، التى أسفر عنها عمل وانجاز الآخرين ، سجلوه فى أبحاث أو مراجع ، الذين سبقوه فى هذا المجال .

ومعناه أيضًا أنه ينبغى أن ندرك مدى العلاقة بين الميدان وتحديده من ناحية ، والهدف الجغرافى الواضح الذى يدعو الباحث لتوجه الرحلة الجغرافية الميدانية إليه من ناحية أخرى . وصحيح أن الهدف الجغرافى يتفاوت تفاوتاً كبيراً ، من ميدان إلى ميدان أخر . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا التفاوت الذى ينصب أساسًا على أسلوب العمل الجغرافى الميدانى ، وما يطلبه الهدف الجغرافى ، والكيفية التى يتحقق بها هذا الهدف ، ونجاح الباحث الجغرافى فى أداء المهمة المنوطة به الميدان ، يجسد مدى تفتح الخبرة الجغرافية ، فى شأن التعامل والتوجه والانتفاع بالدراسة الميدانية، فى كل ميدان من الميادين المتنوعة .

والمهم هو ألا يترك الباحث الجغرافى فرصة العمل الجغرافى الميدانى الأنسب، تفلت من بين يديه . بل لا ينبغى أن يفرط فى أداء كل عمل جغرافى ميدانى ، يعلم أنه سبيل من سبل جمع المادة العلمية الخام ، أو التيقن من صدق بعض الحقائق العلمية الجغرافية . وإذا كان تأصيل البحث الميدانى ، واجراء العمل الجغرافى الميدانى ، قد دعا الخبرة الجغرافية ، إلى طلب اشتراك المتخصصين العلمين فى تخصصات متنوعة ، وإلى قبول ما ينجزه اجتهادهم من نتائج ينتفع بها الجغرافى ، فى صلب بحثه الجغرافى وتسجيل اضافته الجيدة ، فهل هناك ما يمنع الخبرة الجغرافية من الاعتماد على نتائج علمية ودراسة ومادة ،

جمعت لغرض أخر فى مراجع غير جغرافية ، حتى ولو كان الغرض غير جغرافى ؟ .

وصحيح أن انفتاح الخبرة الجغرافية كان انفتاحاً فضفاضاً كفل استقدام واصطحاب الخبرات غير الجغرافية فى الرحلة الجغرافية الميدانية ، والاعتماد عليها فى تأصيل العمل الجغرافى الميدانى . ولكن الصحيح أيضًا أن الخبرة الجغرافة لا ينبغى أن تترك لأداء هذا العمل الجغرافى الميدانى الحبل على الغارب ، وتحرره من العمل الموجه ، بكل المهارة إلى خدمة الهدف الجغرافى . ومن الجائز أن تنطوى خطة العمل الميدانى على الضوابط ، التى تقوى قبضة الخبرة الجغرافية على زمام العمل الجغرافى الميدانى ، لكيلا ينحرف ، أو يضل عن بلوغ الغاية ، التى يطلبها الهدف الجغرافى . ومع ذلك تبقى للخبرة الجغرافية المهارة والحنكة ، لكى تعرف جيداً ، كيف يطوع الباحث العمل الجغرافى الميدانى للهدف الجغرافى ، أو كيف يستخلص النتائج من كل علم ميدانى لحساب الهدف الجغرافى ، فى المكان والزمان .

هذا وليس أخطر على البحث الجغرافى ، الذى يتلمس أصالته من الدراسة الميداينة ، من انغلاق الخبرة الجغرافية ، والتخوف من الانفتاح والاعتماد على أداء بعض المتخصصين العلمين ، وانجازاتهم فى الميدان. ولا ينبغى أن يتمادى الجغرافى فى هذا الانغلاق ، إلى حد يحمله تبعات عمل ، ليس من صميم العمل الجغرافى . والأفضل أن ينفتح ويتفتح ، وأن يتعلم كيف يوظف المتخصصين غير الجغرافيين ، ويوظف أعمالهم وابحاثهم كأدوات مساعدة ، تسعفه وتخدم تطلعات ، وأغراض الهدف الجغرافى .

***

المصادر المراجع

أولاً : المراجع العربية :

١- **التونسى** : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان - تحقيق (د/ خليل عساكر - د/ مصطفى مسعد) - القاهرة سنة ١٩٦٠ .

٢- **الجمل ، شوقى** : تاريخ كشف أفريقية واستعمارها - القاهرة سنة ١٩٧١ .

٣- **الجوهرى ، يسرى** : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية - القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٤- **الشامى ، صلاح الدين** :

(أ) التوجيه البحرى للسودان أثره فى طرق التجارة والمواصلات (رسالة دكتوراه غير منشورة) القاهرة يناير ١٩٥٧ .

(ب) المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

(ج) النقل فى أفريقية أثر الاستعمار فى تخطيطه وتشغيله - القاهرة سنة ١٩٦١ .

(د) أستراليا علاقة النقل بالتعمير والاستغلال الاقتصادى - القاهرة سنة ١٩٦٤ .

(هـ) دراسات فى النيل - القاهرة سنة ١٩٦٧ .

(و) دراسات فى الجغرافية السياسية ط٢ - الإسكندرية سنة ١٩٧٣ .

(ز) الجغرافية دعامة التخطيط ط٢ - الإسكندرية سنة ١٩٧٦ .

(ح) النقل - دراسة جغرافية - الإسكندرية ١٩٧٧ .

(ط) الإسلام والفكر الجغرافى العربى - الإسكندرية سنة ١٩٧٩.

(ى) الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة - الإسكندرية سنة ١٩٨٠.

(ك) الرحلة البحرية العربية ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية (غير منشور) – صنعاء سنة ١٩٨١ .

(ل) الواقع الاقتصادى العربى قبل الإسلام ، رؤية جغرافية عصرية – الإسكندرية سنة ١٩٨٣ .

٥- **الشرنوبى** : محمد عبد الرحمن : الجغرافية بين العلم التطبيقى والوظيفة الاجتماعية – الكويت سنة ١٩٨١ .

٦- **الصقار، فؤاد** : جغرافية التجارة الدولية – الإسكندرية سنة ١٩٧٣.

٧- **الفيل، محمد رشيد** :

(أ) العلاقات التجارية بين العراق والصين فى العصور الوسطى – بغداد سنة ١٩٧٥ .

(ب) أثر التجارة والرحلة فى تطور المعرفة الجغراقية عند العرب – الكويت سنة ١٩٧٩ .

٨- **تيلور، جريفيت** : الجغرافية فى القرن العشرين (ترجمة د/ محمد السيد غلاب – محمد مرسى أبو الليل) – القاهرة سنة ١٩٧٤ .

(أ) بنتام ، د.ف : الجغرافية علم عملى جـ٢ .

(ب) تاتهام ، ج : الجغرافية فى القرن التاسع عشرجـ ١.

(جـ) تشريش ، هـ : المدرسة الجغرافية الفرنسية جـ ١ .

(د) رايت ، ج . ك : مجال الجمعية الجغرافية جـ٢ .

٩- **حسن، حسنى محمود** : أدب الرحلة عند العرب (المكتبة الثقافية) – القاهرة سنة ١٩٧٦ .

١٠- **خصباك، شاكر** : الجغرافية العربية – بغداد سنة ١٩٧٥ .

١١- **خطاب، عادل عبد الله** : الدراسات الميدانية فى الجغرافية – (دراسة فى الأهداف والأساليب) مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، بغداد سنة ١٩٨٠ .

١٢- **رزقانة، إبراهيم** : العائلة البشرية – القاهرة سنة ١٩٥٠ .

١٣- **روجر، منشل** : تطور الجغرافية الحديثة (ترجمة د/ محمد السيد

غلاب – د/ دولت صادق) القاهرة سنة ١٩٧٣ .

١٤– **رياض ، زاهر** : الاستعمار الأوروبى فى أفريقية – القاهرة سنة ١٩٦٠ .

١٥– **رياض ، محمد وعبد الرسول ، كوثر** : أفريقية – بيروت سنة ١٩٦٦ .

١٦– **سليمان ، التاجر** : سلسلة التواريخ جـ ١ – باريس سنة ١٨١١ .

١٧– **السيرافى ، أبو زيد** : سلسلة التواريخ – ج٢ – باريس سنة ١٨١١ .

١٨– **شريف ، شريف محمد** : تطور الفكر الجغرافى – القاهرة سنة ١٩٦٩ .

١٩– **صفى الدين ، محمد** : أفريقية بين الدول الأوروبية – القاهرة سنة ١٩٥٩ .

٢٠– **عبد العليم ، أنور** : الملاحة وعلوم البحار عند العرب – الكويت سنة ١٩٧٩ .

٢١– **عبد الحكيم ، محمد صبحى والليثى ، ماهر** : علم الخرائط – القاهرة سنة ١٩٦٩ .

٢٢– **عصفور ، محمود عبد اللطيف ، وبدوى ، السعيد** : الدراسة الميدانية – القاهرة ١٩٧٦ .

٢٣– **علوى ، س . م . ض** : الجغرافية العربية فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى (ترجمة د/ عبد الله الغنيم – د/ طه جاد) – الكويت سنة ١٩٨٠ .

٢٤– **غلاب ، محمد السيد** :

(أ) تطور الجنس البشرى – الإسكندرية سنة ١٩٨٠ .

(ب) الأرض والتطور البشرى (جزآن) الألف كتاب – القاهرة سنة ١٩٥٦ .

٢٥– **فرجريف ، ج** : الجغرافية والسيادة العالمية (ترجمة الأنصارى) الألف كتاب – القاهرة سنة ١٩٥٦ .

٢٦– **لوبون ، ج** : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) ط ٣ –

القاهرة سنة ١٩٥٦ .
٢٧- **كوبر، أ.د** : جغرافية النقل البحري (ترجمة محمود ربيع الملط) - الإسكندرية سنة ١٩٧٥ .
٢٨- **مقار، نسيم** : البكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل- القاهرة سنة ١٩٦٠ .
٢٩- **محمد ، محمد عوض** : سكان هذا الكوكب - القاهرة سنة ١٩٣٣ .
٣٠- **نفيس أحمد** : جهود المسلمين فى الجغرافية كلكتا (١٩٤٧) ترجمة (د/ فتحى عثمان) - بدون تاريخ .
٣١- **وهيبة ، عبد الفتاح** : الجغرافى والدراسة الميدانية (مجلة الجمعية المصرية - السنة الأولى العدد الأول) .

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

1- **Alen, Jones, P. :** Fieldwork in geography, London, 1969 .
2- **Breastedm J. Daltin, T.H. :** Fieldwork in geography, London , 1911 .
3- **Archer, J. & Dalton, T.H. :** Fieldwork in geography, London , 1970 .
4- **Barker, J.N.L.:** History of geographical discovery, London , 1948 .
5- **Budden , L.M. :** Holiday geography, London, 1950 .
6- **Beazley, R.** The dawn of modern geography, London, 1897 .
7- **Bettex, O. :** The discovery of the world , London , 1960.
8- **Bunbury, E.M.:** A history of ancient geography , London, 1883 .
9- **Cary, M & Wornington, EH.:** The ancient Explorers. (Pelican Book) London, 1929 .
10- **Debanham, F. :** The use of geography, London , 1950.

11- **Hawkes & Wolley :** Pre-history and the begining of civilization, London , 1963 .

12- **Hutchings, G.E.:** Geographical field teaching geography , London, 1962 .

13- **Huzzain, S.A.S.:** Arabia and Far East, Cairo , 1942.

14- **Freeman, T.W.:** Geography and planning, Hul, 1958.

15- **Kammerer, A.:** Assai sur l'histoire antique d'abyssinie.Paris ,1962 .

16- **Keith, Sir Arthur:** A new theory of human discovery , London , 1948 .

17- **MacCrindle:** The commerce and navigation of the Ertythrean sea .

18- **Maspero, G. :** The dawn of civilization ,London , 1926.

: The struggle of nations ,London , 1926.

19- **Sharaf, A.T. :** A short history of geographical discovery, Cairo, 1963 .

20- **Sykes , Sir Prey:** A History of Explorations, London , 1949 .

21- **Tozer, H.F.:** A history of ancient geography, Cambridge , 1897.

22- **Warmington, E.H.:** The commerce between the Roman Empire and India, Cambridge, 1926.

23- **Wooldridge,S.W. & East, W.G.:** The spirit of geography, London , 1951 .

فهـــرس